إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

سلمان العودة

الجزء الثالث

من «سورة الجن» إلى «سورة البروج»

سورة الجنِّ

*** تسمية السورة:**

تُسمَّى: «**سورة الجنِّ**»، كما في المصاحف، وكتب التفسير، والحديث[1].

وتُسمَّى أيضًا: «**سورة ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا﴾**»، أو: «**سورة ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾**»، كما في «صحيح البخاري»، وبعض التفاسير[2].

*** عدد آياتها:** ثمان وعشرون آية، باتفاق علماء العدِّ[3].

*** وهي مكية** بإجماع أهل العلم[4]، والظاهر: أنها نزلت جملة واحدة، وليست مجزَّأة، كما يدل على ذلك سياقها.

*** سبب نزولها:** عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «انطلقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدينَ إلى سوق عُكاظٍ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشُّهبُ، فرجعت الشياطينُ، فقالوا: ما لكم؟

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 455)، و«جامع الترمذي» (5/ 426)، و«تفسير الطبري» (23/ 310)، و«المستدرك» (2/ 503)، و«تفسير الرازي» (30/ 661)، و«تفسير القرطبي» (19/ 1)، و«فتح القدير» (5/ 363)، و«التحرير والتنوير» (29/ 216).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص677)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 351)، و«صحيح البخاري» (6/ 160)، و«تفسير القرطبي» (19/ 73)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 347).

(3) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص256)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص317)، و«روح المعاني» (15/ 91)، و«التحرير والتنوير» (29/ 217).

(4) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 378)، و«زاد المسير» (4/ 346)، و«تفسير القرطبي» (19/ 1)، و«التحرير والتنوير» (29/ 216).

فقالوا: حِيلَ بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشُّهبُ. قال: ما حالَ بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدثَ، فاضربوا مشارقَ الأرض ومغاربَها، فانظروا ما هذا الأمرُ الذي حدثَ؟ فانطلقوا فضربوا مشارقَ الأرض ومغاربَها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلقَ الذين توجَّهوا نحو تِهامةَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنَخْلَةَ[1]، وهو عامدٌ إلى سوق عُكاظٍ، وهو يصلِّي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلما سمعوا القرآنَ تسمَّعوا له، فقالوا: هذا الذي حالَ بينكم وبين خبر السماء. فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا ﴿أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾. وأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ ﴾»[2].

وذكر ابن إسحاق أن نزول هذه السورة كان بعد ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يطلب النصرة من ثَقِيف، أي: في سنة عشر بعد البعثة، وقبل هجرته بثلاث سنين[3]. وقد عُدَّت السورة الأربعين في نزول السور، نزلت بعد «سورة الأعراف»، وقبل «سورة يس»[4].

وقد رُوي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم علم بوجود الجنِّ، فذهب إليهم، وكان معه ابن مسعود رضي الله عنه[5].

---

(1) موضع بين مكة والطائف.

(2) أخرجه البخاري (773، 4921)، ومسلم (449). وينظر: «تفسير الطبري» (23/ 310).

(3) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (1/ 421- 422).

(4) ينظر: «فضائل القرآن» لابن الضريس (ص33)، و«البرهان في علوم القرآن» (1/ 193)، و«التحرير والتنوير» (29/ 217).

(5) أخرجه أحمد (3810)، وأبو داود (84)، والترمذي (88)، وابن ماجه (384)، وغيرهم.

ومن أهل العلم مَن يقول: إن القصة تكررت؛ فمرة لم يعلم النبي صلى الله عليه وسلم، ومرة أخرى عَلِم، وقد جاء في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [الأحقاف: 29]، فهؤلاء نفر غير أولئك.

والأقرب أن القصة واحدة، فكلهم نفرٌ من الجنِّ، وكلهم استمعوا، وكلهم تعجَّبوا مما استمعوه، ولكن في كل موضع حُكِيَ طرفٌ من القصة، كشأن القرآن في تكرار قصص الأنبياء ونحوها، والله أعلم[1].

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٥١﴾:

استفتح السورة بقوله: ﴿۝٦﴾ أي: أخبر الناسَ[2]، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ينقل النص للناس كما هو، فيُمليه عليهم ويكتبونه، وكلمة: ﴿۝٦﴾ هي من الوحي، وهي المقدِّمة التي نزل بها جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم، فحفظها وقالها، وأملاها على أصحابه، كما في: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾، و﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ

وله طرق أخرى لا يصح منها شيء، كما قال الدارقطني، والبيهقي، وغيرهما، وقد ضعَّفه بجميع طرقه: ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (1/ 355- 356)، وابن حجر في «الدراية» (1/ 63- 67)، ونقل النووي في «المجموع» (1/ 141)، والحافظ في «فتح الباري» (1/ 354) إجماع المحدِّثين على ضعفه.

ومع ضعفه، فهو مخالف لما في «صحيح مسلم» (450) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أنه سُئل: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: لا. وينظر: «مختصر صحيح مسلم» للمنذري (2115)، و«السلسلة الضعيفة» (1038).

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 240)، و«تفسير السمعاني» (6/ 63)، و«المحرر الوجيز» (5/ 104)، و«تفسير القرطبي» (19/ 4)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 449)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 503)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1259).

كَلَمۡحِۭ ﴾، و﴿ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴾، و﴿ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾، وهذا من ضمن إتقان المصحف وضبطه؛ بحيث لا يسقط منه حرف ولا يزيد، وهو بيان لمصدر الوحي، وأن جبريل تلقَّاه عن ربِّ العزة، ثم ألقاه إلى محمد صلى الله عليه وسلم[1].

والاستماع عند العرب غير **السَّماع**، **فالاستماع**: تقصُّد السماع وشدَّة الإنصات والاهتمام، فالمستمع قاصد مُقْبِل، وأما **السماع**، فهو بغير قصد ولا طلب[2].

وبينهما فرق حتى في ثبوت الأجر ومشروعية السجود[3]، وعكسه في سماع المحرَّم؛ فلا يثبت الإثم إلا على المستمع، أما السامع دون قصد، فلا إثم عليه[4].

والنَّفَر: ما بين ثلاثة إلى عشرة[5].

وكان سرُّ استماعهم أنهم لاحظوا تغيرًا في الأفلاك والنجوم والشُّهب، فذهبوا في كل وادٍ يبحثون عن الأمر الذي طرأ، حتى جاءت جماعةٌ منهم إلى بطن نخلة، فاستمعوا إلى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن، ثم قالوا: هذا الذي بسببه سُلِّطت علينا الشُّهب، ومنعنا من خبر السماء. وقد كانوا رسلًا من قومهم يبحثون عن السبب، ولكن الله تعالى أراد لهم الخير، فاستمعوا وآمنوا[6].

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الكافرون»: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ ﴾.

(2) ينظر: «معجم الفروق اللغوية» (ص49)، و«تفسير الرازي» (15/ 440)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 145)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 813).

(3) ينظر: «المجموع» (4/ 58)، و«المغني» (1/ 446- 447).

(4) ينظر: «المغني» (10/ 154)، و«الشرح الممتع» (4/ 94).

(5) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص489)، و«تاج العروس» (14/ 267) «ن ف ر».

(6) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 310)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 20)، و«تفسير البغوي» (7/ 266)، و«تفسير القرطبي» (16/ 216)، و«الدر المنثور» (15/ 5).

والجنُّ: مأخوذة من الاجتنان؛ وهو الاستتار، ومنه سُمِّيَ الحَمْل: جنينًا؛ لأنه مستتر في بطن أمه[1].

وهم خلق مستترون، لا تراهم العيون، ولا تسمعهم الآذان، إلا ما شاء الله، وهذا ليس بغريب؛ فإن العين لا ترى إلا في مستوى معين، والأذن لا تسمع إلا ذبذبة معينة، فما كان دون ذلك أو فوقه يصبح غير مرئي ولا مسموع ولا محسوس، والعلم البشري يكتشف اليوم في الكون عوالم واسعة كانت خارج مستوى الإدراك، وقد أثبت القرآن وجودهم وخلقهم، وأنهم مُكلَّفون ومنعَّمون ومعذَّبون.

ونحن نؤمن بما أخبر به سبحانه، ولا نجحد شيئًا من ذلك مهما تقوَّل المتقولون من الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجنِّ، ومعظم الأمم والشعوب من أهل الإسلام.

أما أتباع الديانات المختلفة فإنهم يؤمنون بوجود الجنِّ[2]، وقد يسمونهم: الأشباح، وغالبًا ما تحاط عند عوام الناس بالأساطير، حتى يتصورونهم في صور مرعبة يُخوّف بها، مع أن الجنَّ أضعف من الإنس قدرة وعقولًا، وأقل منهم شأنًا، ومع ذلك فالإنس يخافون من الجنِّ، كما هو واضح من هذه السورة، وكما هو معروف عند الناس.

ويُبالغ كثير من الناس في الحديث عن أثر الجنِّ، وملاحقتهم للإنس، وتأثيرهم فيهم، بما ليس له أصل في كتاب ولا سنة، وإنما هو بسبب ضعف الإيمان، وضعف التوكل على الله تعالى، والإنسان إذا بالغ في الخوف من الجنِّ تسلَّطت عليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ [الجن: 6].

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص21)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص203)، و«مختار الصحاح» (ص62) «ج ن ن».

(2) ينظر: «مجموع الفتاوى» (19/ 10).

وظاهر السياق أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يعلم بهذه الواقعة إلا عن طريق الوحي[1]، فأخبره الله تعالى أنه صرف إليه نفرًا من الجنِّ، وأنهم استمعوا إليه حين أعرض الإنس، وكيف أخذتهم بلاغته وتعجَّبوا من معانيه وآمنوا به لأول وَهْلة، وفي «سورة الرحمن» كانوا إذا سمعوا قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ يقولون: «لا بشيء من آلائك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد». فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «**لقد قرأتُها على الجنِّ، فكانوا أحسنَ مَرْدودًا منكم**»[2].

كثير من المسلمين لا يدركون عظمة القرآن وإعجازه وبلاغته، ولا يُخالط شغاف قلوبهم، ولا يُلامس أرواحهم، في حين أن الجنَّ أول ما سمعوه قالوا: ﴿أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ عجيبًا في بلاغته وإعجازه ومعانيه ودلالاته[3]، والذي سمعوه هو بعض القرآن، وهو ما قرأه النبيُّ صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر، وسماه الله: ﴿مِن﴾؛ لأن القرآن يُطلق على المصحف كله، وعلى الجزء منه، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ٧٨﴾ [الإسراء: 78]، أي: قراءة صلاة الفجر[4].

* ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ٥٣﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 312)، و«زاد المسير» (4/ 113)، و«التحرير والتنوير» (29/ 219)، والمصادر الآتية.

(2) أخرجه الترمذي (3291)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (69)، وأبو الشيخ في «العظمة» (5/ 1666)، والحاكم (2/ 473)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2264) من حديث جابر رضي الله عنه.

وفي إسناده نظر، تقدم بيانه في «سورة الرحمن»: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾.

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 109)، و«المحرر الوجيز» (5/ 379)، و«تفسير القرطبي» (19/ 7)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 293)، و«فتح القدير» (5/ 364).

(4) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص440)، و«تفسير الطبري» (15/ 33)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (6/ 4266)، و«المحرر الوجيز» (3/ 477)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 102).

أي: أنه كتاب هداية ورشاد[1]، وهذا يعني: أن مهمة القرآن ومقاصده هي هداية الناس والأخذ بعقولهم وقلوبهم وحياتهم إلى طريق الهداية والرشاد، وهذا اختصار بديع لمهمة القرآن ورسالته، إنها الهداية والهداية إلى الرشد..

﴿فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾ الفاء للتعقيب، آمنوا بمجرد ما سمعوا سورة من الكتاب العزيز، لنفترض أنها «سورة الرحمن» مثلًا، والذي أخبر عنهم هو الله، وهذا دليل على سلامة فطرتهم وسهولة تقبلهم، ولم يراجعوا الرسول أو يستفهموه عن شيء في هذه الواقعة؛ لأنه لم يعرف أنهم استمعوا إلا من الوحي.

والإيمان معنى زائد على مجرد الإعجاب بالقرآن أو الثناء عليه؛ إنه استسلام وانتقال إلى مقام التعرض لهدايته، والتفويض لحكمه، والتسليم التام لتشاريعه وأخباره.

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾: بعد ما أعلنوا إيمانهم بالله وبالقرآن وبالنبي الذي جاء به، اعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا مشركين، ولما سمعوا القرآن أخذ بعقولهم وقلوبهم إلى الهداية والإيمان والتوحيد، أي: لن نطيع أحدًا في معصية الله، ولن ندعو غير الله، ولن نعبد سواه[2].

وقد يكون مقصودهم: أنهم لن يطيعوا الشيطان في معصية الله؛ لأن الشيطان ﴿۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ ﴾ [الكهف: 50][3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 310)، و«تفسير السمعاني» (6/ 64)، و«تفسير الرازي» (30/ 666)، و«تفسير أبي السعود» (9/ 42)، و«التحرير والتنوير» (29/ 221).

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 64)، و«زاد المسير» (4/ 346)، و«تفسير القرطبي» (19/ 7)، و«فتح القدير» (5/ 364).

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 503)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 281)، و«الكشاف» (4/ 623)، والمصادر السابقة.

ويطول العجب من هذا الفقه الفطري الصائب، الذي أدرك أن القضية العظمى الأساس هي الإيمان ورفض الشرك، وهذا ما خُوطب به الجنُّ والإنس على حدٍّ سواء، فأعلنوه دون مُواربة أو تردد؛ أنهم آمنوا بالله وبالقرآن وما يدعو إليه، وانتقلوا من الشرك إلى التوحيد.. وكم ينقص هذا الفقه أناسًا شابت لحاهم في الإسلام وغالب همومهم وأحاديثهم لا ترقى إلى مستوى حديث الجنِّ هنا!

* ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ ﴾:

قُرئت الهمزة في قوله: ﴿ إِنَّ ﴾ بالوجهين: بالفتح وبالكسر في عشرة مواضع، وكلاهما قراءة سبعية متواترة[1].

و﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: علا، وهي مبالغة في العلو والارتفاع والمجد والعظمة[2].

والجَدّ في اللغة: الحظ والنصيب والبَخْت[3]، فجَدُّ الإنسان هو حظُّه.

وفي الحديث لما قدم النبيُّ صلى الله عليه وسلم قال اليهوديُّ: «يا معاشرَ العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون»[4]. أي: هذا نصيبكم وحظكم من الأنبياء قد وصل.

والمعنى: تعالى الله وتعالى أمره وتعالت عظمته[5].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 101، 192)، و«تفسير الطبري» (23/ 317)، و«معاني القراءات» للأزهري (3/ 96)، و«حجة القراءات» (ص727)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص215)، و«الكنز في القراءات العشر» (2/ 695)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 391)، و«معجم القراءات» (10/ 115- 116).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 623)، و«زاد المسير» (4/ 346)، و«تفسير القرطبي» (19/ 7).

(3) ينظر: «الصحاح» (2/ 452)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص188)، و«لسان العرب» (3/ 107) «ج د د».

(4) أخرجه البخاري (3906).

(5) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 351)، و«تفسير الطبري» (23/ 314)، و«تفسير القرطبي» (19/ 8)، و«الدر المنثور» (15/ 9).

وحكاية القرآن لهذا التعبير يدل على أنها عبارة صحيحة، خلافًا لِمَن توهَّم فيها معنى مكروهًا[1].

وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح: «**سبحانكَ اللهمَّ وبحمدكَ، وتباركَ اسْمُكَ، وتعالى جَدُّكَ**»[2].

وفي الحديث أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقول بعد النهوض من الركوع: «**اللهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعْطي لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ**»[3]. أي: لا ينفع صاحب الغنى والحظ والمكانة والسلطان ذلك منك يا رب، وإنما تنفعه الطاعة والإيمان والتقوى.

﴿وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ فالفرية التي كان يردِّدها المشركون كانت معروفة لديهم، وهذا ليس بغريب؛ لأنهم في الآية الأخرى يقولون: ﴿۝٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ﴾ [الأحقاف: 30]، فعندهم نوع من الاتصال والمعرفة بما يجري، ومنهم مَن هو من أتباع موسى، ومنهم غير ذلك، فمن هنا سارعوا في نفي هذه الفرية، أي: تَنَزَّه الله عما ادَّعاه المشركون وغيرهم من أن لله تعالى صاحبة[4].

وهذا النفي للصاحبة والولد لم يرد فيما يبدو في الآيات التي سمعوها، فلعلهم أدركوه بالفطرة السوية، وعدم وجود الدليل، وتأكد لهم بالآيات التي تثني على الله بأسمائه وصفاته ووحدانيته.

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 8).

(2) تقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ ﴾.

(3) أخرجه مسلم (477) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

(4) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 239).

والصاحبة: تُطلق على الزوجة، كما في قول الله تعالى: ﴿مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾ [المعارج: 12]، وقوله: ﴿□□□﴾ [عبس: 36][1]، وقد كان المشركون يقولون: إن لله صاحبة من الجنِّ، ولدت له الملائكة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤﴾ [مريم: 88-94][2]، فالناس كلهم عبيده، وهم سواسية كأسنان المشط إلا بالتقوى، فليس لله منهم صاحبة ولا ولد.

وهؤلاء الجن لما آمنوا أسرعوا إلى تنـزيه الله سبحانه عما نُسب إليه زورًا، وأثنوا عليه، ونسبوا أنفسهم إليه، فهو ربهم وخالقهم، والفطرة السوية إذا لامسها بصيص من نور الوحي أشرقت، كما قال تعالى: ﴿□□□□□□□□□□﴾ [النور: 35].

والبشر يتخذ الواحد منهم زوجة؛ لأن الناس جُبِلوا على الشهوة، والرجل يحتاج إلى المرأة في الصحبة والطريق، فهي تؤانسه وتساعده وتتحمل معه التبعات، والله تعالى خلق البشر أزواجًا، فقال: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ [النبأ: 8]، وقال: ﴿□□□□□﴾ [الذاريات: 49].

وكذلك الولد فهو كمال للبشر، ويحتاجون إليه، ويعطفون عليه بالفطرة، وهو مُكمِّل لشخصية الأب، وعند ما يكبر يحتاج إليه أكثر، وتوالد الناس بقاء للنوع

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 260)، و«المحرر الوجيز» (5/ 367)، و«زاد المسير» (4/ 337)، و«تفسير القرطبي» (19/ 225)، وما تقدم في «سورة المعارج»، وما سيأتي في «سورة عبس».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (19/ 645)، و«تفسير الماوردي» (5/ 71)، و«تفسير القرطبي» (15/ 134)، و«الدر المنثور» (12/ 484)، و«تفسير السعدي» (ص708).

البشري وفق حكمة الله سبحانه، وبعد الموت يبقى الولد ذكرًا لأبيه إن كان صالحًا أو ناجحًا، والعقيم يبذل جهده في تحصيل الولد، وإذا لم يحصل له اعتبر هذا نقصًا فيه.

أما الله تعالى فهو الحي الذي لا يموت، القوي الذي لا يعجز، فهو مستغنٍ عن الصاحبة والولد، بل هو كما قال عن نفسه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ﴾ أي: الغني الكامل في سؤدده ومجده وعظمته[1]، ﴿أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [الإخلاص: 1- 4]، فلا شريك له ولا مثيل، وهو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر والباطن[2].

* ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾:

شهدوا أن بعض سفهائهم من الجنِّ يفترون على الله، **والسفيه** هنا مفرد، ولكن المقصود الجنس، أي: سفهائهم، وصدر سفهائهم: أبليس[3].

والأمر الشَّطَط هو: البعيد في غلوه وفساده وانحرافه[4]، فيقولون: إن سفهاءنا يقولون على الله تعالى قولًا بالغًا مبلغًا عظيمًا في الضلال؛ إذ نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة أو الولد.

---

(1) وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما. ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 736)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص241- 245)، وما سيأتي في «سورة الإخلاص»: ﴿بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 736)، و«تفسير البغوي» (8/ 588)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 528)، و«الدر المنثور» (15/ 780).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 320)، و«تفسير الماوردي» (6/ 110)، و«المحرر الوجيز» (5/ 380)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 295)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 239)، و«فتح القدير» (5/ 365)، و«التحرير والتنوير» (29/ 223).

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (3/ 504)، و«تفسير الماوردي» (6/ 110)، و«التفسير البسيط» للواحدي (13/ 546)، و«المحرر الوجيز» (5/ 380)، و«تفسير القرطبي» (19/ 9)، و«فتح القدير» (5/ 365)، و«أضواء البيان» (8/ 317).

وهذه شجاعة ملفتة من الجنِّ؛ لأن قومهم ربما يعتبرون تلك الفرية التي تتحدَّث عن نسب- تعالى الله عما يقولون- بين الله وبين الجنِّ فيها رفع لقدر الجنِّ؛ لأنهم يقولون: إن الله تعالى له صاحبة من الجنِّ، فكون هؤلاء يسارعون بعد إثبات الوحدانية بنفي الصاحبة والولد، مع أن إخوانهم من الجنِّ ينزعجون من هذا النفي، ويرون أنهم حرموهم من مجد وسؤدد كانوا يفخرون به، ولكن هؤلاء الجنُّ اعترفوا بهذا الأمر بشجاعة، فضلًا عن شجاعتهم في الحديث عن إيمانهم وتوحيدهم ومخالفة قومهم، وهو من المقامات الصعبة، وغالبًا ما يشعر المخالف لقومه بالغربة والكربة والوحشة، وقد يُؤْثِر الموافقة أو الصمت، أما الحديث الواضح المكشوف كما فعلت الجنُّ هنا، فهو توفيق واصطفاء من الله لبعض خلقه، فوفَّقهم وأعانهم.

* ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ﴾:

أي: كنا نظن ألَّا يتواطأ الإنس والجنُّ في الكذب على الله تعالى، فالكذب عليه أمر عظيم[1].

لقد ساق الله هؤلاء النفر إلى الإيمان؛ لأن فطرتهم سليمة؛ ولذا آمنوا لأول وَهْلة عند سماعهم للقرآن الحق، وقالوا هنا: ما كان يخطر في بالنا أن يتواطأ الإنس والجنُّ على أن يكذبوا في أمر، فكيف أن يكذبوا في أمر يتعلق بالألوهية، وأن يقولوا كذبًا على الله سبحانه؛ ولذلك صدقناهم، وقلنا مثل قولهم، أما الآن فقد بان لنا وجه الصواب.

* ﴿وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 321)، و«تفسير الرازي» (30/ 667)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 417)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 239).

كان العرب في جاهليتهم يخافون الجنَّ، ولا يزال كثير من الناس على ذلك اليوم، وبعض الأمهات يخوِّفن أبناءهن من الجنِّ، وهي تربية خاطئة!

والجنُّ أضعف مما نتصور، وقد فضَّل الله الإنسَ عليهم بأشياء كثيرة؛ فالإنسُ منهم الرسل والأنبياء، وليس من الجنِّ نبيٌّ ولا رسولٌ على القول الصحيح[1]، والإنس لهم تأثير كبير في الحياة وفي الأرض، وبسبب الخوف منهم وقع كثيرون في السحر والشعوذة والكهانة والتنجيم، وينسبون كثيرًا مما يحصل لهم من الأمراض والأحوال النفسية والبدنية إلى الجنِّ، وهذا فيه احتقار للإنسان وقدراته ومكانته، وظلم للجنِّ بنسبة أشياء لهم لم يثبت فعلهم لها بكتاب ولا سنة.

وقد كان الجنُّ يخافون الإنس ويَفْرَقون منهم، فلما رأوا الإنس يخافون ويستعيذون بهم انتبهوا، وقالوا: نُخادعهم ونزيدهم خوفًا وهَلَعًا ورُعبًا، وصاروا يتعرضون للناس في بعض الوديان في السفر والظلام والأماكن المجهولة، وقد يقع منهم ما يزيد الناس خوفًا[2].

﴿تَطْغَوْاْ فِي﴾: **والرَّهَق** هنا: الخوف، وقد يكون المعنى: أن الإنس بهذه الاستعاذة زادوا الجنَّ غرورًا وعُجْبًا، ولا مانع من إرادة المعنيين، فهذه الاستعاذة الباطلة زادت الجنَّ كبرياء وغرورًا، وزادت الإنس خوفًا ورعبًا[3].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 196)، و«تفسير الطبري» (9/ 560)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (4/ 1389)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 293)، و«زاد المسير» (2/ 78)، و«طريق الهجرتين» (ص416)، و«تفسير ابن كثير» (3/ 340)، و«فتح القدير» (2/ 185).

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 239).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 326)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 51)، و«تفسير الماوردي» (6/ 111)، و«تفسير الرازي» (30/ 668)، و«تفسير القرطبي» (19/ 10)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 239)، و«فتح القدير» (5/ 366).

* ﴿٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾:

والسياق لا يزال في حكاية كلام النفر من الجنِّ، **والمعنى**: أن الجنَّ ظنوا كما ظننتم أنتم أيها الإنس: أن الله لن يبعث رسولًا، **ولعل المعنى**: بعد موسى، فهم كانوا يعلمون ببعثته، أو أن منهم مَن لا يؤمن بالوحي جملة[1].

وقد يكون المراد بالبعث: إعادة الخلق ليوم القيامة، فيكون المراد: أنهم كانوا يظنون أنهم لن يُبعثوا[2]، كما قال سبحانه: ﴿□□□□□□ □□□ □□□□□□﴾ [المطففين: 4- 6]، ولفظ البعث أليق وألصق بهذا المعنى، وأكثر استخدامًا في القرآن، والله أعلم.

* ﴿لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ١١ وَٱلْحَبُّ﴾:

﴿١٠﴾ أي: التمسناها[3]، **وقد يكون المقصود**: اللَّمْس باليد[4].

والأقرب أن المعنى: التمسنا، وبينهما فرق[5]، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم للصحابي الذي طلب الزواج من الواهبة نفسها: «**فهل عندك من شيء تُصْدِقها؟**». فقال: ما أجد شيئًا. فقال صلى الله عليه وسلم: «**الْتَمِسْ، ولو خَاتمًا من حَدِيد**»[6]. أي: ابحث ولو عن خاتم من حديد.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 462)، و«تفسير الطبري» (23/ 326)، و«تفسير القرطبي» (19/ 11)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 240)، و«التحرير والتنوير» (29/ 226)، و«التفسير القرآني للقرآن» (15/ 1225).

(2) ينظر: «زاد المسير» (4/ 348)، و«تفسير القرطبي» (19/ 11)، و«فتح القدير» (5/ 366)، و«التحرير والتنوير» (29/ 226).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 327)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (2/ 843)، و«تفسير الرازي» (30/ 668)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 495).

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 249)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1261).

(5) «اللمس» باليد، و«الالتماس»: الطلب. ينظر: «مختار الصحاح» (ص285) «ل م س».

(6) أخرجه البخاري (5135)، ومسلم (1425) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما.

فالمعنى: حاولنا الوصول إلى السماء، أو التقاط ما يجري فيها، فوجدنا أن الوضع بخلاف المعهود، وأن الحفظ للسماء وما فيها أكثر إحكامًا.

والمَلْء في اللغة يُطلق على الكثرة الكاثرة الهائلة[1]، مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم عن المهدي: «**يَمْلأُ الأرضَ قِسْطًا وعَدْلًا، كما مُلِئتْ ظُلْمًا وجَوْرًا**»[2]. وعلى أن السماء مكتظَّة بالملائكة، كما في حديث الأَطِيط: «**إن السماءَ أَطَّت، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربع أصابع، إلا ومَلَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجدًا لله**»[3].

والحَرَس: هم الذين يحيطون بالشيء ويحفظونه، وليس له إفراد في لفظه، ولكنه يُفرد أحيانًا بالنسبة، فيقال: حَرَسي، وقد يكون جمعًا مفرده: حارس[4]، فهم وجدوا السماء محاطة بحرس شديد، من الملائكة يتربصون بهؤلاء الجنِّ.

والشُّهب يُرمى بها مَن يحاول استراق السمع من الجنِّ.

وهذا من الحِكَم في الرمي بالشُّهب، وقد يكون لها حِكَم أخرى لا نعلمها.

* ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤﴾:

---

(1) ينظر: «تاج العروس» (1/ 440)، و«المعجم الوسيط» (2/ 882) «م ل ئ».

(2) أخرجه أحمد (11130، 11313)، وأبو داود (4285)، وأبو يعلى (987)، وابن حبان (6824، 6826)، والحاكم (4/ 465، 557) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود (4282)، وابن حبان (6823، 6825)، والحاكم (4/ 441) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1529).

(3) أخرجه أحمد (21516)، والترمذي (2312)، وابن ماجه (4190)، والحاكم (2/ 510)، وأبو نعيم في «العظمة» (3/ 982) (507)، والبغوي في «تفسيره» (5/ 23) من حديث أبي ذر رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1722).

(4) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص227)، و«لسان العرب» (6/ 48)، و«تاج العروس» (15/ 531) «ح ر س».

أي: قبل ذلك كنا نقعد من السماء مقاعد[1]، وكأنه كان لهم مقاعد معروفة، وكل فريق منهم قد حجز له موضعًا أو مدخلًا إلى السماء.

والقعود هنا قد يكون بمعناه اللُّغوي، فالقاعد هو الجالس.

وقد يكون المقصود: الأماكن التي يكونون عليها[2]، وهذا جار في اللغة، كما قال امرؤ القَيْس[3]:

فقُلْتُ: يَمِينُ الله أَبْرَحُ قَاعِدًا *** ولو قطَّعوا رأسِي لدَيكِ وأوْصَالي

فلا يلزم أن يكون القعود بصورته المعهودة، وإنما المكث في المكان.

وقد تجد أن بعض المخلوقات من الإنس والطير والحيوانات وغيرها يميل إلى شيء، ويتعلق به، ويُغامر من أجله، ويموت في سبيله، فهؤلاء الجنُّ كانت مهماتهم وغاياتهم التي يحاولونها ويتعاونون بها مع الشياطين ومع ضُلَّال بني آدم من السَّحَرة والكهنة والعرَّافين والمنجِّمين، هي التقاط إشارات معينة على الأقدار التي ستقع في المستقبل، والفرح بها وتناقلها، وهم بطبيعتهم ليسوا محلًّا للثقة؛ فيزيدون مع الحقيقة أضعاف أضعافها من المبالغات والأوهام والتخويفات، وينشرونها عند الناس، ومن عادة المتلقِّين أنهم لا يزالون يذكرون الحالة الواحدة التي صدقوا فيها فيما أخبروا، ويسحبون ذيل التجاهل والنسيان وغض الطرف عن وعودهم الكثيرة التي لم تصدق!

﴿تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾ فهذه الشُّهب المترصِّدة يُرمى بها، فتصيب أو تقتل مَن يحاول التنصُّت على الملأ الأعلى[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 327)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 505)، و«تفسير الرازي» (30/ 669)، و«تفسير القرطبي» (19/ 12)، و«فتح القدير» (5/ 366).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 112)، و«الكشاف» (4/ 626)، و«تفسير القرطبي» (19/ 12)، و«التحرير والتنوير» (29/ 228)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «ديون امرئ القيس» (ص125).

والمعنى: حُجبت عنهم السماوات وحُرست، ومنعوا من استراق السمع الذي كانوا يحاولونه، وبذلك بطلت الكهانة، وقد كان الجنُّ يركب بعضهم بعضًا، حتى يصلوا إلى مقربة من الملائكة، فيلتقطوا بعض الكلام، وكلٌّ واحد يُلقيه إلى الذي يليه، حتى يصل إلى الكاهن أو المنجِّم، فيضيف إلى هذه الكلمة مغالطات وأقاويل يُشيعها بين الناس[2].

وأكثر أهل العلم على أن هذه الشُّهب كان يُرمى بها في الجاهلية، وقد ذكرها العرب في أشعارهم، كما ذكر ذلك الزمخشري في «الكشاف»[3]، وغيره، خلافًا لما قاله الجاحظ من أنها لم تكن موجودة في الجاهلية، ولم يكن يُرمى بها[4].

لقد كان يُرمى بها في الجاهلية، وبعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم زادت وكثرت[5]، فشدِّدت الحراسة على السماء، فليس للجنِّ من سبيل.

* ﴿ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 328)، و«المحرر الوجيز» (3/ 354)، و«تفسير القرطبي» (19/ 12)، و«البحر المحيط في التفسير» (6/ 472)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 240)، و«فتح الباري» (8/ 538، 673)، و«عمدة القاري» (19/ 10)، و«فتح القدير» (3/ 154).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4701)، و«المحرر الوجيز» (5/ 381)، و«تفسير القرطبي» (15/ 67)، و«الدر المنثور» (12/ 208)، و«التحرير والتنوير» (14/ 34).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 625- 626)، و«تفسير الرازي» (30/ 585)، و«تفسير القرطبي» (19/ 13)، و«التحرير والتنوير» (29/ 227).

(4) ينظر: «الحيوان» (6/ 457).

(5) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 365)، و«تفسير البغوي» (4/ 374)، و«تفسير القرطبي» (19/ 13).

لما رأوا الحَرَس الشديد والشُّهب والرَّصْد تعجبوا، وأثار ذلك تساؤلهم: هل ذلك إرهاص لعذاب سوف ينزل بالناس، أم هذا الحَرَس الشديد والشُّهب متعلِّق بخبر خير ورحمة؟

وهذا من حُسن كلامهم؛ لأنهم لما جاء أمر الشرِّ نسبوه للمجهول، لا إلى الله، من باب التأدب، ولما جاء أمر الرَّشَد والخير نسبوا إرادة ذلك لله، فقالوا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾، مع أن الأمر كله إلى الله[1].

وقد يكون المعنى: لا ندري بعد هذه البعثة المحمدية، هل يُوفَّق الناس إلى طاعة النبي صلى الله عليه وسلم واتِّباعه، فيكون ذلك رَشَدًا لهم، أو يعصونه، فيكون ذلك شرًّا ووبالًا عليهم، ويُعاقبون ويُعذَّبون؟[2].

وهنا لفتة تربوية: متى نتعلم من الجنِّ كلمة: «لا ندري»؟ ورحم الله امرأً لم يعلم الشيء، فقال: لا أعلم.

وهذا تعليم للمسلم على أن يكون وقَّافًا عند حدود علمه، وألَّا يقفو ما ليس له به علم، وأنت ترى هؤلاء الجنّ قد تكلموا بصدق وعفوية على السجية، وهذا ما يحتاجه الناس اليوم؛ لأن التكلف والمبالغة والتقليد والتعصب والهوى تقضي على شخصية الإنسان واستقلاليته وصفائه.

❊ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾:

وهذا قبل أن يسمعوا القرآن، فهم يتحدَّثون عن أنفسهم وعن جماعتهم من الجنِّ؛ أن منهم الصالحين من أتباع الأنبياء السابقين، أو مَن يتلمسون الطريق والخير

---

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 240)، و«التحرير والتنوير» (29/ 231)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 329)، و«تفسير الماوردي» (6/ 112)، و«تفسير الرازي» (30/ 670)، و«تفسير القرطبي» (19/ 14).

بحسب اجتهادهم، ويتحرَّون من الله أن يهديهم، فهم على الفطرة السوية، ومنهم مَن هم دون ذلك، أي: أقل صلاحًا[1].

وهذا دليل على أنهم مكلَّفون بأصول الشريعة وشيء من أعمالها مما يطيقونه ويتناسب مع خلقهم، والله تعالى أعلم بتفصيل ذلك، وليس علينا أن نحوِّل أمر الجنِّ إلى قضية جدلية وسفسطة كلامية، وإنما المتعيَّن الإقبال على القرآن بقلب حي يتدبر، وعقل يقظ يفهم، ونفس مؤمنة تؤمن وتُسلِّم.

والآية تدل على أنهم مُكلَّفون محاسبون، فإما أن ينعَّموا أو يعذَّبوا.

ونلحظ أنهم لم يُفصِّلوا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾، هل المقصود: مَن هم أقل صلاحًا، أو مَن هم نقيض الصلاح؟ وسيأتي قولهم بعدُ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾.

المهم هنا الإشارة إلى أنهم درجات، حتى الصالحون منهم ليسوا على درجة واحدة، وهذا من العدل، ومن الفائدة أن تعرف أن الناس درجات، والله سبحانه وتعالى قال عن المؤمنين المصطفَين: ﴿ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [فاطر: 32]، وكل طائفة هي طرائق متعدِّدة، والذين اصطفى الله تعالى- سواء كانوا من المقتصدين أو من السابقين بالخيرات أو من الظالمين لأنفسهم- درجات مختلفة متفاوتة، وهم في ميدان السبق والمنافسة.

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7768)، و«تفسير الرازي» (30/ 670)، و«تفسير القرطبي» (19/ 15)، و«التحرير والتنوير» (29/ 232).

و﴿□﴾ جمع: طريقة، **والطريقة** هي: الطريق، والغالب أن يُوصف بها الطريق الواسع الذي يستوعب العدد الكثير من الناس، والدين أو المذهب أو الملة أو النِّحْلة تُسمى: طريقة، وهؤلاء كانوا طرائق متعدِّدة[1].

و﴿□﴾ جمع: قِدَّة، **والقَدُّ**: قطع الشيء طولًا، قال تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ [يوسف: 26]. **والقِدَّة**: القطعة من جلد المقطوعة طولًا، كالسَّير.

وتقدَّد القوم: تفرَّقوا وتقطَّعوا، أي تفرَّقت حالاتهم وأهواؤهم[2].

وقولهم: ﴿□□□﴾ أي: كنا جماعات متفرِّقين، مسلمين وغير مسلمين، **والطريق المقدودة**: المسلوكة المطروقة من قبل.

وفي ذلك إشارة إلى أن كل طريقة لهم كبراء يسبقونهم في هذا السبيل، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ [الإسراء: 71]. ربما في ذلك إشارة إلى وضع تقليدي جامد، وفي مثل هذا الحال تكون الحاجة إلى البعثة أعظم؛ لأنها تجديد لمسالك الناس وطرائقهم، وتحرير لعقولهم، وتفكيك لأفكارهم الجامدة الموروثة[3].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 329)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 251)، و«التفسير البسيط» للواحدي (18/ 420)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 241)، و«روح البيان» (10/ 194)، و«التحرير والتنوير» (29/ 232).

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص657)، و«لسان العرب» (3/ 344)، و«تاج العروس» (9/ 14) «ق د د».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 330)، و«زاد المسير» (4/ 348)، و«تفسير القرطبي» (19/ 15)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 423)، و«روح المعاني» (15/ 99)، والمصادر السابقة.

والظَّن هنا بمعنى اليقين[1]، وهذا أليق بالسياق، أي: أيقنا أننا لا يمكن أن نُعجز الله[2].

والإعجاز هو نسبة العجز إلى الآخر، أعجزته، أي: جعلته يعجز[3]، وهم يقولون: عرفنا أن الله لن يَعْجز عن أن يُنزل علينا العذاب أو يُهلكنا، ولن نخرج من الأرض إلى مكان آخر.

وهذا دليل على أن للجنِّ قدرة ليست للإنس في سرعة الحركة وحدودها، وهذا السياق يُشبه قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ﴾ [الرحمن: 33]، أي: لا تستطيعون النفاذ، وهو يكون في الدنيا، كما في هذه الآية، ويكون في الآخرة على سبيل الوعيد، كما في قوله سبحانه: ﴿كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾ [المرسلات: 39].

❁ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

أي: لما سمعنا هذا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم آمنا به، وكرَّروا الإيمان؛ تأكيدًا وفرحًا به واستبشارًا.

﴿□ □ □ □ □ □ □﴾: البَخْسُ: النقص، فلا يبخسهم الله شيئًا من أعمالهم، **والرَّهَق**: المشقة، وذلك بأن يحمِّلهم ما لا يطيقون، فنفوا الأمرين: أن تنقص أعمالهم

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿□□□□□□﴾.

(2) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7769)، و«تفسير البغوي» (8/ 240)، و«تفسير القرطبي» (19/ 16)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 242)، و«التحرير والتنوير» (29/ 233).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (16/ 601)، و«أضواء البيان» (5/ 283)، والمصادر السابقة.

أو يحرموا ثواب طاعاتهم، أو أن يُزاد عليهم ما لا يُطيقون أو ما لم يعملوه من ذنوب غيرهم[1].

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن﴾:

رجعوا هنا ليقرِّروا أن منهم ﴿إِلَّا﴾، ومنهم ﴿كَلَمۡحِۭ﴾.

والمسلم يُطلق على مَن آمن بالأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿□□□□﴾ [البقرة: 133]، فالإسلام هو دين الأنبياء جميعًا عليهم السلام، **والقاسط** هنا من القَسط، بفتح القاف، **والقَسط**: الجَوْر، بخلاف **القِسط**- بكسر القاف- فهو العدل[2].

والفرق بين المُقْسط، والقاسط: أن المُقْسط هو صاحب العدل، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ المُقسِطِينَ عندَ الله على منابرَ من نور، عن يمين الرحمن** عز وجل»[3]. وهم الذين يعدلون في أموالهم وأهليهم وما وَلُوا.

والقِسْط: الميزان[4]، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: 9].

وأما القَسْط، فهو: الجَوْر أو الظُلم أو الكفر[5]، وقد ذكر الزمخشري، وغيره قصة سَعِيد بن جُبير رحمه الله مع الحَجَّاج، أنه كان يريد أن يقتله، فقال له الحَجَّاجُ: ما تقول

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 331)، و«تفسير القرطبي» (19/ 16- 17)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 242)، و«فتح القدير» (5/ 368).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 17)، و«التحرير والتنوير» (29236).

وينظر أيضًا: «مقاييس اللغة» (5/ 86)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص670)، و«تاج العروس» (20/ 24- 28) «ق س ط».

(3) أخرجه مسلم (1827) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 179)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 218)، و«تفسير البغوي» (7/ 442)، و«تفسير القرطبي» (17/ 154)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 490).

(5) ينظر: «مختار الصحاح» (ص253)، و«لسان العرب» (7/ 377- 378) «ق س ط».

فيَّ؟! فقال سَعِيد: قاسطٌ عادلٌ. فقال القومُ: ما أحسنَ ما قال! حسبوا أنه يصفه بالقِسْط والعدل، فقال الحَجَّاج: يا جهلةُ، إنه سماني ظالمًا مشركًا. وتلا لهم قوله تعالى: ﴿مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي﴾ [الجن: 15]، وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 1][1].

وفي قول الجنِّ هذا لفتٌ للأنظار إلى صفاء هذه النفوس التي سمعت القرآن لأول مرة، فأدركت نقاءه وصفاءه وعدله، وهذا يتطابق مع قول الله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: 254]، والإسلام جاء بالعدل والإنصاف مع القريب والبعيد، والموافق والمخالف، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: 8].

﴿﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ﴾ أي: الذين أسلموا منهم بحثوا وحاولوا واجتهدوا، وتلمَّسوا والتمسوا، حتى وصلوا إليه.

والتحرِّي: التدقيق في البحث[2]، ومنه: تحرِّي رؤية الهلال، أي: ترقُّب الهلال في خروجه وعدمه، وتلمُّس مواضعه.

ومن معاني ﴿أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ﴾: انتظروا وتوقَّعوا توفيقًا من الله تعالى، وجزاءً وشكورًا ونعمة في الجنة[3].

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 628)، و«تفسير الرازي» (30/ 671)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (2/ 670)، و«إرشاد الساري» (10/ 482)، و«فيض القدير» (2/ 472)، و«التحرير والتنوير» (29/ 237).

(2) ينظر: «مختار الصحاح» (ص71)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 494)، و«لسان العرب» (14/ 174) «ح ر ا».

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 236).

* ﴿مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي﴾:

وهذا من تمام كلام الجنِّ على القول الصحيح[1]، وهو دليل على أنهم عرفوا أن ثمة جنة ونارًا، لا سيما أنهم يعرفون موسى عليه السلام، كما في حكاية الجنِّ في «سورة الأحقاف»[2].

أشاروا إلى أن هؤلاء الكافرين الذين استحقوا العقوبة والنار مثل الحطب يُلقون في جهنم إلقاءً[3]، كما قال سبحانه: ﴿□□□□□□□□□□□□﴾ [البقرة: 24].

فهم وإن كانوا بشرًا في الدنيا، إلا أنهم كالخُشُب، كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿□□□□﴾ [المنافقون: 4]، ومن ذلك قول القائل[4]:

ترى الفتيانَ كالنَّخْلِ، وما يدريكَ ما الدَّخْلُ

أي: قد ترى الإنسان بمظهره، ولا تدري ما مخبره:

تَرى الرَّجُلَ النَّحيفَ فَتَزدَريهِ *** وفي أثوابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ

ويُعجِبُكَ الطَّريرُ[5] فتبتَليهِ *** فيُخلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّريرُ

لَقَد عَظُمَ البَعيرُ بِغَيرِ لُبٍّ *** فَلَم يَستَغنِ بالعِظَمِ البَعيرُ[1]

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 348)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 299)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 404)، و«التفسير المظهري» (10/ 88)، و«فتح القدير» (5/ 364).

(2) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾.

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7771)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 366)، و«التحرير والتنوير» (29/ 237).

(4) ينظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص130)، و«مجمع الأمثال» (1/ 137)، و«نثر الدر» لأبي سعد الآبي (6/ 166).

(5) **الهَصُور**: الشديد الذي يفترس، **والطَّرير**: ذو المنظر والهيئة الحسنة.

والإنسان ليس بجسمه وقوته، ولا بماله، وإنما بصفاء قلبه وصدق نيته وعمله وإيمانه، كما كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»[2].

* ﴿ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ﴾:

هذا إنشاء من كلام الله، وليس على لسان الجنّ[3].

والطريقة هي الإسلام والإيمان، وهذا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسَعِيد بن جُبير، وقتادة، ومجاهد، وجماعة من علماء التفسير واللغة[4].

والمعنى: أن الناس لو استقاموا على الإسلام وآمنوا بالله لسقاهم ماءً غدقًا.

والغَدَق: الكثير الطيب[5]، والمقصود هنا ليس الماء فقط، وإنما الخير كله، فالماء ما يكون تعبيرًا عن الرزق والنعمة[6].

وهذا المعنى مثل قول الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن﴾ [الأعراف: 96]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ

---

(1) ينظر: «أمالي القالي» (1/ 47)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (2/ 21)، و«التذكرة الحمدونية» (6/ 410)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص241) منسوبًا إلى عباس بن مرداس.

(2) ينظر: «ترتيب الأمالي الخميسية» للشجري (1/ 177)، و«إحياء علوم الدين» (4/ 106)، و«تفسير الرازي» (2/ 415)، و«تفسير القرطبي» (6/ 74)، و«فيض القدير» (4/ 110).

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7771)، و«تفسير القرطبي» (19/ 17)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 419)، و«التحرير والتنوير» (29/ 237).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 335)، و«زاد المسير» (4/ 348)، و«تفسير القرطبي» (19/ 18)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 299)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 242- 243)، و«روح المعاني» (15/ 100).

(5) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 235)، والمصادر السابقة.

(6) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 255- 256)، و«تفسير البغوي» (8/ 241)، و«تفسير القرطبي» (19/ 18).

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: 66]، وهذا هو أحد معاني الآية الكريمة.

والاستقامة على الطريقة هي: الالتزام بأحكام الديانة وآدابها في النفس والمجتمع، فهي بمجموعها أساس بناء المجتمع السليم الرغيد، **هذا من جهة**.

ومن جهة أخرى فالصلة بالله صلاةً ودعاءً وتسبيحًا وذكرًا تورث التقوى، وتكون خير رقيب على السلوك، وتفعل فعلها داخل النفس بالراحة والسكينة والهدوء والأمل والصبر والتسامح وقوة الاحتمال، وهذه خلائق وصفات لا بد منها لنجاح الحياة واستمرار السير في الطريق الموصل للمقصود.

وهنا تلحظ أنه بعدما انتهى كلام الجنِّ في قوله: ﴿مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ﴾، أنشأ كلامًا جديدًا، هو كالقاعدة الكونية القدرية التي يقرِّرها ربُّ البشر؛ وهي أن طاعته أساس الفلاح والنجاح في الدارين.

وذهب جمع من المفسرين إلى أن المقصود: لو استقاموا على الكفر، وأجمعوا وأصروا عليه، لصببنا عليهم النعمة والرزق فتنة لهم، وهو منقول عن محمد بن كعب القُرَظي، وابن قُتيبة، وجماعة من علماء التفسير واللغة(1).

وزعم بعضهم أن الأمرين مقصودان معًا(2)، **وكأن المعنى**: أن الناس لو اجتمعوا كلهم، أولهم وآخرهم؛ إنسهم وجِنّهم، على طريقة واحدة من إيمان أو كفر، لسقاهم الله تعالى ﴿مُّسۡتَطَرٌ ٥٣﴾، وهذا في الدنيا؛ وذلك لأنه قال: ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾، وهم إما أن يكونوا مؤمنين، فيكون المقصود: لنختبرهم، فنعلم مَن يثبت منهم على الإيمان،

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 193)، و«تفسير الطبري» (23/ 337)، و«تفسير الماوردي» (6/ 116)، و«تفسير البغوي» (8/ 241)، و«زاد المسير» (4/ 348)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 243).

(2) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (10/ 299- 300).

ومَن لا يثبت، ومَن يشكر ومَن يكفر، وإما إن يكونوا كافرين، فيكون المعنى: حتى يملي لهم الله، كما قال سبحانه: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ [آل عمران: 178].

وقد اقتضت حكمة الله عز وجل أنه لا يزال في هذه الدنيا البَر والفاجر، والمؤمن والكافر، وهذا سرٌّ من أسرار الابتلاء الإلهي، واختلاف الناس؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ [هود: 118- 119]، ولو فرض أن الناس أجمعوا كلهم على طريقة من الطرق، إما إيمان أو كفر، هُدى أو ضلال، لسقاهم الله تعالى ماءً غدقًا، وبذلك يجتمع القولان المنقولان عن السلف في تفسير هذه الآية.

وهذا جيد، ولا يعكِّر عليه إلا لفظ: الاستقامة؛ فإنه أليق بالاستقامة على الخير والهُدى، ولم يرد في القرآن والسنة إلا كذلك، والله أعلم.

* ﴿وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾:

أي: حتى لو كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم، ثم مدَّ الله لهم في الرزق والعطاء والماء الغدق، فإن هذا فتنة لهم، ومَن يعرض منهم عن ذكر الله، فسوف يسلكه ربه عذابًا صَعَدًا، فلا ينفعه هذا الماء الغدق؛ لأن في قلبه من الشقاء والقلق والهمِّ والغمِّ والضيق ما يُنغِّص عليه لذاته، ويحرمه من النعيم، كما في قوله: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: 124]، فالعذاب الصَّعَد يشبه المعيشة الضنك، وهو متصل- والله أعلم- بقوله سبحانه: ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ﴾ [الأنعام: 125].

والصَّعَد: هو العذاب المتزايد المتصاعد[1]، فيشمل ذلك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ومنه قوله سبحانه: ﴿   ﴾ [المدثر: 17]، أي: عذابًا شديدًا مرهقًا شاقًّا عليه[2]، وهو يزداد ولا ينقص: ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي﴾ [الإسراء: 97].

* ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ﴾:

هذا خطاب للناس كلهم؛ إنسهم وجِنِّهم، **فالمساجد** هي بيوت الله، وهي مواضع الصلاة، ومنها المسجد الحرام الذي لم يكن يومئذ مسجد عامر يُصلَّى فيه إلا هو[3]، وكان المشركون يجعلون فيه الأوثان، ويمنعون أهل الإيمان من الصلاة، فعاتبهم الله تعالى أن جعلوا هذه المساجد للأوثان، وأقاموا فيها النُّصُب، فكان في الكعبة ثلاثمئة وستون صنمًا، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه[4].

ويحتمل أن ﴿﴿١﴾﴾ هي أعضاء السجود[5]، **فالمعنى**: لا تسجدوا إلا لله، وقد جاء في الحديث: «**أقرَبُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ**»[6]. وفيها إلماح إلى أن الأمر سيتسع وتكثر المساجد ويمكِّن اللهُ للمؤمنين.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 464)، و«تفسير الطبري» (23/ 338)، و«تفسير القرطبي» (19/ 19)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 243).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 426)، و«تفسير القرطبي» (19/ 74)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 266).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 258)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 367)، و«تفسير البغوي» (8/ 242)، و«تفسير القرطبي» (19/ 20)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 244)، و«التحرير والتنوير» (29/ 240).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (4720)، و«صحيح مسلم» (1781).

(5) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (5/ 236)، و«تفسير القرطبي» (19/ 20)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 244)، و«فتح القدير» (5/ 370).

(6) أخرجه مسلم (482) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣﴾ أي: لا تسجدوا لغير الله[1]، كما قال سبحانه:

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت: 37].

والمقصود هنا: إما العبادة؛ فـ«**الدعاءُ هو العبادةُ**»، كما في حديث النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما[2]، أو يقصد الدعاء بخصوص الذي هو سؤال الله بقدرته تحصيل خير أو دفع شر مما هو ليس من شأن البشر، بل من شأن الخالق القدير الرحيم[3].

* ﴿ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ﴾:

المقصود بـ﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾: محمد صلى الله عليه وسلم[4]، وهنا لم يذكر اسمه اسمه صلى الله عليه وسلم، وإنما سماه: ﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، واختار له هذا الاسم، كما اختاره له في «سورة الإسراء»، في قوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، وكما

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 242)، و«زاد المسير» (4/ 349)، و«تفسير الرازي» (30/ 673)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 244).

(2) أخرجه الطيالسي (838)، وأحمد (18386)، والبخاري في «الأدب المفرد» (714)، وأبو داود (1479)، والترمذي (2969)، وابن ماجه (3828)، والطبري في «تفسيره» (3/ 228)، وابن حبان (890)، والحاكم (1/ 490).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 340)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 244).

(4) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص1142)، و«تفسير القرطبي» (19/ 23)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 420)، و«التحرير والتنوير» (29/ 242).

اختاره له في وقت تنزل الوحي عليه فقال: ﴿كَٱلْفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾ [الفرقان: 1]، وهي تسمية تشريف[1].

ومِمَّا زادني شَرَفًا وتيهًا *** وكِدْتُ بأَخْمُصي أطَأُ الثُّرَيَّا

دُخولي تحتَ قولك: ﴿مَلِيكٍ﴾ *** وأن صيَّرتَ أحمدَ لي نبيًّا[2]

وغاية العبودية: التحرر من سلطان النفس، فإذا عبد الإنسان ربه، فهو مَدِينٌ لهذا الإيمان بالتحرر من سلطة النفس والهوى والشهوة، فضلًا عن سلطة العباد.

والمعنى: أنه لما قام الرسول صلى الله عليه وسلم يعبد الله سبحانه بالصلاة، كاد الكفار أن يكونون عليه لِبدًا، والمقصود: كفار قريش، حيث تألَّبوا عليه، على سبيل المضايقة والتهديد والتخويف[3].

وهل اجتمعوا في مكان واحد، أم أن هذا حدث في مناسبات متفرقة، كما قال أبو جهل: هل يُعفِّرُ محمدٌ وجهَه بين أظهركم؟ فقالوا: نعم. فقال: واللَّاتِ والعُزَّى، لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنَّ على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. وجاء للنبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يطأ بعقبه على رأسه، فمنعه الله من ذلك وحجبه[4].

ولعل الأمر أوسع من ذلك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما قام بما أمره به ربه، رمته العرب عن قوس واحدة، وتجمَّعوا في مواجهته.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ١٠﴾، وما سيأتي في «سورة العلق»: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ١٢﴾.

(2) ينظر: «نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض» (4/ 132)، و«حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» (ص235) منسوبًا إلى القاضي عياض.

وذكر في «التحرير والتنوير» (23/ 111) أنه يُنسب إلى الشافعي.

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 630)، و«تفسير الرازي» (30/ 674)، و«تفسير القرطبي» (19/ 23)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 245)، و«التحرير والتنوير» (29/ 241).

(4) ينظر: «صحيح مسلم» (2797)، وينظر ما سيأتي في «سورة العلق».

واللِّبد: الشيء المتلبِّد المتجمِّع بعضه على بعض، ومنه: لِبْدة الأسد[1].

وبعض المفسِّرين حملوا الآية على الجنِّ؛ بدلالة السياق والقصة[2].

ويعزِّزه أنه في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنهم اقتربوا من النبي صلى الله عليه وسلم، حتى كادوا يركب بعضهم بعضًا من كثرتهم[3].

والمعنى الأول أوسع وأقرب، ويؤيِّده ما يأتي بعده من إصراره على دعوته ورفض الشرك.

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بتوحيده ولو رغمت أنوف المعاندين، ولو اجتمعوا على كيده والمكر به، فكل ذلك لا يجوز أن يصرفه عن دعوته.

* ﴿وَرَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾:

فأنا لم آت حُوبًا ولا زورًا، وإنما عبدت الله تعالى وحده، ولم أشرك به أحدًا، وهذا ديني ودعوتي[4].

* ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾:

أمره أن يقول لهم هذه الحقيقة؛ ليعلموا حدود ما يستطيعه النبي صلى الله عليه وسلم، وعليه فلا يجوز أن يُعبد أو أن يُدعى من دون الله.

والآية فيها ما يسميه العلماء بالاحْتِباك[5]، أي: الاختصار.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 347)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 237)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 465)، و«تفسير الطبري» (23/ 342- 343)، و«تفسير القرطبي» (19/ 23)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 244)، و«الدر المنثور» (15/ 28).

(3) ينظر: «المعجم الكبير» للطبراني (9968)، و«عيون الأثر» (1/ 158)، و«الدر المنثور» (15/ 28)، و«الخصائص الكبرى» (1/ 231)، و«فتح القدير» (5/ 376).

(4) ينظر ما سيأتي في «سورة الكافرون».

(5) ينظر: «التعريفات» للجرجاني (ص12)، و«الكليات» للكَفَوي (ص57).

وكأن المعنى: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا ضلالًا ولا رَشَدًا؛ لأن **الضرَّ** يقابله **النفع**، **والرَّشَد** يقابله **الضلال**، فأتى بالطرفين وترك الوسط؛ لأنه معروف[1].

والمقصود هنا: أنه لا يملك لهم التوفيق والإلهام، وإنما يحملهم على ذلك بهداية الإرشاد والتبليغ؛ ولهذا قال له ربه: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٣ ﴾ [الشورى: 52]، فهو صلى الله عليه وسلم يهدي بخُلُقِه وبلسانه وبعمله، كل ذلك هداية، لكن ليس بيده التوفيق أو الخذلان، أو الإلهام أو الحجب والحرمان، أو جعل الإيمان في قلوب الناس، وإنما هذا إلى الله.

* ﴿ لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ ﴾:

أي: لن يحميني من الله تعالى أحدٌ لو أراد تعذيبي أو إهلاكي[2]، فأنا عبده، فكيف بكم أنتم أيها المكذِّبون المتمرِّدون على ألوهيته؟

وفي الخطاب التنصل من الحول والطَّوْل والقوة، والتواضع لله، وبيان حقيقة النبوة والدعوة، وأنها ليست مكاسب أو انتفاعات أو مراكز أو استعلاء على الخلق.. فمَن يستطيع أن يقول مثل هذا القول إلا رسول الله؟!

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١١ ﴾: الملتحد: الملجأ[3]، ومنه اللَّحْد، وهو القبر الذي يهرب إليه الإنسان.

---

(1) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (19/ 436)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 160)، و«روح المعاني» (15/ 104)، و«التحرير والتنوير» (29/ 243).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 348)، و«تفسير السمعاني» (6/ 72)، و«الكشاف» (4/ 631)، و«تفسير القرطبي» (19/ 26)، و«فتح القدير» (5/ 371).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (2/ 139)، و«تهذيب اللغة» (4/ 244)، و«لسان العرب» (3/ 389)، و«بصائر ذوي التمييز» (4/ 421)، و«تاج العروس» (9/ 136) «ل ح د».

والمعنى: ليس ثمة أحد يجيرني من الله، ولا مكان أختبئ فيه، وكل شيء في قبضته وقدرته، والله تعالى يأمر نبيه أن يبيّن للناس هذه الحقيقة، ومن قبل كان الجنُّ يقولون في حديثهم: ﴿□□□□□□□□□□□□﴾.

* ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ﴾ أي: لا شيء ينفعني ويحميني، إلا أن أُبلغ رسالات ربي[1]، فقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: عن الله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**بلِّغُوا عنِّي، ولو آيةً**»[2].

﴿﴿١٣﴾ خَلَقَ﴾ أي: بلاغ رسالاته، بمعنى أن يُبلِّغ النبيُّ صلى الله عليه وسلم رسالات ربه بنصوصها وحروفها؛ ولهذا قال له ربه: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ**﴾ [المائدة: 67]، فالله يعصمك من الناس، والناس لا يعصمونك من الله، ولن يجيرك من الله أحد، ولن تجد من دونه ملتحدًا إلا بالبلاغ، فإذا بلَّغت فلا يضرك هؤلاء الذين كادوا يكونون عليك لبدًا، فالله يحميك منهم ويصرف عنك كيدهم.

﴿ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾: **ومن المعصية**: رفض التبليغ عن الله، ورفض رسالته ودعوته أصلًا، ولعله المقصود هنا بقرينة السياق، وبضميمة ما بعده[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 350)، و«تفسير القرطبي» (19/ 26)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 245).

(2) أخرجه البخاري (3461) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 376)، و«تفسير النسفي» (3/ 553).

وليس المقصود مطلق المعصية[1]؛ فإنما يُتوعد بالخلود الأبدي في نار جهنم الكفار الذين ردُّوا دعوة الرسل والأنبياء، وأصرُّوا على الكفر والشرك، وأما عصاة المؤمنين ممن يقع منهم ما يقع من الذنوب أو الكبائر التي هي دون الشرك، فهم تحت المشيئة، إن شاء الله عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم: ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ﴾ [النساء: 48]، وهذا متواتر في النصوص، وظاهر في سياقات القرآن الكريم والسنة النبوية[2]، وعليه إجماع الأمة[3].

* ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ □□□□□□□﴾:

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾: لم يحدِّد السياق ما الذي يوعدون، بل ترك المعنى مفتوحًا، فهل هو ما يوعدون من الخيبة والهزيمة في الدنيا، كما حصل لهم يوم بدر؟ أو هو ما يوعدون عند النَّزْع والاحتضار؟ أو هو ما يوعدون في الدار الآخرة؟ أو هو كل ذلك[4]؟

وقد كانوا دائمًا يتعزَّزون بعددهم وقوّتهم، أو بأنصارهم وحلفائهم، فالله سبحانه يؤكِّد لهم: ﴿□□□□□□﴾.

ولم يبيِّن مَن هو «الأضعف»، ومعروف من السياق أن المشركين الظالمين سيكونون هم الأضعف ناصرًا والأقل عددًا، كما قال سبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ﴾ [الطارق: 10].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 26- 27)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 303)، و«تفسير السعدي» (ص891).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (6304، 7439، 7510)، و«صحيح مسلم» (193- 199).

(3) ينظر: «مجموع الفتاوى» (4/ 309).

(4) ينظر: «الكشاف» (4/ 632)، و«تفسير القرطبي» (19/ 27)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 303)، و«فتح القدير» (5/ 372).

والناصر: الحليف أو المعين المساعد[1]، فسيكون ضعيفًا، وهي إشارة تعني أن لا ناصر لهم مطلقًا، كما في آية «سورة الطارق»[2]، حتى الشيطان يتبرأ منهم في ذلك الموقف[3]، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويتخلَّى القوي عن الضعيف، والضعيف عن القوي.

أما الأقل عددًا، فالمقصود عديدهم الذاتي، فهم كانوا يقولون: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤﴾ [القمر: 44]، أي: عدد كبير مجتمعون، غالبون فائزون، مستنصرون بحلفائنا وأعواننا[4].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□﴾:

وهذا من تعليم الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن لهم أنه لا يدري: أقريب ما يوعدون أم لا؟! فـ﴿□﴾ هنا نافية[5].

﴿□□□□□﴾ أي: مسافة طويلة، والأَمَد مقابل القريب، أي: أمدًا طويلًا أو بعيدًا[6]، كما حكى الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ﴾ [الأحقاف: 9]، وفي الآيات الأخرى: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي﴾ [الشورى: 17]، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ [الأحزاب: 63]،

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 350)، و«لسان العرب» (5/ 210)، و«تاج العروس» (14/ 223).

(2) في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ﴾.

(3) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾.

(4) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 169)، و«تفسير البغوي» (7/ 433)، و«تفسير الرازي» (29/ 321)، و«تفسير القرطبي» (17/ 145)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 481).

(5) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 27)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 420).

(6) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 351)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 246)، و«التحرير والتنوير» (29/ 247).

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ [القمر: 1]، ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾ [الأنبياء: 1]، فهذه كلها سياقات يُعزِّز بعضها بعضًا، ويوضِّح بعضها بعضًا، وكل سياق منها يُحمل على المناسب له، يكون المقصود النظر إلى مقاييسهم هم، فقد كانوا يستبعدون هذه الأشياء، ولو وُعدوا بها في الآخرة لرأوا أن الآخرة شأنها بعيد وأنها مؤجَّلة؛ ولهذا لا يهمهم كثيرًا أن يوعدوا بشيء في الآخرة في وقت كفرهم.

ولذا جعل الأمر محتملًا؛ فقد يصيبكم شيء قريب، وقد يكون مفاجئًا، كما في يوم بدر وما بعده، وفيه إظهار البراءة من هذا الأمر، وأنه إلى الله تعالى، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة محارَب مطارَد مؤذَى، وأصحابه يُقتلون ويُعذَّبون، ومع ذلك ينزل عليه صلى الله عليه وسلم هذا الوحي، فيعلم أنه لا يُنجِّيه إلا البلاغ عن الله وتبليغ رسالاته، فيبلِّغ هذا الوحي كما أُنزل إليه، مهما كانت الوقائع، ومن ذلك أن يقول: ﴿رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾، ويقول: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا ﴾، ويقول: ﴿لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾، ويقول: ﴿□□□□□﴾.

فحين يعلن أنه لا يدري إن كان موعودهم قريبًا أم بعيدًا كما هنا، وكما في قوله: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ [الأنبياء: 109]، فقد يكون المقصود: أجل كل فرد منهم بعينه؛ لأنهم يستعجلون العقاب العام، فأشار إلى أن كل فرد منهم له أجله المضروب، فإذا جاء أجله قامت قيامته.

وهذا أولى من القول بأنه لم يكن يدري ثم تجدَّدت له المعرفة بذلك فيما بعد، والله أعلم.

والمهم أن الله يلقِّنه لفظ: «لا أدري» كما ألهم الجنَّ أن يقولوا: ﴿ٱلْجَآنَّ مِن﴾، وهو درس بليغ لكل داعية وكل متعلِّم أَلَّا يستحي من قول: «لا أدري»، ولا يظنَّ أن جاهه ينكسر أو مكانته تتراجع، أو أن أتباعه ينتقصونه، و«مَن ترك لا أدري أصيبت مَقَاتِلُهُ»[1].

وتكرر لفظ ﴿□﴾؛ إشارة إلى إن الله تعالى يحفظه، وهو الذي يحميه وينجيه وينصر دعوته، وهو الذي يجيره، وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في صلاته: «**اللهمَّ أعوذُ برضاك من سخطكَ، وبمعافاتكَ من عقوبتكَ، وأعوذُ بك منكَ، لا أحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك**»[2].

فما دام الله حافظه وحاميه، فلا يبالي ما وراء ذلك، ولو اجتمع الناس عليه.

❊ ﴿□□□□□□□□﴾:

أي: هو وحده ﴿□□﴾، فلا يعلم الغيب إلا هو.

و﴿□﴾ هو ما يقابل **الشهادة**، ﴿ٱلْعَصْفِ﴾ هي: ما تراه العيون أو تحسه الحواس، و﴿□﴾ ما وراء الحس، سواءً كان من عالم الآخرة، أو كان من عالم الملائكة، أو كان ماضيًا مما لا يعلمه الناس... أو نحو ذلك مما لا سبيل للناس إلى معرفته بوسائل المعرفة التي منحهم الله[3].

---

(1) ينظر: «أخلاق العلماء» للآجري (ص116)، و«حلية الأولياء» (7/ 274).

(2) أخرجه مسلم (486) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾.

﴿□□□□□□□﴾، وهذا له علاقة باستراق الجنِّ للسمع، والكهنة والعرَّافين الذين كانوا يأخذون «الكلمة» ويضيفون إليها مئة كذبة[1].

فهو وحده الذي يعلم الأجل المضروب لكم، وهل هو قريب أو بعيد؟

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿□□□□□﴾: استثناء، فهو يستثني الرُّسل الذين ارتضاهم الله، وفي ذلك إشارة إلى أن الرُّسل إنما كانوا لأن الله ارتضاهم واختارهم واصطفاهم، ويشمل ذلك الرسول البشري؛ كالأنبياء عليهم السلام، والرسول الملائكي الذي ينزل بالوحي؛ كجبريل عليه السلام، فهؤلاء ارتضاهم الله تعالى وأطلعهم على شيء من غيبه، وهناك من ﴿□﴾ ما لا يعلمه إلا الله.

والأَوْلَى أخذ الآية بعمومها، خلافًا لما مال إليه الفخر الرازي، فإنه ذكر أن **المقصود** بقوله: ﴿□□□□□﴾ أي: الساعة. واحتج بأن من الناس من قد يعلم شيئًا من الغيب[2].

وهذا غلط؛ فهذه من الآيات التي يجب أن تُؤخذ على عمومها وإطلاقها، إلا في المقامات التي ورد فيها الاستثناء.

﴿□□□□□□□□﴾ أي: أن هذا الرسول البشري أو الملائكي سوف يحيطه الله بحرس من أمامه ومن خلفه أشداء أقوياء أن ينالهم أحد بشيء.

---

(1) كما في حديث عائشة رضي الله عنها في «صحيح البخاري» (3210): «**إنَّ الملائكةَ تنزلُ في العَنَان**- وهو: السحاب- **فتذكرُ الأمرَ قُضِي في السماء، فتَسْتَرِقُ الشياطينُ السَّمْعَ فتسمعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّان، فيكذبونَ معها مئةَ كَذْبة من عند أنفسهم**».

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 678).

ومن ذلك أن الله إذا أراد أن يُظْهِر أحدًا منهم على شيء من غيبه بالمعاينة، جعل معه ﴿□﴾ أمامه وخلفه، كما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم يوم الإسراء والمعراج.

ومن ذلك أن الله حين يختار ويرتضي أحدًا ليكون رسولًا، فإنه يجعل عليه حَفَظَةً وحَرَسًا يحمونه لأداء المهمة التي أُنيطت به[1].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

من الإعجاز أنه لم يذكر مَن هو الفاعل الذي يُراد أن يعلم، وفي بعض القراءات: ﴿لِّيُعْلَمَ﴾ بضم الياء[2]؛ فيشمل كل مَن يصح أن يُسند إليه الفعل، فيصدق هذا الكلام على الله سبحانه وتعالى: ليعلم الله عز وجل، وهو العالم، ولكن ليتحقَّق علمه بواقع الحياة، وهذا كثير في القرآن، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ [آل عمران: 166- 167]، فالله تعالى يعلم كل شيء، لكن ليتحقَّق علمه في الأرض.

وليعلم الرسل ﴿□□□□□﴾، فالنبيُّ محمد صلى الله عليه وسلم لما يرى الملائكة والرَّصَد يدري أنه هو المختار، وأنهم قد أُرسلوا إليه دون غيره، وأُرسلوا بهذا، فالأمر فيه ضبط وتوثيق وإحكام، فيعلم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 353)، و«تفسير البغوي» (8/ 244)، و«تفسير القرطبي» (19/ 29)، و«التحرير والتنوير» (29/ 249).

(2) ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص449)، و«الكنز في القراءات العشر» (2/ 696)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 392)، و«إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص560)، و«معجم القراءات» (10/ 133).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (3/ 196)، و«المحرر الوجيز» (5/ 385)، و«تفسير القرطبي» (19/ 30)، و«التحرير والتنوير» (29/ 251).

وكذلك ليعلم الرَّصَدُ بأن الرسل قد بلَّغوا رسالات ربهم، وكأنهم شهود على الأداء يوافون بشهادتهم يوم القيامة[1].

﴿□□□﴾ أي: الله تعالى، فإنه ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: 54].

فالوحي محاط بسِياج، لا يقتحمه إلا مَن شاء الله، وفي حدود معينة، أما ما يتعلَّق بما يمكن معرفته بالوسائل الطبيعية؛ كالفهم أو القياس أو الإدراك، أو بالوسائل الروحية؛ كالرُّؤْيا الصالحة والتفرُّس، فهذا ممكن، وهو باب آخر، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم عَدَّ الرُّؤْيا من المبشِّرات ومما بقي من آثار النبوة[2].

لكن هذه لا يُقطع بها، وإنما هي من باب التوقع والالتماس، وكذلك الإلهام والتحديث، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**قد كان في الأمم قبلكم محدَّثُونَ[3]؛ فإن يكن في أمتي منهم أحدٌ، فإن عمرَ بنَ الخطاب منهم**»[4].

فقد يقع لأحد أن يظنَّ الشيء فيكون كما ظنَّ وتوقَّع، كما حدث لعمر رضي الله عنه[5]، وهو يَحْدُث لأصناف من الناس، وقد يقع هذا بسبب فرط الذكاء، وشدة

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 354)، و«تفسير الماوردي» (6// 123)، و«تفسير القرطبي» (19/ 30)، و«فتح القدير» (5/ 375).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (6983، 6987، 6988، 7017)، و«صحيح مسلم» (2263، 2264).

(3) بفتح الدال، جمع: محدَّث، واختُلف في تأويله؛ فقال بعضهم: هو الملهَم، قاله الأكثر، وقيل: مَن يجري الصواب على لسانه بغير قصد، وقيل غير ذلك. ينظر: «تصحيفات المحدِّثين» (1/ 267)، و«فتح الباري» (7/ 50).

(4) أخرجه البخاري (3689) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (2398) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر: «علل الدارقطني» (9/ 313)، (14/ 310)، و«الإلزامات والتتبع» (ص124- 126)، و«هدي الساري» (ص364- 365)، و«فتح الباري» (7/ 50).

(5) كما في «صحيح البخاري» (402) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «وافقت ربي في ثلاث: فقلتُ: يا رسولَ الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلًّى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾

الخبرة، وحِدَّة العقل والتجربة، فالإنسان ربما يتوقع بعض الأشياء توقعًا يقرب من اليقين، وهذا كله ليس من الاطلاع على علم الغيب؛ فإن الغيب لا يعلمه إلا الله أو مَن أطلعه الله تعالى على شيء منه لحكمة يعلمها.

﴿□□□□﴾ والإحصاء متصل بالعدد، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي﴾ [الكهف: 49]، وقال: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: 94- 95].

فقررت الآية شمول العلم الإلهي، وإحاطته بكل شيء، وإحصاءه كل شيء، وهل يمكن أن يقال- أخذًا بظاهر الآية-: إن الماديات كلها عبارة عن أعداد؟ الله أعلم.

❍ ❍ ❍

[البقرة: 125]. وآية الحجاب، قلتُ: يا رسولَ الله، لو أمرتَ نساءك أن يحتجبن؛ فإنه يكلمهن البرُّ والفاجرُ. فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساءُ النبي صلى الله عليه وسلم في الغَيْرة عليه، فقلتُ لهن: ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [التحريم: 5]، فنزلت هذه الآية».

سورة ﴿أَمۡرُنَآ﴾

❊ **تسمية السورة:**

تسمَّى: «**سورة** ﴿أَمۡرُنَآ﴾»، أو: «**سورة** ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ﴾»، كما في كتب التفسير، والحديث، والمصاحف[1].

❊ **عدد آياتها:** عشرون آية، **وقيل:** ثماني عشرة، **وقيل:** تسع عشرة[2].

❊ **وهي مكية** في أولها، مدنيةٌ في آخرها، على اختيار ابن عباس رضي الله عنهما وجمهور المفسرين[3].

وهي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي نسخ آخرها أولها، ففي أولها قال تعالى: ﴿وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ﴾، فأمر الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالقيام، وفي آخرها قال: ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 356)، و«صحيح البخاري» (6/ 161)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 315)، و«تفسير الطبري» (23/ 357)، و«المستدرك» (2/ 504)، و«تفسير القرطبي» (19/ 31)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 249)، و«التحرير والتنوير» (29/ 252).

(2) وقد اختلفوا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾، وقوله: ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [المزمل: 15]، وقوله: ﴿مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾﴾، وقوله: ﴿□□□﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص257).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 386)، و«تفسير القرطبي» (19/ 31)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 500)، و«التحرير والتنوير» (29/ 252).

﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ ﴾ ٥٤، فنسخ ما كان في أولها من وجوب القيام على المسلمين، وصار تطوعًا ونافلة[1].

وهي سورةٌ عظيمة من أوائل سور القرآن نزولًا[2].

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾:

وفي السورة التالية: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾، وبعض أهل العلم يقولون: هذه أسماء للرسول صلى الله عليه وسلم، والأكثرون أنها ليست أسماء[3]، ولكنها أوصاف خُوطب بها بحكم الحال التي كان عليها، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**لي خمسةُ أسماء: أنا محمدٌ، وأحمدُ، وأنا الماحِي الذي يمحُو اللهُ بي الكفرَ، وأنا الحاشرُ الذي يُحشرُ الناسُ على قدَمِي، وأنا العاقبُ**»[4].

وفي ذلك نوع من التلطف معه صلى الله عليه وسلم؛ فإن الله عز وجل حينما يُخاطبه ويبيِّن الحال التي هو عليها أثناء الخطاب، ففي ذلك احتفاء به وإكرام وملاطفة[5].

وكان صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك أحيانًا مع بعض أصحابه، كما في قصته مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما لم يجده في بيته وذهب يبحث عنه، فوجده نائمًا في

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 353)، و«تفسير القرطبي» (19/ 35)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 259)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 453)، و«التحرير والتنوير» (29/ 278).

(2) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» (1/ 193)، و«الإتقان» (1/ 96).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 33)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 311)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 451)، و«التحرير والتنوير» (29/ 257).

(4) أخرجه البخاري (3532)، ومسلم (2354) من حديث جُبير بن مُطْعِم رضي الله عنه.

(5) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 33)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 311)، و«التحرير والتنوير» (29/ 255).

المسجد، وقد أثَّر التراب في جنبه؛ فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**قُمْ أبا التُّراب، قُمْ أبا التُّراب**»[1].

وقد كانت هذه الكنية أحب إلى عليٍّ رضي الله عنه من غيرها؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي كنَّاه بها[2].

والمقصود بالتزمُّل: التحاف الإنسان بما يغطِّيه لنوم أو لغير ذلك[3].

وقد ورد أنه كان متزمِّلًا برداءٍ أو لحافٍ أو قطيفة لخديجة رضي الله عنها[4]، فهو قريب في المعنى من قوله: ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، وبينهما فرق لطيف[5].

والذي يظهر- والله أعلم- أن قوله تعالى: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن﴾ يتعلق بالنِّذارة والدعوة ومخاطبة الناس، وقد أعقبها بمجموعة وصايا: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ [المدثر: 1- 7]، فكان صدر هذه السورة متعلِّقًا بالنِّذارة، وهذا يناسبه موضوع التدثُّر أو الدِّثار؛ لأن الدِّثار يُطلق على الثوب الذي يراه الناس على الإنسان بخلاف الشِّعار[6].

---

(1) أخرجه البخاري (3703، 6204)، ومسلم (2409) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما.

(2) ينظر المصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 509)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 371)، و«تفسير القرطبي» (19/ 32)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 249)، و«فتح القدير» (5/ 378).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص383)، و«تاج العروس» (29/ 138) «ز م ل».

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 681)، والمصادر السابقة.

(5) الفرق بينهما في الاشتقاق. ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 256).

(6) ينظر: «الصحاح» (2/ 655)، و«النهاية» (2/ 100)، و«المصباح المنير» «د ث ر» (1/ 189).

والدِّثار غالبًا يُلبس للدفء عند النوم، وهو مناسب للأمر بـ﴿خَلَقَ﴾، فهي دعوة إلى اليقظة وتحمل مسؤولية الدعوة.

ويُروى أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم بلغه أن قريشًا اجتمعوا يتشاورون بم يصفونه؛ بالشاعر، أو الساحر، أو الكاهن، أو المجنون، فاغتم لذلك، ونزلت الآية[1].

لقد كانت حملة قاسية ظالمة لرجل لم يتعوَّد أن يُقال فيه مثل هذا؛ ولذا كان وقعها شديدًا عليه، ولكن الله جمَّله بـالصبر، وأمره بالاحتمال، ووعده بالعاقبة.

أما ﴿أَمَرُنَآ﴾ فالسياق كان بصدد عبودية النبي صلى الله عليه وسلم لربه، وتلقِّيه للوحي، وصبره عليه، واحتماله له، وقيامه بتكاليف ذلك مما فيه مشقة وثقل، فكان مناسبًا لذلك التعبير بـ﴿أَمَرُنَآ﴾؛ لأن فيه معنى الحِمْل[2]، وهذا معروف حتى في العامية الدارجة، فالمزمول: المحمول، وفلان يزمل للدراسة أو للعمل أو لمواجهة الناس أو للسفر.

وبعضهم يقول: إن الفعل: زمل، مهجور غير مستعمل[3]، أي: يقلق ويهتم ويتحمل عناء بسببه، ففيه تحمل، وهذا مناسب لقوله تعالى: ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المزمل: 5]، ولذا أمره هنا بالقيام والصلاة؛ لأنها خير عون على هذا الحمل.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 298)، و«الدر المنثور» (15/ 35- 36)، و«فتح القدير» (5/ 377)، و«التحرير والتنوير» (29/ 256).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 636)، و«تفسير الرازي» (30/ 681).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 256).

جاء في «الصحيح» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يأتي حِرَاءَ فيتحنَّثُ فيه- وهو التعبد- اللياليَ ذوات العدد...». فقبل أن يُوحى إليه صلى الله عليه وسلم ألهمه ربه حُبَّ الخلوة، فكان يذهب الليالي ذوات العدد إلى غار حراء، بعيدًا عن الناس، يتعبَّد، حتى فاجأه المَلَك وهو بالغار، قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: 52]، لم يكن ينتظر وحيًا، ولا يترقَّب أحدًا يطرقه؛ ولذا فوجئ وهو في الغار بالمَلَك يأتيه على حين غِرَّة[1]، ويتوجَّه إليه في لحظة لا أنيس معه فيها، ولا يستطيع أحد أن يدفع عنه.. مخلوق عظيم غير مألوف الهيئة يطرقه ويضمه ويعصره حتى يُجهد، ثم يرسله ويقول له بلغة الآمر: ﴿ٱقْرَأْ﴾. ثم يأخذه ويقول: ﴿﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [العلق: 1]، فأصاب النبيَّ صلى الله عليه وسلم من ذلك همٌّ وغمٌّ ورعبٌ وفزع؛ لأنه لم يكن يترقب ذلك، وكان أحب الناس وأقربهم إليه زوجه خديجة رضي الله عنها، فهي موضع سرِّه وأمانه، فجاءها فزعًا يقول: «**زَمِّلُوني زَمِّلُوني**»[2]. فنزلت: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [المدثر: 1]، ثم نزلت بعد ذلك: ﴿وَمَآ أَمَرْنَآ إِلَّا﴾.

وقد كان نزول السورتين قريبًا في الزمن، وإذا كانت ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ ثاني سورة بعد ﴿ٱقْرَأْ﴾، فـ﴿أَمَرْنَآ﴾ هي الثالثة أو الرابعة، ولا يعني ذلك أن السورة كلها نزلت جميعًا، وإنما المقصود صدرها.

(1) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (1/ 236- 237)، و«تاريخ الطبري» (2/ 301- 302)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 147)، و«الشفا» (2/ 102)، و«تاريخ دمشق» (63/ 12)، و«البداية والنهاية» (4/ 9)، وما تقدم في «سورة القمر»: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾، وما سيأتي في أول «سورة العلق».

(2) أخرجه البخاري (3)، ومسلم (160).

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾ مثلما قال: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن﴾، لكن القيام هنا مختلف؛ لأن القيام في ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ للنِّذارة والدعوة، وأما في ﴿أَمۡرُنَآ﴾ فالمعنى: صَلِّ لربك، و﴿خَلَقَ﴾ فعل لازم ليس له مفعول؛ ولهذا قال: ﴿وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ﴾، فـ﴿كَلَمۡحِۭ﴾ منصوب على الظرفية[1]؛ لأنه محل القيام، فيأمره ربه أن يقوم.

وقد يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم وقتها كان مضطجعًا على فراشه أو على فراش خديجة رضي الله عنها ملتفًّا باللِّحاف، فالجو بارد، والخوف يزيد الإنسان قشعريرةً وانتفاضًا، والنبي صلى الله عليه وسلم قلق من هذا الأمر الطارئ في حياته.

* ﴿وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ﴾:

لم يأمره ربه أن يقوم الليل كله، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم لا يقوم الليل كله، إلا في العَشْر الأواخر من رمضان، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان إذا دخل العَشْرُ، شَدَّ مِئْزَرَهُ، وأَحْيا ليلَهُ، وأَيْقَظَ أهلَهُ»[2].

وكان صلى الله عليه وسلم في سائر أيامه يصلِّي وينام؛ كما في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألونَ عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبروا، كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر! قال أحدُهم: أما أنا فإني أُصلِّي الليلَ أبدًا. وقال آخرُ: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطرُ. وقال آخرُ: أنا أعتزلُ النساءَ، فلا أتزوجُ أبدًا. فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم**

---

(1) ينظر: «فتح القدير» (5/ 378)، و«روح المعاني» (15/ 114)، و«التحرير والتنوير» (29/ 281).

(2) أخرجه البخاري (2024)، ومسلم (1174).

لله، لكني أصومُ وأُفْطِرُ، وأصلِّي وأَرْقُدُ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمَن رغبَ عن سنتي فليسَ منِّي»[1].

فخيَّره الله سبحانه بين أن يقوم نصف الليل أو يَنقص منه قليلًا؛ فيقوم ثلث الليل، أو يزيد على الثلث قليلًا؛ فيقوم ثلثي الليل، وينام ثلثه.

* ﴿أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾:

﴿أَهْلَكْنَآ﴾: يجوز أن يكون هذا هو القليل، أي: نم قليلًا هو النصف أو أقل من النصف بقليل أو أكثر من النصف بقليل.

ويجوز أن يكون المعنى: قم الليل، قم نصفه أو أقل من النصف بقليل أو أكثر من النصف بقليل. والمؤدَّى واحد، والمقصود بيان أن الآية الثانية والثالثة تعود إلى ﴿كَلَمْحٍ﴾ الذي يُقام، أو إلى ﴿أَهْلَكْنَآ﴾ الذي ينام[2].

* ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ﴾:

عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل، ولذلك لم يقيِّد ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ بمثل ما قيَّد به النقص بقوله: ﴿أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾؛ لتكون الزيادة على النصف متَّسعةً[3]، وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى قام حتى تَفَطَّر رجلاه، فقلتُ له:

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (5063)، و«صحيح مسلم» (1401).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 268)، و«الكشاف» (4/ 636- 637)، و«تفسير القرطبي» (19/ 35)، و«فتح القدير» (5/ 378).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 358)، و«تفسير الماوردي» (6/ 126)، والمصادر السابقة.

يا رسولَ الله، أتصنعُ هذا وقد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! فقال: « **أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**»[1].

والتخيير المستفاد من حرف ﴿ وَكُلٌّ ﴾ منظور فيه إلى تفاوت الليالي بالطول والقصر؛ لأن لذلك ارتباطًا بسعة النهار للعمل، ولأخذ الحظ الفائت من النوم.

وفي ذلك توسيع على النبي صلى الله عليه وسلم برفع حرج تحديده لزمن القيام، فسُلك به مسلك التقريب.

وأمره سبحانه: ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾؛ مع أنه لم يكن قد نزل عليه من القرآن إلا سورة أو سورتان أو ثلاث، وهي: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾، و﴿تُكَذِّبَانِ﴾، و﴿ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾، و﴿أَمۡرُنَآ﴾، ولم تكن هذه السور قد نزلت كاملة؛ لأن بعض السور- كهذه السورة- لم ينزل آخرها إلا في المدينة[2]، **فالمراد إذًا**: رتِّل ما أُنزل عليك من القرآن، وما سوف ينزل[3].

والترتيل: حسن التلاوة بإرسال الكلام من الفم بسهولة واستقامة[4].

وأصله من: الرَّتَل، يقال: جاء القوم أرتالًا، أي: مجموعة بعد أخرى، ومنه: رتل الأسنان، وهو أن يكون بين كل سن والتي تليها فراغ[5]، وهذا نوع من الجَمَال، حتى إن بعض الناس يتكلَّفونه، وهو ما نهى عنه النبيُّ صلى الله عليه وسلم[6].

---

(1) أخرجه البخاري (1130)، ومسلم (2820).

(2) كما تقدم في أول السورة.

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 260).

(4) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص341)، و«لسان العرب» (29/ 32) «ر ت ل».

(5) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 683)، و«التحرير والتنوير» (29/ 260).

(6) ينظر: «صحيح البخاري» (5931)، و«صحيح مسلم» (2125).

والمقصود: أن تقرأ القرآن بتدبُّر وترسُّل، وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن بتدبر، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها، أن قراءةَ النبي صلى الله عليه وسلم كانت مفصَّلة حرفًا حرفًا[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سُئل عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «كانت مَدًّا». ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، يمدُّ ﴿اللَّهِ﴾، ويمدُّ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾، ويمدُّ ﴿الرَّحِيمِ﴾[2].

ولما قال رجلٌ لابن مسعود رضي الله عنه: إنني قرأتُ المفصَّل البارحة. قال له: «هَذًّا كَهَذِّ الشِّعر!»[3].

وكان من عادة العرب السرعة في إلقاء الشِّعر، وكما تلحظون اليوم أن كثيرًا ممن يلقون الشِّعر يهذُّونه هذًّا؛ إظهارًا لإتقان الحفظ، أو سرعته البديهية بارتجال الشِّعر، لكن القرآن ليس كهيئة الشِّعر، فهو كتاب للتدبر، وكتاب لحياة الأمم؛ فحقه أن يرتل ترتيلًا، دون عجلة ولا تسرع.

والترتيل يعني أيضًا: تدبر القرآن، والوقوف عند آياته، وترديد بعضها[4]، وقد قام النبيُّ صلى الله عليه وسلم ليلةً حتى أصبح بآية واحدة يردِّدها ويبكي؛ وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: 118][5].

---

(1) أخرجه أحمد (26526)، وأبو داود (1466)، والترمذي (2923)، والنسائي (2/ 181)، وابن خزيمة (1158)، والحاكم (1/ 232، 309).

(2) أخرجه البخاري (5046).

(3) أخرجه البخاري (5043)، ومسلم (822).

(4) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 250)، و«فتح القدير» (5/ 379).

(5) أخرجه أحمد (21328، 21388، 21495)، وابن ماجه (1350)، وابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (48)، والنسائي (2/ 177)، والحاكم (1/ 241)، والبيهقي (3/ 20) من حديث أبي ذر رضي

وأكثر المسلمين اليوم غافلون عن قراءة القرآن إلا في المناسبات والمآتم؛ يجتمعون حول قارئ حسن الصوت تنشغل أسماعهم بالاستمتاع بجمال الصوت، متشاغلين بذلك عن تدبره والخشوع عند تلاوته.

وكثير ممن يقرؤون يغلب على قراءتهم الحَدْر الشديد الذي يفوت معه التدبر؛ استعجالًا لختم القرآن، كما في رمضان، وكم من القرَّاء يقرأ بترتيل وتجويد ويقف عند معاني الآيات ويعرض قلبه وسلوكه وحياته عليها؟!

وهذه الآيات أخذ منها جماعة أن الله تعالى أوجب على نبيه صلى الله عليه وسلم قيام الليل؛ ليكون زادًا في طريقه ودعوته[1].

ويحتمل أن يكون حكم ذلك صار إلى الاستحباب؛ لقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ [الإسراء: 79][2].

وهذا لا فائدة من بحثه الآن؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى أن لقي ربه كان يقوم أكثر الليل، ولا يترك قيام الليل إلا لعارضٍ من مرضٍ أو غلبة نوم أو نحو ذلك.

قال كثير من أهل العلم: كان المؤمنون مخاطبين بقيام الليل، وقد أوجب عليهم سنةً أو أكثر، ثم خفّف عنهم بعد ذلك، **وقيل**: نزل التخفيف بالمدينة[3].

الله عنه. وقال ابن خزيمة (1/ 271): «إن صح الخبر». وينظر: «أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم» (2/ 534- 538).

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 358)، و«تفسير الماوردي» (6/ 125)، و«تفسير الرازي» (30/ 681)، و«تفسير القرطبي» (19/ 34)، و«التحرير والتنوير» (29/ 258).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 37)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 250)، و«تفسير القرطبي» (19/ 34)، والمصادر السابقة.

والأقرب أن الأمر بالنسبة للمؤمنين كان استحبابًا[1]، ولم يكن واجبًا عليهم شيء قبل الصلاة المكتوبة، إلا ركعتان قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، كما نُقل في كتب السير[2]، فلم يكن قيام الليل واجبًا عليهم وجوبًا متعينًا، وإن قال بهذا بعض أهل العلم.

* ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾:

وكأن هذا تعليل لأمره له بالقيام الطويل، وأن يصفَّ قدميه ثلث الليل أو نصف الليل أو ثلثيه يخاطب ربه ويرتِّل القرآن.

والإلقاء يستخدم في الكلام، فتقول: ألقى محاضرةً أو خطبةً أو قصيدة، لكنه في الأصل يعني: إلقاء الشيء الثقيل، كأن تقول: ألقى حجرًا أو حملًا بشِدَّة وقوّة[3]، فهو إشارة إلى القول الثقيل، **والمقصود**: الوحي الموجَّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم[4]، وسماه تعالى: ﴿﴿٥٣﴾ إِنَّ﴾ **بالنظر إلى أمور**:

1- ثقل استقباله على النبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء في قصة بدء الوحي، حين جاءه المَلَك فقال له: «**اقرأ. قال: ما أنا بقارئ**». فأخذه وغطَّه حتى بلغ منه الجَهْد[5].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعاني من التنزيل شدة؛ حتى إنه ربما نزل عليه الوحي وهو على الناقة، فبركت حتى يفرغ الوحي[1].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 279).

(2) ينظر: «الروض الأنف» (2/ 284)، و«سبل الهدى والرشاد» (2/ 298).

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص745)، و«بصائر ذوي التمييز» (4/ 441)، و«التحرير والتنوير» (29/ 261).

(4) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 38)، و«فتح القدير» (5/ 379)، والمصادر السابقة.

(5) تقدم تخريجه عند قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا﴾.

وربما نزل عليه الوحي- كما تقول عائشة رضي الله عنها- في اليوم الشديد البرد، فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينهُ ليتفصَّدُ عرقًا مثل الجُمان[2]، أي: مثل حبات اللؤلؤ من جبينه صلى الله عليه وسلم.

وثبت أن الوحي نزل عليه مرةً وفخذه على فخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه، حتى كادت ترضُّها من ثقلها[3].

إن الوحي اتصال بالملأ الأعلى، واستقبال رسالة من عند الله تبارك وتعالى؛ ولهذا كان له ثقل على جسد النبي صلى الله عليه وسلم، فهو قولٌ ثقيل.

2- وهو قول ثقيل باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم مطالب بأن يقرأه ويحفظه، وأن يُبلِّغه إلى الناس؛ ولذلك كان جبريلُ عليه السلام إذا قرأ القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم حرَّك النبيُّ صلى الله عليه وسلم شفتيه؛ خشية أن ينسى شيئًا[4]، ثم نُهي عن ذلك، وقال الله تعالى له: ﴿□□□□□□□﴾ [القيامة: 17].

3- وهو ثقيل باعتبار تبعاته من الأوامر والنواهي والتكليف، والأمر بالدعوة والبلاغ وإقامة الحجة وتبليغ الدعوة والصبر على الناس، وما يتوجب عليه من الالتزام بهذا القرآن والعمل به.

4- وهو ثقيل باعتباره قولًا فصلًا ليس بالهزل، ثقيل المقدار والقيمة، وأنت تقول: هذا كلامٌ ثقيل. وتقصد أنه ليس كلام سفسطة ولا سفاسف، وإنما له وزن

---

(1) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (7/ 53).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (2، 2661)، و«صحيح مسلم» (2770).

(3) أخرجه البخاري (2832) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما. **وترضّها**: تدقّها.

(4) أخرجه البخاري (7524)، ومسلم (448) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيمة، وهكذا القرآن فيه لبُّ العلم والمعرفة، قال الله عز وجل: ﴿ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ [العنكبوت: 49].

5- وهو ثقيل بمعنى أنه ثابت لا يتغير، فهو ثابت ثبوت الجبال الثِّقال الراسيات، فالقرآن مُحكَم كله، وإن كان فيه المتشابه، كما قال الله: ﴿صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [ص: 29]، ﴿بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [هود: 1].

6- وهو قولٌ ثقيلٌ من جهة أنه باقٍ عصي على محاولات التحريف والتبديل التي يحاولها أقوام إلى اليوم، فيبقى القرآن ثقيلًا في رسوخه وثباته، وتذهب كل هذه المحاولات أدراج الرياح.

7- وهو ثقيلٌ في الميزان عند الله تعالى يوم القيامة، وثقيل في الأجر والثواب، سواء في تلاوته أو العمل به، فمَن قرأه فله بكل حرف عشر حسنات[1]. وكذلك هو حجة للعامل به، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**والقرآنُ حجةٌ لك أو عليكَ**»[2].

وقد أخذ الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية أن تكاليف الدِّين كلها ثقيلة، وقد سُئل عن مسألة، فقال: «لا أدري». فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة. فغضب، وقال: «ليس في العلم شيءٌ خفيفٌ، أما سمعتَ قوله جل ثناؤه: ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ﴾، فالعلم كله ثقيل، وبخاصة ما يسأل عنه يومَ القيامة»[3].

وكيف نوفق بين هذا، وبين قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: 17]؟

---

(1) كما في «جامع الترمذي» (2910)، و«المستدرك» (1/ 554)، و«شعب الإيمان» (1831) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (660، 3327).

(2) أخرجه مسلم (223) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(3) ينظر: «ترتيب المدارك» (1/ 184- 185)، و«أدب المفتي والمستفتي» (ص80).

الجواب: أنه ثقيلٌ باعتبار، وميسَّر باعتبار آخر، وهو ثقيلٌ على قوم لم يرد الله لهم الهداية، وميسَّر على مَن أراد الله تعالى أن يفتح على قلوبهم.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**كلمتان خفيفتان على اللِّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحانَ الله وبحمده، سبحانَ الله العظيم**»[1].

فوصفها بأنها ثقيلة وأنها خفيفة، فهي ثقيلة باعتبار أجرها، وخفيفة باعتبار سهولة نطقها وقصرها، وأنت تجد هذا في القرآن؛ فهو ميسَّر للحفظ، يحفظه صغار الأعاجم، مع أنهم لا يحسنون العربية، ومن الناس مَن يعجز عن الحفظ، لكن تجد عنده سلاسة في قراءة القرآن.

ومن تيسيره: وضوح معانيه في معظم آياته، وسهولة أوامره وأحكامه؛ لموافقتها للفطرة، ووضعها الآصار والأغلال عن المكلَّفين.

ومن تيسيره: أن عقائده لا تعقيد فيها ولا غموض، فيسهل على كل أحد أن يفهم التوحيد وأصول الإيمان.

* ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٍ﴾:

﴿جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ هي: أوقات الليل المختلفة، وهذا مذهب الأكثرين[2].

وقيل: المقصود: صلاة الليل[3]، **والناشئة** هي التي تنشأ، يقال: أنشأ الشيء: إذا ابتدأه[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: 35]، فـ﴿جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ هي أوقات الليل المتنوعة.

---

(1) أخرجه البخاري (6406)، ومسلم (2694) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 366)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 240)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 61)، و«تفسير القرطبي» (19/ 39)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 252).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص679)، و«تفسير الماوردي» (6/ 127)، والمصادر السابقة.

ويحتمل أنها القيام بعد النوم، فيكون ذلك مخصوصًا بأن يستيقظ بعد نومه.

والقول الأول هو مذهب الأكثرين، واختاره مالك وغيره[2]، فيكون المقصود: أن الصلاة في أوقات الليل كلها وإنشاء الذكر والعبادة فيها أفضل من النهار؛ لأنها أشد كُلفة وتعبًا؛ فالوطء والمواطأة معناها: التعب، تقول: وَطِئه التعبُ، ووطئه الأمرُ، إذا شقَّ عليه وكلَّفه، وقيام الليل فيه تعب وعناء، فالنفوس تخلد في الليل إلى الراحة، والنوم يداعب الأجفان، فمقاومة ذلك والقيام لله تعالى فيه وطء على النفس وشدة.

ومن معانيها: أنها أشد أثرًا في النفس، ومنه آثار المواطئ أو آثار الأقدام في الأرض[3]، فكأن قلب الإنسان مثل الأرض، وقيامه في الليل كآثار الماشين والعابرين على هذه الأرض، يترك وَسْمًا وعلامة لا تُنسى، ويظل الإنسان يحنُّ إلى هذه الأوقات التي يخلو بها بربه ويناجيه، وهي أبعد عن أعين الناس وأسلم من الرِّياء، وهذا يجعلها ثقيلة عند قوم ومؤثِّرة[4].

أما كونها ثقيلة؛ فلأن من الناس مَن قد يقوم بالعبادة؛ ليُذكر بها، فيفعلها رِياءً، ومن الناس مَن يستسهل العبادة إذا كان مع الآخرين؛ ولهذا شرع الإسلام صلاة الجماعة؛ لأن الإنسان ينشط فيها ما لا ينشط إذا كان منفردًا، فهذا يجعلها شاقة، ولكنه

---

(1) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 328)، و«تفسير الرازي» (30/ 684)، و«تفسير القرطبي» (19/ 39).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 373)، و«تفسير القرطبي» (19/ 40)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 424)، و«فتح القدير» (5/ 379)، و«التحرير والتنوير» (29/ 262).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 41)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 315)، و«فتح القدير» (5/ 380)، و«التحرير والتنوير» (29/ 262- 263).

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 273)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 1510)، و«تفسير البغوي» (8/ 253)، والمصادر السابقة.

يجعل أثرها أعظم؛ لأن المصلِّي يخلو بربه ويخاطبه ويناجيه، وربما بكى أو دمعت عينه أو استحضر معنى آية وهو يدري أن لا أحد يسمعه ويراه إلا الله.

ومن معانيها: أنها أشد مواطأةً وموافقةً بين ما تقوله بلسانك وما تستشعره بقلبك، أو تفكر فيه بعقلك[1]؛ فإن قارئ القرآن ربما قرأ وقلبه غافل، حتى إنك لتجد بعضهم يقرأ سورة ثم ينتقل إلى سورةٍ أخرى لا علاقة لها بها، فتتداخل الآيات والسور بسبب غلبة النوم وشدة الإجهاد، أو الغفلة والسرحان.

أما قوله: ﴿صِدْقٍ عِندَ﴾ أي: قرآن الليل أكثر استحضارًا، فيقل خطأ القارئ[2]؛ لأن المواطأة تحصل بين اللسان والقلب والعقل، فتجمع قوى النفس كلها، في هدوء الليل دون إزعاج ولا أصوات ولا حركة أقوام يدخلون ويخرجون؛ فيكون أكثرًا خشوعًا، والذين يحفظون القرآن ويرددونه ويراجعونه يجدون في الليل فرصة وإدراكًا وفتوحًا لا يجدونها في النهار.

وقد لا تكون الآية خاصة بتلاوة القرآن، بل بالصلاة كلها، والمصلِّي في الليل يقوم ويركع ويسجد، ويسبِّح ويحمد ويشكر ويطيل في ذلك، ويتدبر المعاني، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك، فكان الله تعالى يفتح عليه من المعاني ما لم يكن في البال، وقد جاء في الحديث أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم ذكر يوم القيامة فقال: «**فأحمدُه بمحامد لا أقدر عليه الآن، يُلهمُنيه الله**»[3].

فهي إذًا أقوم قيلًا في القرآن وفي التسبيح وفي الدعاء وفي الاستحضار.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 370)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 315)، و«التحرير والتنوير» (29/ 263).

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص493)، و«تفسير الطبري» (23/ 373)، و«تفسير القرطبي» (19/ 41)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 252).

(3) أخرجه البخاري (7410)، ومسلم (193) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

* ﴿مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾:

السَّبْح الطويل: من جوامع الكَلِم القرآني، وكلمة السَّبْح مأخوذة من سَبَحَ يسبح؛ لأن الإنسان الذي يسبح في الماء يحرك كل جسده في الماء ويمضي فيه لا يعترضه ما يعوقه، واستعير ذلك لجري الخيل، فسمِّيت: السابحات.

وقيل: السَّبْح: الفراغ، أي: فراغًا طويلًا لحوائجك في النهار، فافرغ لصلاتك بالليل، والسَّبْح هو الضرب في الشؤون كلها[1].

ووصفه بالطويل إشارة إلى بركة الوقت، وأن الليل والنهار خِلْفَة، فما فاتك هنا تعوِّضه هناك، وإذا أحسن الإنسان استثمار الوقت كان بركة وإنجازًا ومتعة في الوقت ذاته، وأكثر ما يقضي على الوقت إضاعته عند أناس، وقتله عند آخرين، وإن من الناس مَن يستطرد في أحاديث أو ثرثرة لساعات طويلة دون أن يشعر، فإذا كان في أمر جِدٍّ، فإنه يستثقل الوقت حتى لو كان بضع ساعات، وهذا مثل قوله: ﴿ ۝١٦ ﴾ [الشرح: 7- 8]، أي: انصب في عبادة الله سبحانه وارغب إليه في الذكر والتسبيح والصلاة وقراءة القرآن في الليل[2].

وفي «سورة ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو﴾» جعل الله النهار هو مقصد الحديث، فقال: ﴿ ۝١٦ ﴾.

فإذا فرغت من عمل النهار فانصب في الليل وارغب إلى الله؛ لأن الليل يأتي بعد احتدام الدعوة، وانشغال النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الناس وانهماكه فيه، أما في هذه السورة فالدعوة ما زالت في بدايتها؛ ولهذا جعل الله الليل هو مقصد الحديث،

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 42)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 315)، و«التحرير والتنوير» (29/ 263- 265).

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 433)، و«تفسير السعدي» (ص929).

فقال: ﴿وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ﴾، باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتهيَّأ لأمر جَلَل، وخَطْبٍ عظيم، ومواجهة الناس بهذه الدعوة التي علم الله ماذا سوف يكون من مواجهة الناس لها، وماذا سوف يكون من أثرها العظيم في البشرية كلها إلى قيام الساعة.

* ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ﴾:

أي: اذكره بلسانك[1]، و﴿ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ هنا المقصود به جنس الأسماء، أي: اذكر أسماء ربك وأوصافه وجلاله وكمالاته سبحانه[2]، كما في قوله: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ [الأعلى: 1]، فهنا أمرٌ بأن يذكر النبي صلى الله عليه وسلم أسماء الله عز وجل ويُوحِّده ويحمده.

وفي آية أخرى ذكر تعالى الذكر في النَّفْس، فقال: ﴿□□□□﴾ [الأعراف: 205]، فهذا ذكر القلب، وكلا الأمرين المقصود به المواطأة، فتذكر ربك بقلبك وتذكره بلسانك، مع المواطأة، بحيث يكون مع ذكر اللسان استحضار عظمة مَن تناجي.

والمقصود: اذكر اسم الله في قيام الليل، واذكره أيضًا في النهار؛ ولهذا صح عن عائشة رضي الله عنها، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يذكرُ اللهَ على كُلِّ أحيانه[3]، أي: في كل حال، كما قال تعالى: ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: 191].

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 639)، و«تفسير الرازي» (30/ 686)، و«تفسير أبي السعود» (9/ 51)، و«التحرير والتنوير» (29/ 265).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 43)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 466)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 387).

(3) أخرجه مسلم (373).

وهكذا المؤمن لا يفتر لسانه عن: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، على كل حال، حتى عند تقلب الطقس؛ كهبوب ريح ونحو ذلك، أو إن رأى شيئًا يعجبه قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، وإذا سأله أحد عن حاله قال: الحمد لله. فلا يزال لسانه رَطْبًا بذكر الله.

والتَّبَتُّل: الانقطاع، أي: انقطع إلى ربك، ولا تذكر غيره، ولا تعبد إلا الله[1]، ففيه معنى الوحدانية.

ومن معاني التبتل: الانقطاع عن الزواج؛ ولهذا يقال لمريم عليها السلام: البتول؛ لأنها انقطعت عن الرجال فلم تتزوج[2].

وبعضهم يسمون فاطمة رضي الله عنها بنت النبي صلى الله عليه وسلم: البتول[3].

وهذا إن أريد به العبادة، فقد كانت كذلك، وبناءً عليه نستطيع أن نقول أيضًا: عائشة البتول، وخديجة البتول.. وهكذا، وفضل فاطمة رضي الله عنها عظيم، ومقامها كبير، وهي من سيدات نساء الأمة[4].

وبيان فضيلة أحد من الرجال أو النساء لا يعني مصادرة فضيلة الآخرين، ففضل فاطمة رضي الله عنها عند جميع المؤمنين عظيم، وهي بنت نبينا صلى الله عليه

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 377)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 276)، و«تفسير الماوردي» (6/ 128)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 366)، و«تفسير البغوي» (8/ 255)، و«تفسير القرطبي» (19/ 44)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 255).

(2) ينظر: «تهذيب اللغة» (14/ 207)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 332)، و«غريب الحديث» لابن الجوزي (1/ 54)، و«لسان العرب» (11/ 43)، و«تاج العروس» (28/ 52) «ب ت ل».

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 80)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (21/ 14)، و«روح البيان» (10/ 211).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (3624)، و«صحيح مسلم» (2450).

وسلم، ونحن نحبها أكثر من بناتنا وأكثر من أخواتنا وأكثر من أمهاتنا، وفي الوقت ذاته فإن عائشة رضي الله عنها هي بالمحل الأرفع؛ لأنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، وهي أحب نسائه إليه، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم[1].

* ﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ﴾:

أي: تبتَّل إليه، وأفرده بالعبادة؛ لأنه ﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ بمعنى: رب الآفاق مشرقها ومغربها؛ مشرق الشمس ومغربها، ومشرق القمر ومغربه.

والجمع بينها وبين ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ﴾ [الرحمن: 17]، و﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ﴾ [المعارج: 40] مبسوط في «سورة المعارج».

ومن معانيها: ربُّ وقت الشروق ووقت الغروب، فإنه يسمى: مشرقًا ومغربًا[2].

والله سبحانه هو ربُّ الزمان وربُّ المكان، ولكن تعبير ﴿بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ أبلغ؛ لأنه إشارة إلى تحول الأحوال وتغيرها، ففيه إشارة إلى طلوع الشمس وإلى غروبها، وطلوع الشمس وغروبها يكون به الليل والنهار، وفي ذلك انتقاص من عمر الإنسان، فهي دعوة إلى تدارك الوقت واستغلاله، وأنه ينبغي ألا تغيب عليك الشمس ولا تطلع إلا وأنت في خير، كما كان بعض السلف يقول: «إذا طلعت عليَّ الشمسُ أو غربت وأنا لست في خير، فلا بُورك لي في ذلك اليوم».

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3662، 3772، 4358، 7100، 7101)، و«صحيح مسلم» (2384).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 267).

وفيه إشارة إلى ربوبية الله، وأنه خالق الزمان والمكان، وهذا ما كانوا يؤمنون به في الجاهلية من حيث المبدأ النظري؛ ولهذا عقَّب عليه سبحانه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فانتقل من الأمر المقرر الذي يؤمنون به وهو الربوبية، إلى الأمر الجديد الذي يُجادلون فيه، وهو الألوهية، وأَلَّا يُعبد إلا هو، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65].

وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي: توكَّل عليه، فقرن بين العبودية وبين التوكل، والتوكل من العبودية، ولكنه يُجمع معها في القرآن في مواضع كثيرة، كما في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: 123]؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب لتحقيق العبودية واستمرارها، ودفع ما يطرأ على النفس وعلى الحياة من عوارض.

واتخاذه وكيلًا سبحانه لا يعني القعود، كما يظن بعض الناس؛ لأن الله تعالى أمره بقيام الليل، وهذه عبادة، وأمره بالسَّبْح الطويل في النهار، وهذا عمل، فالتوكل يكون مع استيعاب الأسباب كلها والقيام بها، وليس هو التواكل وترك العمل، كما يظنه بعض العوام الذين يقعدون ويتركون العمل، ويظنون أن السماء تمطر عليهم ذهبًا أو فضة أو جنودًا يقاتلون عنهم.

وكم جنى هذا الفهم السقيم للتوكل على المسلمين وأخَّرهم عن ركب الحضارة والمدنية؛ فقد تحوَّلوا من متوكِّلين إلى متواكلين، وكان العدو إذا طرق بلادهم اجتمعوا في الجوامع يقرؤون القرآن أو يقرؤون «صحيح البخاري»، ويظنون أن قراءة القرآن في المسجد أو قراءة «صحيح البخاري» في المسجد تدفع شرَّ العدو الذي بات يحاصرهم ويدك حصونهم، والله تعالى أمرهم أن يواجهوا الأسباب بما يكافئها، حتى الرسل والأنبياء عليهم السلام أُمروا بذلك.

* ﴿ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ﴾:

أمره بالصبر، وما أكثر ما يتردد ذكر «الصبر» والأمر به في القرآن الكريم! وكثير من الناس قد لا يدركون فضل الصبر، ولو سُئل كل الناجحين عن سرِّ نجاحهم، لأجمعوا على الصبر؛ ولهذا ختم الله سبحانه صفات الناجين بقوله: ﴿▯▯﴾ [العصر: 3]، فالإيمان يحتاج إلى صبر، وعمل الصالحات يحتاج إلى صبر، والحق يحتاج إلى صبر، والصبر يحتاج إلى صبر.

أمره بالصبر على ما يقولون؛ لأنهم كانوا يقولون قولًا عظيمًا مؤلمًا، كقولهم: ﴿ ٱلۡمِيزَانَ ﴾.. ﴿▯﴾.. ﴿ ٢ ﴾.. ﴿ أَلَّا ﴾[1]، وهو أطهر الناس وأصدقهم وأعقلهم وأكملهم، فكان أمرًا شاقًّا على النفس، وأحدنا يجد في حكاية ذلك عنهم ثقلًا وانزعاجًا، فكيف والنبي صلى الله عليه وسلم يسمعه منهم ويبلغه عنهم، بل هو يُواجه هذا العناء من بعض أقرب الناس إليه!

وظُلْمُ ذَوِي القُرَبى أَشَدُّ مَضاضَةً *** على المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ[2]

وخص الصبر على القول؛ لأن أكثر ما كانوا يؤذونه به هو الإيذاء بالقول، ويظنون أن هذا سيضطره إلى الكَفِّ عن الدعوة، ولأن القول الرديء أشد وقعًا على النفس من كثير من الأفعال، وهذا مجرَّب معروف، والقول يقدر كل أحد أن يقول ويردِّده، بخلاف الفعل، فإنه لا يطيقه إلا أصحاب القوة والرئاسة فيهم.

وفي الآية سرٌّ بديع؛ حيث جمعت بين الصبر، والهجر.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة القلم»: ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ﴾.

(2) ينظر: «ديوان طَرَفة بن العبد» (ص27).

وذكر في «شرح المعلقات التسع»- المنسوب خطأ إلى أبي عمرو الشيباني- (ص73)، و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لأبي بكر الأنباري (ص209)، و«شرح القصائد العشر» لأبي زكريا التبريزي (ص93) عدم صحة نسبته إلى طَرَفة بن العبد، وإنما هو لعدي بن زيد العِبَادي، ونسبه إليه في «عيون الأخبار» (3/ 101)، و«الصداقة والصديق» (ص124)، وغيرهما.

فهي قد حوت أصول معاملة الناس؛ إما أن تخالطهم فتصبر عليهم، أو تهجرهم فتسلم منهم، والنبي صلى الله عليه وسلم أُمِر أولًا أن يصبر على ما يقولون، أي: أن يخالطهم ويصبر على أذاهم، وهذه هي وصيته صلى الله عليه وسلم: «**المؤمنُ الذي يخالطُ الناسَ، ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم، ولا يصبرُ على أذاهم**»[1].

فإن من شأن الناس الأذية، إلا مَن رحم الله، وأنت واحد منهم، تُؤذِي الناس مثلما يؤذونك، وكما أنك تشتكي من زوجتك، فزوجتك تشتكي منك، وتشتكي من جارك، وجارك يشتكي منك، وزميلك في العمل تشتكي منه، ويشتكي منك، وأخوك لأمك وأبيك تشتكي منه، ويشتكي منك، فما من إنسان إلا وهو يُؤذِي ويُؤذَى، إلا مَن رحم الله، وقد يؤذِي بغير قصد، لكن بحكم القصور ونوازع النفس البشرية.

وزهَّدني في الناس معرفتي بهم *** وطُولُ اختباري صاحبًا بعدَ صاحبِ

فلم تُرِني الأيامُ خِلًّا تسـرُّني *** مباديه إلا ساءني في العواقبِ

ولا صِرتُ أدعوهُ لدفعِ ملمَّةٍ *** من الدهر إلا كان إحدى النوائبِ[2]

والأمر الثاني: أن تهجر الناس، وليس المقصود هنا: أن يتركهم كليّةً، كلا**!** لأنه صلى الله عليه وسلم مطالب بأن يغشاهم في مجالسهم، ويدعوهم إلى الله، فليس هجرًا مطلقًا بمعنى: أنه لا يكلمهم، وإنما هجر مقالاتهم ومجادلاتهم، فلا تدخل معهم في جدل عقيم.

---

(1) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ...﴾ [الحديد: 27].

(2) ينظر: «الحلة السيراء» لابن الأبار (ص103)، و«المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية (ص49) منسوبًا إلى المعتصم بالله بن صمادح الأندلسي.

ونُسب أيضًا إلى ابن الرومي، ينظر: «ديوان ابن الرومي» (ص246).

وهذا يُشبه ما قاله الله تعالى لمريم عليها السلام: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: 26].

وكما أمره الله بالصبر الجميل، أمره أيضًا بأن يكون هجره هجرًا جميلًا، والهجر الجميل: هو الذي لا يصحبه جفاء ولا إغلاظ ولا سبٌّ(1).

فبعض الناس يهجر أخاه المسلم لأمر من أمور الدنيا، حتى لو كان زميله أو شقيقه أو صديقه، فلا يكلِّمه ولا يستجيب لدعوته، وهذا محرَّم، فقد جاء في الحديث: «**لا يحلُّ لمسلم أن يهجرَ أخاه فوقَ ثلاث**»(2).

وبعض الناس لا يكون هجره جميلًا؛ لأنه إذا ذكر عنده في مجلس سبَّه واغتابه، فإذا كان ورعًا ولا يريد أن يغتابه قال: اتركوه، الله يستر علينا وعليه. وهذه غيبة مبطنة؛ مثل قول بعضهم: لا نريد أن نغتاب. فهي من أشد الغيبة؛ لأنه يعني أن للغيبة فيه مجالًا واسعًا، ولكننا ورعون عافون كافّون! ولو أردنا أن نقول فهناك مجال للقول.

وقد وَجَدتَ مكانَ القَولِ ذا سَعَةٍ *** فإن وَجَدتَ لِسانًا قائِلًا فَقُلِ(3)

وهذا من أعظم التوجيهات الربانية للدعاة؛ لأن كثيرًا من المصلحين يدخلون في هذا المعترك، فيأخذ من جهدهم وأعمارهم، والعمر محدود، والطاقة محدودة، فالدخول في معارك كلامية أو إعلامية تحفز إليه دوافع التوضيح والرد، وفي حالات عديدة يكون مباحًا وربما مشروعًا، ولكن حظوظ النفس تفسده وتجعله ضررًا على الداعية حين

---

(1) ينظر: «مدارج السالكين» (2/ 160).

(2) أخرجه البخاري (6065، 6077، 6237)، ومسلم (2558، 2560) من حديث أنس وأبي أيوب رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «شرح شعر المتنبي» (2/ 73)، و«محاضرات الأدباء» (1/ 455)، و«التذكرة الحمدونية» (4/ 66)، و«الحماسة المغربية» (1/ 453).

يكون كلامه دفاعًا عن نفسه أكثر مما يكون بيانًا للحق أو نقضًا للباطل، ومَن جرَّب عرف[1]!

ومن المهم أن نتذكر أن أمر الدعوة والتعليم والبناء والإصلاح هو أمر ابتدائي، نقوم به في بناء الحياة، وتعليم الناس ونشر الأخلاق والقيم، وتوجيه الضالين وهداية الحائرين وإجابة السائلين، دون أن نُلزم أنفسنا بأن نكون وقودًا لمعارك إعلامية أو كلامية يكثر فيها التعدِّي والسِّباب، وقد يكون ثمة مَن يحاول أن يُسلِّط هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء، فيتحول الناس إلى احتراب وتنازع، في حين أن الدعوة تتطلب الحلم والصبر الجميل والهجر الجميل أيضًا.

* ﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ﴾:

﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: لا تشتغل بهم، واتركهم لي[2]، ولم يذكر مكذِّبًا واحدًا، كما في «سورة المدثر»: ﴿□□□□□﴾، وإنما ذكر مجمل المكذِّبين، ولم يسمِّ في القرآن من هؤلاء الكافرين الذين كانوا أحياء إلا أبا لهب، أما بقيتهم فقد ذُكرت صفاتهم دون تعيين أشخاصهم؛ لعلهم أن يهتدوا ويصلحوا، وحفاظًا على أولادهم وأسرهم ألا يتأثروا أو يتضرروا بذكرهم.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟﴾ أي: أصحاب النَّعْمة، المرفَّهين، المنعَّمين، المستمتعين المترَفين[3].

---

(1) وينظر حول ذلك: «شكرًا أيها الأعداء» للمؤلِّف.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 381)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 371)، و«زاد المسير» (4/ 355)، و«تفسير أبي السعود» (9/ 51)، و«فتح القدير» (5/ 381)، و«تفسير السعدي» (ص892)، و«التحرير والتنوير» (29/ 269).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 477)، و«تفسير الطبري» (23/ 381)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 243)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 511)، و«تفسير الماوردي» (6/ 129)، و«زاد المسير» (4/ 355)، و«تفسير القرطبي» (19/ 45)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 256).

وهذا فيه تعريض بهم، إذ لم يشكروا النعمة، ولا أَدَّوْا حقها، ولا شكرها، وإنما زادتهم كبرًا وعتوًّا وترفعًا أن يؤمنوا بدين أكثر أتباعه من الضعفاء والمساكين.

﴿ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ أي: وقتًا يسيرًا[1]، والحياة الدنيا كلها قليل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ [النساء: 77]، ولم يُحدِّد هنا: هل هي الدنيا كلها، فيكون الإمهال إلى الموت، أو الإمهال إلى يوم توعَّدهم الله فيه بالنَّكال الشديد، فيكون ما أصابهم يوم بدر هو موعدهم الذي أنظرهم الله تعالى فيه في هذه السورة؟

* ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو﴾:

هذا من توابع الإمهال؛ وهو وإن كان عذابًا موعودًا في الآخرة أو في البرزخ بعد موتهم وقبل بعثهم، إلا أنه من «الإمهال».

نعم أمهلهم، لأهوال كثيرة تنتظرهم:

منها: الأَنْكال، وهي جمع: نِكْل، وهي القيود التي تكون في الأرجل[2]، وكأن هذا في مقابل أنهم كانوا يضربون في الأرض، تنعُّمًا وترفًا، فلهم يوم القيامة أنكال وقيود تُوضع في أرجلهم فلا يتحركون.

ولدينا: جحيم؛ وهي النار التي تُكْوَى بها أجسادهم؛ جزاء كفرهم وصدِّهم عن دين الله.

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 511)، «تفسير السمعاني» (6/ 81)، و«فتح القدير» (5/ 381)، و«تفسير القاسمي» (9/ 343).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 382)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 241)، و«تفسير البغوي» (8/ 255)، و«المحرر الوجيز» (5/ 389)، و«تفسير القرطبي» (19/ 46).

وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (10/ 138)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص825)، و«تاج العروس» (31/ 33) «ن ك ل».

ولدينا: طعام ذو غُصَّة، يَغَصُّ به الحلق؛ كالشَّوك والغِسلين والزَّقُّوم، فيغصّون به فيَنْشَب في حلوقهم، بدلًا من الطعام اللذيذ الذي كانوا يتمتعون به في الدنيا[1].

ولدينا: **عذاب أليم**؛ إشارة إلى أن الألم ينتظرهم في مقابل اللَّذَّة، وهم قد منعتهم اللذات من الإيمان.

* ﴿ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ﴾:

سينالون ذلك العذاب في اليوم الذي ترجف فيه الأرض والجبال، وقد كانوا يرون الأرض راسية بتلك الجبال لا تضطرب ولا تميد، فهي يوم القيامة ترجف وتميد، وترجف الجبال معها وقد كانت من قبل سببًا في ثبات الأرض ورسوِّها وحفظ توازنها.

﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ أي: تتحول بعد الرجفة إلى رمل مجتمع، وليس كالرَّمل الذي يعرفه الناس، وإنما هي رمال مهالة، والإهالة: النثر، ومنه إهالة التراب على الميت، فهو ذاهب في الهواء كالتراب الذي يُهال من أعلى[2].

وقد ورد في مواضع أخرى تشبيهُ الجبال بأنها تكون كالسَّراب، وكالعِهن[3]، وهي أوصاف متقاربة لموصوف واحد، أو هي دلالة على تحول الجبال، فتكون أوصافًا مختلفة في أوقات مختلفة.

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 255)، و«المحرر الوجيز» (5/ 389)، و«تفسير القرطبي» (19/ 46)، و«التحرير والتنوير» (29/ 271).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 385)، و«الكشاف» (4/ 641)، و«تفسير الرازي» (30/ 690)، و«تفسير القرطبي» (19/ 47)، و«التحرير والتنوير» (29/ 272).

(3) كما في قوله تعالى: ﴿﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [النبأ: 20]، وقوله: ﴿□□□□﴾ [المعارج: 9، القارعة: 5].

* ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾:

﴿ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ﴾ أي: يبيِّن لكم الحق، ويُبَلِّغكم رسالة الله، وينصح لكم، وهو شاهد عليكم يوم القيامة إن آمنتم أو كفرتم[1].

﴿ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾: وهذه أول مرة يذكر فيها ﴿مِّن﴾ في القرآن من حيث ترتيب النزول؛ فهذه السورة من أوائل ما نزل.

وهنا ذكر تعالى اسم ﴿مِّن﴾، ولم يذكر اسم الرسول؛ لأن المقام مقام تهديد للكافرين، وخصوصًا كبارهم، وقد كان أبو جهل يُعرف بـ«**فرعون هذه الأمة**»[2]، وكان المشركون في مكة يُشْبِهُونَ آلَ فرعون في كثير من مقالاتهم، فكان فرعون يعترض ويحتج على أن يُختار موسى بالرسالة، فيقول: ﴿وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ﴾ [الزخرف: 52- 53]، وكذلك قالت قريش، كما حكى الله عنهم: ﴿تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن﴾ [الزخرف: 31]، وكانوا يفتخرون بأموالهم وأنهم أولو نَعْمة، وكان ثمة الملأ الكبار والسادة الذين يتآمرون ويحاولون أن يصرفوا عقول الناس عن الإيمان، وأن ينشروا بينهم قالة السوء، ومن هنا كان مناسبًا ذكر فرعون ومصيره، مع الإشارة إلى الرسول موسى عليه السلام، مع أنه كثيرًا ما يُذكر في القرآن قصة موسى وفرعون؛ لوجود شبه كبير

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 389)، و«فتح القدير» (5/ 382).

(2) كما في «مسند الطيالسي» (326)، و«مسند أحمد» (4246)، و«السنن الكبرى» للنسائي (5/ 432) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

حتى في المصير، وإهلاك الله تعالى لأعدائه، وقيام الأمر والدعوة، ووجود أمة كبيرة تتبع موسى، وأثر دعوته العظيم، وهو من أولي العزم من الرسل[1].

* ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾:

ذكر ﴿رَبِّكُمَا﴾ هنا معرفًا؛ لأنه ذكر قبل، **والمقصود هنا**: الأخذ الدنيوي الذي عرفوه، مع ما يدَّخِرُه الله له في الآخرة من العذاب الشديد: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر: 46]، أي: أخذًا حاضرًا قويًّا شديدًا عاجلًا، فهذا هو الذي ينتظركم إن لم تؤمنوا[2].

* ﴿ ﴾:

سؤال استنكاري عام للناس كلهم: هل تستطيعون إذا كفرتم بالله ورسوله، ولم تؤمنوا بالحساب أن تتقوا ما تشاهدونه من العذاب والأَنْكال والجحيم والأغلال، وقد فات وقت الإمهال؟ كيف تنجون من يوم ﴿ ﴾؟ وهذا من بديع الوصف!

وقد أخذ بعض الأدباء والشعراء هذا المعنى وتصرَّفوا فيه، حتى قال الصِّمَّة بن عبد الله القُشيري[3]:

ذَرانيَ من نَجْدٍ فإنَّ سِنِينَه *** لعبْنَ بنا شِيبًا وشَيَّبْنَنا مُرْدَا

وقال الآخر[4]:

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 273).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 387)، و«الكشاف» (4/ 641)، و«تفسير الرازي» (30/ 690)، و«تفسير القرطبي» (19/ 48)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 256)، و«فتح القدير» (5/ 382).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (2/ 92)، و«أمالي ابن الشجري» (2/ 261)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (8/ 63).

(4) ينظر: «الأمثال السائرة من شعر المتنبي» (ص31)، و«أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه» (ص138)، و«مجاني الأدب في حدائق العرب» (4/ 107).

والهمُّ يَخْتَرِمُ الجَسِيمَ نَحَافَةً *** ويُشِيبُ ناصِيَةَ الصبيِ ويُهْرِمُ

لكن شتَّانَ شتَّانَ ما بين القرآن وما بين كلام الناس!

إن الإنسان لا يشيب في الدنيا في يوم ولا في عشر سنوات، وإنما في عشرات السنين، أما في يوم القيامة فيشيب في يوم؛ ربما لطوله، وربما لهول ما فيه، وقد أطلق وصف «الشَّيْبِ» ليشمل كل آثار الشيخوخة في الشعر والجسد والروح..

فهنا قال تعالى: ﴿□□□□﴾ أي: يشيب الصغار مباشرةً من ذلك اليوم وأهواله[1].

* ﴿□□□□□□□□□﴾:

﴿□ □ □□﴾ أي: بذلك اليوم، كما في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾، ﴿مِن مُّدَّكِرٖ ۝٥١ وَكُلُّ﴾.

وعبَّر بالمذكَّر، ولم يقل: «منفطرة»، إما لأن السماء يجوز فيها التذكير والتأنيث، كما قال بعض أهل اللغة[2]، وإما على إرادة السقف[3]، وقد قال الشاعر[4]:

إذا نَزَلَ السماءُ بأَرضِ قَومٍ *** رَعَيناهُ وإن كانوا غِضَابا

أي: إذا نزل المطر، فقد تُذكَّر السماء، باعتبار ما يراد منها، كما إذا أريد منها المطر أو أريد منها السقف، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ [الطور: 5].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 388)، و«تفسير البغوي» (8/ 256)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 257)، و«التحرير والتنوير» (29/ 275).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 199)، و«لسان العرب» (14/ 399)، و«الإتقان» (2/ 345)، و«التحرير والتنوير» (29/ 276).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 389)، و«زاد المسير» (4/ 356)، و«تفسير الرازي» (30/ 693)، و«تفسير القرطبي» (19/ 51).

(4) ينظر: «تحرير التحبير» (ص458) منسوبًا إلى جرير، و«جواهر البلاغة» (ص301) منسوبًا إلى معاوية بن مالك.

ويجوز فيما يظهر أن التأنيث على إرادة الجمع، أي: السماوات منفطرة.

﴿□□□﴾ أي: وعد ذلك اليوم حق واقع لا ريب فيه.

ويحتمل المعنى: كان وعد الله لكم بالبعث والنشور والجزاء والحساب مفعولًا لا ريب فيه[1].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□﴾:

أي: أن هذه الآية، أو هذه السورة، أو هذه الشريعة، تذكرةٌ لكم جميعًا، فتذكروا، وهي تذكرة، حتى لأولئك الذين أعرضوا وكذَّبوا وهدَّدوا وتوعَّدوا، فيعرض الله تبارك وتعالى عليهم طريق الأوبة إليه[2].

﴿□□□□□□﴾ فالأمر بأيديهم وبمقدورهم، وهم حينما يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: 35] كاذبون، فما الذي أدراهم أن الأمر متعلِّق بالمشيئة قبل أن يفعلوا؟! ولِمَ لم يعتقدوا أن الهداية والصلاح بمشيئة الله أيضًا؟! وهذا ما تبيِّنه الآية الكريمة، أن بمشيئتهم أن يتخذوا سبيلًا للطاعة يوصِّلهم إلى الله[3].

ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولو أرادوا الهداية لسلكوا سبيلها.

وهذا القسم الأول من السورة نزل بمكة.

ثم جاءت خاتمتها بالآية الطويلة التي نزلت بالمدينة على **الراجح**؛ لأن سياق هذه الآية الكريمة سياقٌ مدنيٌّ، كما هو ظاهر[4]؛ وهي قوله تعالى:

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 51)، و«فتح القدير» (5/ 383).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 287- 288)، و«تفسير القرطبي» (19/ 51)، و«فتح القدير» (5/ 385).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 578)، والمصادر السابقة.

(4) كما تقدم أول السورة.

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾:

فهذه من ثواب الله للنبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا، بعد سنواتٍ طوال من القيام والتهجد والتبتل والتضرع والتخشع والعبودية، ويكفيه أن يقول له ربه: إنه يعلم بنصبه وقيامه، كما قال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ [الشعراء: 217- 219]، فالله يعلم أنك تقوم نصف الليل، وتقوم ثلثه، وتقوم أقل من ثلثيه، كما أمرك ربك جَلَّ وعَزَّ.

﴿مُّدَّكِرٖ ۝٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ﴾ معية الصحبة والطاعة والاتِّباع والتأسِّي.

ويحتمل أن يكون المقصود: الذين يقومون ولو في بيوتهم ممن آمن معك.

أو الذين يقومون الليل معك مُؤْتَمِّين بصلاتك منصتين لقراءتك(1)، فربما توارد الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فصَلَّوْا بصلاته، كما في الحديث، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم اتخذَ حجرةً من حصير في رمضان، فصلَّى فيها ليالي، فصلَّى بصلاته ناسٌ من أصحابه، فلما علم بهم جعل يقعد، فخرج إليهم فقال: «**قد عرفتُ**

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (22/ 385)، و«الكشاف» (4/ 643)، و«تفسير الرازي» (30/ 694)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 320)، و«التحرير والتنوير» (29/ 282)، والمصادر الآتية.

الذي رأيتُ من صنيعكم، فصلُّوا أيها الناسُ في بيوتكم؛ فإن أفضلَ الصلاة صلاةُ المرء في بيته إِلَّا المكتوبةَ»[1]. وفي حديث آخر: «**لكني خشيتُ أن تفرضَ عليكم، فتعجزُوا عنها**»[2].

والمقصود: ثمة أناس يصلون معك، وقد يكونون من أزواجه أو من خاصة أصحابه، فكانوا يُصلون معه في السفر أو في الحضر، فالله تعالى يقول: هذه الطائفة ربك يعلمهم ويحصي قيامهم، ويكتب لهم الأجر والثواب، ويمنحهم هذه الفضيلة وهذا الشرف أن يذكرهم في كتابه بصحبة نبيه وقيامهم نصف الليل أو ثلثه أو نحوًا من ثلثيه[3].

﴿فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ﴾: **والتقدير**: تقليب الليل والنهار، فيزيد هذا وينقص ذاك، فيختلف الصيف عنه في الشتاء[4].

ومن هنا قال سبحانه: ﴿وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ﴾، **وأصل الإحصاء**: العدُّ بالحصى، فقد كان العرب يستخدمون الحصى في العدِّ، فسُمِّي: إحصاءً[5]، **والمقصود**: لن تضبطوه ضبطًا تامًّا؛ لأن الليل لا ينضبط، ولا يستطيع الإنسان أن يعرف على

---

(1) أخرجه البخاري (731)، ومسلم (781) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (924، 1129)، ومسلم (761) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 392)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 512)، و«البحر المحيط في التفسير» (19/ 482)، و«روح المعاني» (15/ 124)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 53)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 258)، و«فتح القدير» (5/ 385)، و«تفسير القاسمي» (9/ 344). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص659).

(5) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 283).

وجه الدقة: كم ثلث الليل، وكم نصفه، ولا يعرف متى يبدأ ثلث الليل الآخر، فمثل هذه الأمور لا يستطيع أن يحصيها المرء بدقة[1].

ومن معنى ذلك: أنه لن يستقيم لكم القيامُ بالأمر على وجهه التام[2]؛ فالإنسان يُصيبه المرض والعجز والانشغال، وتضعف همته؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «**إن لكُلِّ عابدٍ شِرَّةً، ولكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ**»[3].

فالعابد أحيانًا يقوى ويندفع ويتحمَّس، وأحيانًا يصيبه فتور وقعود وملل وسأم، وهذه جِبلَّة جبل الله تعالى العباد عليها.

وفي الآية درس عظيم، وهو: أن على الإنسان أن يكون معتدلًا، فلا يَشُقُّ على نفسه، ولا يُحمِّلها ما لا تطيق، ولا يثقل عليها، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**اكْلَفُوا من العمل ما تُطيقونَ**»[4]. أي: تكلَّفوا العمل الذي تستطيعونه، ولا تشُقُّوا على أنفسكم أو تحمِّلوها أثقالًا.

وكم من الناس مَن حمَّل نفْسَه ما لا تطيق، ففُتن والعياذ بالله! كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عن بني إسرائيل في تعبدهم في الصوامع وانحرافهم عن دين الله[5].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 53)، و«فتح القدير» (5/ 385)، و«تفسير السعدي» (ص894).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 394)، و«تفسير القرطبي» (19/ 53)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 320)، و«فتح القدير» (5/ 385).

(3) أخرجه أحمد (6764، 6477)، وابن خزيمة (2105)، وابن حبان (11) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأصله في «صحيح البخاري» (5052).

وأخرجه الترمذي (2453)، وابن حبان (349) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) أخرجه البخاري (6465)، ومسلم (782) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأخرجه البخاري (1966)، ومسلم (1103) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(5) كما في «سنن أبي داود» (4904)، و«مسند أبي يعلى» (3694) من حديث أنس رضي الله عنه قال: إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «**لا تشدِّدوا على أنفسكم، فيُشَدَّدَ عليكم، فإن قومًا شدَّدوا على**

وهذا الاعتدال منهج مطلوب في العبادة والدعوة والعمل والجهاد وغير ذلك؛ فلا تحَمِّل نفسك ما لا تطيق، ولا تحَمِّل الآخرين ما لا يطيقون، فتكلفهم وتشقَّ عليهم، وتَعَلَّم كيف تسوس زوجتك وتتعامل معها دون أن تشقَّ عليها، وتَعَلَّم كيف تعامل أولادك في البيت، وممَّ تمنعهم وبماذا تأمرهم، وكيف تربِّيهم، وتَعَلَّم كيف تعامل طلابك في المدرسة أو جيرانك أو عامة الناس.

وهذا يتأكد لمَن يخاطبون جماعات متنوعة ليست على طبيعة واحدة، بل هي طبقات وفئات وشعوب ومستويات في عصر الخطاب المعولم في القنوات الفضائية أو الإذاعات أو الشبكات الاجتماعية أو المواقع الإلكترونية أو الكتابة، فعَسْفُ الناس على المشقات لا خير فيه، والرفق بهم مأمور به محمود؛ ولهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**سدِّدُوا وقاربوا**»[1].

وقال في حديثٍ آخر: «**إنكم لن تُطيقوا كلَّ ما أُمرتم به**»[2]. أي: لن تطيقوه كله، فما من أحد من الناس إلا ويقع عنده تقصير أو عجز أو انشغال أو فتور في الهمة، والنفس البشرية تنتابها حالات مختلفة، وعلينا أن نراعي هذا في نفوسنا وفي الآخرين.

﴿ٱلْمُتَّقِينَ فِى﴾ أي: سامحكم وغفر لكم، وحطَّ عنكم بعض ما أمركم به سبحانه، ولم يجعل قوله: ﴿وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ [المزمل: 2- 4] أمرًا حرفيًّا يشق عليكم ويعنتكم، أو

أنفسهم فشدَّدَ اللهُ عليهم، فتلك بقاياهم في الصَّوامع والدِّيار ﴿ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا﴾ [الحديد:27]».

(1) أخرجه البخاري (6467)، ومسلم (2818) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) أخرجه أحمد (17856)، وأبو داود (1096)، وأبو يعلى (6826) من حديث الحكم بن حَزْن الكُلَفي رضي الله عنه. وينظر: «البدر المنير» (4/ 632- 634).

يتحول عند بعضكم إلى محاسبة للنفس دقيقة، تتحول إلى العجز أو الوسوسة أو الانقطاع.

﴿وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ﴾: قد يكون هذا في الصلاة؛ لأن الآية نزلت بعد فرض الصلوات الخمس في المدينة؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: لما فرضت الصلوات الخمس سقط عنهم وجوب قيام الليل[1]، فمن هنا قال: ﴿وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ﴾ أي: في صلاة الفريضة[2].

وقال بعضهم: أي: في صلاة المغرب والعشاء، أو صلاة العشاء وصلاة الفجر[3].

و﴿۝٥٤ فِي﴾ يصدق على كل قدر من القرآن تتيسر قراءته.

ولكن صحَّ في السنة- كما في حديث عبادة رضي الله عنه- أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**لا صلاةَ لِمَن لم يقرأْ بفاتحة الكتاب**»[4]. فسورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يتعيَّن على كل مصلٍّ أن يقرأها في كل ركعة[5]، إلا أن يكون غير قادرٍ على قراءتها لحَدَاثَةِ عهده بالإسلام، أو لكونه أبْكَم، فيسقط عنه ذلك، أو يكون مأمومًا في الصلاة الجهرية فتكفيه قراءة إمامه، فإن سكت الإمام بين قراءة الفاتحة والسورة الأخرى قرأ في سَكَتَاتِه، وإلا فلا شيء عليه.

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 643)، و«فتح القدير» (5/ 386).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 395)، و«تفسير الماوردي» (6/ 132)، و«تفسير القرطبي» (19/ 57)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 65)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 377)، و«تفسير البغوي» (8/ 257)، و«زاد المسير» (4/ 356)، و«تفسير الرازي» (30/ 694)، و«فتح القدير» (5/ 386).

(4) أخرجه البخاري (756)، ومسلم (394).

(5) ينظر: «المجموع» (3/ 327)، و«المغني» (1/ 344). وينظر: «فقه العبادة» (2/ 169- 174).

والتعبير بـ﴿فِي ﴿٥٤﴾﴾ يشير للتيسير والتسهيل، وأن تقرأ ما حفظت، حتى من قصار المفصَّل، والرجل الذي قرأ: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾، قال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «حُبُّك إيَّاها أدخلكَ الجنةَ»[1]. وقال في الحديث الآخر: «﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ تعدلُ ثلثَ القرآن»[2]. مع أنها من قصار السور.

وكذلك «سورة العصر» فقد ورد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا التقوا، ثم أرادوا أن يفترقوا، قرأ أحدهم: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾...﴾ حتى يختمها[3].

وهذا متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ [القمر: 40]، وشاهد على تعهده سبحانه وتكفله بحفظ القرآن، ولكن من الناس مَن يشق عليهم الحفظ؛ لانشغالهم أو لكبرهم أو لكونهم لا يجدون في أنفسهم قدرةً عليه.

﴿مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ﴾: والمرضى محتاجون إلى النوم والرِّفق، ويشقُّ عليهم القيام، وكان عددهم أول الأمر قليلًا، والأعذار بينهم محصورة باعتبارهم جماعة ناشئة، ولكن الله علم أنهم سيكثرون ويزيدون وتتنوع ظروفهم وأحوالهم، فيحتاجون إلى التوسعة في التشريع، وهكذا يظهر الفرق البيِّن بين جماعة صالحة نشأت واحتضنت الشباب تربية ودعوة، فمن أعظم الخطأ أن تغفل عن أن طبيعة مجتمع الناس من حولها مختلفة عن طبيعتها، ولا يمكن انتظام الخلق كلهم في

---

(1) أخرجه أحمد (12432)، والبخاري معلقًا (1/ 155)، والترمذي (2901)، وابن خزيمة (537)، وابن حبان (792)، والضياء في «المختارة» (5/ 128- 129) (1750) من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (5013- 5015) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ومسلم (811، 812) من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(3) سيأتي تخريجه في «سورة العصر».

مجموعات أو جماعات، فيظل الناس على عادتهم وبساطتهم وسذاجتهم، ولا بد من توسيع أبواب العذر وتفهم ظروفهم.

﴿ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: **والمقصود**: المسافرون؛ لأن الذي يمشي يضرب الأرض بقدميه، باعتبار أنه يمشي على قدميه، ثم أصبح ذلك معنى لكل مَن يسافر، كما قال الله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: 101]، أي: إذا سافرتم، وهذا أيضًا من الأعذار الموجِبة للتخفيف، فالسفر والغربة قطعة من نار[1]، وقد لا يتيسر للمسافر المسكن ولا الطعام الذي يريد؛ ولذا خُفِّف عنه الصوم والصلاة.

﴿۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ﴾: وهذا الاصطلاح يُقصد به: الرزق والتجارة[2]، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198]، أي: في الحج، فلا بأس بالبيع والتجارة في الحج[3].

ولذلك إذا دخل الإنسان المسجد قال: «**اللهمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتك**». وإذا خرج قال: «**اللهمَّ إني أسألُكَ من فضلك**»[4]؛ لأنه انتقل من العبادة إلى شؤون المعاش.

(1) كما في «صحيح البخاري» (1804)، و«صحيح مسلم» (1927) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**السفرُ قطعةٌ من العذاب**».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 396)، و«فتح القدير» (5/ 386)، و«تفسير السعدي» (ص894)، و«التحرير والتنوير» (29/ 286).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (3/ 502)، و«تفسير البغوي» (1/ 228)، و«تفسير القرطبي» (2/ 413)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 549).

(4) أخرجه مسلم (713) من حديث أبي حُميد أو أبي أُسيد الأنصاري رضي الله عنه.

وهكذا قال سبحانه في يوم الجمعة: ﴿مُّسۡتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ﴾ [الجمعة: 10]، أي: انشغلوا بالتجارة وطلب المعاش بعد أن مُنعتم من ذلك بخطبة الجمعة وصلاتها: ﴿وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ﴾ [الجمعة: 9].

والناس مطالبون بأن يضربوا في الأرض طلبًا للرزق والمعاش، وقد أحلَّها الله لهم وسلَّطهم عليها، بل جعل هذا من أبواب الخير، وقرنها بالقتال في سبيله دفاعًا عن دينه، فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ أي: في جهادٍ شرعي لحماية البَيْضة وإقامة الدولة، فجمع الله تعالى بينهما.

وهذا فيه إشارة وتوكيد على أهمية الضرب في الأرض، والاشتغال بالزرع والحرث والتجارة وأعمال الدنيا التي لا بد للناس منها، وهي سبب للرزق والاستغناء عن الناس، كما هي سبب للصحة والنشاط والحيوية وسعادة القلب.

والآية أشارت للجهاد في سبيل الله، ولعلها إرهاص وتعبئة للمؤمنين أن أسباب هذا الجهاد قد انعقدت وقرُب فرضها دفاعًا عن أنفسهم، قبل أن ينزل قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن﴾ [الحج: 39].

﴿٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ يعني: من القرآن، ﴿٧ أَلَّا﴾ أي: الصلوات الخمس المفروضة التي أصبحت واجبةً عليكم[1]، فلا تُقصروا فيها حضرًا ولا سفرًا، سواء كنتم مرضى أو غير مرضى.

﴿تَطۡغَوۡاْ فِي﴾ يا مَن تضربون في الأرض تبتغون من فضل الله، فالصلاة حق النفس في العبادة، والزكاة حق المال.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 479)، و«تفسير القرطبي» (19/ 58)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 259)، و«التحرير والتنوير» (29/ 287).

﴿ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: فوق الزكاة، **والقرض**: هو العطاء، أي: أعطوا لله تعالى، وسماه: قرضًا، مع أن المال من عنده سبحانه، **والمقصود**: أن تتصدَّقوا، ليوفيكم يوم القيامة أجورًا مضاعفة، فأعطوا الفقير والمسكين وابن السبيل، شيئًا فوق الزكاة، فهو على سبيل الندب والاستحباب، أو على سبيل الوجوب إذا وُجد ما يدعو إلى ذلك، مثل: أوقات الضرورات، والفاقة، والحاجة الشديدة، فإنه يتعيَّن ويتوجَّب على أهل الغنى واليَسار أن يرفقوا بإخوانهم المسلمين؛ لقول الله: ﴿ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، وسماه: ﴿ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ لئلا يكون فيه مِنَّة، وليكون طيبًا غير خبيث[1]، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ [البقرة: 262]، وقال: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [البقرة: 267].

﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ أي: ستجدون ما قدمتم عند الله تعالى خيرًا مما قدمتموه، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

ولم يحدِّد الأجر هنا؛ لأن هذا يختلف بحسب صِدْق النية، وبحسب الفاقة والحاجة، وبحسب الغنى، وقد جاء في الصحيح: «**سَبَقَ درهمٌ مئةَ ألف درهم**»[2]. وصحَّ عنه صلى الله عليه وسلم لما سُئل: أيُّ الصدقة أفضلُ؟ قال: «**جُهْدُ المُقِلِّ**»[3].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 288).

(2) أخرجه أحمد (8916)، والنسائي (5/ 59)، وابن خزيمة (2443)، وابن حبان (3347)، والحاكم (1/ 416) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه أحمد (8702)، وابن زنجويه في «الأموال» (1334)، وأبو داود (1677)، وابن خزيمة (2444، 2451)، وابن حبان (3346)، والحاكم (1/ 414) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (566)، و«إرواء الغليل» (834).

والتاجر بطبعه يميل للحساب، ويقارن بين الفرص التجارية؛ ولذا أكدَّ أنهم سيجدونه ولن يضيع، بل سيجدونه خيرًا وأعظم مما أعطوه، وفي الآية الأخرى حدَّد لهم نسبة الربح بدقة؛ ليحسنوا الأمور جيدًا، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: 261].

﴿(١١) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَىِّ﴾: أمر بالاستغفار في ختم العبادة؛ إشعارًا للنفس بتقصيرها؛ حتى لا يدخلها العُجب بالعمل، ولأنه قال: ﴿وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ﴾ أي: لن تحصوا الصلاة ولا العمل ولا القرض، ولكن ابذلوا وقدِّموا واستغفروا الله على التقصير؛ ولهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا[1].

وهكذا في الحج أمرنا الله بأن نستغفر الله ونحن نتقلب بين المناسك: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)﴾ [البقرة: 199]، فقد كان صلى الله عليه وسلم يستغفر، كما استغفر ليلة جَمْع، يعني: ليلة مزدلفة[2].

لقد شرع الله الاستغفار عقب الأعمال الصالحة؛ لأن العمل قد يُداخله نقص أو انشغال أو انصراف ذهن، أو تقصير في الطهارة، أو في حضور القلب، أو في النية، أو في أشياء ربما يذهل عنها، زد على ذلك أن العبد مهما عمل فإنه يظل مقصرًا، قال الله: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن ﴾ [عبس: 23].

---

(1) أخرجه مسلم (591) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(2) ينظر: «صحيح مسلم» (1218).

ثم إن الاستغفار يقطع الطريق على العُجب بالعمل أن يتسلَّل إلى القلب، ويشعر المستغفِر أنه على تقصير ونقص مهما اجتهد في الإتقان.

فكفى بالإنسان إثمًا أن يقدِّمَ عملًا ثم يتبعه بالإدلال[1] على ربه بهذا العمل، أو يظن أنه أدَّى ما عليه، أو قام بما يلزمه، ولو أنه قضى عمره كله في سجدة واحدة لربه ما أدَّى شكر نعمته، ولكنه يطلب منا القليل، ويسامحنا على الكثير، ويوصينا أن نستغفره عقب الأعمال الصالحة، وإذا كان الله يأمر محمدًا صلى الله عليه وسلم والصحابة وأمهات المؤمنين بعد قيام الليل وبعد صيام النهار وبعد القرض الحسن أن يستغفروه فكيف ونحن أصحاب الذنوب والإسراف والظلم؟!

أستغفر الله العلي العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.



(1) أي: المنة والافتخار. ينظر: «تاج العروس» (28/ 501- 502) «ب ت ل».

سورة المدثر

*** تسمية السورة:**

هي من السور ذات الاسم الواحد، كما في المصاحف، وكتب التفسير والسير والحديث: «**سورة المدَّثِّر**»[1].

*** عدد آياتها:** ستٌّ وخمسون آية عند أهل الشام وأهل المدينة، وخمس وخمسون عند أهل الكوفة والبصرة[2].

وهذا الاختلاف لا يعني زيادة في أحرف القرآن أو نقصانًا، فهم يختلفون أحيانًا في بعض الآيات، فإنها قد تُقسم عند بعضهم إلى آيتين، وعند آخرين هي آية واحدة.

*** وهي مكية** بإجماع أهل العلم، ذكره ابن عطية، وغيره[3].

ورُوي عن مقاتل وغيره في إحدى آيات هذه السورة أنها نزلت بالمدينة؛ وهي قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ (٩) وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ (١١) وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ

---

(1) ينظر: «تفسير الشافعي» (3/ 1411)، و«صحيح البخاري» (6/ 161)، و«جامع الترمذي» (5/ 428)، و«تفسير الطبري» (23/ 400)، و«المستدرك» (2/ 506)، و«تفسير البغوي» (8/ 260)، و«تفسير القرطبي» (19/ 59)، و«التحرير والتنوير» (29/ 291).

(2) وقد اختلفوا في آيتين: ﴿□□□□﴾، و﴿□□□﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص258)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص318)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 392)، و«زاد المسير» (4/ 358)، و«تفسير القرطبي» (19/ 59)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 509)، و«التحرير والتنوير» (29/ 391).

ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ □□□□□□□□□﴾، وهو غريب[1].

وهي أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فترة الوحي.

وقد جاء في «الصحيحين» ما يدل على أن أول ما نزل من القرآن: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فروى جابر رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال- وهو يحدِّث عن فترة الوحي-: «**بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراءٍ جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فرُعِبْتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زمِّلوني زمِّلوني**». فأنزل الله تعالى: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ...﴾، فحمي الوحي وتتابع[2].

ولكن في هذه الرواية ما يؤكِّد أن «سورة ﴿٢﴾» هي أول ما نزل؛ لأن حديث جابر فيه ذكر المَلَك الذي جاءه بحراء، وقد جاءه في حراء بـ«سورة ﴿٢﴾»، وفيه أنه قد عرفه، وأنه طلب من خديجة أن تزمِّله، ثم حمي الوحي بعد ذلك.

فعلى هذا يكون معنى أول ما نزل «سورة المدثر»، أي: أول ما نزل بعدما فَتَرَ الوحي، فقد جاء الوحي أول ما جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بـ﴿٢﴾، ثم فَتَرَ- كما في حديث عائشة رضي الله عنها- ثم عاوده الوحي بـ«سورة المدثر»، فهذا هو الجمع بين الأقوال، وهو الصحيح، كما رجَّحه عامة علماء التفسير والسير[3].

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 358)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 324)، و«التحرير والتنوير» (29/ 391).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4، 4925)، و«صحيح مسلم» (161).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 527- 532)، و«تفسير الماوردي» (6/ 309)، و«المحرر الوجيز» (5/ 501)، و«تفسير الرازي» (30/ 600)، (32/ 215)، و«تفسير القرطبي» (1/ 116)، (20/ 117)،

وهو ما يقتضيه النظر؛ فإنه صلى الله عليه وسلم نُبِّئ بـ﴿(٢)﴾، وأُرسل بـ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، فكانت ﴿(٢)﴾ نبوءة له، وكانت ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ رسالة، فقيل له: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾.

وهذه المدة التي فَتَرَ فيها الوحي، قال بعضهم: إنها سنتان. وهذا خطأ، **والصواب**: أنها أيام، **قيل**: خمسة عشر يومًا، **وقيل**: كانت نحوًا من أربعين يومًا، وهو **الأقرب**[1].

وهي سورة النِّذارة، وقد نزلت ولم يكن يومئذٍ قرآنٌ يُتلى عند الناس، فكل معانيها جديدة وقوية ومؤثِّرة.

* ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾:

أي: المتدثِّر[2]، **والدِّثار**: الغطاء[3]، وما كان تَدَثُّر النبي صلى الله عليه وسلم إلا من فُجاءة الوحي الذي لم يكن يرتقبه، فأصابه بسبب ذلك رعب ورهبة.

وفيه إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن متطلِّعًا إلى شيءٍ مما أعطاه الله إيَّاه، وقد كان في مكة والجزيرة العربية مَن يتطلَّع إلى النبوة ويشرئب إليها، كأمية بن

و«تفسير ابن كثير» (1/ 103)، (8/ 261، 436)، و«فتح الباري» (1/ 28)، (8/ 678، 714- 718)، و«التحرير والتنوير» (29/ 58)، (30/ 433)، وما سيأتي في أول «سورة العلق».

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 731)، و«تفسير الرازي» (31/ 192)، و«تفسير القرطبي» (20/ 92)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (1/ 414)، و«التحرير والتنوير» (29/ 293)، (30/ 443)، و«التفسير البياني للقرآن الكريم» (1/ 36).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 400)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 54)، و«تفسير القرطبي» (19/ 59)، و«فتح القدير» (5/ 388)، و«التحرير والتنوير» (29/ 294).

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص308)، و«لسان العرب» (4/ 276)، و«تاج العروس» (11/ 272) «د ث ر».

أبي الصَّلْت[1]، فاختار الله تعالى نبيًّا لم يكن هذا أَمَلَه ولا من طَلَبِه ولا من تَطَلُّعِه، فلم يكن يتطلَّع إلى مجد أو مكانة، ووجَّه إليه خطابًا خاصًّا مباشرًا، أي: أنت على وجه التعيين والتحديد مَن اختارك الله من بين جميع البشر، وقد جاء في الحديث: «**إن الله نَظَرَ إلى أهل الأرض، فَمَقَتَهُم، عَرَبهم وَعَجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»[2]. ثم نظر فوجد قلب النبي صلى الله عليه وسلم أصفاها وأصدقها وأصحها فاختاره لهذه الرسالة العظيمة.

والدِّثار: الثوب، وهو مقابل الشِّعار الذي يلي الجسد، وسمِّي: شِعارًا؛ لأن الإنسان يشعر به، وأما الثوب الذي يراه الناس فيسمَّى: دِثارًا[3]، كما جاء في الحديث الصحيح: «**الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثارٌ**»[4]. أي: الأنصار مثل الثوب الذي يلي جسدي، والمقصود بهذا: قرب الأنصار من النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه إشارة إلى أنهم لن يكونوا أصحاب رئاسة وسلطة وولاية، فعلاقتهم به روحية صرفة[5].

بناءً على هذا فيمكن أن يكون المقصود بالتدثر هنا: ما دثَّره الله به وخصَّه وأعطاه من النبوة والعلم والوحي[6]، فالثوب لا يُطلق فقط على الثوب المادي، بل يُطلق على

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (4/ 306)، و«تفسير البغوي» (3/ 303)، و«تفسير القرطبي» (7/ 320)، و«التحرير والتنوير» (9/ 174).

(2) أخرجه مسلم (2865) من حديث عِياض بن حمار رضي الله عنه.

(3) ينظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلَّام (1/ 311)، و«لسان العرب» (4/ 276) «د ث ر»، و«فتح القدير» (5/ 388)، و«التحرير والتنوير» (29/ 294).

(4) أخرجه البخاري (4330)، ومسلم (1061) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

(5) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (7/ 157)، و«فتح الباري» (8/ 52).

(6) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 404)، و«تفسير الرازي» (30/ 697)، و«تفسير القرطبي» (19/ 61)، و«التحرير والتنوير» (29/ 294).

الثوب الحسِّي وعلى الثوب المعنوي، كما قال: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن ﴾، وكثيرًا ما يُطلق الثوب على السُّمعة والمال والجاه والمظهر، كما قيل:

مُدَثَّر برداء الوحي جلَّله *** نورٌ من الله لا صوف ولا خزفٌ

وفي تفسير ﴿أَمَرُنَآ﴾ مزيد بيان في المقارنة بينهما.

* ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن ﴾:

الأمر هنا ليس طلبًا للقيام فحسب، بل هو دعوة للشروع في جهاد تبليغ الرسالة، فأنت عند ما تقول: فلان قام بهذا الأمر، أو وَلِيَ هذه الولاية، فقام بها خير قيام، فليس المقصود أنه قام على قدميه، وإنما أدَّى عمله على أكمل وجه[1].

وتتضمن الكلمة: القيام من النوم، وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم قليل النوم بعد ذلك، وفي الآيات الأخرى يخاطبه الله فيقول: ﴿وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ ﴾ [المزمل: 2]، فكان صلى الله عليه وسلم لا ينام من الليل إلا قليلًا.

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم هذا الأمر، وباشر الإنذار والصَّدْعَ بالدعوة، فقام على الصفا وقال: «**يا صباحاهْ!**». فاجتمعت إليه قريشٌ، فقال: «**إني نَذِيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد**»[2].

أمره أن ينذر، ولم يبيِّن مَن هم الـمُنذَرون، فلم يقل: «أنذر أهل مكة، أو العرب، أو الناس»، وإنما قال: «أنذر»؛ ليكون ذلك شاملًا لكل الناس، عَرَبهم وعَجَمهم، حاضرهم وقادمهم، فكانت هذه الآية دليلًا على شمولية رسالته وخلودها.

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 697)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 325)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 262)، و«التحرير والتنوير» (29/ 294).

(2) أخرجه البخاري (4801)، ومسلم (208) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ولم يبيِّن بِمَ يُنْذِر؟ فلم يقل: «أنذرهم النار»، أو «أنذرهم الموت»، أو «أنذرهم العقاب»، وترك الأمر مفتوحًا؛ ليشمل كل ما يُنذر به من العذاب في الدنيا والآخرة، فمع هذا الاختصار في اللفظ إلا أنه يدل على الشمولية والتوسع في كل ما يُنذر.

وهذه الآية متضمنة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ووظيفته في الحياة.

*** وتضمنت السورة الكريمة سبع وصايا، هي من جوامع الحِكَم والأوامر الربانية، وهي للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكل العلماء والدُّعاة والمصلحين؛ لشدة حاجتهم إليها، وهي:**

1- **القيام بهذا الأمر والحرص عليه والاستعداد لتبليغه**، وليس مجرد الشعور العابر، فقد كان يوجد في الجاهلية الحنفاء، من أمثال: زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأُميَّة بن أبي الصَّلْت، وكانوا يستنكرون عبادة الأوثان، ويرفضون كثيرًا من معتقدات الجاهلية الفاسدة، وقد كان زيدٌ يقول[1]:

عزلتُ اللَّاتَ والعُزَّى جميعًا *** كذلك يفعل الجَلْدُ الصبورُ

فلا العُزَّى أَدِينُ ولا ابنتيها *** ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزورُ

ولكن أعبدُ الرحمنَ ربي *** ليغْفِرَ ذنبيَ الرَّبُّ الغفورُ

2- **النِّذارة بشموليتها لَمن توجَّه إليهم**، وعمومها لكل أمر مخوف قادم يجب أن يحذروا منه ويستعدوا له.

3- ﴿صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾﴾: فالقيام بالنِّذارة ليس مشروعًا شخصيًّا، ولا مجدًا ذاتيًّا، ولا عزًّا هاشميًّا، وليس قيامًا لفرد أو قبيلة أو جنس أو بلد، بل هو قيام لله، كما قال سبحانه: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: 238].

---

(1) ينظر: «الأصنام» للكلبي (ص21- 22)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (1/ 226- 227)، و«سبل الهدى والرشاد» (2/ 184).

ولذا أمره بالتكبير، فالله تعالى هو الكبير، والدعوة له وحده لا شريك له.

ويدخل في هذا: أن تقول: «الله أكبر»، فهو من تكبير الله[1]، ولم تكن الصلاة يومئذٍ مفروضة؛ لأن هذه السورة من أول ما نزل.

ولا يمنع أن يكون هذا إرهاصًا بمشروعية الصلاة وتمهيدًا لها، لا سيما أنه أمره بعد ذلك بطهارة الثياب، وكأن هذا الأمر تمهيد لعبادة معينة[2]، والصلاة تبدأ بالتكبير، كما هو معروف، لكن النص أوسع من هذا؛ لأن المقصود بتكبير الله سبحانه: تعظيمه بلفظ: «الله أكبر»، وبمعرفته سبحانه وبأسمائه وصفاته وأفعاله، وبالعبودية له، وامتلاء القلب بإجلاله سبحانه وتعالى، ونفي ما يقول المشركون عنه من النقص والعيب بالتسبيح والتنزيه.

ومن معاني التكبير: العبادة، فلا يعبد إلا الله تعالى؛ عبادة القلب واللِّسان والجوارح، ويشمل توحيد الله وترك عبادة غيره[3]؛ لأنه سبحانه لما قدَّم اسم «الرب» على الفعل الذي هو التكبير، صار حصرًا وقصرًا أَلَّا تكبِّر تكبير التأليه إلا لله، ولا تعبد سواه، ولا تعظِّم غيره[4].

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 89)، و«الكشاف» (4/ 645)، و«تفسير الرازي» (30/ 694)، و«تفسير القرطبي» (19/ 62)، و«التحرير والتنوير» (29/ 296).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 296).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 405)، و«تفسير القرطبي» (19/ 62)، و«تفسير السعدي» (ص895)، و«التحرير والتنوير» (29/ 296).

(4) ينظر: «الكشاف» (4/ 645)، و«تفسير النسفي» (3/ 562)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 325)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 493)، و«التحرير والتنوير» (29/ 295).

4- ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن ﴾: والمقصود: أَلَّا تكون الثياب نجسة، بل تكون طاهرة نظيفة[1].

وطهارة الثياب في الصلاة شرط لصحتها عند الفقهاء[2]، والله تعالى يقول: ﴿**خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: 31]، وحسن الثياب وجمالها أمر مطلوب، وفي الحديث عند الترمذي: «**إن اللهَ نظيفٌ، يحبُّ النظافةَ**»[3]، وهو حديثٌ غريب، ولكن جاء في «صحيح مسلم»: «**إن اللهَ جميلٌ، يحبُّ الجمالَ**»[4].

فحُسن الثياب كان من هَدْي النبي صلى الله عليه وسلم حتى في أول الدعوة؛ ليكون كالشَّامَةِ بين الناس في جمال المظهر والمَخْبَر.

ومن طهارة الثياب: أن تكون طيبة حلالًا، فلا تكون مغصوبةً، أو من مال حرام، وإنما تكون من رزقٍ حلال، ومن لبس حلال؛ ليست حريرًا، ولا لباس فتنة[5].

ويدخل في الثياب المعنوية: سمعة الإنسان، كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره: أن سُمعة الإنسان تسمى: ثوبًا[1]، وكان غَيْلان بن سلمة الثقفي يقول[2]:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 409)، و«تفسير البغوي» (8/ 265)، و«تفسير القرطبي» (19/ 65)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 263)، و«التحرير والتنوير» (29/ 297).

(2) ينظر: «بدائع الصنائع» (1/ 114)، و«منح الجليل» (1/ 207)، و«المجموع» (3/ 131)، و«المغني» (2/ 48).

(3) أخرجه الترمذي (2799)، والبزار (1114)، وأبو يعلى (790، 791) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وينظر: «العلل المتناهية» (1186)، و«السلسلة الصحيحة» (236)، و«السلسلة الضعيفة» (7086).

(4) أخرجه مسلم (91) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 407)، و«تفسير الرازي» (30/ 698)، و«تفسير القرطبي» (19/ 65)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 386)، والمصادر السابقة.

فإني بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ *** لبستُ ولا من خزيةٍ أتقنَّعُ

يقول: ما لبستُ ثوبَ غدر أو غيلة أو تغرير أو خيانة، ولا تقنعت وتسترت من خطأ أو انحراف أو خزي.

والدِّين ثوب، كما في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه وعليه ثوب يجرُّه، وفسَّره بالدِّين[3]، والأخلاق الحسنة ثوب، والإحسان إلى الناس ثوب، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلُ البَخيل والمُنْفق كمَثَل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، من ثُدِيِّهما إلى تَرَاقيهما، فأما المُنْفقُ فلا يُنفقُ إِلَّا سَبَغَتْ- أو: وَفَرَتْ- على جلده، حتى تُخفيَ بنانه وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ..**»[4]. أي: تسحب وراءه مثل الثوب الطويل الذي يسحب، فهكذا ثوب المنفق المتصدق.

والعرب كانت تمدح الإنسان بطهارة الثوب، كما في قول أبي تمَّام[5]:

مَـضى طاهِرَ الأَثواب لَم تَبقَ رَوضَةٌ *** غَداةَ ثَوى إِلَّا اشْتَهَت أَنَّها قَبرُ

وكانوا يقولون: فلان نقي الثوب، نقي الجيب، أي: لا تلحقه سُبَّة.

5- ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 405)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 68)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 340)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 325)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص495)، و«تهذيب اللغة» (6/ 100)، و«التذكرة الحمدونية» (3/ 8)، و«لسان العرب» (1/ 245).

(3) كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «**بينا أنا نائمٌ رأيتُ الناسَ عُرضوا عليَّ، وعليهم قُمُصٌ، فمنها ما يبلغُ الثَّدْيَ، ومنها ما يبلغُ دونَ ذلك، وعُرِضَ عليَّ عمرُ وعليه قميصٌ اجترَّهُ**». قالوا: فما أَوَّلْته يا رسولَ الله؟ قال: «**الدِّينَ**». ينظر: «صحيح البخاري» (3691، 7008)، و«صحيح مسلم» (2390).

(4) أخرجه البخاري (1443)، ومسلم (1021) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(5) ينظر: «ديوان المعاني» (2/ 176)، و«الحماسة المغربية» (2/ 857)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (5/ 210).

﴿مَّارِجٍ﴾: بضم الراء وكسرها قراءتان سبعيتان[1]، ومعناهما متقارب، ويُطلق الرِّجْز على العذاب[2]، قال تعالى: ﴿ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ [الأعراف: 134].

ويُطلق على الأصنام[3]، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم في الجاهلية قط، ولا طاف ولا تمسَّح به، فيكون تأكيدًا لترك الأصنام، ودعوة إلى الثبات على ذلك.

وهجر الأصنام: البعد عن كل ما يلابسها؛ كعدم الأكل مما ذُبح للأصنام، وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم لا يأكل مما ذُبح على النُّصُب[4]، وكان قبل البعثة بمعزل عنها، حماه ربه من كل ما كان عليه أهل مكة من عبادتها أو التقرب إليها أو الذبح لها أو القسم بها أو النذر أو الاستقسام أو غير ذلك من صور التعظيم.

وقد يكون من معاني هجر الرُّجْز- وإن لم أجد مَن ذكره في هذا الموضع-: عدم سبِّها بما يُفضي إلى سبِّ الله تعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الأنعام: 108]. فهذا كقوله:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 410)، و«السبعة في القراءات» (ص659)، و«معاني القراءات» للأزهري (3/ 102)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص216)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 393)، و«معجم القراءات» (10/ 158).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 410)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 245)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 406- 407)، و«تفسير البغوي» (8/ 265)، و«الكشاف» (4/ 645)، و«تفسير الرازي» (30/ 699)، و«تفسير القرطبي» (19/ 66- 67).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 410)، و«تفسير القرطبي» (19/ 66)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 264)، و«الدر المنثور» (15/ 64)، و«تفسير السعدي» (ص895)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «مسند الطيالسي» (231)، و«مسند أحمد» (1648)، و«صحيح البخاري» (3826، 5499)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 130- 131)، و«العواصم والقواصم» (3/ 234).

﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ﴾، وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على هدايتهم واختيار أفضل الطرق لدعوتهم.

ويُطلق **الرُّجْز** على الشيطان وعلى المعاصي[1]؛ ولذا وصف الله الخمر والميسر والأنصاب والأزلام بأنها رجس من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: 90]، **والاجتناب**: الهجر[2].

وكان صلى الله عليه وسلم مجتنبًا لكل هذا، حتى قبل أن يُبعث[3]، فالآية تحمل الثناء عليه بامتثاله أمر الله، حتى قبل أن يُوحى إليه، وتحمل تأكيد الاستمرار على ذلك، وتحمل دعوة الناس جميعًا إلى هذا.

6- ﴿١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾:

أي: إذا أعطيت فلا تَمُنَّ، وقد كان صلى الله عليه وسلم كريمًا معروفًا بالعطاء والسَّخَاء قبل البعثة وبعدها[4].

تَراهُ إذا ما جِئتَهُ متَهَلِّلًا *** كأَنَّكَ تُعطيهِ الَّذي أنت سائِلُه[5]

ما قال: «لا» قطُّ إلَّا في تشهُّده *** لولا التشهُّد كانت لاؤه: «نَعَمُ»[1]

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 411)، و«تفسير الرازي» (30/ 699)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 264)، و«تفسير السعدي» (ص895).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (8/ 656)، و«تفسير القرطبي» (6/ 288)، و«التحرير والتنوير» (7/ 25).

(3) ينظر: «فتح الباري» (7/ 144)، و«خاتم النبيين» لأبي زهرة (1/ 158).

(4) كما في «صحيح مسلم» (2312) من حديث أنس رضي الله عنه قال: «ما سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجلٌ، فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا؛ فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة».

(5) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلمى» (ص92).

وفي الحديث أن خَدِيجة رضي الله عنها قالت له: «والله، لا يخزيك اللهُ أبدًا؛ إنك لتَصِلُ الرحمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضَيفَ، وتعينُ على نوائب الحقِّ»[2]. فهذه بعض خصاله قبل بعثته[3].

فهو هنا يقول: لا تنتظر من الناس أن يردُّوا لك أكثر مما أعطيت[4].

وقيل: هذا خاصٌّ بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأما عموم الأمة فللإنسان أن يعطي ويُهدي هدية ويرجو أكثر منها[5].

والمعنى الأوسع: لا تنتظر من الناس ردَّ الجميل، فليس مؤكَّدًا أن يردُّوا لك الجميل، والذي ينتظر ردَّ الجميل ربما يُصدم بأن كثيرًا من الناس يقابلون الإحسان بالإساءة.

لا تَغْتَرِرْ ببني الزَّمانِ ولا تَقُلْ *** عند الشَّدائِدِ: لي أخٌ ونَدِيمُ

جرَّبتُهم فإذا المُعاقِرُ عاقرٌ *** والآلُ آلٌ والحَمِيمُ حَمِيمُ[6]

ويقول عنترة[7]:

نُبِّئتُ عَمرًا غَيرَ شاكِرِ نِعمَتي *** وَالكُفرُ مَخبَثَةٌ[8] لنَفسِ المُنعِمِ

---

(1) ينظر: «ديوان الفرزدق» (ص512).

(2) أخرجه البخاري (3)، ومسلم (160) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة الضحى»: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا﴾.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 412)، و«تفسير البغوي» (8/ 265)، و«تفسير القرطبي» (19/ 68)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 264).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 415)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 55)، و«تفسير السمعاني» (6/ 90)، و«تفسير السعدي» (ص895).

(6) تقدم تخريجه في «سورة المعارج»: ﴿□□□□□﴾.

(7) ينظر: «ديوان عنترة» (ص83).

(8) أي: مفسدة. ينظر: «تاج العروس» (5/ 235) «خ ب ث».

فالإنسان الذي يعطي الناس وهو ينتظر الردَّ سوف يفاجأ بعكس ذلك.

والأب ربما يفقد ثقته بأولاده فيقول: ربيتهم صغارًا ثم أهملوني كبارًا، وتجاوزوني ونسوا فضلي، والشريك والأخ والزوج والمولى وابن العم والجار.. فكيف بالبعيد؟!

ولذلك نهانا الله عن المَنِّ بالعطاء وانتظار الجزاء من الناس، وأمرنا بالإخلاص واحتساب الأجر، وحكى قول المؤمنين: ﴿﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ﴾ [الإنسان: 9]، ومَن أعطى وهو ينتظر ويرجو أن يكسب قلوب مَن أعطاهم، وأن يقفوا معه في الشدائد، أو يوافقوه في دعوته، فسيطول انتظاره ويخيب رجاؤه كثيرًا، وربما حمله ذلك على الانقطاع عن العطاء؛ لأن الوقائع سوف تثبت له أنهم يجاملونه ثم يتخلون عنه ويتنكرون أو يجدون مَن يعطيهم أكثر.. أما إن أعطاهم إيمانًا واحتسابًا، فلن يتوقف عن العطاء مهما وجد من النكران.

ومن معانيها: أَلَّا تنتظر من الناس جزاءً ولا شكورًا على دعوتك لهم إلى الخير والبر وعبادة الله[1]، وقد عَلِمَ ربنا سبحانه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم مقبل على مهمة جليلة جسيمة هي الأكبر في التاريخ، فهو قائد أكبر حركة وأكبر نهضة وأعظم أمة، فكم أجرى تعالى على يديه من الخير لَمن آمن به وحتى لَمن لم يؤمن به! فهو رحمة للعالمين، وعليه أَلَّا ينتظر من الناس ردَّ ذلك، فلا يستكثر ما أَعْطَى، فمهما أَعْطى فهو قليل، وفي ذلك تربية للمسلم لكي لا يكبر في عينه عمله؛ لأن هذا قد يفضي إلى العُجب بالعمل، وبعض الدعاة إذا ألقى كلمة في مسجد خُيِّل إليه أن هذه الكلمة سوف تُغير وجه التاريخ.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 416)، و«زاد المسير» (4/ 361)، و«تفسير القرطبي» (19/ 67)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 264).

وقد يعمل أحدنا العمل اليسير، كالاستغفار، وهو مطلوب، ويظن أنه عمل شيئًا لم يأت به الأولون والآخرون، وقال الشاعر[1]:

وإنِّي وإن كنتُ الأخيرَ زَمَانُه *** لآتٍ بما لم تستطِعْهُ الأوائلُ

عليك أَلَّا تستكثر العمل الذي تقوم به، فهذا مما ربَّى الله تعالى عليه نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وسواءً كان هذا مع القريب؛ كالعلاقة بين الزوجين، أو بين الآباء والأبناء، أو بين الشركاء، أو بين التلاميذ والشيوخ، أو بينك وبين سائر الناس.

وعلى المسلم أَلَّا يطلب رد الجميل الذي عمله، وأَلَّا يستكثر العمل الذي قدَّمه، بل يحمد الله الذي وفَّقه إليه، وجعل بعض حاجات الناس عنده، واستعمله في خير أو إحسان.

* ﴿تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾:

وهي خاتمة الوصايا، والصبر هو إِكْسير الحياة، وهي ضرورة للعبادة: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: 65]، وضرورة للعلم والصحبة: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [الكهف: 67- 68].

وقدَّم قوله: ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ إشارة إلى أن الصبر المطلوب المثاب عليه هو ما كان لله تعالى، بخلاف الصبر من أجل مصالح الدنيا ومكاسبها، فهو تعالى أمر نبيه بأعلى درجات الصبر؛ وهي أن يكون صبره لله، ليس صبرًا للدنيا أو من أجل الحصول على نجاح أو مجد.

ومن معاني الآية الكريمة: الصبر لحكم الله[1]، كما قال تعالى: ﴿   ﴾ [الطور: 48]، فالله تعالى هو الذي يحكم بين الناس، كما قال: ﴿رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا

(1) ينظر: «الحماسة المغربية» (1/ 766)، و«وفيات الأعيان» (1/ 450) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ [يونس: 109]، أي: لا تعجل بنفسك ولا تستعجل العقوبة لِمَن أخطأ، ولا تستعجل الحكم ولا تستعجل الأمر[2].

وهذا مما يُبتلى به كثير من الناس، فيضعف إيمانهم بحكمة ربهم، حتى إن أحدهم لعجلته وقلة صبره كأنما ينازع ربه حكمه وتدبيره، والعبد يعجل والله تبارك وتعالى حكيم حليم لا يعجل لعجلة عبده.

ومنه الصبر لحكمه الشرعي؛ في أوامره ونواهيه، وأحكامه وتشريعاته، فهو من البلاغ المبين الذي أمره ربه أن يتمثله قولًا وفعلًا[3].

فهذا المقطع الأول من السورة، وهو مجموعة وصايا تتعلق بالدعوة والأخلاق والعطاء والكرم وسلامة النفس والصبر، ومن لم يعمل بها فلن يستطيع أن يقوم بأمر الله حق القيام.

❁ ثم انتقل السياق إلى موضوع آخر، وهو التذكير بمعنى من أعظم معاني الرسالة؛ وهو البعث: ﴿[illegible]﴾:

وهذه الآية الوحيدة التي فيها ذكر ﴿[illegible]﴾، وهو: الصُّور الذي يُنقر فيه، أي: يُنفخ فيه[4]، كما قال الله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ

(1) ينظر: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 538)، و«روح البيان» (10/ 226)، و«التحرير والتنوير» (29/ 299).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (12/ 306)، و«تفسير الماتريدي» (6/ 93).

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 266)، و«تفسير القرطبي» (19/ 69)، و«التفسير المظهري» (10/ 126)، و«فتح القدير» (5/ 390).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 418)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 246)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 381)، و«تفسير القرطبي» (19/ 70)، و«تفسير السعدي» (ص896)، و«التحرير والتنوير» (29/ 300).

أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ [الزمر: 68]، وهو قَرْنٌ، أو بُوقٌ، الله تعالى أعلم بصفته.

وعند ما نقول: هو قَرْن، أو بُوق، فلا يذهب بك الظن والوهم والخيال إلى أنه من جنس ما تعرف من القرون والأبواق التي يُنفخ فيها، ولو حاولت أن تبالغ وتتصور بوقًا أو قرنًا بحجم مدينة أو بحجم الأرض أو.. أو.. فلن يفلح خيالك أن يتصوره، إنها مجرد كلمة للوصف أو التقريب، أما تصورها فكل ما خطر عنها بخيالك فأمرها أعظم من ذلك، والعقل قاصر عن تصور الأمر على حقيقته.

والخبر جاء مجملًا دون تفصيل، وهو ليس من أمر الدنيا ومادياتها، وإنما هو من أمر الغيب ومن أمر الآخرة، فلا يقدر قدره إلا الله تعالى، ومهما تخيَّل الإنسان فأحوال الدنيا لا تقاس بأحوال الآخرة.

والنَّقْر: هو الضرب والطَّرْق بشدة[1]، وهنا عبَّر بالنَّقْر في النَّاقُور، وفي سور أخرى عبَّر بالنَّفْخ في ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾[2]، وهو أكثر، وهما لفظان لمعنى واحد، الله أعلم به، فنحن لا ندري كيف ينفخ حتى نقول: إن النَّقْر مختلف عنه، فهي من أمور الغيب التي يَصْدُقُ عليها أنها «نَقْر»، وأنها «نَفْخ»، وهو الصُّور، وهو ﴿□﴾، وإسرافيل عليه السلام هو الذي ينفخ، والله وحده هو الذي يعلم كيف ينفخ.. **والمقصود**: الاعتبار والخوف من هول ذلك الموقف، فهو ينقر في القلوب ويثير الفزع لدى الخلق أجمعين.

---

(1) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (21/ 46)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 542).

(2) كما في «سورة الأنعام»: ﴿□□□□□﴾ [الأنعام: 73]، وينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ﴾، وما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ٥٢﴾.

❁ ﴿□□□□□﴾:

«**ذلك**» اسم إشارة إلى اليوم الذي نُقِرَ فيه ﴿□﴾، و«**إذا**» في قوله: ﴿□□﴾ تُوحي بالزمان، ففي صبيحة ذلك اليوم ينقر في ﴿□﴾، ومن عادة العرب أنهم يصفون اليوم بما يُلابسه من الأحوال، فيقولون: هذا يوم نَحْسٍ، كما قال سبحانه: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ [القمر: 19]، أو يقولون: هذا يوم سَعْد؛ لأنه يوم مبارك وجميل، ويقولون: هذا يومٌ عَسِير؛ لأن فيه صعوبات وعقبات، وهنا سماه: ﴿□□﴾؛ إشارة إلى تعسر الأمور فيه من كل وجه، وأن العُسْر سمة من أقوى وأظهر سماته.

❁ ﴿□□□□□﴾:

وهذا ليس تكرارًا، بل هو تأكيد، وتخصيص[1].

فهو ﴿□﴾ على الناس كافة، حتى يقول الرُّسل عليهم السلام: «**اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»[2]. «**نَفْسِي نَفْسِي**»[3]، ولكن الله يقول: ﴿۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الشرح: 6]، فثَمَّ وجوه من اليُسر للأخيار والصالحين، وإن كان ظاهرها العُسر.

أما الظالمون والمعاندون فليس لهم فيه وجه من اليُسر، بل هو ﴿□﴾ عليهم عُسْرًا لا فرج معه ولا بعده.

وفي الآية تلميح إلى وجوه اليُسر للمؤمنين؛ وهو رُكُون المؤمنين إلى رحمة الله وفضله وكرمه وعطائه، وشعورهم بأنهم موقوفون بين يديْ رحيم غفور[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 703)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 173)، و«فتح القدير» (5/ 391)، و«التحرير والتنوير» (29/ 301).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (806، 6573)، و«صحيح مسلم» (182، 183، 195).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (3340، 3361، 4712)، و«صحيح مسلم» (194).

(4) ينظر: «تفسير السمرقندي» (2/ 535)، و«تفسير الثعلبي» (7/ 130).

وهذا اليوم وعيد للكافرين وإنصاف للمظلومين، ووصفه بـ﴿▯﴾ تكرر في مثل قوله: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦﴾ [الفرقان: 26].

ولعل من مناسبة ذلك أنه جزاء ما كانوا يكيدون به لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فيلقى بسببهم عناءً وعسرًا ومشقةً في تبليغ الدعوة، وقد علم الله أنهم سيضطرون نبيه وأصحابه إلى الهجرة ومفارقة أوطانهم وأولادهم وأموالهم، وأنهم سيلقون العَنَت والأذى، ويعزِّز هذا المعنى ما يرد بعده من التهديد لبعض معارضي الدعوة ومعانديها.

❊ ﴿▯▯▯▯▯﴾:

أجمع العلماء على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة[1]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريش- وكان ذا سِنٍّ فيهم- وقد حضر المَوْسِم، فقال لهم: يا معشرَ قريش، إنه قد حضر هذا المَوْسِمُ، وإن وفودَ العرب ستقدمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا، فيكذِّبَ بعضُكم بعضًا، ويردَّ قولُ بعضكم بعضًا.

فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيًا نقولُ به. قال: بل أنتم، فقولوا أسمع.

فقالوا: نقولُ: كاهنٌ! قال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهَّانَ، فما هو بِزَمْزَمَةِ الكُهَّان[2] ولا سجعهم.

---

(1) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص446- 447)، و«المحرر الوجيز» (5/ 394)، و«تفسير الرازي» (30/ 704)، و«تفسير القاسمي» (9/ 355)، و«التحرير والتنوير» (29/ 303).

(2) أي: الكلام الخفي الذي لا يُفهم.

قالوا: فنقولُ: مجنونٌ! قال: والله ما هو بمجنون، فقد رأينا الجنونَ وعرفناه، فما هو بخَنْقه ولا تخالُجه[1] ولا وسوسته.

قالوا: فنقولُ: شاعرٌ! قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشِّعرَ كله؛ رَجَزَهُ وهَزَجَه وقَرِيضَه ومقبُوضَه ومبسُوطَه، فما هو بشاعر.

قالوا: فنقولُ: ساحرٌ! قال: والله ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّارَ وسِحرهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عَقْدِهم.

قالوا: فماذا نقولُ يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنَّ لقوله حلاوةً، وإنَّ أصله لعَذِقٌ[2]، وإن فَرْعَه لجَناةٌ[3]، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرفَ أنه باطلٌ، وإن أقربَ القول فيه أن تقولوا: ساحرٌ، فما يقولُ سحرٌ يفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

فتفرَّقوا عنه بذلك، وجعلوا يجلسونَ بسُبل الناس حين قدموا المَوْسِم، لا يمرُّ بهم أحدٌ إلا حذَّروه إيَّاه، وذكروه، فأنزل الله في الوليد من قوله تعالى: ﴿□□□□...﴾ إلى قوله: ﴿٥٥ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [المدثر: 11- 26][4].

ويؤكِّد هذه الرواية: خبر فُتور الوحي؛ فإن الوحي بدأ في رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ثم فتر، وكانت فترة انقطاع الوحي أربعين يومًا على **الراجح**، أي: إلى أواخر

---

(1) التخالج: اضطراب الأعضاء وتحرُّكها من غير إرادة.

(2) أي: كثير الشُّعَب والأطراف في الأرض. ورُوي: «لغَدِقٌ» أي: كثير الماء.

(3) أي: فيه ثمر يُجنى.

(4) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص150- 151)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص232)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 198- 200)، و«عيون الأثر» (1/ 119- 120)، و«تاريخ الإسلام» (1/ 155- 156)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 549- 550)، و«البداية والنهاية» (4/ 153- 154)، و«سبل الهدى والرشاد» (2/ 354- 355).

شوال أو أوائل ذي القَعْدة، وموسم الحج على الأبواب، وقريش يشعرون بأن الحج ربما يكون فرصة ليدعو النبي صلى الله عليه وسلم الناس فيها إلى دين الإسلام، فكان لا بد أن يتفقوا على أمر يقولونه للحُجَّاج، وقد بدأت أوائلهم تصل إلى مكة، فاجتمعوا في ذلك الوقت ربما قبل الحج بشهر أو نحوه، واتفقوا على رأي الوليد بن المغيرة أن يقولوا: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم ساحر.

وكان زعيم هذه الفِرْية الوليد بن المغيرة، فيتصدَّى الله له، وينزل وحيه على نبيه صلى الله عليه وسلم المهموم المغموم، فيقول سبحانه: ﴿□□□□﴾ أي: اتركني- يا محمد- وإيَّاه، ولا تحمل همَّه.

وفي هذا تذكير الرسول صلى الله عليه وسلم بمعيَّة الله له، وكأن الجانب واحد؛ فمحمد صلى الله عليه وسلم مع ربه وربه معه، وهذا الوحيد الضعيف يحارب الله ويحارب رسوله، فهو إلى هلاك.

وقوله: ﴿□﴾ استخدام عربي معروف يُوحي بالتهديد، أي: دعه لي واتركني له، سأتولَّى أمره[1].

وجاء وصفه في الآية: بالوحيد، مطابقًا لما كان الوليد بن المغيرة يسمَّى به، فقد كان يسمَّى في مكة: الوحيد[2]؛ لأنه لم يكن أحد بمكة مثله؛ كان عنده عشرة من البنين، **وقيل**: ثلاثة عشر ابنًا من أكابر أبناء مكة، وهم شباب أقوياء يتعزَّز بهم، وكان عنده أموال كثيرة، **قيل**: كان عنده أكثر من ألف ألف دينار من الذهب[3]، وكان

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 70)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 428)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 507)، و«فتح القدير» (5/ 391)، و«التحرير والتنوير» (29/ 303).

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 266)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 328)، و«التحرير والتنوير» (29/ 304)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 266)، و«تفسير القرطبي» (19/ 71)، والمصادر السابقة والآتية.

يملك أراضي واسعة بين مكة والطائف[1]، وكان له جاه كبير، ولبنيه من بعده، وكان كبير السن، فهو من أكبرهم سنًّا، وله عقل ورأي؛ ولذلك كان متوجًا موحدًا في منزلته، لا يوجد في مكة مثله.

وهنا وصفه بالوحيد، ولكن بطريقة أخرى، فالله خلقه في بطن أمه وحيدًا، وأخرجه من بطن أمه وحيدًا فردًا لا أحد معه[2]، كما قال الله: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [الأنعام: 94].

❊ ﴿□□□□□﴾:

أي: أنعمت عليه وأعطيته مالًا طويلًا عريضًا كثيرًا[3]، فهو أكثر الناس مالًا، ليس بكَدِّه وكسبه، بل بما رزقه الله، وهو يدري أن أمواله غالبها يعتمد على الماء النازح من الأرض أو النازل من السماء، وعلى تجارة تنميها الكعبة بقدسيتها وتعتمد على الحجاج والمعتمرين والزوار المنتابين لمكة.

❊ ﴿□□□﴾:

أي: كثيرين، **قيل**: كانوا ثلاثة عشر ابنًا لا يغيبون عنه، بل هم شهود حاضرون، ملازمون له، قد كُفُوا إدارة المال بالخدم والعبيد، فلا يحتاجون إلى سفر يخشى عليهم

---

(1) ينظر: «الدر المنثور» (15/ 70)، و«التفسير المظهري» (10/ 127)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 421)، و«تفسير البغوي» (8/ 266)، و«تفسير القرطبي» (19/ 70)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 265).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 423)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 265)، و«تفسير القاسمي» (9/ 353)، و«تفسير السعدي» (ص896).

فيه من مخاطر السفر ومغبته، فهم عند أبيهم، وهو يتعزَّز بهم إذا جاءه ضيوف أو حلَّت به مصيبة[1]، والعرب كانت تفاخر بكثرة البنين.

❁ ﴿□□□□﴾:

تقول: هذا طريق ممهَّد، أي: مذلَّل مسهَّل ليس فيه عقبات، ومنه: مَهْدُ الصبي؛ لأنه يُمهد فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ [الروم: 44]، فالمهد، والمهاد، والتمهيد: التسهيل، أي: سهَّلتُ له تسهيلًا، فكل شيء مسَهَّل له؛ المال والصحة والفراغ والولد والأزواج والجاه، كل ما يريد وما يتمنى موجود[2].

❁ ﴿□□□□□﴾:

أي: بعد هذا كله يطمع أن أزيده في الدنيا[3]، فهو يفكِّر كل يوم بالمزيد من الأرباح والمكاسب والصفقات، ولا يخشى النقص أو الفوات، ولا يفكِّر بالخسارة في ماله أو في ولده أو صحته وعافيته.

و«الطمع يُذهب ما جمع»، وهذا نهي عن أن يكون الإنسان طمَّاعًا طموحًا في أمر الدنيا مع ما رزقه الله، وأنه ينبغي أن يكون طمعه وطموحه في أمر الآخرة، فالإنسان لا يُذم بأن يكون عنده طموح أخروي، بل بالطمع الدنيوي الذي يفضي إلى التعدي على حقوق الآخرين، أو بنسيان الآخرة والغفلة عنها.

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 72)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 260)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 265)، و«فتح القدير» (5/ 391)، و«التحرير والتنوير» (29/ 304).

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 92)، و«تفسير القرطبي» (19/ 72)، و«فتح القدير» (5/ 391)، و«تفسير السعدي» (ص896)، و«التحرير والتنوير» (29/ 304- 305).

(3) ينظر: «زاد المسير» (4/ 362)، و«تفسير القرطبي» (19/ 72)، و«فتح القدير» (5/ 391)، و«تفسير القاسمي» (9/ 353)، و«التحرير والتنوير» (29/ 305).

والتعبير بالطمع فيه معنى الذَّم والعيب؛ لأن الطَّماع مثال الدَّناءة والخِسَّة، بخلاف طمع الآخرة، فهو رُقِيٌّ ونُبل، كما في استخدام لفظ: الطمع في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ ﴾ [الشعراء: 51]، وقوله سبحانه: ﴿ ﴾ [الشعراء: 82]، وقوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟﴾ [الأعراف: 46].

وفيه إشارة إلى أنه يدرك أن المال من الله سبحانه؛ ولهذا فهو يطمع من الله أن يزيده، فهم مُقِرُّون أن الأصنام لا ترزقهم، وإنما يعبدونها لتقرِّبهم إلى الله زلفى، كما قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3].

❊ ﴿ ﴾:

﴿ ﴾ أي: لن أزيده، وقد كان طمعه في الدنيا في المجد والملك، وطمعه في الآخرة أن يقول: إذا بُعثت فسوف أكون أكثر الناس مالًا وولدًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم: 77]، فأخبر سبحانه أنه لن يزيده، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿ ﴾، وهذا متضمن لكفرانه للنعم، فلم يكن كفره بسبب الجهل أو عدم بلوغ الرسالة أو نقص العقل والفهم، كلا، كان العناد والإصرار هو السبب في رفض الدعوة وجحد الآيات، وعبر بالجمع، فلم تكن آية واحدة، بل آيات كثيرة، وكما قال سبحانه عن آل فرعون: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ [الزخرف: 48].

ويشمل هذا الآيات القرآنية التي تلاها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، واعترف هو ومَن معه بصِدْقِها وقوتها وعظمتها، ثم تحايلوا كيف يصرفون الناس عنها.

ومنها الآيات القدرية والأحداث التي تجري، وفيها حِكَم وأسرار، ثم يعرضون عنها ولا يعتبرون[1].

ولذا كان الله تعالى يُبيِّن أن العقاب والعذاب على مَن عَلِمُوا ثم عاندوا وجحدوا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ١٥﴾ [الإسراء: 15].

* إن شكر النعمة هو سبب المزيد، يقول تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ٥٥ ٱلرَّحْمَٰنُ ١ عَلَّمَ﴾ [إبراهيم: 7]، وهذا كَفَر؛ ولهذا فالعذاب ينتظره، ولا شك أنه بعد نزول هذه الآية كان في انحدار وتسفل، ينقص ماله وولده، وتكثر همومه وغمومه[2]، فإذا توقف العطاء عن المزيد بدأ النقص والتراجع؛ ولذا جاء الوعيد بعدها مباشرة، ﴿□□□﴾:

توعَّده بالإرهاق والتعب في الدنيا والآخرة، والإرهاق: الإتعاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ٧٣﴾ [الكهف: 73]، أي: لا تحمِّلني ما لا أطيقه، **والمعنى**: سأكلِّفه وأُجهده وأُتعبه[3].

والصَّعود: صعود الإنسان لجبل وَعْر، كما قال تعالى: ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ﴾ [الأنعام: 125]، ومنه العقبة التي في الجبل، فإن صعودها مرهق[4]،

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 394)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 428)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 329).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 494)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 516)، و«تفسير البغوي» (8/ 267)، و«تفسير القرطبي» (19/ 72).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 306).

(4) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص484) «ص ع د»، و«شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» (6/ 3743)، و«التحرير والتنوير» (29/ 307).

والناس يسمونها: صَعْدة، كما سميت بذلك بعض المدن؛ لوعورتها[1]، وهذه العقبة الشديدة التي توعَّدها الله تعالى للوليد بن المغيرة لم يسمها: صَعْدة، بل: ﴿]﴾، على صيغة المبالغة؛ لشدتها وكلفتها؛ لأنه كَفَرَ ورمى النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالسحر، فالله سوف يرهقه صَعُودًا، وهذا عقاب دنيوي، فتكون الأمور صعبة عليه مشدَّدة، كلما جاء إلى طريق وجده مغلقًا، وهذا مقدمة لعذابه في الآخرة.

وقد نُقل عن ابن عباس وأبي سعيد الخُدْري رضي الله عنهما وغيرهما أن ﴿]﴾: جبل في النار[2].

وهذا لا يُعارض ما نُقل عن جماعة من السلف من أن المقصود: العذاب[3]، فيشمل العذاب في الدنيا قبل العذاب في الآخرة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: 21].

فالعذاب الدنيوي هنا من نقص الولد والمال وتعسر الأمور بسبب عدم الشكر لنعمة الله عليه بالمال والولد وكان عنيدًا.

* ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾:

أي: أعمل فِكْره وعقله، والتفكير بحد ذاته ليس أمرًا معيبًا، بل هو مطلوب، وهو من المساءلة والمسؤولية والمؤاخذة لهذا ولغيره أن يستخدموا ما أعطاهم الله من الفكر والعقل في العناد وجحد الحق، وإلا فالله تعالى وعَظَهم بأن يتفكروا، وقال لهم:

---

(1) ومن ذلك مدينة: «صَعْدَة» في اليمن. ينظر: «لسان العرب» (3/ 256).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 426)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 72)، و«تفسير القرطبي» (19/ 73)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 266)، و«التحرير والتنوير» (29/ 307).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 427)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 56)، والمصادر السابقة.

﴿ ١٦ [illegible] ﴾ [سبأ: 46]، والعقل الصحيح الرشيد لا يخطئ، والفكر الصحيح الرشيد لا يخطئ، وإنما يخطئ إذا تلبَّسه الهوى.

هذا الوحيد المغرور قد فكَّر وقلَّب الأمور على وجوهها؛ لينظر أنسب وصف يمكن أن يصف به النبيَّ صلى الله عليه وسلم؛ ليصرف الناسَ عنه، وعَقَدَ حلقة نقاشية استمع فيها لآراء القوم، لينتهي إلى اختيار أقروه كلهم واعتمدوه، أن يقولوا: إن النبي ساحر، ويعتمدوا في هذا على ما يجري حين يسلم بعض الشباب، فيثور عليهم ذووهم وأهلوهم، ويكون ذلك سببًا في مفارقة الزوج لزوجته وكذا العكس، ومفارقة القبيلة، فهذا إذًا يفرِّق بين الناس بدعوته[1].

ومع التفكير فهو قد قدَّر وحسب حساباته فيما كان له من الجاه والمكانة، وماذا سوف يقول الناس عنه، وماذا سوف يخسر إذا لم يقل هذا.

التفكير هنا ليس حرًّا ولا متجرِّدًا، ولا إعمالًا للعقل السليم، بل هو تفكير مبني على التقدير.

* ويحتمل كلمة: «قدَّر»- والله تعالى أعلم-: التقدير، بمعنى: التضييق، أي: أنه لم يُفكِّر في الأمر تفكير الباحث عن الحق، وإنما ضيَّق على نفسه، فقصر تفكيره على ما يمكن أن يجيب به عن القرآن فقط، وحصر نفسه بين خيارات ثلاثة: إما سحر أو شعر أو كهانة، وحينئذ اختار واحدًا منها، ولو أنه وسَّع إطاره وفكَّر تفكيرًا حرًّا متجرِّدًا، فإن الله تعالى سيهديه إلى الصواب، والله سبحانه هنا لم يعبه بالتفكير، وإنما عاب عليه التقدير، فقال: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾: وهو دعاء عليه بالهلاك، وهذا جارٍ في لغة العرب مثل قولهم: ثكلته أمه،

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 309).

أي: هلك أو قتل، كما قال الله تعالى: ﴿تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ﴾ [عبس: 17]، وقوله: ﴿□□□□□□﴾ [المنافقون: 4]، فهذا دعاء عليهم[1].

وفيه معنى العتب وتعييب على فعلهم، فطريقته في التقدير كانت هوى وضلالًا.

وقوله: ﴿أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فيه تكرار، ولكن التكرار في القرآن يحمل على التوكيد[2]، أو يحمل كل لفظ على أمر مختلف عن الآخر.

فالأولى: دعاء عليه بالهلاك؛ كيف كان تقديره وتفكيره حين قرَّر اختيار المال والجاه والدنيا على الدعوة والإيمان.

والثانية: دعاء عليه بخصوص الموقف حين قدَّر وقرَّر أن يقول: إن القرآن سحر والنبي ساحر، ويختار أمر التفريق بين الأحبة، وهو يعلم في قرارة نفسه أن هذا الإفك لا ينطلي إلا على الجهلة الأغرار، ولكن التكرار والنقل يجعله سائغًا، خاصَّة عند القادمين لمكة لفترة محدودة، ومصالحهم مرتبطة بتجار قريش وسادتها.

* ثم ذكر تعالى تفصيل ما جرى، وكأنك تراه: ﴿۝٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ﴾:

والمقصود بـ﴿ وَكُلُّ﴾: نظر العين، وليس نظر العقل فقط؛ ليكون زائدًا على ما أفاده ﴿ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾. و﴿ وَكُلُّ﴾ معناه: أنه كان يُقلِّب عينيه في الحضور، والإنسان الذي يتظاهر بأنه حَصِيف وعاقل وصاحب تفكير بعيد وتحليل عميق،

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 395)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 428)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 266)، و«التحرير والتنوير» (29/ 308).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 383)، و«تفسير السمعاني» (6/ 93)، و«فتح القدير» (5/ 392).

يسكت ثم يُجيل نظره في الحاضرين، ويتأمَّل، فهذا يعطيه هَيْبَة، ويعطيه فرصة لاستجماع فكره وصياغة كلامه، ويهيِّئ الحاضرين لاستماع ما يقوله[1].

* ﴿فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾:

أي: طأطأ رأسه وقطَّب جبينه؛ إشارةً إلى صعوبة الأمر[2]، وأنه يحتاج إلى إعمال الفِكْر والذهن.

* ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾:

هذه هي النتيجة، **والإدبار** قد يكون إدبارًا حسيًّا، بمعنى: أنه قام من المجلس منصرفًا، وقد يكون معنويًّا؛ بأن قرَّر بعد هذا التفكير المجْهِد والتقدير والنظر والعُبوس والبُسور، أن يُعْرِض عن الإسلام، وأن يستكبر، وأن يختار طريق الكفر والضلال[3].

* وهذا هو الذي كان منه ولُعن بسببه، ثم قرَّر تبعًا لهذا أن يفتري الفرية التي عنها يصدرون: ﴿۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾:

أي: هذا الذي جاء به محمد ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أخذه عن غيره؛ يُفرِّق به بين المرء وزوجه، وبين المرء وأخيه، ويؤثِّر في نفوس مستمعيه، ويشلّ قدرتهم على التفكير؛ فما هو إلا أن يسمع أحدهم كلام محمد حتى يزول عقله ويتغير مزاجه.

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 649)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 330- 331)، و«تفسير القاسمي» (9/ 354)، و«التحرير والتنوير» (29/ 309).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 428)، و«تفسير القرطبي» (19/ 75)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 267)، و«التحرير والتنوير» (29/ 309).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 311)، و«تفسير الرازي» (30/ 707)، و«تفسير القرطبي» (19/ 76).

وهذا الذي قاله مخالف للواقع الذي يشهد أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا أحسن الناس برًّا بآبائهم وأمهاتهم، حتى في حال الكفر، كما علَّمهم ربهم فقال: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ ﴾ [لقمان: 15]. وكانوا أحسن القوم عقولًا وأسلمهم نفوسًا وأصبرهم على الحق وأطوعهم للحجة.

وادَّعى أنه ﴿جَنَّٰتٍ﴾ قوي يغيِّر الناس بقوله وليس بنفثه وعقده، وأن محمدًا يأخذه عن أناس سابقين، فهو يقول: هو نوع خاص من السحر يعرفه أهل الصناعة والتخصص.

وكم تنطلي مثل هذه التعبيرات على الجاهلين أو المتعالمين! وقال هذا لأن نصوصه فيها إعجاز وبلاغة، والعرب يعرفون ذلك، فخرج من هذا المأزق بقوله: إنه ساحر، أخذًا عن بعض مَن سبقوه.

❊ ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾:

أي: هذا من كلام الناس، وهذا ما تفتق عنه ذهنه الفاسد!

❊ وبعد أن وصف الله تعالى موقف الوليد بن المغيرة من القرآن، وتزعمه للحرب الضَّروس الشرسة على نبي الإسلام، ذكر العقاب الذي توعَّده به في الآخرة: ﴿(٥٥) ٱلرَّحْمَٰنُ (١)﴾:

والصِّلِي هنا معناه: أن يدخل فيها كله[1]، كما قال الله: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ [مريم: 70]، وكما في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ ﴾ [الليل: 15]، وقوله: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ [إبراهيم: 29].

فالمقصود: المَصْلِيّ التام الذي يُشوى كل جزء من جسده، وهو كان صاحب سفر وعزٍّ وجاه، يُوقد النيران في الشتاء ويصطلي بها من البرد، ويختار المكان الذي يريده قربًا أو بعدًا من النار، أما هنا فالأمر ليس بيده، بل بيد الله يُصليه هذا السعير.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أحد أسماء النار، **وقيل:** هو اسم لإحدى دَرَكاتها، **قيل:** الدَّرَك السادس[2].

وهو أول موضع ذُكر فيه هذا الاسم لها، فكل مَن سمعها سوف يسأل: ما ﴿ خَلَقَ ﴾؟ **فالجواب:** أن لا أحد يدركها، فأمرها أعظم من أن يُحيط به عقل، أو يحدّه ذهن، أو يفهمه سمع، أو تدركه لغة، أو يلحقه خيال.

* ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رحمه الله: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[3].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 77)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 267)، و«فتح القدير» (5/ 393)، وما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿□□□□□﴾.

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 110)، و«تفسير الطبري» (23/ 432)، و«المحرر الوجيز» (5/ 395)، و«تفسير القرطبي» (19/ 77)، (17/ 147)، و«التحرير والتنوير» (29/ 311).

(3) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ ﴾.

* ﴿ ٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦﴾:

هذه أوصاف ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ فهي ﴿٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤﴾، وهذه كلمة جارية عند العرب، فيقولون: فلان لا يُبقي ولا يَذَر، أي: لا يترك شيئًا، والمعنى: لا تُبقي أحدًا ممن يستحق العذاب إلا أصابته[1]، فهي لا تستثني منهم أحدًا، ولا تترك منهم شيئًا، ولا تتركهم وقتًا من الأوقات، فعذابها دائم لا يُرفع أو يُخفف، ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ١٤﴾ [فاطر: 36].

﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: تلوِّح وتضرب أبشارهم، **والبَشَر** هي: الجلود، جمع بَشَرة، فهي تضرب جلودهم، فتُصيبها بالسواد والعذاب وتباشرها[2]؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: 56]. وإنما سُمي الناس: بشرًا؛ لظهور بشرتهم، بخلاف الحيوانات التي تكون مغطاة بالشعر أو الوَبَر أو الصوف أو الريش.

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي: يقوم عليها ويتولَّى أمرها تسعة عشر مَلَكًا ممن يعلم الله قوتهم وبأسهم، فهم قادرون على ما وُكِّلوا به مهما كان: ﴿[illegible]﴾ [التحريم: 6].

ويحتمل أن يكونوا تسعة عشر مَلَكًا، أو تسعة عشر ألف مَلَك، أو ما شاء الله، ولم يأذن الله للبشر أن يعرفوا أكثر من ذلك؛ ولذا كانت عدتهم خوفًا وتقوى للمؤمنين، وفتنة للكافرين والمرتابين؛ فعند ما نزلت هذه الآية قابلها الملأ من قريش بالتهكُّم

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 708)، و«التحرير والتنوير» (29/ 312).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 384)، و«تفسير البغوي» (8/ 270)، و«تفسير القرطبي» (19/ 77)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 268)، و«التحرير والتنوير» (29/ 312).

والسخرية، فقالوا: هذا عدد يسير. وقال رجل يقال له: أبو الأَشَدَّين الجُمَحي: خلُّوا بيني وبين خَزَنة جهنم، أنا أكفيكم مؤنتهم[1].

وجاء آخر فقال: كل ثلاثة منَّا على واحد، فإذا عجزنا عنهم فليس فينا خير[2].

وأصبح هؤلاء الحقراء يوظِّفون العدد توظيفًا للسخرية بالنبي صلى الله عليه وسلم وإيذائه، ولصدِّ الناس عن الدين، ولإثارة الشبهة في القرآن، وصاروا يتساءلون: لماذا لا يكونون عشرين أو ثمانية عشر؟! ولو كانوا تسعة عشر ألفًا أو أكثر فيمكن أن يُخاف منهم.

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ □□□□□□□□□﴾:

وأنتم لا تعرفون شأن الملائكة، ولم تروهم بأعينكم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: 22].

وهكذا كل ما يُبيِّنه الله تعالى من العلم والوحي يختلف الناس فيه بحسب ما يكون في قلوبهم من المعاني، فمَن أقبل عليه بصدق استفاد وازداد إيمانًا، ومَن أعرض عنه وكذَّب به ازداد كفرًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى

---

(1) ينظر: «فتح القدير» (5/ 398)، و«الدر المنثور» (15/ 80)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 497)، و«تفسير البغوي» (8/ 270)، و«الكشاف» (4/ 651)، و«تفسير القرطبي» (19/ 81)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 269).

﴿قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: 124- 125].

﴿فِى ٱلْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا﴾: فهم خلق لا يعلمه إلا خالقه، وبيان عددهم في هذه السورة جعله الله فتنة للكافرين، بين مستقلٍّ ومستخِفٍّ ومتساءل.

﴿تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ٩ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: و﴿تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ٩ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ فاليهود يعرفون هذا العدد، وهو مما استأثر به علماؤهم[1]؛ ولهذا جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال: قال ناسٌ من اليهود لأُناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: هل يعلمُ نبيُّكم كم عددُ خَزَنة جهنمَ؟ فقالوا: لا ندري حتى نسأله. فجاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمدُ، غُلبَ أصحابُكَ اليومَ. قال: «**وَبِمَ غُلبوا؟**». قال: سألهم يهودُ: هل يعلمُ نبيُّكم: كم عددُ خَزَنة جهنمَ؟ قال: «**فما قالوا؟**». قال: قالوا: لا ندري حتى نسأل نبيَّنا. قال: «**أفغلبَ قومٌ سُئلوا عما لا يعلمون، فقالوا: لا نعلمُ حتى نسألَ نبيَّنَا؟**». ثم أخبرهم أنهم تسعة عشر[2].

فالنصُّ على العدد ليتيقن أهل الكتاب صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه يوافق ما عندهم مما جاء في كتبهم ونزل عليهم، و«الاستيقان» هنا لا يعني أنهم آمنوا، بل استيقنوا وعرفوا أنه حق، ولكن لم يؤمنوا به؛ إما لأنهم يقولون: هو نبي العرب. أو لأنهم حسدوه، أو طاعة لكبرائهم وسادتهم[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 438)، و«تفسير القرطبي» (19/ 82)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 429)، و«التحرير والتنوير» (29/ 315).

(2) أخرجه الترمذي (3327). وينظر: «السلسلة الضعيفة» (3348).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 315).

﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ فيقوى إيمانهم؛ لتواطؤ ما جاء به القرآن مع ما هو موجود عند أهل الكتاب؛ ولأنه جاء بعلم جديد فآمنوا بها، فزاد عدد ما آمنوا به، فإن الإيمان يزيد حتى في قدره؛ فإن قوة يقين الإنسان بالشيء تزداد كلما تضافرت الأدلة[1].

﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ أي: يرتاب الكافرون والمشركون والوثنيون الجاهلون الساخرون المتخذون آيات الله هزوًا، وأمّا الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون فلا يرتابون في ذلك، ولا يؤثر فيهم أن يكون العدد تسعة عشر أو أقل أو أكثر[2]؛ لأن الإنسان لا يسأل مثل هذا السؤال، وإلا لكان يقول: لماذا السماوات سبع، والأرضون سبع؟ ولماذا فُرضت الصلوات؟

ومن آمن بالله آمن بأنه الخالق المُشرِّع ﴿□□□□□□□﴾ [الأنبياء: 23]، فهذا يُؤخذ بالتسليم؛ ولا يدرك تفصيله بالعقل.

إن عقل المسلم عقل إيماني وليس عقلًا أسطوريًّا، عقل يؤمن بالغيب إذا جاء بالخبر الصحيح، ولكنه يقف عنده، ولا يؤمن بالأساطير والخرافات والأقاويل، وما لا يدل عليه دليل، ولا تقوم عليه حجة، وإن كان من المسلمين اليوم مَن تحولت عقولهم إلى عقول خرافية، تؤمن بالكهانة والتنجيم والخرافات والروايات المنكرة التي لا سند لها أكثر مما تصدق بالأخبار الصحيحة؛ وهذا بسبب غفلتهم عن القرآن وهديه وأدبه.

---

(1) ينظر: «فتح القدير» (5/ 396).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 440)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 440)، و«الكشاف» (4/ 652)، و«زاد المسير» (4/ 364)، و«تفسير الرازي» (30/ 710- 711)، و«تفسير القرطبي» (19/ 82)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 524)، و«روح المعاني» (15/ 141).

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مرض الشك من الكافرين، وليس مرض النفاق؛ لأن النفاق لم يكن وُجد يومئذ[1].

﴿تُكَذِّبَانِ﴾ من أهل الكتاب أو من المشركين، **فالذين يقولون هذا القول فئتان:**

1- الشاكُّون الذين في قلوبهم مرض الشك، وهم غير مؤمنين، بل متردِّدون لا يجزمون.

2- المكذِّبون ممن يعلن الكفر الصريح من المشركين أو أهل الكتاب.

وهؤلاء وأولئك يتساءلون: ماذا وراء هذا المثل؟ ولماذا ضربه الله؟

وهم وإن اشتركوا في القول، إلا أنهم متفاوتون في المنْزلة، فالأولون في مقام التردُّد والشك الذي يمكن أن يزول ويمكن أن يبقى ويزيد، والآخرون كفروا وأعلنوا.

﴿١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾ أي: في مثل هذا؛ كعدد ﴿وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾، يقع الإضلال والهداية لَمن شاء الله تعالى من العباد، فتكون الآية الواحدة أو المعلومة الواحدة حجة لقوم وسببًا في زيادة إيمانهم، وحجة على آخرين وسببًا في زيادة كفرهم وتردِّيهم[2].

ويمكن أن يكون هذا خاصًّا بمَن ذكروا الله في قلوبهم ومَن بعدهم من الكافرين، فإن الشك قد يزول بهداية من الله، وقد يغلب على صاحبه فيضله الله.

﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ ﴾ فلا أحد يعلم حقيقة مراده سبحانه بهذا العدد، ولا مدى قوتهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 712)، و«تفسير القرطبي» (19/ 82)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 179)، و«فتح القدير» (5/ 396)، و«التحرير والتنوير» (29/ 317).

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 96)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 270)، والمصادر السابقة.

قال بعضهم: هؤلاء هم القائمون عليها، ولا يمنع أن يكون تحت الواحد منهم مَن لا يحصيه إلا الله من عدد الملائكة[1]، كما جاء في الحديث، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**يُؤْتَى بجهنمَ يومئذ، لها سبعونَ ألفَ زمام، مع كلِّ زمام سبعونَ ألفَ مَلَك يجُرُّونها**»[2].

ولا ينحصر جنود الله في الملائكة فحسب، بل هم خلق كثير لا يحصيهم إلا خالقهم سبحانه؛ فمن جنوده الريح، ومن جنوده المطر، ومن جنوده البحر، ومن جنوده النجوم، ومن جنوده البشر، ومن جنوده الرعب والفزع؛ ولذا قال: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ [الأحزاب: 9].

﴿□□□□□□ □﴾ أي: ﴿سَقَرَ﴾ التي سخروا من ملائكتها، ما ذكرها هنا إلا لتذكيرهم؛ حتى تُساق نفوسهم إلى الخير سوقًا بسياط الخوف والرهبة، والرغبة فيما عند الله[3].

❊ ﴿□□□ □□□□ □□□□﴾:

﴿□﴾ هنا للنفي، وفيه معنى الردع والزجر عما ادَّعوه وقالوه وسخروا به[4].

وهنا يُقسِم تعالى بثلاثة مخلوقات، لعلها بعض جنوده:

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 95)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 332)، و«فتح القدير» (5/ 394).

(2) أخرجه مسلم (2842) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ورجَّح الدارقطني وغيره وقفه. ينظر: «الإلزامات والتتبع» (ص227)، والتعليق على «مختصر صحيح مسلم» للمنذري (1973)، وما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿□□□□□□□□□□ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 441)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7841)، و«تفسير القرطبي» (19/ 83)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 272)، و«التحرير والتنوير» (29/ 320).

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 713)، و«تفسير القاسمي» (9/ 358)، والمصادر السابقة.

1- القمر: ﴿ﮐﮑ﴾.

2- والليل: ﴿ﮓﮔﮕ﴾، و﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ تعني: حين أدبر، وهي حكاية الماضي[1].

3- والصبح: ﴿ﮗﮘﮙ﴾ أي: حين يسفر، وهي حكاية الحال والمستقبل، فـ﴿ﮘ﴾ ظرف للمستقبل، بخلاف ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾[2].

وهذه الثلاثة التي أقسم الله بها كلها نور أو على مقربة من النور، فأقسم بالقمر، وأقسم بالليل إذ أدبر وصار في آخره، وأقسم بإسفار الصبح، أي: إذا أضاء وعمَّ الكون.

فالقَسَم إشارة إلى كشف ظلمات الجاهلية والشرك وانتصار الإسلام، وفيه إيحاء وإيماء للنبي صلى الله عليه وسلم بأن أمرك ظاهر ظهور الشمس والقمر، بيِّن بيان الصبح لكل ذي عينين، كما قال سبحانه: ﴿وَكَبِيرٍ مُّسۡتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي﴾ [إبراهيم: 1]، فهناك ظلمات الكون، وهناك ظلمات القلوب والعقول، وبينهما ترابط.

❁ ﴿ﮛﮜﮝﮞ﴾:

هذا هو جواب القَسَم، أي: ﴿خَلَقَ﴾ إحدى الأمور الكبيرة العظيمة، و﴿ﮝ﴾ جمع، والمفرد: كُبْرى، وقد يقال: كبريات[3].

❁ ﴿ﮠﮡﮢ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 60)، و«التحرير والتنوير» (29/ 322).

(2) ينظر: «حروف المعاني والصفات» (ص63)، و«شرح المفصل للزمخشري» لابن يعيش (3/ 120).

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 272)، و«تفسير الرازي» (30/ 714)، و«تفسير القرطبي» (19/ 85)، و«فتح القدير» (5/ 397). وينظر أيضًا: «لسان العرب» (15/ 408)، و«تاج العروس» (40/ 252)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (3/ 1896).

أي: نِذارة للناس جميعًا، وليس لبعضهم، ليس للعرب ولا لقريش ولا للناس في عصر الرسالة، بل للبشر كلهم جميعًا، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

❊ ﴿□□□□□□□□﴾:

أي: ﴿□﴾ في الطاعة، أو ﴿□﴾ فيها، أو ﴿□﴾ للإسلام، أو ﴿□﴾ في الكفر[1].

وفي ذلك إشارة إلى أن التقدم والتأخر معياره: التقوى والإيمان، وهذا لا يُعارض التقدم في العلم والمعرفة والحضارة، والبناء والتشييد والاقتصاد، والانتفاع من الكون، فهذا مما يأمر الله به، وهو من نتائج العبودية الحقة له سبحانه، فالإيمان بالله ليس هروبًا من الحياة ولا إعراضًا عنها، وإنما هو إعراض عن الحرام والمعصية.

❊ ﴿□□□□□□□﴾:

كل النفوس ذلك اليوم مرهونة، **والرَّهْن**: الأسر والإمساك، ومنه رهن المال؛ بأن يرهنه شيئًا يؤتمن عليه ويضمن به حقه[2]، كما قال: ﴿**فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٞ**﴾ [البقرة: 283]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ**﴾ [الطور: 21].

والرَّهْن هنا ليس لحسب ولا لنسب، ولا لأسرة ولا لبلد، وإنما بالعمل والكسب، فيطلقها العدل أو يوبقها الجَوْر[3]؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «**كلُّ الناس يغدُو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو مُوبِقُها**»[1].

---

(1) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (19/ 531)، و«فتح القدير» (5/ 398)، و«تفسير القاسمي» (9/ 359).

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص367) «ر هـ ن»، و«بصائر ذوي التمييز» (3/ 102).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 447)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 518)، و«تفسير الماوردي» (6/ 148)، و«المحرر الوجيز» (5/ 398)، و«تفسير الرازي» (30/ 714)، وما تقدم في «سورة الطور»: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

❊ ﴿□□□□﴾:

قيل: إن ﴿□□﴾ هم: أطفال المؤمنين الذين ماتوا قبل الحُلُم، **وقيل**: هم الأطفال جميعًا، فهم في مأمن لعدم التكليف[2].

والأقرب ما عليه جمهور أهل التفسير؛ وهو أن المقصود بـ﴿□□﴾: أهل الإيمان والإسلام[3]، فإنهم يُحاسبون حسابًا يسيرًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الانشقاق: 8]، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**مَن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب**»[4]. وإنما يُعرض عليهم عرضًا، ثم يخلصون إلى الجنة برحمة أرحم الراحمين.

❊ ﴿□□□□ □□□﴾:

يسأل بعضُهم بعضًا، والسياق يدل أن النفوس مرهونة في ذُعْر وخوف، في حين أن هؤلاء الناجين قد حَطُّوا رحالهم في الجنة، واطمأنوا على أنفسهم، فصاروا يتساءلون عن غيرهم.

وفي طيَّاتِ المعنى: أنهم أُقدِروا بقدرة الله على مخاطبة المجرمين، ومساءلتهم عن سوء مصيرهم، وما الذي قادهم إليه؛ ولذا وجَّهوا الخطاب إليهم مباشرة، والله تعالى ذكر في «سورة الصافات» قصة أحدهم: ﴿□□□□□□□□ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِ

---

(1) أخرجه مسلم (223) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 449)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 249)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 76)، و«تفسير القرطبي» (19/ 87)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 263)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 430)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 555)، و«الدر المنثور» (15/ 85).

(3) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 61)، و«تفسير القرطبي» (19/ 87)، و«التحرير والتنوير» (29/ 325)، والمصادر السابقة.

(4) أخرجه البخاري (6536)، ومسلم (2876) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ﴾.

وقال في «سورة الأعراف»: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ﴾، ﴿(١٦) □□□□﴾ [الأعراف: 44، 50]، فعلى رغم البُعد بينهم، إلا أن الله تعالى ذكر محاورات ومخاطبات ومساءلات ونداءات فيما بينهم، وهذا مما لا يحيط به العقل، ولكن يؤمن به بموجب ما أخبر.

ونحن نرى اليوم كيف أن التقنية قرَّبت البعيد بمجهود البشر العادي، ووفق السنن والنواميس المادية، فكيف بأمر الآخرة الذي لا يخضع للنواميس الدنيوية؟!

ولذا سَمَّى الله يوم القيامة: ﴿□□□﴾ [فاطر: 32]، الذي ينادي فيه بعضهم بعضًا[1].

❊ ﴿□□□□□﴾:

السَّلْكُ: إدخال الشيء في الشيء، كإدخال الخيط في المَخِيط.

والمعنى: ما جعلكم مسلوكين في هذا السَّلْك؟! وما الذي أَوْدَى بكم في ﴿□﴾؟ وما أدخلكم فيها[2]؟

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (3/ 712)، و«تفسير الطبري» (20/ 316)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 205)، و«تفسير الماوردي» (5/ 154)، و«تفسير القرطبي» (15/ 310)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 143)، و«التحرير والتنوير» (24/ 136).

وينظر أيضًا: «إعراب القرآن» للنحاس (4/ 24)، و«معاني القرآن» للنحاس (6/ 220)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص796).

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (22/ 455)، و«زاد المسير» (4/ 366)، و«تفسير الرازي» (19/ 125)، و«تفسير القرطبي» (19/ 87)، و«فتح القدير» (5/ 599)، و«روح المعاني» (15/ 147).

فيأتي جوابهم، وهو دليل على أن السؤال لم يكن سؤال توبيخ وتبكيت، وإنما هو سؤال مستفهم: ﴿□□□□□...﴾.

ولماذا يسأل المؤمنون عن هذا، مع أنهم يعرفون حقيقة الأمر؟

الجواب: يجوز أن يكون هذا سؤالًا لبعض أهل ﴿□﴾ الذين كانوا على الخير في ظاهر الأمر، مثلما جاء في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يُجاءُ بالرجل يومَ القيامة، فيُلْقَى في النار، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ في النار، فيدورُ كما يدورُ الحمارُ برَحاهُ، فيجتمعُ أهلُ النار عليه، فيقولونَ: أَيْ فلانُ، ما شأْنُكَ، أليسَ كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[1]. فعُذِّب بإتيانه للمنكر وتركه للمعروف، وليس لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

أو سألوا أقوامًا لا يعرفونهم؛ لأن الخطاب بين أمم وقرون وأجيال في قديم البشر وحديثهم، وليس وقفًا على مَن كانوا في عصر الرسالة.

وقد يكون السؤال سؤال توبيخ وتبكيت، وهو جزء من عذاب الكافرين والظالمين[2].

❊ ﴿□□□□□□﴾:

أي: تركوا الصلاة، وتَرْك الصلاة معناه: ترك العبودية لله، فهو إشارة إلى تركهم للعبادة، كما قال في وصف المؤمنين الناجين: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ﴾ [المعارج: 22].

❊ ﴿□□□□□﴾:

---

(1) أخرجه البخاري (3267)، ومسلم (2989).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 655)، و«التحرير والتنوير» (29/ 326- 327)، والمصادر السابقة.

أي: تركوا الإحسان إلى الخلق، ودائمًا يُقرن الإحسان في طاعة الله بالإحسان إلى عباد الله، فيُذكر هذا وهذا لتربية المؤمن، فبقدر ما يكون عابدًا لله ينبغي أن يكون محسنًا إلى عباد الله، والصلاة قُرنت مع الزكاة في أركان الإسلام[1].

* ﴿ ﴾:

والخوض هو: الكلام الذي لا فائدة منه من القيل والقال، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [التوبة: 69]، وقال: ﴿□□□□□□□□□□□□﴾ [الأنعام: 68].

فالغالب أن الخوض: الهذر، يلقى ناسًا يتكلمون فيتكلم معهم، ولا يشعر بأهمية الكلمة؛ ولهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إن العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رضوان الله، لا يُلقي لها بالًا، يرفعه اللهُ بها درجات، وإن العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا، يَهْوي بها في جهنَّم**»[2].

وهذا ينطبق على ﴿ ﴾ في المواقع الإلكترونية أو القنوات والحوارات أو المجالس العامة، الذين يلقون الكلام على عواهنه من غير رويَّة ولا تفكير، وقد يكون سخرية بآيات الله أو عباده الصالحين أو نصرة لباطل أو تعويقًا لحق دون تبين، بل لمجرد المجاراة والموافقة للأصدقاء أو النصرة بالباطل للظالمين أو الاسترزاق بالوقيعة والكذب والتشويه، ولا يستوي هؤلاء ومَن على كلمته نور وبرهان، يقولها نصرة لحق أو إزهاقًا لباطل.

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (8)، و«صحيح مسلم» (16) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة...**».

(2) أخرجه البخاري (6478) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

* ﴿ ﴾:

وختم الله أوصافهم بذلك؛ لأنه أهم الأسباب كلها، فكأنه سبب لما قبله.

* ﴿ ﴾:

المقصود بـ﴿ ﴾: الحق الذي لا مرية فيه، أي: أتاهم اليقين بالموت[1]، والموت من اليقين، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أما هو فقد جاءهُ اليَقِينُ من ربِّه**»[2]. أي: الموت، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [ق: 19].

و﴿ ﴾: البعث ثم النار؛ فإنها قد أصبحت يقينًا؛ لأنهم رأوها عيانًا، ولم تعد مجرد خبر يُخبرون عنه، كما قال سبحانه: ﴿﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ [التكاثر: 7]، ويمكن أن يقال: أتاهم الحق ثم الموت ثم النار، وكل من هذه الثلاث المتتابعة يقين يقوِّي ﴿ ﴾ الذي قبله.

وكونهم كانوا يكذِّبون بيوم الدين حتى أتاهم ﴿ ﴾ يدل على أن مقصودهم بـ﴿ ﴾: الخبر إذا تحوَّل إلى حقيقة، ولا مجال للمجادلة في وقوعه، فهو ماثِلٌ للعيان، وهكذا صار أمر الموت والبعث والعذاب بالنسبة لهم.

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ﴾:

في هذا إشارة إلى أن المؤمن قد يُعذَّب، ولكن تنفعه ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾، فمَن يُقصِّر في الصلاة، أو يخوض مع الخائضين، أو يقع منه ما يقع مما لا ينقض أصل الإيمان؛ عُرضة للعذاب، ولكن يخرج بـ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ من الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 499)، و«تفسير الطبري» (23/ 452)، و«تفسير القرطبي» (19/ 88)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 273).

(2) أخرجه أحمد (27457) من حديث أم العلاء الأنصارية رضي الله عنها.

والصالحين، أو برحمة أرحم الراحمين، بخلاف هؤلاء المكذِّبين، فلا يشفع لهم أحد، بل كُتب عليهم الخلود في النار.

* ﴿بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ﴾:

أي: ﴿بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ﴾ بـ﴿▯﴾، و﴿أَهۡلَكۡنَآ﴾ بالقرآن، و﴿أَهۡلَكۡنَآ﴾ بالآخرة ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ﴾، فلا يلتفتون ولا يُصغون، مع أنهم كانوا يخوضون ﴿ ﴾ في كل شيء، فإذا جاء الجِدُّ أعرضوا عنه أو خاضوا بالباطل والهزء والتكذيب[1].

* ﴿مِن مُّدَّكِرٍ ٥١ وَكُلُّ﴾:

﴿مُّدَّكِرٍ﴾ جمع: حمار، **والمقصود**: حمار الوحش؛ لأنه هو الذي يُستنفر، بخلاف الحمار الأهلي، وحُمُر الوحش متوحِّشة سريعة النفور، وإذا نفر أحدها لحقه بقية القَطِيع بسرعة[2]، وفي بعض القراءات: ﴿مُّسۡتَنفَرَةٞ﴾ بفتح الفاء[3]، أي: أتاها مَن ينفِّرها، أو ما ينفرها، فهي مذعورة، ورواية حفص عن عاصم: ﴿٥١﴾؛ لأنها في حالة نفار، يعني: هاربة.

* ﴿شَيۡءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾:

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 329)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 88)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 431)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 273)، و«التحرير والتنوير» (29/ 329).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 454)، و«السبعة في القراءات» (ص660)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص356)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص216)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 393)، و«معجم القراءات» (10/ 173- 174).

القَسْوَرَة جمع: قَسْوَر، وهو الصياد، وهذا هو قول جمهور المفسرين؛ لأن حمر الوحش تُؤكل، وهي من أفضل الصيد.

وقيل: القَسْوَرَة: الأسد، بلسان الحبشة، أي: فرَّت من الأسد[1].

والمقصود: أنها فَرَّت من شيء تخافه، فهؤلاء الناس يعرضون عن الموعظة التي تنفعهم إعراض هذه الوحوش، وفي ذلك وصف لهم بأنهم شابهوا هذه الوحوش في شدة النفور عن الحق، وقوة الإعراض عن سماعه وقبوله.

وجدير بالتأمل أن الذَّمَ الآن على إعراضه عن أصل التذكرة والدعوة والقرآن، فلا يسوّغ إطلاق هذه الآية على مؤمنين أعرضوا عن موعظة عابرة؛ لشغل أو لسآمة أو لوجهة نظر، وأين هذا من ذاك؟!

* ﴿﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾:

بعدما شبَّههم بالحُمر الوحشية في حالة فرار ونِفَار، لا تسمع ولا ترى، أَضْرَبَ عن هذا المعنى ليشير إلى أن الحُمُر أحسن حالًا منهم من بعض الوجوه؛ لأنهم مع جهلهم ونفارهم مصابون بالكِبر والغرور والإعجاب بالنفس على غير شيء ومن دون سبب، فهم مثل العائل المستكبر الذي حُرِّمت عليه الجنة[2]، فكل واحد منهم يقول: إنه لن يؤمن حتى ينزل عليه كتاب يخصه، كما في قوله تعالى: ﴿□□□□□□□□□ □ □□﴾ [الأنعام: 124]، وهو دليل التكبر، ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 206)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص498)، و«تفسير الطبري» (23/ 455، 458)، و«تفسير القرطبي» (19/ 89)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 273)، و«التحرير والتنوير» (29/ 330).

(2) كما في «صحيح مسلم» (107) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «**ثلاثةٌ لا يكلِّمُهم اللهُ يومَ القيامة، ولا يزكِّيهم، ولا ينظرُ إليهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ**».

وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ﴾ [غافر: 56]، وهو دليل الحسد، إذ يقولون: كيف يُبعث محمد ولا نُبعث نحن؟! وقالوا: كيف يأخذ بنو هاشم الرِّفادة والنبوة أيضًا؟! فلذلك أعرضوا.

والله لم يخبر أن ذلك إرادة كل مجموعة أو قبيلة، بل إرادة كل فرد ﴿□□□﴾، يريد أن يكون عنده ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ فِي﴾ مكشوفة تقوم بها الحجة![1].

* وهذا تعجيز وتحكُّم وصدود؛ لأن القرآن حجة للجميع؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ﴾:

﴿وَنَهَرٖ ٥٤﴾ أي: لن يُؤتوا هذه الصحف المنشَّرة، فمَن هم؟! وبأي حجة يطلبون ذلك؟! فخلقتهم لا تؤهِّلهم لذلك، والمال والولد والوجاهة لا يؤهِّلهم لذلك، فهذا للدنيا متاع، والله تعالى يُؤتي النبوة مَن يشاء، فهم ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ﴾ أي: ليس عندهم خوف، وإلا لآمنوا وأسلموا، ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ بسبب إعراضهم وخوضهم وشكِّهم، وإلا لو وُجد عندهم شيء من الخوف لحملهم على البحث والتحرِّي والاستعداد واليقظة.

* ﴿مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾:

أي: لن يُؤتى أحدٌ منهم صحفًا منشَّرة، ولا يحلمون بهذا، فعندهم تذكرة واحدة هي ﴿□□﴾، وهم من البشر، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾، والقرآن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ أي: موعظة تدعو الغافل أن يتذكَّر فيؤوب، والعاصي أن يتوب[2].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 460- 461)، و«تفسير الماوردي» (6/ 149)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 465)، و«المحرر الوجيز» (5/ 399- 400)، و«زاد المسير» (4/ 366)، و«تفسير القرطبي» (19/ 90)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 274)، و«التحرير والتنوير» (29/ 331).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 462)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 217)، و«تفسير الرازي» (30/ 717)، و«تفسير القرطبي» (19/ 90)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 274).

* ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ﴾:

فالمسؤولية على الإنسان، كما قال تعالى: ﴿□□□□□□﴾ [التكوير: 28]، وأعاد المشيئة إليهم، فلهم مشيئة التذكر أو الإعراض، وحجتهم بقولهم: ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ﴾ [الأنعام: 148] حجة داحضة، وهم قادرون على أن يهتدوا باختيارهم كما ضلوا باختيارهم، وقد جعل الله تعالى لهم الإذن بذلك: ﴿۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [يونس: 100].

* ﴿ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾:

أي: لن يُطاع الله سبحانه وتعالى ولن يُعصى إلا بعلمه، فالله أقام الحجة على الناس بالوحي، ثم وفَّق مَن شاء من عباده إلى سلوك السبيل وخَذَل مَن يشاء، وتلطَّف بمَن شاء من عَبِيده، فسهَّل لهم الإيمان ومهَّده لهم تمهيدًا، وعاقب مَن يشاء من عَبِيده بصدودهم وإعراضهم، فجعل مسلكهم صعودًا: ﴿أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ﴾ [الأنعام: 125].

وهو سبحانه أهلٌ لأن يُتَّقى ويُخَاف بتجنب الشرك وكبائر الذنوب، وهو أهلُ المغفرة للمتَّقين، كما قال سبحانه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ □□﴾ [الأعراف: 56][1].

والتعبير هنا بـ﴿۝٥﴾ متفرد، لم يرد في غير هذا الموضع في حقِّ الله سبحانه، يعني: صاحب ومستحق[2].

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 62)، و«تفسير السعدي» (ص898)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 464)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 333)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 80)، و«زاد المسير» (4/ 367)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 274)، و«التحرير والتنوير» (29/ 334).



سورة القيامة

*** تسمية السورة:**

تسمى: «**سورة القيامة**»، وهو اسمها في المصاحف، وكتب التفسير[1].

وسُمِّيت في بعض التفاسير: «سورة ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾»[2].

وسماها البعض: «**سورة** ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾»[3].

وفي هذا نظر؛ لأن المقصود بالتسمية التمييز، وهذه التسمية لا تميزها؛ لأنها تصدق على «سورة البلد»: ﴿صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

*** عدد آياتها:** تسعٌ وثلاثون آية عند جمهور العلماء، وهي أربعون آية عند الكوفيين[4].

*** وهي مكية** بالاتفاق[5].

---

(1) ينظر: «جامع الترمذي» (5/ 430)، و«تفسير الطبري» (23/ 465)، و«تفسير القرطبي» (19/ 91)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 275)، و«التحرير والتنوير» (29/ 339).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص686)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 367)، و«تفسير الرازي» (30/ 633)، و«روح المعاني» (15/ 398).

(3) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص92)، و«روح المعاني» (15/ 150)، و«معجم علوم القرآن» (ص227).

(4) واختلفوا في آية: ﴿□□□﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص259)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص319)، و«روح المعاني» (15/ 150)، و«التحرير والتنوير» (29/ 336).

(5) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 401)، و«زاد المسير» (4/ 368)، و«فتح القدير» (5/ 402)، و«التحرير والتنوير» (29/ 336).

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧﴾:

يستفتح سبحانه السورة بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾، وهو من حيث الظاهر نفي؛ لأن ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ نافية، ومن هنا أخذ بعضهم المعنى على ظاهر اللفظ، وهو النفي؛ فيكون المعنى: أن الله تعالى لا يقسم بيوم القيامة، ولا يقسم بالنفس اللَّوَّامة، ولا يقسم بهذا البلد، ولا يقسم بمواقع النجوم[1].

وذهب الأكثرون- وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وسعيد بن جُبير، وقتادة، وابن جرير الطبري- إلى أن الآية قَسَم[2]، وهو الأصح، فهو تعالى يقسم بيوم القيامة وبالنفس اللَّوَّامة، وإن كان ظاهر الصيغة «النفي»، **والدليل على ذلك أمور**:

1- من حيث اللغة، فإنه جار على قواعد اللغة، فالإنسان إذا أقسم على شيءٍ منفي فإنه يأتي بـ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾، كما لو قال لك إنسان مثلًا: إنك فعلت كذا وفعلت كذا، فقلت له: لا وربِّ الكعبة ما فعلته. فيكون فيه نفي، ومعناه القسم.

2- أن ذِكْر المقسَم به آيةٌ على وجود القَسَم، فهو هنا أقسم ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾، وأقسم ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾، كذلك أقسم ﴿مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾ [البلد: 1]، وأقسم ﴿□ □ □﴾[الواقعة: 75]، وأقسم ﴿وَوَضَعَ □﴾ [التكوير: 15]، فذِكْر المقسَم به يدل على وجود القَسَم.

3- أن الله تعالى ضمَّن السياق إشارة للمقسَم عليه واضحة جلية أو منصوصة، وهو جواب القَسَم، وهو شيءٌ عظيم، كالقَسَم هنا على البعث، مثل قوله تعالى:

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 720).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 467)، و«زاد المسير» (4/ 368)، و«تفسير القرطبي» (19/ 92)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 343)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 275)، و«التحرير والتنوير» (29/ 338).

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ [الواقعة: 77]، فذكر الشيء المقسَم عليه- وهو البعث وعظمته- دليلٌ على أن الأمر فيه قَسَم.

وليس جيدًا أن يقال: إن ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ هنا نافية للقَسَم، أو أن يقال: إنها زائدة، كما يقول بعضهم[1]، فليس في القرآن شيٌ زائد، وإن كانوا يقصدون: أن لا إعراب لها.

وعادة القرآن القَسَم على أمور عظام، واستفتاح بعض السور بالقَسَم، وهذه منها، فالله تعالى يقسم بيوم القيامة، وهو يوم قيام الناس لرب العالمين، ويوم بعث الناس من قبورهم، وهي القيامة العامة التي يجادل بها المكذِّبون.

ويدخل في القَسَم: القيامة الخاصة، وهي قيامة كل فرد، كما ورد- وفي سنده ضعف-: «**إذا ماتَ أحدُكم فقد قامت قيامتُه**»[2]. وقد جاء في صحيح السنة ما يشهد لهذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم في شأن غلام صغير: «**إن يَعِشْ هذا لا يدركه الهَرَمُ حتى تقومَ عليكم ساعتُكم**»[3]. **فالمقصود**- والله أعلم-: القيامة الخاصة[4].

---

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 63)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 390)، و«تفسير السمعاني» (6/ 101)، و«تفسير القرطبي» (19/ 91).

(2) ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (1/ 436)، و«الفوائد المجموعة» (ص267)، و«السلسلة الضعيفة» (1166، 5462).

(3) أخرجه البخاري (6511)، ومسلم (2952) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(4) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (18/ 90)، و«فتح الباري» (10/ 556)، و«إرشاد الساري» (9/ 297).

فأنت نصيبك من هذه الدنيا هو عمرك المحدود، وقيامتك التي تخصُّك هي حينما ينهدم هذا الجسد بمغادرة الروح، كما ينهدم الكون في القيامة الكبرى، حيث يختل نظام الكون، ويُدمر ويتغير كل شيء.

* ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾:

هذا قَسَمٌ ﴿فِي﴾، وقد أقسم تعالى بها في موضع آخر فقال: ﴿مُّسۡتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤﴾ [الشمس: 7- 8]، **والمقصود**: القَسَم بكل نفس، سواءً كانت نفسًا مؤمنة أو غير مؤمنة، فالقَسَم هو بما خلقه الله تعالى من النفوس، سواء أُلهمت فجورها، أو أُلهمت تقواها[1].

وأقسم هنا ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾: نفس المؤمن؛ وهي التي تلوم صاحبها، فإن كان مسيئًا لامته: لماذا أساء؟ وإن كان محسنًا لامته: لماذا لم يزدد إحسانًا؟ كما قال الحسن البصري رحمه الله: «إن المؤمنَ لا تراهُ إلا يلومُ نفسه؛ يقولُ: ما أردتُ بكلمتي؟ ما أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ فلا تراهُ إلا يعاتبُها، وإن الفاجرَ يمضي قُدُمًا، فلا يُعاتبُ نفسه»[2].

والنفس اللَّوَّامة تحمل صاحبها على الطموح والتطلُّع للأفضل. وغالب نفوس الناس ليست ممحضة للخير ولا خالصة للشر، بل هي في برزخ بين هذا وذاك؛ تغريها الشهوة ثم تندم وتحْدُوها التوبة إلى الملام، وهكذا لا تستلم للشر، ولا تَسْلم منه!

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 75)، و«تفسير السعدي» (ص926)، و«التحرير والتنوير» (30/ 368)، وما سيأتي في «سورة الشمس».

(2) ينظر: «الزهد» لأحمد (1616)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 82)، و«ترتيب الأمالي الخميسية» (1386)، و«تفسير القرطبي» (19/ 92- 93)، و«الدر المنثور» (15/ 97).

وكما أن منازل الناس في الجنة مختلفة، وبينهم كما بين المشرق والمغرب، فكذلك هم في الدنيا في مقدار طموحهم وأعمالهم؛ ولهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إني لأعلمُ آخرَ أهل النار خروجًا منها، وآخرَ أهل الجنة دخولًا: رجلٌ يخرجُ من النار حَبْوًا، فيقولُ اللهُ: اذهب فادخل الجنةَ. فيأتيها، فيخيلُ إليه أنها مَلْأَى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى. فيقولُ: اذهب فادخُل الجنةَ. فيأتيها فيخيلُ إليه أنها مَلْأَى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى، فيقولُ: اذهب فادخُل الجنةَ، فإن لك مثلَ الدنيا وعشرةَ أمثالها**- أو: **إن لك مثلَ عشرة أمثال الدنيا**»[1].

وكأن هذا الرجل كان في الدنيا من الناس الذين كلما فُتح لهم بابٌ من الخير تردَّدُوا وأحْجَمُوا وقالوا: لا مكان لنا. وإذا جيء لهم بمشروع خيري أو عمل أو إصلاح قالوا: ليس ثَمَّ مجال، فالمساجد مليئة والدروس مليئة وفرص الخير قد ضاقت بطلَّابها، فلا مكان لنا، حتى إذا وافوا الجنة وقيل لأحدهم: ادخل، يرجع ويقول: «وجدتُها ملْأى»!

ومن وراء هذا اللَّوم عمل وإنجاز وبر وخير، وكم استخرج الله به من نفس عبده من صدقة عظيمة لا يقدر عليها غيره، وبر بوالد، أو صلة رحم، أو عطف على مسكين، أو بحث عن أسباب المغفرة والتوبة، أو رحمة لملهوف رجاء أن يدخل صاحبها في عموم: «**الراحمونَ يرحمهم الرحمنُ**»[2].

وكم وقع فيها من انكسار القلب، وتواضع النفس، والخوف من سوء العاقبة، وعدم الاعتداد بالعمل مهما كان.

---

(1) أخرجه البخاري (6571)، ومسلم (186) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(2) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقد تقدم في «سورة الملك»: ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ ...﴾ [الملك: 19].

ومن معاني ﴿ٱلۡمِيزَانِ﴾- كما قال ابن تيمية وابن القيم[1]-: التي تتلوَّم على صاحبها، والتلوم: التردد وعدم الاستقرار، وهذا من طبيعة النفس الإنسانية، فإن النفس متقلِّبة في الساعة الواحدة؛ بل في اللحظة الواحدة، ومشاعر الإنسان وأحاسيسه متردِّدة ما بين الغضب والرضا، والحزن والسرور، والتفاؤل والتشاؤم، والطمأنينة والقلق، والإيمان والشك، وسواها من الأحوال المتناقضة، وهذا أمرٌ جَبَلَ الله تعالى العباد عليه، حتى إن العبد في اللحظة الواحدة يجمع بين معصية وطاعة، فقد يسمع ما حرم الله أو يشاهد ما حرم الله، فيتذكَّر ويستغفر ويسبِّح، أو يركب سيارته لعمل مشبوه ويقرأ دعاء الراحلة، أو ينتظر موعدًا لا يرضاه إيمانه وهو يسبِّح ويستغفر، أو يسافر سفر معصية وهو يصلِّي ويصوم ويتصدَّق، وقد يلقى إنسانًا على غير طاعة ويدعوه إلى الإسلام فيسلم، أو يدعوه إلى التوبة من بدعة غليظة أو معصية ما كالمخدرات وهو مشارك له في معصية أهون منها، ولا يضيع عند الله تبارك وتعالى شيء، فهذه النفس متلاومة متحوِّلة متقلِّبة، وعلينا أن ندرك هذا في طبيعة الناس، فلا نعاملهم كما لو كانوا حجارةً أو حديدًا.

ولذلك سمِّي: إنسانًا، وسمي القلب: قلبًا؛ لتقلبه واختلاف أحواله.

وما سُمِّي الإنسانُ إلا لنَسْيِه *** ولا القلبُ إلا أنه يتقلَّبُ[2]

والله أقسم بالقيامة الكبرى، ثم بالنفس اللَّوَّامة؛ لأن القيامة الكبرى ليس المقصود بها: حشر الوحوش والبهائم، وإنما حشر الإنسان؛ ولهذا تكرر ذكره في هذه السورة خمس مرات؛ تنبيهًا على وظيفته، وما حمل من أمانة عظيمة.

* ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾:

---

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (9/ 294)، و«إغاثة اللهفان» (1/ 78).

(2) ينظر: «سراج الملوك» لأبي بكر الطرطوشي (ص186)، و«تاج العروس» (1/ 124).

لم يذكر السياق المقسَم عليه تصريحًا، بل جاء ضمنًا هنا، فالقَسَم على أن الله تعالى سيجمع عظام الناس، أي: سيبعثهم[1]، وهذا كثير، كما في «سورة الحاقة»، و«سورة القارعة»، وغيرهما.

والمقصود: الكافر أو المكذِّب، **وقيل**: إنسانٌ خاص، هو أبو جهل أو الأَخْنس بن شَرِيق أو غيرهما من المشركين الذين كانوا ينكرون البعث[2]، وقد كان أحدهم يأتي بالعظام، وهي رَمِيم، ويشير إليها ويقول: هل ستُجمع هذه العظام كلها؟ والله لا أؤمن حتى تجمع هذه العظام[3]، والآيات وإن نزلت في معين، إلا أنها عامة تخاطب كل مَن ينكر البعث أو يشك فيه.

وجَمْعُ العظام تأكيد على البعث من جديد، فبعد جَمْعِ العظام تُكسى باللحم، **وأشار إلى العظام لأسباب، منها:**

1- أن العظام هي من أول ما يُخلق، كما قال الله سبحانه: ﴿ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﴾ [المؤمنون: 14].

2- أن العظام كما أنها أول ما يتكون من الإنسان فهي آخر ما يبقى منه، فيزول اللحم والشحم والدم، وتبقى العظام لفترة طويلة.

3- أن أصل الإنسان من العظم، كما جاء في الحديث، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**وليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبْلَى، إلا عظمًا واحدًا؛ وهو عَجْبُ الذَّنَب،**

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 520)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 63)، و«تفسير الرازي» (30/ 721)، و«تفسير القرطبي» (19/ 93)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 275)، و«فتح القدير» (5/ 403)، و«التحرير والتنوير» (29/ 339).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 391)، و«زاد المسير» (4/ 369)، و«تفسير الرازي» (30/ 722)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 82)، و«تفسير البغوي» (8/ 280).

ومنه يركَّبُ الخلقُ يومَ القيامة»[1]. وعَجْبُ الذَّنَب: العظم المستدير الصغير الذي يكون في أسفل الظهر، فمنه خُلق الإنسان، ومنه يُبعث ويُركَّب[2].

4- أن سبب النزول هو إنكار المشركين للبعث، وربما كانوا يستبعدون جمع العظام بعدما تفرقت أكثر مما يستبعدون غيره، ويضربون بها المثل؛ لأنهم يرون عظام الحيوانات من الإبل والبقر والحمير وغيرها وهي مرمية ذات اليمين وذات الشمال بعدما تحلَّلت أجزاؤها وبقيت عظامها، فكانوا يحتجون على النبي صلى الله عليه وسلم بهذه العظام.

وهذا دليل على القدرة الإلهية أولًا، ودليل على الإرادة ثانيًا، فالله تعالى قدير وقد أراد ذلك، وأخبر أنه سوف يجمع عظامهم، وذكر العظام خاصة هنا يحدث هزة نفسية في القارئ الحيّ المتحرك وهو يرى نفسه فجأة قد بلي وصار عظامًا متفرقة.

وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هي صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية، الذاهبة في التراب، المتفرقة في الثرى، لإعادة بعث الإنسان حيًّا! ولعلها لا تزال كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا! والقرآن يرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكدًا وقوعه: ﴿٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا﴾[3].

* ﴿٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾:

فلن نجمع العظام فقط، بل نحن ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا﴾.

وقد ذهب أكثر أهل العلم- وهو المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسَعيد بن جُبير وعكرمة- إلى أن المعنى: أن نجعل يد الإنسان مُسَوَّاة بدلًا من أن

(1) أخرجه البخاري (4935)، ومسلم (2955) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (18/ 92)، و«إرشاد الساري» (7/ 323).

(3) ينظر: «في ظلال القرآن» (6/ 3768).

تكون متفرقة بالأصابع، فتكون كخف الحيوان أو حافره بلا أصابع، فلا يستطيع أن يتناول بها شيئًا، أو أن يأكل بها ويشرب[1].

وذكر الشيخ محمد عطية سالم رحمه الله في تتمة «أضواء البيان» أن جميع المفسرين على هذا، واستغربه، وقال: «وهذا في الواقع لم نفهم له وجهًا مع السياق»[2].

والصحيح أن في المسألة قولًا آخر ذكره الزجَّاج وابن قُتيبة وعدد من أئمة اللغة، واختاره ابن القيم، وهو أن المعنى: أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان وعلى جمع عظامه حتى جمع الأطراف وتسويتها وإعادتها[3].

والبَنَانُ: الأصابع، أو أطراف الأصابع[4]، وفي هذا إشارة إلى كمال قدرته سبحانه.

وقد اكتشف العلماء المعاصرون أن البَصْمَة علامة فارقة بين البشر، فلكل إنسان بصمته، فلا يمكن أن يتفق اثنان في العالم في صفة تخطيط البَصْمَة، وفي ذلك إشارة إلى تحديد المسؤولية، بحيث: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: 18]، ولا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، وإنما: ﴿□□□□□□﴾ [المدثر: 38]، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 471)، و«تفسير القرطبي» (19/ 94)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 276).

(2) ينظر: تتمة «أضواء البيان» (8/ 372).

(3) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص206– 207)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 251)، و«تفسير البغوي» (8/ 281)، و«تفسير القرطبي» (19/ 94)، و«التبيان في أقسام القرآن» (ص104)، و«التحرير والتنوير» (29/ 341).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 473)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (22/ 479)، و«تفسير القرطبي» (19/ 94)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 276)، و«التحرير والتنوير» (29/ 341).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص177)، و«مختار الصحاح» (ص40)، و«تاج العروس» (24/ 278) «ب ن ن».

[الطور: 21]. كما يتعامل الناس بالبَصْمَة في الدنيا عند ما يحدِّدون المسؤول عن عمل ما، فيوم القيامة كل أحد يتحمل عمله خيرًا أو شرًّا.

* ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو﴾:

والذين ينكرون البعث في الغالب ينكرونه لأحد أمرين:

1- شبهة عارضة في عقولهم، فهم يستبعدون هذا الأمر استبعادًا عقليًّا، ولهؤلاء جاء الجواب الإلهي بإثبات القدرة على تسوية البَنَان، فالذي خلق هذا الإنسان أول مرة قادر على أن يعيده، وعلى أن يسوِّي أدق التفاصيل فيه، وفي هذا إطاحة بالشبهة العقلية.

2- شهوة، فإن من الناس مَن ليس عنده وقت ليفكِّر في مسألة البعث، ولا يريد أن يفكِّر؛ لأنه لا يريد أن يشغل بالَه بشيء يلهيه عن ملذاته، يريد أن ينطلق فيعبّ من الشهوات عبًّا، فيستمتع بشبابه وبحيويته وبالفرص المتاحة له، ويعبث بما تمكن منه من شرابٍ ونساءٍ ولذاتٍ، ولا يريد أن يسمع شيئًا يعكِّر عليه مسار حياته وعاداته وعلاقاته ونظامه.

وعن مثل هؤلاء تحدثت الآية الكريمة، وجاء حرف ﴿وَٱلنَّخۡلُ﴾ للإضراب[1] والانتقال من سبب سابق- هو الشك في البعث- إلى سبب آخر هو أوسع انتشارًا وأعمق في نفوس كثيرين، وكأن الدافع الأقوى والأكبر هو إرادة الفجور، فأبرز كلمة ﴿ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ مرة أخرى فقال: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ﴾ أي: يريد الفجور[2].

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿□□□□□□﴾.

(2) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 64)، و«فتح القدير» (5/ 404)، و«تفسير القاسمي» (9/ 363)، و«التحرير والتنوير» (29/ 342).

وفيه إشارة إلى تعلق الإنسان بالشهوة المستقبلة، وليس بالشهوة الماضية، فالشهوة التي مضت أصبحت حُلُمًا أو خيالًا أو وهمًا، وقصاراها أنها تغريه بالمزيد والتكرار وتلح على خياله وتمنعه التوبة، ولسان حالها يقول: كيف تدع متعًا جميلة مغرية متاحة في متناول يدك؟ ولو استحضر الآخرة، ومتعها ونعيمها وسرورها وخلودها السرمدي، لصغرت في عينه الشهوة الدنيوية، حتى لو كانت حلالًا، فكيف بالحرام؟

يأسَفُ المَرءُ على ما فاتَهُ *** مِن لُبانات[1] إذا لَمْ يَقْضِها

وتَراهُ فَرِحًا مُستَبشِرًا *** بالَّتي أَمضى كَأَن لَمْ يُمضِها

إنها عِندي كأَحلامَ الكَرَى *** لقريب بَعضُها مِن بَعضِها[2]

والفجور: المعصية والفسق، **والفاجر**: العاصي، **ومن معاني الفجور**: التكذيب، والعرب يُطلقون الفجور على التكذيب، فيقولون: فلان فاجر، أي: كذَّاب[3]، لا سيما إذا حلف يمينًا بالله على شيء وهو كاذب.

* ﴿ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾:

أي: ومن فجوره: سؤاله هذا، والله تعالى يوثِّق عليه هذا الموقف، فكأنك ترى هذا الفاجر الذي فضحه الله وجرَّده وعرَّاه وعرَّى مشاعره ومقاصده، لا يزال متبجِّحًا متعاظمًا يسأل وكأنه عالم أو محقِّق أو مدقِّق: متى يوم القيامة؟ وهو سؤال

---

(1) جمع: لُبانة، وهي الحاجة النفسية.

(2) ينظر: «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري (1/ 315)، و«نفح الطيب» (1/ 119)، (5/ 161) منسوبًا إلى عمران بن حِطَّان.

(3) ينظر: «لسان العرب» (5/ 46- 47)، و«تاج العروس» (13/ 299- 300) «ف ج ر».

استبعاد واستنكار؛ ولذا جاء بأداة ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾، وهو أدلّ من «متى» على الاستبعاد.

ومن عادة الناس التعلق بالأرقام؛ ولذا يتحدَّثون عن الساعة الموعودة ويحاولون تحديدها وبالتقريب، فبعضهم يستنبط ذلك من الآثار النبوية، كحديث: «**مَثَلُ المسلمينَ واليهود والنصارى، كَمَثَلِ رجل استأجر قومًا، يعملونَ له عملًا إلى الليل، فعملوا إلى نصف النهار**...» الحديث[1]، وبعضهم يحاول استخراج أجلها المضروب من الحروف المقطَّعة في أوائل السور[2]، وبعضهم يحسبونها بالنجوم.

وكله من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإن كانت أشراطها قد اقتربت وعلاماتها قد ظهرت، وقبل مدة خرجت علينا قصة: «هرمجدون» وأشراط الساعة الكبرى، وخرج كتاب يقول صاحبه: لم يبق إلا ستون سنة أو سبعون سنة على القيامة!

والله تعالى يريد من الناس ألَّا يتعلَّقوا بهذه الأوهام، وأن يصمدوا للحقائق؛ ولهذا لم يُجب الله عن السؤال بما يريد السائل، وإنما اكتفى بذكر ما يحدث فيها، وما يقول الإنسان، وما يترتب على البعث من سؤال وحساب، ونعيم وعذاب.

وهذا مثل قول الله سبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾، فقد كانوا يسألون عن الهلال: لماذا يصبح صغيرًا ثم يكبر؟ فما أجابهم الله على السؤال بخصوصه؛ لأنه لا

---

(1) أخرجه البخاري (558، 2271) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، ولفظه: «**مَثَلُ المسلمينَ واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجرَ قومًا، يعملونَ له عملًا إلى الليل، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجةَ لنا إلى أجركَ. فاستأجرَ آخرينَ، فقال: أكملوا بقيةَ يومكم، ولكم الذي شرطتُ. فعملوا حتى إذا كان حينَ صلاة العصر، قالوا: لك ما عملنا. فاستأجر قومًا، فعملوا بقيةَ يومهم حتى غابت الشمسُ، واستكملوا أجر الفريقين**».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 220)، و«تفسير الرازي» (2/ 253- 254)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 161).

فائدة لهم أن يُخبروا عنه بالوحي، والوحي لم يأت ليخبرهم بتفاصيل الفلك، وإنما أخبرهم الله سبحانه عن الحكمة من وراء ذلك، فقال: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]، فأخبرهم بالمقصد والمصلحة من وراء ذلك، وترك لهم أن يبحثوا: لماذا يبدأ الهلال صغيرًا ثم يكبر؟ فيدركوا ذلك بعلومهم وعقولهم ومحاولتهم[1].

* ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ﴾:

﴿تُكَذِّبَانِ﴾ أي: أصابه من البرق شيء، فعند ما يكون البرق شديدًا وينظر إليه الناظر فإن العين تتأثر وتنتكس الرؤية ولو مؤقتًا، ويقال: برقت العين.

وفي قراءة أهل المدينة بفتح الراء، وكلاهما قراءة سبعية: ﴿بَرَقَ﴾[2]، كأن هذا ﴿﴿١٣﴾﴾ أصبح مشدودًا لا يطرف ولا يلتفت بسبب الهول[3].

وهي من علامات القيامة، والجواب هنا يغني جوابًا عن السؤال عن أوانها.

* ﴿الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾:

أي: ذهب ضوؤه[4].

* ﴿كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾:

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة القمر»: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 478)، و«السبعة في القراءات» (ص661)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص357)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص216)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 393)، و«معجم القراءات» (10/ 185- 186).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 660)، و«تفسير الرازي» (30/ 623)، و«تفسير القرطبي» (19/ 95)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 277)، و«التحرير والتنوير» (29/ 344).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 481)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 391)، و«تفسير القرطبي» (19/ 96)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 277)، و«التحرير والتنوير» (29/ 345).

قد يكون جمعهما: بأن يذهب ضوء كل منهما[1]، فاشتركا في الحكم.

أو أن المعنى: جُمع ﴿١٤ وَخَلَقَ﴾ معًا، بدلًا من أن تكون الشمس في جهة والقمر في جهة، فطلعت الشمس من مغربها، وأصبح القمر بإزائها.

أو يكون المعنى: أنهما جُمعا ثم أُلقيا[2]، كما ورد أن الشمسَ والقمرَ يلقيان في النار يومَ القيامة؛ ليُعذَّب بهما الذين كانوا يعبدونهما من دون الله ويبكتوا، فقال صلى الله عليه وسلم: «**الشمسُ والقمرُ مُكَوَّران يومَ القيامة**»[3]. ولا مانع من إرادة المعاني كلها، وأنها تقع في وقت واحد، أو في أوقات مختلفة، والله أعلم.

وذهب بعضهم إلى أن هذه العلامات تكون عند النزع والاحتضار قبيل خروج الروح[4]، وهذا مفهوم في قوله: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾، لكنه غير واضح في قوله: ﴿كَالْفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ﴾، إلا إن قيل: إن هذا بسبب اضطراب حواس الإنسان، كما ذكره بعضهم، وهو بعيد.

والصحيح أن المقصود هنا ما أخبر الله عنه في غير هذا الموضع من علامات يوم القيامة حينما يخسف القمر، ويجمع الشمس والقمر.

وهنا تلحظ أن الله تعالى لم يجبهم إلى ما سألوه؛ وإنما لفت أبصارهم إلى ما كان يجب أن يهتموا به ويستعدوا له، ونظير ذلك في السنة النبوية قصة الأعرابي الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: متى الساعةُ؟ فقال له النبيُّ صلى الله عليه

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 481)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 252)، و«تفسير القرطبي» (19/ 96)، و«روح البيان» (10/ 246).

(2) ينظر: «زاد المسير» (4/ 370)، و«تفسير الرازي» (30/ 724)، و«تفسير القرطبي» (19/ 96-97)، و«فتح القدير» (5/ 405).

(3) أخرجه البخاري (3200) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 724)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 266).

وسلم: «**وماذا أعددتَ لها؟**». قال: لا شيء، إلا أني أحبُّ اللهَ ورسولَهُ صلى الله عليه وسلم. فقال: «**أنتَ مع مَن أحببتَ**»[1].

فلم يجبه النبيُّ صلى الله عليه وسلم على خصوص السؤال؛ وإنما أجاب الإجابة المفيدة النافعة.

وقائلٍ: هل عملٌ صالحٌ *** أَعْدَدْتَه يدفعُ عنك الكُرَبْ

فقلتُ: حسبي خدمةُ المصطفى *** وحبُّه، فـ«**المرءُ مع مَن أحبْ**»[2]

* ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ﴾:

فهذه العلامات تقع يوم القيامة، وهذا الإنسان الذي كان يسأل قبل: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ [القيامة: 6] هو نفسه الآن يقول: ﴿نَّارٍ ۝١٥﴾؟

والمعنى: أنه لا مفرَّ، فهو يتلفت فيرى الأمر صعبًا، والملائكة تحيط به من كل جانب، فيقول: لا مفرَّ، وهو كان يسأل بتبجح وتعاظم، والآن يسأل بخوف وذُعر.

* ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾:

ولعل هذا من قول الحق سبحانه جوابًا على سؤال: ﴿نَّارٍ ۝١٥﴾، ويحتمل أنه من تمام كلام الإنسان، فهو يرجع إلى نفسه بالتأنيب والتذكير[3].

و﴿تُكَذِّبَانِ﴾ في الأصل: هو الجبل أو الواقي، قال الشاعر[1]:

---

(1) أخرجه البخاري (3688)، ومسلم (2639) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) ينظر: «الجواهر والدرر» (2/ 849)، و«شرح صحيح البخاري» للسَّفِيري (1/ 408)، و«العقد التليد في اختصار الدر النضيد» للعَلْمَوي (ص280)، و«المطالع البدرية في المنازل الرومية» لبدر الدين الغَزِّي (ص180)، و«ريحانة الألِبَّا» للشهاب الخفاجي (ص143) منسوبًا إلى الحافظ ابن حجر.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 484)، و«تفسير الماوردي» (6/ 154)، و«تفسير الرازي» (30/ 727)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 346)، و«التحرير والتنوير» (29/ 346).

تَعَزَّ فلا شيءٌ على الأرضِ باقيَا *** ولا وَزَرٌ مما قَضَى اللهُ واقيَا

فالوَزَر هو: الشيء الذي يقي الإنسان[2]، وهنا لا شيء يقي الإنسان أو يمنعه من مواجهة الحساب.

والمؤازرة: المساعدة والمساندة، فالمرء هناك بلا حليف ولا أنيس ولا صاحب ولا أخ ولا قريب، واعتماده على ما قدَّم من عمل، أو ما ظن بربه من فضل ورحمة.

* ﴿□□□□□﴾:

أي: أن الاستقرار موكولٌ إلى الله سبحانه، فهو الذي بعث عباده وجعل لهم هذا المستقر، فهذا فعله عز وجل.

أو أن الناس استقروا إلى ربهم وعادوا إليه.

أو أن الحساب والمصير إلى جنة أو نار بيده[3].

وهو جواب مناسب لسؤالهم: ﴿نَّارِ ﴿١٥﴾﴾؟ فلا مفرَّ، بل الأمر ثابت مستقر واضح، وشأن الآخرة ليس كشأن الدنيا فيه إمهال وإملاء، بل هو أمر صارم، والإنسان في مصيدة لا نجاة له منها، إلا بما أسلف.

* ﴿□□□□□□□﴾:

وهذا شيء عجيب؛ أن يذكَّر الإنسان بما عمله هو، فكيف ينساه؟! كما قال الله تعالى: ﴿□□□□﴾ [المجادلة: 6]، وبعض الناس يتناسى ويتجاهل، فينبَّأ يوم القيامة بما عمل.

---

(1) ينظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (1/ 376)، و«اللمحة في شرح الملحة» (1/ 485)، و«أوضح المسالك» لابن هشام (1/ 275).

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 282)، و«تفسير الرازي» (30/ 725)، و«تفسير القرطبي» (19/ 98)، و«التحرير والتنوير» (29/ 346).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 660)، و«تفسير الرازي» (30/ 725)، و«التحرير والتنوير» (29/ 346).

وهذا الإنسان كان يريد أن يفجر أمامه ويمضي في طريقه دون تردد، في حين أن آخر لوَّام لنفسه يقدِّم رِجْلًا ويؤخِّر أخرى، وكل هذا أو ذاك مرصود مدوَّن، حتى الهَمُّ والنية[1].

وينبَّأ فوق هذا بما حصل من أثر عمله بعد موته من خير أو شر، كما قال سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: 47]، أي: من مضاعفة حسنات أو عظمة سيئات بأسباب عملوها ولم يتوقعوا أن تصير إلى هذا، فقد يرونه صغيرًا هينًا، وهو عند الله عظيم.

وربما قدَّم الإنسان الأعمال الصالحة فعملها في حياته، وأخَّر بعضها فلم يعملها وسوَّف؛ لأنه كان يمنِّي نفسه بالأماني والآمال، فأخَّر العمل حتى باغته الموت قبل أن يتمه[2].

أو يكون المقصود: ما قدَّم من الأعمال وما أخَّر من الآثار: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ □□□□□﴾ [يس: 12]، كالسنن الحسنة، والعلم النافع، والولد الصالح، والصدقة الجارية التي بقيت بعد موته وحفظت له، أو ضد ذلك من سيئة جارية؛ فقد يوقف الإنسان مالًا في معصية أو بدعة، أو يسن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وكل ذلك صحيح وداخل في معنى الآية.

ومن ذلك: أن ينبَّأ بما قدَّم من المال وما أخَّر فتركه لورثته[3]؛ «**فإن مالَ الإنسان ما قدَّم، ومالَ الوارث ما أخَّر**». كما قال صلى الله عليه وسلم[1].

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الانفطار»: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ □﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 491)، و«تفسير البغوي» (8/ 282)، و«تفسير القرطبي» (19/ 98).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 85)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 392)، و«زاد المسير» (4/ 370)، و«تفسير القرطبي» (19/ 99)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 555).

❁ ﴿□□□□□□ □□□□﴾:

فهو يوم القيامة بصير على نفسه، مبصر عارف بها، تشهد عليه جوارحه وأعضاؤه إذا جحد أو أنكر، كما في الحديث أن الإنسان يقول: «**يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقولُ: بلى. قال: فيقولُ: فإني لا أُجيزُ على نفسي إلا شاهدًا مني. قال: فيقولُ: كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ شهيدًا، وبالكرام الكاتبينَ شُهودًا. قال: فيُختمُ على فِيهِ، فيقالُ لأركانه: انْطِقِي. قال: فتنطقُ بأعماله**»[2].

وهو بصيرٌ على نفسه في الدنيا، وكثيرًا ما يجادل عن نفسه بالباطل، ويحتج ويعتذر، وهو في قرارة نفسه يعرف الحق، ولو أنه كان صادقًا مع نفسه، بعيدًا عن الخداع والتمثيل والتلاعب، لأدرك حقيقة الأمور التي يجادل عنها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [النمل: 14].

﴿□□□﴾ أي: أعذاره[3]، وقد تكون جمعًا أو جمع الجمع؛ جمع مِعذار، أو عذر، ومهما اعتذر الإنسان فهو يعلم حقيقة هذا في نفسه.

وقيل: المعاذير: السُّتور[4]، فلو وضع الستور وأرخاها عليه في الدنيا حتى لا يراه أحد، فهو بصير على نفسه، ولا يوجد عليه شهود، ولكنه يعرف حقيقة الأمر ويشهد على نفسه.

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (6442) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم (2969) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 105)، و«تفسير القرطبي» (19/ 101)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 278)، و«تفسير القاسمي» (9/ 364).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 495)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 253)، و«الكشاف» (4/ 661)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 557)، و«فتح القدير» (5/ 406)، والمصادر السابقة.

وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعاذير بلغة اليمن: الثياب، أي: ولو أَلْقَى ثيابه[1].

وهذا يحتاج إلى تأمل، وكأن المعنى: أن الإنسان ولو كان فيه نوع من الخبل أو الجنون يلقي ثيابه ويتعرَّى من شدة جنونه، فهو يعرف ما يضره وما ينفعه في كثير من الحالات مما يأكل أو يشرب أو غير ذلك، وهذا معنى ضعيف.

وفي هذا درس تربوي يحث الإنسان على أن يخلو بنفسه، يراقبها ويحاسبها، ويسلِّط على النفس اللَّوَّامة هذا المصباح الكاشف، بدلًا من أن يسلِّطه على الآخرين، كما يقول ابن كثير[2]: «كان يقال: إن في الإنجيل مكتوبًا: «يا ابنَ آدمَ، تبصرُ القَذاةَ في عين أخيك، وتتركُ الجذع في عينك لا تبصره!»[3].

❊ ﴿□□□□□□□﴾:

أي: بالقرآن، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يتلقَّى الوحي، ومنه هذه السورة التي ربما نزل قبلها حوالي ثلاثين سورة، فكثرت السور، وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على حفظها وإتقانها، حتى إنه من شدة حرصه إذا نزل عليه جبريل عليه السلام يلقِّنه القرآن، يحرِّك شفتيه مع جبريل همسًا؛ ليتأكد من حفظها وضبطها، وخوفًا من النسيان.

وجاء أن ابن عباس رضي الله عنهما حرَّك شفتيه، وقال: «أنا أحرِّكهما لكم كما كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يحرِّكهما». وهكذا فعل الراوي عنه، وهو سَعيد بن

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 155)، و«تفسير القرطبي» (19/ 101)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 278).

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 277).

(3) وقد رُوي مرفوعًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والصواب وقفه. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (33)، و«تبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة» (50).

جُبير[1]، وهذا يسمى في مصطلح المحدثين: بالتسلسل، فـالحديث المسلسل: ما تواطأ الرواة فيه على قول أو فعل أو صفة[2]، أي: حكى فعل النبي صلى الله عليه وسلم بتحريك الشفتين.

وهذا كقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: 114]، وكأن نزول الآية ووجودها في هذا السياق بسبب عارض؛ وهو تحريك النبي صلى الله عليه وسلم شفتيه أثناء نزول هذه الآيات، فنهاه ربه عن ذلك وعن الاستعجال، وأمره بالإنصات والإصغاء، ولعله من ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج على الصحابة وهم يجهرون بالقرآن، فقال: «**إنَّ المصلِّي يناجي ربَّه** عز وجل، **فلينظرْ أحدُكم بما يناجي ربَّه، ولا يجهرْ بعضُكم على بعض بالقراءة**»[3].

❁ ﴿□□□□□﴾:

فالله تعالى سوف يجمعه لك في صدرك، وسيجمعه في المصحف، وعد من الله حق، وقد حقَّق هذا الوعد بجمع المصحف في عهد أبي بكر الصديق، ثم في عهد عثمان رضي الله عنهما[4]، وظلَّت المصاحف موجودة في أيدي المسلمين، لا يختلفون في

---

(1) أخرجه البخاري (5)، ومسلم (448) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «الاقتراح في بيان الاصطلاح» (ص18)، و«فتح المغيث» (4/ 39)، و«التقريرات السنية شرح المنظومة البيقونية» (ص28)، و«تيسير مصطلح الحديث» للطحان (ص229).

(3) أخرجه أحمد (5349، 6127)، وابن خزيمة (2237) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وأخرجه أبو داود (1332)، والنسائي في «السنن الكبرى» (3/ 17) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وأوله في «صحيح البخاري» (405)، و«صحيح مسلم» (551) من حديث أنس رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1597، 1603).

(4) ينظر: «فضائل القرآن» للمستغفري (1/ 351)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (2/ 607-608).

حرف منها، فجمعه في السطور، وجمعه في الصدور، وجعل المهمة الأولى للخليفة الأول هي جمع المصحف وضبطه بملأ من الصحابة وإجماع قاطع، وصار القرآن يحفظ متلوًّا عن ظهر قلب، ويحفظ مسطورًا في الصحف، كما وعد الله.

وهو هنا سماه: قرآنًا، فقال: ﴿□□□□﴾، وفي موضع آخر سماه: كتابًا، فقال: ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ﴾ [البقرة: 2]، فأشار للكتاب قبل أن يُجمع؛ إشارة إلى ما سوف يحدث من ضبطه وجمعه، وإذا قيل: «القرآن» قصد به: «الكتاب»، وإذا قيل: «الكتاب» قصد به: «القرآن»، فالقرآن مجموعٌ محفوظ في هذا الكتاب، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠﴾ [الحجر: 9].

❊ ﴿□□□□□﴾:

أي: إذا قرأه عليك جبريل عليه السلام: ﴿□□﴾: اقرأ بعده كما كان يقرأ واعمل بمقتضاه[1].

وفيه تنبيه للتأدب مع الشيخ بالاستماع، وعدم الاستعجال في السؤال، والتأنِّي والتفهم، فقد أمر الله نبيه هنا أن يستمع إلى جبريل حين يلقي إليه الوحي، ثم يتبعه بعد فراغه بأن يقرأ كقراءته، وقد كان جبريل عليه السلام يعارض النبيَّ صلى الله عليه وسلم القرآن في كل سنة مرة، فلما كان العام الذي قُبِضَ فيه عارضه مرتين[2]، حتى يضبط ويتقن القرآن.

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 106)، و«زاد المسير» (4/ 371)، و«تفسير القرطبي» (19/ 106).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (6286)، و«صحيح مسلم» (2450).

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآيات: إن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يعاني من التنزيل والوحي شِدَّة، وكان مما يحرِّك شفتيه، فأنزل الله هذه الآية[1].

❊ ﴿▯▯▯▯▯﴾:

تكفَّل الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ببيان القرآن الكريم، كما قال: ﴿مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي﴾ [النحل: 44]؛ ولهذا فإن أعظم البيان: تفسير القرآن بالقرآن؛ فبعض الآيات يفسِّر بعضًا.

ويكون البيان بحديث النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله، مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في التفسير ليست كثيرة؛ ليجتهد الناس في البحث والاستنباط، وليفهموا القرآن وفق لغة العرب، وعلى ضوء قواعد الشريعة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبيِّن القرآن بأفعاله، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «فإن خُلُق نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم كان القرآنَ»[2]. ولما قال له ربه سبحانه وتعالى: ﴿▯ ▯▯▯﴾ [العلق: 19] سجد النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وقال: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ**»[3].

لقد كان صلى الله عليه وسلم يعمل بالقرآن، ويفسِّره بفعله، وعبادته، وخُلُقه، وعمله، وحياته كلها[4].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (5، 4928، 7524)، و«صحيح مسلم» (448).

(2) أخرجه مسلم (746).

(3) أخرجه مسلم (482) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) كما في حديث عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانكَ اللهمَّ ربَّنا وبحمدكَ، اللهمَّ اغفرْ لي**». يتأوَّل القرآن. وينظر ما سيأتي في «سورة النصر»: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ﴾.

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ﴾:

﴿وَمَآ﴾ بمعنى: حقًّا[1]، وهذا عتاب وتقريع وتوبيخ للكافرين، والغافلين من المؤمنين، فبعدما ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعجل حفظ القرآن الكريم بترديده، ونهاه عن ذلك، وكأن العجلة طبيعة في الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء: 17].

وهنا يتبين الفرق الهائل والبَوْن الشاسع بين مَن عجلته في الخير والقرآن والوحي، ومَن يتعلَّق بالدنيا العاجلة الفانية ويؤثرها على الآخرة.

وفي هذه الآية تقريعٌ وتوبيخٌ للكافرين على إيثارهم الدنيا وتركهم للآخرة، وليس العيب مجرد حبهم للدنيا أو رغبتهم في الخير العاجل، كما قال الشاعر[2]:

إني لأرجو مِنكَ خَيرًا عاجِلًا *** والنَّفسُ مُولَعَةٌ بحُبِّ العاجِلِ

لكنهم يتركون الآخرة ويغفلون عنها، كما قال سبحانه: ﴿أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ﴾ [الإنسان: 27]، فهذه وإن كانت عاجلة مقدَّمة لكنها قصيرة، والآخرة مؤجَّلة ولكنها طويلة، وهذه فانية وتلك باقية.

* ﴿أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن﴾:

عبَّر بالوجوه؛ لأن الوجه مجمع كمال الإنسان، ومشاعر الفرح والحزن والغضب والرضا تظهر عليه، ويعبَّر عنها بلغة الوجه، فأحيانًا قد ترى إنسانًا فتسأله عن معاناته فينكرها، فتقول له: ملامح وجهك وحركة عينيك توحي بأنك تخفي شيئًا ما.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 352)، و«تفسير الرازي» (30/ 729)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 561).

(2) ينظر: «ديوان جرير» (2/ 253).

و﴿أَهَلَكْنَآ﴾ هنا نكرة، والتنكير للتقسيم والتنويع[1]؛ لأن وجوهًا كذا ووجوهًا كذا، و﴿فَهَلْ﴾ من النضرة، أي: الجَمال، قال تعالى: ﴿كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾ [المطففين: 24]، فهي جميلة حسنة، مشرقة مضيئة، تبرق بالسرور[2]، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**نَضَّرَ اللهُ امرأً سمع مقالتي، فوعاها فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورُبَّ حاملِ فقه إلى مَن هو أفقَهُ منه**»[3].

مع أنه وقع ما أخبر الله عنه في أول السورة: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٖ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾، وأصبح الناس في رعب يتساءلون: ﴿نَّارٖ ۝١٥﴾؟

❋ فهذه الوجوه لها ملجأ ولها مستقر، وتبين عليها علامة الفرح والغبطة والرضا والحُبور: ﴿مُّدَّكِرٖ ۝٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ﴾:

أي: تنظر إلى جمال ربها في الجنة، فمنهم مَن ينظر إلى جمال الله وجلاله ووجهه الكريم في اليوم مرات، ومنهم مَن ينظر إليه في الأسبوع كيوم الجمعة، ومنهم دون

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 352).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 505)، و«تفسير البغوي» (8/ 284)، و«تفسير القرطبي» (19/ 107)، و«تفسير ابن كثير» (8/ / 279).

(3) أخرجه الطيالسي (618)، وأحمد (4157، 13350، 16738)، وأبو داود (3660)، والترمذي (2656- 2658)، وابن ماجه (230- 236)، وابن أبي عاصم في «السنة» (94)، وابن حبان (66- 69، 680)، والحاكم (1/ 86- 88)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (184- 199) عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم. وينظر: «جزء فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**نضَّر اللهُ امرأً سمع مقالتي فأدَّاها**» لابن مَمَّك، و«نظم المتناثر من الحديث المتواتر» (ص33- 34)، و«السلسلة الصحيحة» (404).

ذلك[1]، فهم على درجات متفاوتون حتى في مقدار النظر ومتعته ووقته بحسب إيمانهم وأعمالهم[2].

والآية أثبتت نظر المؤمنين إلى ربهم، وهذا ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، وهو الذي يفهم من قول الله تعالى عن المنافقين والكافرين: ﴿بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ﴾ [المطففين: 15]، قال الشافعي: «ما حجب الكافرين إلا لأنه أذن للمؤمنين»[3].

وجادل في ذلك أقوام[4]، وقد زلَّ في تفسيرها الإمام مجاهد بن جبر رحمه الله، وحسبُك به جلالةً وإمامةً في التفسير، فقد أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وله قدم صدق في الإسلام والعلم والمعرفة والخير، ومع ذلك قال في تفسير هذه الآية: «تنتظر الثواب من ربها»[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 507)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 65)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 281)، و«تفسير السعدي» (ص899).

(2) كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**إن أدنى أهل الجنة منزلةً لينظرُ في مُلكِ ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظرُ في أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلةً لينظرُ في وجه الله تعالى كلَّ يوم مرتين**». ينظر: «مسند أحمد» (4623)، و«رؤية الله» للدارقطني (173)، و«الإبانة الكبرى» لابن بطة (7/ 15) (14)، و«المستدرك» (2/ 509)، و«شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (841).

(3) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (9/ 117)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص131).

(4) ينظر: «مقالات الإسلاميين» (1/ 131).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 508)، و«تفسير القرطبي» (19/ 108)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 280)، و«فتح القدير» (3/ 299).

وهذه من زلات العلماء، ومع ذلك انظر إلى أدب الأمة في احترام علمائها، حيث لم يسقطوا كل عالم بخطأ وقع فيه، بل حفظوا مقامات الرجال، ولم يقعوا في أعراضهم، ولم يلمزوهم، ولم يتابعوهم على الخطأ؛ لجلالة أقدارهم.

ومما يدل على أنها تنظر إلى الله عز وجل أنه عدَّى الفعل بـ﴿ ﴾، كما تقول: نظرتُ إلى الشمس، نظرتُ إلى القمر، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم لما سُئل: هل نرى ربَّنا يومَ القيامة؟ قال: «**هل تُضارُّونَ في القمر ليلةَ البدر؟**». قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: «**فهل تُضَارُّونَ في الشمس، ليس دونها سحابٌ؟**». قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: «**فإنكم ترونه كذلك**»[1].

* ﴿فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾:

أي: كالحة مكفهِرَّة[2]، وهي كانت ﴿الزُّبُرِ﴾ في الدنيا، كما قال سبحانه في «سورة المدثر»: ﴿(٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤)﴾، فذاك الذي نظر وعبس وبسر في الدنيا حربًا على الحقِّ يُحرم من النظر إلى الله، ويكتب عليه العبوس والبسور في الآخرة.

* ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ﴾:

أي: تتيقَّن[3]؛ فالأمر يقينٌ لا شك فيه، و﴿(٥٣)﴾: أمرٌ يكسر فَقَار الظهر[1]، وهذا مثل يضرب، فإذا أصابت الإنسان مصيبة صغيرة تحملها، فإذا كانت عظيمة يقعد لها فيقال: فلان انكسر ظهره، أي: لا حيلة له، وكما قال الحُطَيْئَة[2]:

---

(1) أخرجه البخاري (7437)، ومسلم (182) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 510)، و«تفسير السمعاني» (6/ 108)، و«تفسير القرطبي» (19/ 110)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 281).

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿ ﴾.

وتلك لَعَمْرُ الله قاصمةُ الظَّهْر

أي: هذه الفاقرة التي تقصم الظهر وتكسره، فمصيبة الكافر يوم القيامة لا مصيبة أعظم منها؛ لأن فيها خسارة النفس والأهل والحرمان الأبدي السرمدي الذي لا يعوض، قال تعالى: ﴿ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ﴾ [الزمر: 15].

* ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤﴾:

وتكرار ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ هو مزيد من الوعيد والتهديد يعود إلى أولئك الذين يحبون ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ ويتركون ﴿٥٠﴾، وينشغلون بزخارف عابرة عن الوجوه الناضرة، وهذا إيذان بالقيامة الصغرى.

ولم يذكر تعالى ما هذه التي ﴿جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾، لكن المقصود: الروح، أو النفس للمعرفة بالسياق[3]، فيكون المعنى: إذا وصلت الروح إلى التَّرْقُوة، وبلغت الحلقوم، كما في الآية الأخرى: ﴿جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ﴾ [الواقعة: 83].

والتَّرْقُوة: العظم المشرف في أعلى الصدر بين ثغرة النحر والعاتق، وللإنسان ترقوتان يمين ثغرة النحر وشمالها[4]، وربما سميت بذلك لأنه يرتقي فيها النفس.

و﴿وَنَهَرٖ﴾ ذكرهما هنا بالجمع؛ لأن أقل الجمع اثنان[1]، ولأنه أجود وأجمل من التثنية، وقد يكون إشارة إلى عموم الناس[2].

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 108)، و«تفسير البغوي» (8/ 285)، و«تفسير الرازي» (30/ 733)، و«تفسير القرطبي» (19/ 110).

(2) ينظر: «فوات الوفيات» (1/ 276)، و«الوافي بالوفيات» (11/ 54)، و«ديوان الحطيئة» (ص46).

(3) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 395)، و«تفسير الرازي» (30/ 734)، و«تفسير القرطبي» (19/ 111)، و«فتح القدير» (5/ 410)، و«التحرير والتنوير» (29/ 357).

(4) ينظر: «مختار الصحاح» (ص45)، و«لسان العرب» (10/ 32) «ت ر ق».

* ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ﴾:

لم يذكر تعالى مَن هو القائل، بل جاء به على صيغة ما لم يُسَمَّ فاعله؛ لأن القائل- والله أعلم- متعدِّد، فالملائكة فيما بينهم يتكلمون ويقولون: ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ﴾ أي: مَن الذي سوف يرقى بهذه الروح وينزعها، ويذهب بها إلى الملأ الأعلى؟ فهم يتدبرون الأمر فيما بينهم، والناس لا يحسُّون بذلك[3].

وأهل الميت يبحثون عن الحيل، ويقولون: هل ثَمَّ راقٍ ينفث أو يقرأ على هذا المريض لعله يشفى[4]، وقد أدركوا أن الطب لم يعد يجدي، وقد أعلن عجزه وإخفاقه في حالة هذا المريض، وإنما بحثوا عن السبب الإلهي الرحماني الربَّاني، فقالوا: لعل راقيًا يرقيه، فربما يكون الدعاء سببًا في الشفاء، كما جرت عادة الناس أن يفعلوا، وقد يكون من بركة القراءة والنفث على المريض أن تهدأ نفسه ويسكن، وكأنها نوع من الرعاية التلطيفية لمحتضر يعالج النزع.

---

(1) ينظر: «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (2/ 222)، و«المزهر» للسيوطي (1/ 39)، و«البُلغة إلى أصول اللغة» لصديق حسن خان (ص80)، و«فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية» (ص208-209)، و«النحو الوافي» (1/ 149).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 358).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 514)، و«تفسير البغوي» (8/ 285)، و«زاد المسير» (4/ 372)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 282)، و«أضواء البيان» (8/ 375).

(4) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 109)، و«زاد المسير» (4/ 372)، و«تفسير القرطبي» (19/ 111)، و«تفسير السعدي» (ص900)، و«التحرير والتنوير» (29/ 358)، والمصادر السابقة.

قرأ حفص عن عاصم بالسكت عند ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾، مثل قوله في «سورة المطففين»: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [المطففين: 14]، وجمهور القراء على الإدغام: ﴿وَقِيلَ مَن رَّاقٖ﴾[1].

* ﴿مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾:

أي: أدرك المريض الأمر، وأيقن الفراق لهذه الدنيا وأهلها[2]، وهو لم يصل إلى درجة المعاينة والنزع الأخير، ولكنه تيقن أو غلب على ظنه أن الأمر قد اقترب.

وما أشد ألم الفراق حين يكون المرء قد بلغ تمام النعمة عليه! فالأطفال صغار، والبيت جديد، والزوجة مشتاقة، والحياة جميلة، والآمال باقية!

* ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ﴾:

﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ لها نبأ وخبر، وهما ساقان؛ فهناك الساق الحسية، وهو العضو المعروف، فتلتف إحدى الساقين بالأخرى، فالمريض تيبس ساقاه، وسوف تُلفُّ ساقاه في الكفن، فهناك التفاف حسي.

وفي مثل هذا المشهد تلتقي أمور متنوعة، تلتقي الدنيا بالآخرة في آخر مرحلة من الدنيا وأول مرحلة من الآخرة، وتلتقي الشدائد والأهوال[3]، حتى إن الرجل

---

(1) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص661)، و«معاني القراءات» للأزهري (1/ 106- 107)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص357)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص217)، و«معجم القراءات» (10/ 193- 194).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 515)، و«تفسير الماوردي» (6/ 158)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 519)، و«المحرر الوجيز» (5/ 406)، و«تفسير الرازي» (30/ 735)، و«فتح القدير» (5/ 410)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿□□□□□□﴾.

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 112)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 352)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 282)، و«التحرير والتنوير» (29/ 359).

العظيم المتكبِّر المتجبِّر يكون في أضعف حال مكسورًا هزيلًا ضعيفًا محطَّمًا خائفًا مرعوبًا مجرَّدًا باكيًا حزينًا، والآخر المستضعف المؤمن يجد الراحة والسكينة وتتنزل عليه الملائكة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: 30].

* ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾:

فالمساق إلى الله، وليس هذا نهاية المطاف، فمن الناس مَن يقدم على ربه كقدوم الغائب على أهله بالبشر والسرور، ومن الناس مَن يقبل على ربه كالعبد الآبق يقدم على سيده:

قالوا: غدًا نأتي ديارَ الحِمَى *** وينزلُ الرَّكبُ بمغناهمُ

فقلتُ: فلي ذنب فما حيلتي *** بأيِّ وجهٍ أتلقَّاهمُ

وكلُّ مَن كان مطيعًا لهمُ *** أصبحَ مسـرورًا بلُقياهمُ

قالوا: أليس العفوُ من شأنهم *** لا سيِّما عمَّن ترجَّاهمُ[1]

* ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ﴾:

هذا حال صنف من الناس، ويظهر أنه ذاك الذي كان يقول: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ [القيامة: 6]، ويحسب أن لن يجمع الله عظامه، فهو قد ترك التصديق، وتجرَّد من الإيمان، **وقيل**: ترك الصدقة[2].

---

(1) ينظر: «وفيات الأعيان» (3/ 341)، و«تاريخ الإسلام» (47/ 195) منسوبًا إلى أبي الحسن السَّخاوي.

(2) ينظر: «تفسير ابن جزي» (2/ 435)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 353)، و«التحرير والتنوير» (29/ 361).

والأقرب أنه لم يصدِّق بالإيمان[1]، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن﴾ [الليل: 5- 7]، فذكر الله التصديق بالقلب والعمل بالجوارح، وهنا قال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ أي: كفر بالإيمان، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: 5]، وترك العبادات والأعمال، فلم يكن في قلبه إيمان، ولا في حياته عبادة وطاعة للرحمن.

* ﴿وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ﴾:

فسجَّل عليه نقيض ما أمر به وطلب منه، وبعض الناس لم يؤمن بسبب أنه لم يأته بشير ولا نذير، ولا قامت عليه حجة، ولا بلغته دعوة، أما هذا فهو قد كذَّب وتولَّى عن عمدٍ وتقصد، فالتكذيب مقابل قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، والتولِّي: الإعراض، مقابل قوله: ﴿بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾.

* ﴿رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟﴾:

قيل: المراد به أبو جهل، **والمعنى**: يتبختر؛ افتخارًا بذلك، **وقيل**: ﴿أَلَّا﴾ أصله: يَتَمَطَّطُ، وهو التمدُّد من التّكسُّل والتثاقل، فهو يتثاقل عن الدَّاعي إلى الحقِّ[2].

* وسجل تعالى عليه أربعة ذنوب، ثم هدَّده بأربع تهديدات، فقال: ﴿فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾:

﴿فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ هذا تهديد، ﴿﴿٨﴾﴾ تهديد آخر، ﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟﴾ هذان تهديدان آخران[1]، أي: الويل لك، فهذه كلمة تهديد جارية في عرف العرب.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 736)، و«تفسير السعدي» (900)، و«التحرير والتنوير» (29/ 361).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 523)، و«تفسير الماوردي» (6/ 158- 159)، و«المحرر الوجيز» (5/ 407)، و«زاد المسير» (4/ 372)، و«تفسير القرطبي» (19/ 114)، و«التحرير والتنوير» (29/ 362).

* ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا ﴾:

أي: هل يظن الكافر المكذِّب أنه سيترك ﴿١٠﴾، بلا أمر ولا نهي ولا شريعة؟![2].

هذا محالٌ في العقول: أن يخلق الله الخالق الحكيم الثقلين ثم يترك أهم ما يحتاجون إليه وهو الإيمان وما بعد الموت بغير بيان!

* ﴿فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو﴾:

أي: قطرةً من ﴿مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [المرسلات: 20]، وهو المني، إشارة إلى ضآلة الإنسان وضعفه، ثم الله تعالى درَّجه في مدارج الكمال حتى وصل إلى ما وصل إليه.

وبداية خلق الإنسان، وما فيها من معان كثيرة مطوية، وكيف يكبر ثم يطغى ويريد أن يفجر أمامه ولا يبالي بوعد القيامة، وفي السياق نموذج للغة القرآنية التي تسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية للحاجة العلمية أو التربوية أو القانونية التي لا بد منها في بيان الحجة ووضوح التكليف، مع التسامي عن الدخول في التفاصيل التي لا حاجة إليها، فيُعبِّر عنها بأجمل عبارة وأوضح إشارة، كما يعبِّر تعالى عن إتيان النساء بالمس، فيقول: ﴿تُكَذِّبَانِ ١٦ ﴾ [البقرة: 237]، أو باللمس، فيقول: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: 43]، أو بالتغشِّي، فيقول: ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ ٣﴾ [الأعراف: 189]، وكما في قوله تعالى عن عيسى ومريم: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ ﴾ [المائدة: 75].

* ﴿ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 114).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 526)، و«تفسير القرطبي» (19/ 116)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 283)، و«التفسير المظهري» (10/ 146)، و«فتح القدير» (5/ 411)، و«تفسير السعدي» (ص900).

انتقل من كونه نطفة إلى علقة من دم أحمر تلتصق وتعلق بجدار الرحم، ثم تم الخلق والتسوية، وأنشأه الله تعالى إنسانًا بسمعه وبصره وقيامه وقعوده، كما قال الله: ﴿وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [الانفطار: 7].

وللتسوية معنى بديع، والإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم لو وُجد عنده عيب في شعره أو ظفره أو سِنِّه أو جلده أو شفته، فإنه يشعر بالحرج البالغ، مع أن الله خلقه في أحسن تقويم، وربما غفل عن أسرار الجمال والكمال في الصنعة الربانية.

ولو أن الإنسان سأل نفسه عن خلق العينين والأنف والشفتين والوجه والشعر واليدين والأصابع والأظفار والقدمين، فضلًا عن القوة الخفية من قوى السمع والبصر والأجهزة العصبية والهضمية والتناسلية والمخ وغيرها لوجد حقائق مذهلة، يقف الناس أمامها حائرين.

* ﴿تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾:

والزوج: يُطلق على المرأة والرجل، فالرجل زوج والمرأة زوج[1]، وهذه حكمة لله في بقاء النسل على ظهر الأرض، وشاء الله أن يتكامل الخلق من البشر وغيرهم، وتتقارب نسبة الذكور والإناث؛ لتستمر الحياة وفق مشيئته إلى الأجل الذي ضربه لعباده.

* ﴿كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾:

وهذا دليل عقلي على البعث، فالقادر على ابتداء الخلق قادر من باب أولى على إعادته.

---

(1) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (7/ 525)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص384)، و«تاج العروس» (6/ 20) «ز و ج».

وقد رُوي أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه السورة في الصلاة قال: «**سُبحانكَ فبلى**»[1]. أي: بلى ربنا قادر على أن يحيي الموتى.

❍ ❍ ❍

---

(1) أخرجه أحمد (7391)، وأبو داود (887)، والترمذي (3347)، والحاكم (2/ 510)، والبيهقي (2/ 440) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود (884)، والبيهقي (2/ 440)، والبغوي (624) من حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وفي إسناده انقطاع، وله شواهد مرسلة. وينظر: «أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم» للألباني (1/ 407- 408).

سورة الإنسان

*** تسمية السورة:**

تعدَّدت أقوال العلماء في تسميتها: فسُمِّيت في عهد الصحابة رضي الله عنهم: «**سورة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾**»، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقرأُ في الجمعة في صلاة الفجر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾»[1].

ولها اسم آخر مختصر: «**سورة ﴿فَبِأَيِّ﴾**»، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه في النظائر التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأُ بها في الصلاة، وفيه: «أنه كان يقرأ فيها بـ﴿فَبِأَيِّ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ٧﴾»[2].

ومن أسمائها: «**سورة الإنسان**»، وهو المثبت في كثير من المصاحف، وكتب التفسير[3].

ومن أسمائها أيضًا: «**سورة الدَّهْر**»[4]؛ لذكر الدهر فيها. فهذه أسماء أربعة مشهورة.

---

(1) أخرجه البخاري (891)، ومسلم (880).

وأخرجه مسلم (879) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) أخرجه البخاري (775، 4996، 5043)، ومسلم (822)- بدون سرد السور- وأبو داود (1396)، وابن خزيمة (538).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 515)، و«تفسير الطبري» (23/ 529)، و«تفسير القرطبي» (19/ 118)، و«فتح القدير» (5/ 414)، و«التحرير والتنوير» (29/ 369).

(4) ينظر: «غريب القرآن» (1/ 502)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 352)، و«تفسير القاسمي» (9/ 373)، و«التحرير والتنوير» (29/ 369)، و«الموسوعة القرآنية- خصائص السور» (10/ 280).

ولها اسمان غير مشهورين: **أحدهما**: «**سورة الأبرار**»[1]؛ لقوله سبحانه: ﴿□ □ □﴾، وتشترك معها «سورة المطففين» في ذكر ذلك.

والثاني: «**سورة الأَمْشاج**»[2]؛ لأن الأَمْشاج لم تُذكر في القرآن الكريم إلا في هذه السورة.

* **عدد آياتها**: إحدى وثلاثون آية عند جميع علماء العدِّ[3].

* **وهي مكية** عند كثيرٍ من أهل العلم، فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أنها نزلت بمكة[4].

وقيل: مدنية، قاله الحسن وعكرمة، وهي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما[5].

والأكثرون على أنها مكية، وأسلوب آياتها يدل عليها، وموضوع السورة يشبه القرآن المكي؛ حيث فيها جدل مع المشركين الآثمين الذين كانوا يحاولون صدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دعوته وعن طريقه، فيقول الله تعالى: ﴿□□□□□□□﴾

---

(1) ينظر: «روح المعاني» (15/ 166)، و«التحرير والتنوير» (29/ 369).

(2) ينظر: «روح المعاني» (15/ 166)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 586)، و«تفسير القاسمي» (9/ 373)، و«التحرير والتنوير» (29/ 369).

(3) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص260)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (312)، و«التحرير والتنوير» (29/ 370).

(4) ينظر: «زاد المسير» (4/ 374)، و«تفسير القرطبي» (19/ 118)، و«تفسير الخازن» (4/ 376)، و«فتح القدير» (5/ 424)، و«التحرير والتنوير» (29/ 370).

(5) ينظر: «تفسير البغوي» (5/ 188)، و«المحرر الوجيز» (5/ 408)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 3)، و«الدر المنثور» (15/ 142)، و«التحرير والتنوير» (29/ 370)، والمصادر السابقة.

[الإنسان: 24]، ويوصيه بالصلاة، والصبر، والتبتُّل، وهذا كله من شأن القرآن المكي، وفيها شيء من تفصيل النعيم في الجنة، وما كان هذا شأنه فالغالب أنه مكي.

وفي القرآن المكي قبل الهجرة إلى المدينة كان يأتي الخطاب بقوله: ﴿وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾، وفي المدينة ظل الخطاب كذلك، وأضيف إليه: ﴿صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾.

فالراجح أن السورة كلها نزلت بمكة، وهي في سياقٍ واحد.

* ﴿١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ □□□□□□﴾:

بدأ الله تعالى صدر السورة بسؤال تقريري مبدوء بـ﴿١٥﴾.

و﴿١٥﴾ في القرآن تأتي للنفي والإنكار والجحد، وتأتي للإثبات بحسب السياق[1]، فالسياق هنا معناه الإثبات، أي: قد جاء على الإنسان حين من الدهر لم يكن فيه شيئًا مذكورًا[2]، وعند ما يقول تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ [التوبة: 52]، أي: لا تتربصون بنا[3]، وكذا قوله: ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ [المائدة: 59]، أي: لا تنقمون منا شيئًا إلا هذا[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 529)، و«حروف المعاني والصفات» (ص2)، و«تفسير القرطبي» (19/ 119)، و«روح المعاني» (15/ 168).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 521)، و«تفسير الطبري» (23/ 529)، و«تفسير القشيري» (3/ 660)، و«تفسير السمعاني» (6/ 112)، و«التفسير المظهري» (10/ 147).

(3) ينظر: «تفسير السعدي» (ص339)، و«التحرير والتنوير» (10/ 224).

(4) ينظر: «الكشاف» (1/ 650)، و«المحرر الوجيز» (2/ 210)، و«تفسير ابن كثير» (3/ 142).

و﴿رَبِّكُمَا﴾ هنا **قيل** هو: آدم عليه السلام[1]؛ وذلك لأن الله تعالى لما خلقه من طين الأرض، ظل مُنْجَدِلًا في طينته سنين طويلة الله تعالى أعلم بها، فبعضهم يقول: مئة وعشرون سنة[2]، وكان مُخَلَّقًا مصوَّرًا مثل التمثال، ليس فيه روح، ثم نفخ الله تعالى فيه من روحه فقام واستوى بشرًا سويًّا.

وقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «**لما صوَّر اللهُ آدمَ في الجنة تركه ما شاء اللهُ أن يتركه، فجعل إبليسُ يُطيفُ به، ينظرُ ما هو، فلما رآه أجوفَ عرف أنه خُلِقَ خَلْقًا لا يتمالكُ**»[3]. أي: يتأثر بالمغريات والشهوات؛ لأنه جُبل عليها.

وعلى هذا فـ﴿تُكَذِّبَانِ ١٦ □﴾ هو الوقت الطويل الممتد لما شاء الله قبل أن يكتمل خلق آدم وتنفخ روحه[4].

والأقرب أن المقصود: كل إنسان؛ آدم وذريته[5].

والدليل على ذلك: أن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿□□□□□﴾، وآدم لم يُخلق من نُطفة، بل من طين الأرض.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 529)، و«تفسير الماوردي» (6/ 161)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 398)، و«المحرر الوجيز» (5/ 408)، و«تفسير القرطبي» (19/ 119)، و«فتح القدير» (5/ 415)، وما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾.

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 398)، و«تفسير الرازي» (30/ 739)، و«تفسير القرطبي» (19/ 119)، و«التفسير المظهري» (10/ 147).

(3) أخرجه مسلم (2611).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 530)، و«تفسير الماوردي» (6/ 162)، و«تفسير الرازي» (30/ 739)، و«تفسير القرطبي» (19/ 119)، و«فتح القدير» (5/ 415).

(5) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 112)، و«الكشاف» (4/ 665)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 5)، و«فتح القدير» (5/ 415).

وإذا قلنا: المقصود ﴿رَبِّكُمَا﴾ فيحتمل أن يكون ﴿تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ 􀀀﴾ ما لا يحصيه إلا الله؛ لأن المقصود أن الواحد منا قبل أن يخلق لم يكن شيئًا.

ويحتمل أن المقصود: الآجال التي يمكثها الإنسان في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم يُرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح[1].

﴿􀀀􀀀􀀀􀀀﴾: إما أن المعنى: أنه لم يُذكر في الكتب السماوية؛ ولم يُذكر في الوحي، ولم يُذكر في العلم، فيكون المقصود: أنه ليس شيئًا يذكر[2].

وإما أن يكون المقصود: أنه لم يكن شيئًا له أهمية وقدر[3]، وهذا معروف، تقول: هذا المال الذي كسبه فلان ليس شيئًا مذكورًا، أي: شيء لا يستحق الذكر؛ لأنه قليل، والمعنى: أتى عليه حين من الدهر لم يكن له ذكر وشأن، فهي إذًا إشادة بالإنسان، وأنه شيءٌ مذكور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، وقد ذكر الله تعالى الإنسان في كتابه وخاطبه، وحسبه شرفًا وفخرًا أن الله تعالى يخاطبه.

وهذا تكريم لجنس الإنسان؛ ولذلك جاء الدين ليعمِّق المعاني الإنسانية الفطرية، حتى قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**كلُّ مولود يُولَدُ على الفطرة**»[4]. فالمعاني الإنسانية جاء الدين بتقويتها وتعزيزها، ومنها احترام جنس الإنسان.

❊ ﴿􀀀􀀀􀀀􀀀􀀀􀀀􀀀􀀀􀀀􀀀﴾:

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 374)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 6)، و«التفسير المظهري» (10/ 147)، و«فتح القدير» (5/ 415).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 521)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 398)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 285)، و«فتح القدير» (5/ 415)، و«التحرير والتنوير» (29/ 372).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 530)، و«تفسير القرطبي» (19/ 119)، و«فتح القدير» (5/ 415).

(4) أخرجه البخاري (1385)، ومسلم (2658) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النُّطْفة في الأصل هي: القطرة من الماء[1].

ولما كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في غزوة مُؤْتة، أنشد يخاطب نفسه لما رأى منها جُبْنًا، فقال[2]:

أَقسَمتُ يا نَفسُ لَتَنْزِلِنَّهْ *** لَتَنْزِلِنَّ أو لَتُكرَهِنَّهْ

إن أَجْلَبَ الناسُ وشَدُّوا الرَّنَّةْ *** ما لي أَراكِ تَكْرَهينَ الجَنَّهْ

قد طالَ ما قد كُنتِ مُطمَئِنَّهْ *** هل أَنتِ إِلَّا نُطفَةٌ في شَنَّهْ

فقوله: نُطفَةٌ في شَنَّهْ، أي: قطرة في قربة يابسة.

والإنسان مخلوق من قطرة من ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، وقوله: ﴿□﴾ بَدَلٌ من ﴿□﴾، وهما شيء واحد، **والأَمْشاج** إما أن تكون جمعًا أو مفردًا على صيغة الجمع[3]؛ وهي الأخلاط عند جمهور المفسرين[4]؛ فهي مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة، والعرب لم يعرفوا هذا إلا من القرآن، وكانوا يظنون أن الإنسان يُخلق من ماء الرجل فقط، فجاء القرآن يؤكِّد لهم أن الإنسان يُخلق من ماء الرجل مع بُويضة المرأة[5].

ومن معاني الأَمْشاج- كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما-: الألوان التي يدخل بعضها في بعض، فالشيء ذو الألوان المتعدِّدة المتداخلة يسمى: أمشاجًا.

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص811)، و«تاج العروس» (24/ 419) «ن ط ف». وينظر أيضًا: «مشارق الأنوار» (2/ 11).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة (26066)، وابن ماجه (2793)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (258). وينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 379)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (17/ 280- 281).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 120- 121)، و«التحرير والتنوير» (29/ 374).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 531)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 398)، و«تفسير البغوي» (8/ 292)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 285)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر ما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿ جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ ﴾.

ومن معاني الأَمْشاج: العناصر؛ فإن النُّطفة في الرَّحم هي مجموعة من العناصر والمركبات المختلفة التي تتكون منها هذه النُّطفة[1].

﴿□﴾ أي: خلقنا الإنسان لنبتليه، **فالمقصود من الخَلْق**: الابتلاء، وهذا نص في أن الله تعالى خلق الإنسان للابتلاء؛ ولهذا قال: ﴿□□□﴾، وهذا من عدله سبحانه، فإنه لم يخلق الإنسان كما خلق الحيوان أو الجماد مسخَّرًا لشيء لا يتعدَّاه ولا يتحرك إلا بالغريزة، وإنما خلقه ليبتليه، ومنحه العقل والسمع والبصر والمَلَكَات.

والابتلاء إما أن يكون بالإيمان والكفر، وبالسؤال والحساب، فيكون الإنسان مبتلى بسلوك إحدى السبيلين: الإسلام أو الكفر، كما قال سبحانه: ﴿فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ﴾ [البلد: 10][2].

وإما أن المعنى: نبلوه بالخير والشر، بالحسنة والسيئة، بالفقر والغنى، والصحة والمرض، والعزِّ والذُّل، وغير ذلك من ألوان تقلبات الحياة التي تمر به، فيُبتلى بها سبيله الواجب الشكر، ويُبتلى مرة أخرى بها سبيله الواجب الصبر، وهكذا[3]، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾ [النمل: 40]، وكلا القولين مراد، ولا تعارض بينهما، فيُبتلى المرء بالإسلام والكفر، ويُبتلى كذلك بالسراء والضراء.

﴿□□□﴾: وهذا من شروط الابتلاء، فالابتلاء يقتضي أن يكون الإنسان مسؤولًا عن قرار يتخذه، وهو تعالى يذكر هنا شروط الابتلاء.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 533)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص70) «آ د م»، و«تفسير البغوي» (8/ 292)، و«تفسير القرطبي» (19/ 121)، و«الموسوعة القرآنية» (11/ 406).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة البلد».

(3) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص502)، و«تفسير الرازي» (30/ 740)، و«تفسير القرطبي» (19/ 122)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 286).

فالشرط الأول: وجود الحواس، وأهمها: السمع والبصر، وهذا قد ذكره الله تعالى صراحةً.

وتضمنت الآية شرطًا آخر، وهو: العقل والفهم؛ وذلك لأن السمع والبصر لا ينفع إلا لَمن كان له عقل وفهم؛ فالسمع والبصر حاستان توصلان إلى المخ إشارات معينة، فيترجمها المخ، والإنسان الذي لا يعقل لا ينفعه سمعه ولا بصره؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿□□□□□□□□□□□□﴾ [الملك: 10]، وقال: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ [البقرة: 171]، أي: كإنسان يصرخ في القَطِيع، ولكن هذا القَطِيع لا يسمع ولا يعقل، فذكر الصمم والبكم والعمى، أي: وإن كانت هذه الحواس موجودة عندهم إلا أنها في حكم المفقود؛ لأنهم لم ينتفعوا بها؛ لأن الهوى وعماية الجهل غطَّت عليها[1].

* **وهناك شرط ثالث، وهو**: هداية الله تعالى للإنسان بالفطرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿□□□□□□□□﴾:

والهداية هنا تحتمل- والله أعلم- الهداية الفطرية، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: 50]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ ﴾ [الأعلى: 3]، أي: هدى كل شيء[2].

فالله هدى الحيوان كيف يأكل ويشرب ويتوالد ويحمي نفسه وصغاره، وهدى الطفل لمثل ذلك، وهدى الإنسان العاقل للبحث عن مصالحه، فهذه من الهداية العامة.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الملك».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 311)، و«تفسير البغوي» (8/ 400)، و«تفسير القرطبي» (20/ 15- 16)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 379)، و«التحرير والتنوير» (30/ 276- 277).

ومن ذلك: الهداية إلى مصالح الدنيا.

ومن هداية السبيل: دلالته على طريق الخير وطريق الشر، أي: بَيَّنَّا له الطريقين[1].

فـ﴿ ﴾ يمكن أن يسلكه الإنسان مهتديًا، ويمكن أن يسلكه ضالًّا، قال الله: ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ﴾ [الأنعام: 153].

فالمعنى: دللناه على الطريق، وبيَّنَّا له الحجة، وأقمنا عليه البينة، **فكملت لوازم الابتلاء الأربعة:**

1- السمع والبصر والحواس.

2- العقل.

3- الهداية الفطرية، فالإنسان بفطرته يعرف الخير والمصلحة، ويستطيع أن يصل إلى المصالح.

4- الحجَّة الشرعية والهداية الربانية بنزول الكتاب وإرسال الرسول، فهذا من هداية السبيل.

﴿ ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى هدى الإنسان هذا السبيل أو ذاك السبيل، فيكون ﴿ ﴾ محتملًا للأمرين معًا: سبيل الخير أو سبيل الشر.

وقدَّم الشاكر لأنه أحب إلى الله؛ ولأن سياق السورة فيه احتفاء كبير بالشاكرين، ولهذا كانت غالب آياتها في وصف نعيم الجنة، وليس فيها إسهاب في وصف عذاب أهل النار.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 360)، و«تفسير القرطبي» (19/ 122)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 286).

ولم يقل: «وإما كافرًا»، وكأن في ذلك إشارة إلى أن الكفر إذا وُجد- وإن كان في أدنى درجاته- فهو جحود عظيم، وحرمان من رضوان الله تعالى ودخول الجنة، وتنكر للعقل والفطرة والوحي والشريعة، فقليله كثير؛ ولهذا قال تعالى: ﴿□□﴾، فهو تشنيع وتفظيع للكفر، ولأن الآية تبيِّن صنفين من الناس؛ فإنها ذكرت الشاكر المقرّ بنعمة الله وهو المؤمن، وذكرت مقابله الكفور، فهو في أبعد درجات الكفر؛ لأنه اختار الطريق الأسوأ عمدًا وقصدًا، وليس على كفر الجهالة وعدم العلم، بل أضاف إليه كفرًا آخر اختاره بنفسه، وسبيلًا أراده وقصده، فصار كفورًا.

❊ ﴿□□□□□□□﴾:

بدأ بذكر الكافرين؛ لأنه سوف يَطْوي خبرهم.

و﴿□﴾ بالتاء: أعددنا، وهما فعلان بمعنى واحد، فـ«أَعْتَدَ»، و«أَعَدَّ»، و«أَعْدَدَ» بمعنى واحد؛ ولذلك يقال: الإعداد، وأحيانًا يقال: العتاد، وغالبًا ما يقال الأخير في أمر السلاح[1].

والسلاسل جمع: سلسلة، وهي ممنوعة من الصرف، وفي بعض القراءات بالتنوين: ﴿سَلَٰسِلًا﴾[2]، ومن العرب مَن يصرفون كل الأسماء التي لا تنصرف[3]، أي: هذه لغة عند العرب، وإن كانت في الأصل لا تنون إلا أنهم ينونونها.

و﴿□□□﴾ هنا فيها ألف المد من غير تنوين على القراءة المشهورة، وهذا من ضبط القرآن وإتقانه؛ فإن هذه الكلمة مضبوطة في المصاحف كما كُتبت أول مرة منذ

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 377).

(2) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص663)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص385)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 348)، و«حجة القراءات» (ص737)، و«معجم القراءات» (10/ 207- 209).

(3) ينظر: «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (2/ 783)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص713)، و«الموسوعة القرآنية» (4/ 484).

عهد النبوة إلى اليوم[1]، وهذه أبلغ حجة على الناس في ضبط المصحف وحفظه وإتقانه، كما قال الله: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الحجر: 9]، حتى ما يُكتب ولا ينطق- كالألف الأخيرة من كلمة ﴿□﴾- فهو موجود، فالقرآن تتواطأ فيه الكتابة والنقل والرواية والمشافهة عن الأئمة.

والسلاسل عادةً ما تكون في الأيدي، **والأغلال** جمع: غُل، بضم الغين، أما الغِل بكسرها، فهو الحقد، أما الغُل، فهو قيد يوضع في الرقبة[2]، قال سبحانه: ﴿بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ [غافر: 71]، وقال: ﴿۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾ [يس: 8]، فالرباط الذي يوضع في العنق هو الغُل، والرباط الذي يوضع في اليد هو السلسلة، والعادة أن الإنسان المقيَّد المكبَّل يفعل به هذا وهذا، وتجمع يده إلى عنقه.

والسَّعير: النار التي توقد وتُسعَّر، عقوبة لهم على عدم توظيفهم ما أعطاهم الله تعالى في معرفته واتباع هديه؛ ولهذا كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «ارفعوا أيديكم إلى ربكم، واسألوه قبل أن تُغل أيديكم إلى أعناقكم»[3].

❊ ﴿□□□□□□□□□﴾:

---

(1) وثَمَّ مخطوطات نادرة للمصحف، موجودة في تركيا وألمانيا وطشقند واليمن ومصر وهولندا، كُتبت عنها دراسات قيِّمة تكشف دقتها وأهميتها التاريخية، والباحثون بصدد التنقيب عن المصحف الإمام الذي جُمع وكُتب في عهد أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، ووُزِّعت على الأمصار نسخ منه في خلافة عثمان رضي الله عنه.

(2) ينظر: «مجاز القرآن» (1/ 322)، و«الصحاح» (5/ 1783)، و«لسان العرب» (11/ 504) «غ ل ل».

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 114)، و«تفسير القرطبي» (19/ 124).

﴿﴾ جمع: بَرٍّ، وهو مَن اتصف بالبِرِّ[1]، وفي القرآن الكريم كثيرًا يرد ذكر البِرِّ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ﴾ [البقرة: 177]، وفي الحديث عن الكفار الذين لم يحاربوا قال: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا﴾ [الممتحنة: 8]، ومدح الله التعاون على البر والخير، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 2].

فـ﴿﴾ صنف من أهل الجنة درجتهم دون درجة المقرَّبين، كما في «سورة المطففين»[2].

والكأس: القدح حين يوجد فيه الشراب، فإذا خلا من الشراب سمي: كُوزًا وكُوبًا[3]، ولا يسمى: كأسًا إلا إذا كان الشراب فيه: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [النازعات: 34].

وهذا معروف في اللغة في إطلاق الأسماء على الأشياء، فتُسمى باسم في حال وباسم آخر في حال أخرى: فالهَوْدَج لا يُسمى: هَوْدَجًا، إلا إذا كانت المرأة فيه، وإلا فيسمى: رَحْلًا.

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 125)، و«فتح القدير» (5/ 417)، و«التحرير والتنوير» (29/ 379).

(2) سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾.

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 258)، و«التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» (ص198)، و«مشارق الأنوار» (1/ 349)، و«تاج العروس» (16/ 423)، و«الكليات» للكفَوي (ص776)، و«التحرير والتنوير» (30/ 45).

والمقصود بالشراب هنا: الخمر الذي أعدَّه الله تعالى للمؤمنين في الجنة[1].

﴿□□□﴾ أي: تمزج الخمر بالكافور[2]، والكافور: نوعٌ من النبات فيه رائحة عطرية طيبة، ويُتخذ منه ألوان من الطيب، وجرت عادة مَن يشربون الخمر في الدنيا أن يأتوا بكأس الخمر فيمزجوها مع الماء أو غيره، وقد يضعون على أطرافها شيئًا من المسك أو الكافور لتطييب رائحتها، فذكر تعالى هذا في نعيم الجنة، وظاهر الآية أن الكافور يُمزج مع الخمر فيشربونه ممزوجًا، والكافور الذي في الجنة ليس هو الذي في الدنيا، فكافور الدنيا لا يُشرب؛ لأن فيه أضرارًا، وخمر الدنيا فيها أضرار، كما قال الله تعالى: ﴿□□□□□□□﴾ [البقرة: 219].

ومن أضرارها: أنها تذهب بالعقل؛ ولهذا قال الله تعالى عن خمر الجنة: ﴿□□□□ □□□□﴾ [الصافات: 47]، قال بعض العلماء: الغَوْل هنا هو الكحول الموجود في خمر الدنيا، فخمر الجنة لا تسكر، وليس فيها آفات خمر الدنيا[3].

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ﴾:

فالكافور: عين في الجنة اسمها: كافور[1]، أو هي عين تنبع بالكافور، وهذا لا غرابة فيه، فالجنة فيها ما لا عين رأت، قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمد: 15].

---

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 70)، و«تفسير القرطبي» (19/ 125)، و«التحرير والتنوير» (29/ 380).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 538)، و«تفسير القرطبي» (19/ 125)، و«فتح القدير» (5/ 417).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (3/ 606)، و«تفسير الطبري» (19/ 532)، و«التحرير والتنوير» (23/ 113).

ففيها عين من الكافور يشرب بها المؤمنون، ولم يقل: «يشربون منها»، وإن كان المعنى متقاربًا، وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض أحيانًا[2]، لكنه قال: ﴿أَمَرُنَآ إِلَّا﴾؛ لأنها تمزج لهم، فلا يشربونها خالصة ولكن ممزوجة، ولهذا وصفهم الله بأنهم ﴿وَاحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ﴾؛ إشارة للرضا عنهم، فهم ﴿□﴾، وهم ﴿وَاحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ﴾، وهذه عبودية الاختيار؛ لأنه استهل السورة بذكر خلق الإنسان وابتلائه وهدايته سبيل الشكر أو الكفر، فهؤلاء العباد الذين نجحوا في الابتلاء سماهم: ﴿وَاحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ﴾ تسمية الرضا، مع أنه قد يسمى القوم: عباد الله، وهم غير مؤمنين، بمقتضى العبادة الاضطرارية، مثل قول الله سبحانه: ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾﴾ [الزمر: 7]، فهؤلاء كافرون، ومع ذلك سماهم: عبادًا.

﴿بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾: المعنى: أن هذه العين ليست كعيون الدنيا؛ لها مكان مخصَّص مَن أرادها جاء إليها ليغترف منها أو يشرب منها، بل هي تأتيهم حيث كانوا، فيفجرونها ويُجْرونها حيث شاؤوا، سواء كانوا في علو أو نزول، أو في الطريق أو في مساكنهم أو في أي مكان، وليس الإنسان قادرًا على أن يتصور تفصيل النعيم في الجنة، ولا على أن ينفكّ وينفصل عن جاري العادات في الدنيا.

وفي الآية إشارة إلى سهولة ذلك عليهم وتكرره منهم. وفي ذكر المصدر إشارة إلى قوة نبعها وكثرته، وعبر عن ذلك بصيغة المبالغة بالفعل المضّعف بقوله: ﴿بِٱلۡبَصَرِ﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 538)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 70)، و«تفسير القرطبي» (19/ 125)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 287)، و«التحرير والتنوير» (29/ 381).

(2) وهذا مذهب أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين، أما البصريون فلا يرون ذلك. ينظر: «الجنى الداني» (ص46)، و«مغني اللبيب» (ص150- 151).

* ﴿أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ﴾:

وهذا نوع من الانتقال الذي فيه تنويع للخطاب، ولفتٌ للنظر، ومراوحة بين حالهم في الجنة وحالهم في الدنيا، فأحيانًا تكون مع القرآن في الجنة، ثم ينقلك إلى الدنيا، ثم يُعيدك إلى الجنة؛ من أجل أن يكون ذهن الإنسان حاضرًا، والكلام إذا كان كله على وتيرة واحدة يملُّه الإنسان أو يسهو عنه، لكن إذا كان السياق فيه تنقل يكون مدعاةً للانتباه.

والمقصود ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ أحد أمرين:

إما أن يكون النَّذْر: كل طاعة، فالطاعات كلها نذور، أي أنها واجبة بأصل الشرع[1]، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ [الحج: 29]، وذلك في الحج والنُّسك، فيكون أثنى على قيامهم بالطاعات كلها، فالصلاة والصيام والحج تدخل في هذا المعنى.

أو يكون المعنى: النَّذْر الخاص[2]؛ وهو ما أوجبه المسلم على نفسه، مثل أن ينذر لله أن يصوم، أو يتصدَّق، أو يصلِّي، بناءً على أمر يمكن أن يتحقَّق له، فيُلْزِم نفسه بما ليس بواجب عليه في أصل الشرع، فهذا يسمى: نذرًا، وهو مكروه، وقال بعض السلف بأنه محرم[3]؛ لأن بعض الناس يلجأ إليه وكأنه يشارط ربه، فيقع في الحرج

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (3/ 435)، و«تفسير البيضاوي» (4/ 70)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 417)، (8/ 287)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 21)، و«روح المعاني» (9/ 139)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «زاد المسير» (4/ 376)، و«تفسير القرطبي» (19/ 127)، و«التحرير والتنوير» (29/ 382)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «المغني» (10/ 3)، و«المجموع» (8/ 450)، و«الشرح الممتع» (15/ 207)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (40/ 139).

الشديد، ويعجز عن الوفاء بالنذر؛ ولهذا نهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن النَّذْر، وقال: «**إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرجُ به من البخيل**»[1].

فالنذر لا يأتي بشيء لم يكن مكتوبًا في أصل القضاء والقدر، فإذا قال: إن شفى الله مريضي، أو إن نجحت في الاختبار فعلت كذا؛ فهذا لن يغيِّر شيئًا في القدر لم يكن مكتوبًا.

وهؤلاء القوم إذا كانوا يوفون بالنذر الذي أوجبوه على أنفسهم، فمن باب أولى أن يوفوا بما أوجبه الله تعالى عليهم في أصل الديانة[2]، وهذا إشارة إلى التزامهم بالواجبات التعبدية، وبالإحسان في عبادة الله تبارك وتعالى، وهذا هو أحد أركان العمل الصالح، والركن الثاني هو الإحسان إلى عباد الله بالبر والإقساط والجود، وهو الذي ذكره سبحانه في قوله بعده: ﴿فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾.

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٥١ وَكُلُّ﴾ فذكر الخوف الذي حملهم على هذا الفعل، فقد كانوا يخافون شر ذلك اليوم العظيم، وذلك اليوم فيه خير عظيم، وهو كان خيرًا لهم بالعقبى الحسنة.

وعبَّر بالشر؛ لأن المقام مقام خوف، والإنسان إنما يخاف من الشر، **والمستطير**: الطائر، كقولهم: استطار الفجر، أي: انتشر في الأفق، **فالمستطير**: هو الشيء المشتهر العظيم المنتشر الذائع[3].

والخوف هو أحد دوافع العبادة، وهو طبع في النفس الإنسانية لا تنفك عنه بحال، ومثله الرجاء، وهو الطمع في فضل الله وعطائه ونعيمه.

---

(1) أخرجه البخاري (6692)، ومسلم (1639) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «تفسير السعدي» (ص901).

(3) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص502)، و«لسان العرب» (4/ 513).

والخوف والرجاء كالجناحين للطائر متساويان، وقد يغلب هذا حينًا وهذا حينًا.

والحب أعظم منهما؛ فهو أساس الإيمان، ولُبَاب العلاقة مع الرحمن، وصفة أولياء الله السابقين: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: 54][1].

ولعله وصفهم بالخوف هنا لأنهم ﴿ﮋ﴾، ويكون الحب صفة مَن سبقوهم من المقربين، والله أعلم.

* ﴿فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾:

إشارة إلى إطعامهم الطعام مع محبتهم له وحاجتهم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: 9].

ويحتمل أن يكون المقصود: على حُبِّ الله تبارك وتعالى[2]، فهم يطعمونه حبًّا لله، وآثروا محبة الله على محبة الطعام، ولا مانع من إرادة الأمرين معًا، فالمقصود أنهم مع محبتهم للطعام وحاجتهم إليه قدَّموا محبة الله تبارك وتعالى فأطعموا الطعام، وهذا من أعظم القربات، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ [البلد: 14- 16]، والآيتان متشابهتان، فهنا قال: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾، **والمسكين**: الذي لا يجد شيئًا[3]، **واليتيم**: الذي مات أبوه قبل البلوغ[4]، وهو مظنة ألا يجد مَن ينفق عليه، **والأسير**: المأسور[1]، وقد قال

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿۝١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﮋ﴾.

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 294)، و«تفسير القرطبي» (19/ 128)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 288)، و«أضواء البيان» (8/ 394).

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ فَبِأَيِّ﴾.

(4) ينظر ما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، و«سورة البلد»: ﴿ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ ﮋ﴾، و«سورة الماعون»: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرِ ٱلۡعَصۡفِ﴾.

ابن عباس رضي الله عنهما وسَعيد بن جُبير والحسن البصري وغيرهم: لم يكن يومئذٍ أسيرٌ إلا أهل الشرك[2]. ومع ذلك أمر الله تعالى بإطعامهم؛ لأن «**في كلِّ كبد رَطْبة أَجْرٌ**» كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[3].

فالله تعالى بيَّن حق الأسير، وفرَّق بينه وبين المقاتِل، فما دام قد ترك القتال وكُفَّ شرُّه، فإن من البر أن يُطعم ويُسقى ويُحسن إليه، فـ«**في كلِّ كبد رَطْبة أجرٌ**». والإحسان إليه يحبب الإسلام إليه.

وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالأسير: العبد الرَّقيق[4].

وقيل: المقصود: المرأة؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**أَلَا واستوصُوا بالنساء خيرًا، فإنما هُنَّ عَوانٍ عندكم**»[5]. أي: أسيرات في أيديكم.

وهذان قولان ضعيفان؛ لأن المرأة لا تسمى: أسيرة، وكذا العبد لا يسمى: أسيرًا، وأما الحديث النبوي: «**أَلَا واستوصُوا بالنساء خيرًا، فإنما هُنَّ عَوانٍ عندكم**». فهذا في مناسبة خاصة، وهو إلى التشبيه أقرب، وليس وصفًا مطَّردًا بحيث يشملهم

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 543)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7914)، و«تفسير السمعاني» (6/ 116)، و«فتح القدير» (5/ 419).

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 29)، و«تفسير القرطبي» (19/ 129)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 288).

(3) أخرجه البخاري (2363)، ومسلم (2244) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 294)، و«زاد المسير» (4/ 377)، و«تفسير القرطبي» (19/ 129)، و«فتح القدير» (5/ 419).

(5) أخرجه أحمد (15507)، والترمذي (1163، 3087)، وابن ماجه (1851)، والنسائي في «الكبرى» (9124)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (2524) من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه.

وأخرج البخاري (3331، 5185، 5186)، ومسلم (1468) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قوله: «**واستوصوا بالنساء خيرًا**». وينظر: «إرواء الغليل» (1997، 2030).

إطلاق لفظ الأسير، والواقع: أن الرجل وإن كان مطلوبًا منه أن ينفق على عبيده وزوجاته وبناته، إلا أن المقصود بالأسير في هذا السياق: هو المأسور أيًّا كان، والمأسور المسلم من باب أولى؛ لأن الإنفاق والإطعام والإحسان إليه فيه الأجر العظيم، ولا يلزم أن يكون أسيرًا عندك، بل تطعمه إن استطعت، ولو كان أسيرًا عند معتدين أو ظالمين أو كافرين، ومن باب أولى السعي في فَكاكه وإطلاقه بكل ما يمكن، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**فُكُّوا العاني**»[1].

* ﴿ﭓ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﭔ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ﴾:

أي: كأنهم يقولون ذلك، وهذا مقول القول، كما قال بعض السلف: إنهم ما قالوا هذا، وإنما علم الله تعالى ذلك منهم[2].

فحكاية القول والمخاطبة لَمن يطعمونهم كأنها بلسان الحال، فهؤلاء القوم فعلوا ما فعلوا لوجه الله تبارك وتعالى، وإلا فهم لم يكونوا يمنُّون على الناس ويخبرونهم بمثل هذا العمل، وربما لا يرون هذا الذي يطعمونه أو لا يستطيعون مخاطبته.

والأقرب أن هذا الكلام كانوا يقولونه في أنفسهم، وقد يقولونه عند مناسبته، فلا يمتنع أن يكون بعضهم قال هذا[3]، لكن ليس المقصود: أنه قولٌ يقوله كل واحد منهم كلما أطعم، أو يُشرع لكل واحد منهم أن يقوله، ومعنى كونه ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ فِي﴾ أي:

---

(1) أخرجه البخاري (3046) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 375)، و«تفسير الطبري» (23/ 546)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 363)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 33)، و«تفسير القرطبي» (19/ 130)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 289)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 24).

(3) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 71)، و«تفسير القرطبي» (19/ 130)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 361)، و«التحرير والتنوير» (29/ 385)، والمصادر السابقة.

ابتغاء مرضاة الله[1]، ومن هنا جمعوا بين الخوف والرجاء، فهم يخافون يوم القيامة، ويطعمون الطعام لوجه الله ورجاء ما عنده.

﴿جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: **والجزاء** بالفعل، **والشُّكور** بالقول[2]، نفى عنهم أن يكون الدافع الرِّياء والسُّمعة أو انتظار الشكر والمجازاة بأحسن مما فعلوا، **وفي ذلك إشارة إلى أنهم جمعوا في هذا الإطعام بين أمرين:**

1- وجود الدافع الإنساني الأخلاقي في البذل والإحسان.

2- ووجود الدافع الإيماني وإرادة وجه الله، ولو أن أحدًا عمل الخير ليس بدافع الرغبة فيما عند الله، ولكن حبًّا في الإحسان إلى الناس لكان له بذلك أجر، كما في قصة المرأة التي سقت كلبًا فغفر الله لها بذلك[3].

وقد نص أهل العلم على أن أعمال الإحسان لا يشترط فيها حضور نية التقرب إلى الله، فقد يكون باعثها الرحمة والرقة والعطف، فيثيب الله عليها[4]، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**والشاةُ إذا رحمتها رحمك اللهُ**». وقال: «**الراحمونَ يرحمهم الرحمنُ**»[5].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 525)، و«تفسير الطبري» (15/ 207)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 402)، و«تفسير السمعاني» (6/ 116)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 167)، و«زاد المسير» (4/ 378)، والمصادر السابقة.

(3) كما في «صحيح البخاري» (3467)، و«صحيح مسلم» (2245) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وينظر ما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ فَبِأَيِّ﴾.

(4) ينظر: «التوضيح» لابن الملقن (2/ 201)، و«عمدة القاري» (1/ 35، 314)، وما تقدم في «سورة الملك»: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾، وما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ فَبِأَيِّ﴾.

(5) تقدم تخريجها في «سورة الملك»: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾...﴾ [الملك: 19].

ولكن إذا وُجدت النية تضاعف الأجر والثواب، كما في هذا السياق، وكما في قوله تعالى: ﴿أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ [النساء: 114].

* ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾:

فأكَّدوا على معنى الخوف منه سبحانه، وأنهم يخافون ذلك اليوم، فهو مفعول به، أي أنهم يخافون من يوم القيامة، أو أنهم يخافون من الله سبحانه حين يكونون في ذلك اليوم وهم لا يدرون ما هو فاعل بهم.

ووصف الله ذلك اليوم بهذين الوصفين، وكأنها أوصاف لِمَن يقومون فيه، فالعَبوس من العُبوس، وهو كُلوح الوجه وشدته، والقَمْطَرِير: هو إما تقطيب ما بين الحاجبين، أو يكون بمعنى الطويل[1]، وهذا معروف في لغة العرب؛ فهم يصفون يوم الحر الشديد بالعَبوس القمطرير.

* ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ انتهى الكرب، وطُويت الصحائف، وعُلِمَ الفائزون وامتازوا عن غيرهم، ووقاهم الله تعالى شر ذلك اليوم الذي كانوا يخافونه، لقد خافوا حتى بلغوا المأمن، و«**مَن خاف أَدْلَجَ، ومَن أَدْلَجَ بلغَ المنْزِلَ**»[2].

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 295)، و«زاد المسير» (4/ 378)، و«تفسير القرطبي» (19/ 135)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 289).

(2) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه عبد بن حميد (1461)، والترمذي (2450)، والحاكم (4/ 307)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (115)، والعقيلي في «الضعفاء» (4/ 382)، و«السلسلة الصحيحة» (954، 2335).

﴿ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ تلقتهم النضرة والسرور، واستقبلتهم فأصبحت جزءًا منهم، فجمع لهم حُسنًا في وجوههم، وسعادة في قلوبهم يسرُّون بها.

والنضرة في الوجه تكون لأسباب:

منها: الصحة والعافية، والجمال والبهاء.

ومنها: الراحة النفسية، فالإنسان قد يكون صحيحًا، ولكنه مهموم مغموم، فيظهر الحزن والهم والغم والقَتَرة على وجهه، فهؤلاء القوم لقَّاهم الله ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ في وجوهم ﴿وَٱلۡقَمَرُ﴾ في قلوبهم[1].

* ﴿ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ﴾:

فيه إشادة بالصبر، وأنه أساس الإيمان، فالصبر أمره عظيم، وهو من أعظم صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ [الرعد: 24].

ومن الصبر: الصبر على طاعة الله تعالى؛ فلا يكون الإنسان متقلِّبًا.

ومن الصبر: الصبر على المعصية، وإن كثرت المغريات.

ومنه: الصبر على النفس وإن تلاومت وعاندت، فيحاول الإنسان أن يطبعها على الخير.

ومنه: الصبر على الأذى من العباد، من الأقربين والأبعدين.

ومنه: الصبر في طلب العلم.

ومنه: الصبر على الولد والزوج والشريك والقريب.

ولا يستقيم الإيمان إلا بالصبر، ولا الإسلام إلا بالصبر، ولا الحياة إلا بالصبر، وكما قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 549)، و«تفسير البغوي» (8/ 295)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 289).

* ﴿رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾:

﴿رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا﴾ هذا وصف لمجلسهم، وهذا من صفة أهل الجنة في تنعمهم وتلذذهم، فمأكلهم ومشربهم بخلاف حال الدنيا؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يأكل متَّكئًا، ويقول: «**لا آكلُ متَّكئًا**»[2]. ويقول: «**آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ**»[3]؛ لأن أكل المتكئ يدل على كمال التلذذ والتنعم، والإنسان الذي يدري أنَّ للمسكين والفقير حظًّا في طعامه لا يبالغ في ذلك.

أما أولئك الأبرار فهم متَّكئون؛ لأنهم وصلوا الغاية، فلم يعد ثَمَّ ما يقلقهم بعد اليوم.

و﴿٧ أَلَّا﴾ جمع: أريكة، وهي: السرير الذي عليه الوسائد[4]، وغالبًا ما يكون عليه مثل الظلة، فإذا كان السرير كذلك سُمِّي: أَرِيكة، وتُسمَّى: الحِجال، فهي سُرر عليها ظِلال، لكن سُرر أهل الجنة لا تحتاج إلى شيء يظلُّها، ولذلك قال: ﴿تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ﴾ أي: ليس فيها حرٌّ، ولا زمهرير، وهو: البرد الشديد[5].

---

(1) تقدم تخريجه في «سورة المعارج»: ﴿□□□□﴾.

(2) أخرجه البخاري (5398) من حديث أبي جُحيفة رضي الله عنه.

(3) أخرجه ابن سعد (1/ 328)، وأبو يعلى (4920)، والبغوي (2839) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر: «البدر المنير» (7/ 445- 446)، و«التلخيص الحبير» (3/ 267)، و«السلسلة الصحيحة» (544).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 551)، و«تفسير الماتريدي» (8/ 530)، و«التفسير المظهري» (6/ 32)، و«التحرير والتنوير» (29/ 389).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 551)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 71)، و«تفسير القرطبي» (19/ 137)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 290).

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**اشتكتِ النارُ إلى ربها، فقالت: ربِّ، أَكلَ بعضي بعضًا. فأَذِنَ لها بنفسين: نفسٍ في الشتاء، ونفسٍ في الصيف، فأشدُّ ما تجدونَ من الحرِّ، وأشدُّ ما تجدونَ من الزَّمْهَرِيرِ**»[1].

والزمهرير: البرد، بلغة الحجاز، وهو بلغة طيئ: القمر[2]، **والمقصود هنا**: البرد، ويحتمل أن يكون المقصود: القمر، وبناءً عليه فيكون السياق فيه نفي الشمس والبرد والحر والقمر، فكل هذه ليست موجودة في الجنة، وإنما فيها اعتدال الجو.

* ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾:

وهذا يثير العجب، جنةٌ ليس فيها شمس، ومع ذلك دانية عليهم ظلالها، فمن أين جاءت الظلال؟

يحتمل أن يكون المعنى: دانية عليهم أشجارها وأغصانها، فهي بمثابة الظلال في الدنيا[3].

ويحتمل أن في الجنة ظلالًا ليست كالظلال الذي يعرفها الناس في الدنيا، ﴿۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾، ودنو الظلال عليهم يعني: دنو الأشجار[4]، **والقُطوف** هي: الثمار[1].

---

(1) أخرجه البخاري (3260)، ومسلم (617) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 98)، و«تفسير الماوردي» (6/ 169)، و«تفسير الرازي» (30/ 750)، و«تفسير القرطبي» (19/ 138)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 438)، و«فتح القدير» (5/ 421)، و«التحرير والتنوير» (29/ 389).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 750)، و«تفسير القرطبي» (19/ 138)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 31).

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 365)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 527)، و«فتح القدير» (5/ 422)، والمصادر السابقة والآتية.

والتذليل يعني: قربها منهم، يأكلونها قيامًا وقعودًا ومضطجعين[2].

* ﴿١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾:

أي: وتُدار عليهم آنية مصنوعة ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ﴾، وصناعة الآنية من فضة إشارة إلى وجود آنية من الذهب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ [الزخرف: 71]، فذكر أحد الطرفين قد يُغني عن الآخر، **والأكواب** ﴿ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾، يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: «ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه، إلا ﴿ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾»[3]، أي: هي مصنوعة من فضة، فكيف تكون قوارير يرى ما بداخلها؟!

نقول: إما أن هذا من خصائص الجنة لها ﴿ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾، ومع ذلك يُرى ما بداخلها.

وإما أن تكون ﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾ ليس بمعنى أنها من زجاج، وإنما بمعنى أنها مدوَّرة[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 233)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 527)، و«تفسير القرطبي» (19/ 139)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 32)، و«فتح القدير» (5/ 422)، وما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 553)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 72)، و«تفسير البغوي» (5/ 193)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 141)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 291)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 35)، و«الدر المنثور» (15/ 162)، و«تفسير المراغي» (29/ 169).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 527)، و«تفسير الرازي» (30/ 751)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 35).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ أي: قدَّرها الله لهؤلاء، فوضعها بمقدار، فلا تثقل اليد بحملها، وتكون بقدر الفم، وتكون بقدر الحاجة، وبقدر ما يروي الإنسان[1].

وهذا فيه بيان جانب الحاجة، وجانب جمال الشكل والمظهر، وجانب الصفاء، وكل ذلك مطلوب؛ فالإنسان ينظر إلى الشراب وإلى الوعاء الذي فيه الشراب وإلى نظافته، وكل ذلك مذكور في الآية الكريمة.

* ﴿تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾:

بعد أن ذكر القوارير التي هي وعاء الشرب، أتبعها بوصف الشراب؛ فيُسقى أصحاب الجنة من كأس من الخمر ممزوجة بالزَّنْجبيل، فهذا مما يخلط معها أيضًا، وهي عين أخرى مثل عين الكافور، لكنها دونها في الفضل، فهؤلاء خلطوا عملًا صالحًا بآخر سيِّئًا.

* ﴿۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾:

لعلَّ الأقرب أن هذا اسم للعين، فاسمها: سَلْسَبِيل[2]، وذكر ابن الأعرابي أنه لا يُعرف «السَّلْسَبِيل» إلا في القرآن الكريم[3]، ولكن غيره من علماء اللغة أثبتوا السَّلْسبيل، وقالوا: إن السَّلْسَل، والسَّلْسال، والسَّلْسبيل، كلها ألفاظ لغوية تعني:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 557)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 291)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 119)، و«زاد المسير» (4/ 379)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 292)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 403)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 357)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 612)، و«التحرير والتنوير» (29/ 396)، والمصادر السابقة والآتية.

وينظر أيضًا: «المحكم والمحيط الأعظم» (8/ 656)، و«لسان العرب» (11/ 344) «س ل س ل»، و«تاج العروس» (29/ 221) «س ل س ب ل».

الماء البارد العذب الفرات[1]، ولهذا يخلط مع الزَّنْجبيل شيءٌ من السَّلْسبيل؛ لأن الزَّنْجبيل يكون حارًّا مؤذيًا، فإذا وُضع معه الماء البارد العذب فإنه يزيل حدته.

* ﴿مِن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ أي: بهم، ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٗ﴾ أي: غلمان صغار السن؛ لأنهم أسرع وأخفّ في الحركة، وأكثر استعدادًا للخدمة، ولا يجد الإنسان حرجًا أو مشقة في أن يأمرهم وينهاهم[2].

وهم ولدان لا يتغيرون عن هذه الصفة التي وصفهم بها ربهم، وليسوا ولدان اليوم شيوخ الغد، فهم لا يكبرون ولا يَفْنَون، فالزمن يؤثِّر في الإنسان في الدنيا، حيث يكبر ويهرم، لكن الدار الآخرة شيء آخر، لا يفعل فيهم الزمان فعله، ولا يؤثِّر، ولا يُغيِّر، فأهل الجنة يدخلونها وهم أبناء ثلاث وثلاثين سنة[3]، وهؤلاء الولدان مخلَّدون في خدمتهم.

ومن معاني التخليد: أنهم يلبسون ألوانًا من الأساور والأقراط في آذانهم[4]، فهذا مما يمتع به أهل الجنة، حتى منظر خدمهم يدعو إلى الراحة والفرح والرضا.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 217)، و«جمهرة اللغة» (2/ 1219)، و«الزاهر في معاني كلام الناس» (2/ 196)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 397).

(3) ينظر: «مسند أحمد» (7933)، و«جامع الترمذي» (2545)، و«صفة الجنة» لابن أبي الدنيا (15)، و«صفة الجنة» لأبي نعيم (255)، و«صفة الجنة» للضياء المقدسي (108)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 408) من حديث معاذ وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 564)، و«تفسير الرازي» (30/ 753)، و«تفسير القرطبي» (19/ 143)، و«فتح القدير» (5/ 423)، و«التحرير والتنوير» (29/ 397).

﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ أي: إذا رأيت هؤلاء الوِلْدان وهم متفرقون، هذا ذاهب وهذا آت وهذا قائم وهذا قاعد؛ إذا رأيت هذا المنظر بشموليته وعمومه وَجَدْتَهم كاللؤلؤ المنثور، وهذا تشبيه لانتشارهم في خدمة أهل الجنة، فهم هنا وهناك، وأينما وقعت العين وقعت على حسن وجمال[1]، وفي الآية الأخرى قال: ﴿ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن ﴾ [الطور: 24]، فمع قيامهم بالخدمة على أتم وجه، إلا أنهم كاللؤلؤ المكنون، فقد جمعوا بين الجمال والتذلل لأهل الجنة بالعمل، وهم يشبهون اللؤلؤ المكنون في نظافتهم وسلامتهم، ويشبهون اللؤلؤ المنثور في حركتهم وانتظامهم.

❊ ﴿ ﴾:

﴿ ﴾ معناها: هناك[2]، أي: إذا رأيت هناك في الجنة رأيت نعيمًا عظيمًا، وما سبق ليس سوى شيء يسير مما وعد الله المتقين، وفي الحديث: «**إني لأعلمُ آخرَ أهل النار خروجًا منها، وآخرَ أهل الجنة دخولًا الجنةَ؛ رجلٌ يخرجُ من النار حَبْوًا، فيقولُ اللهُ تبارك وتعالى له: اذهبْ فادخل الجنةَ. فيأتيها فيخيَّلُ إليه أنها مَلْأَى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى. فيقولُ اللهُ تبارك وتعالى له: اذهبْ فادخل الجنةَ. قال: فيأتيها، فيخيَّلُ إليه أنها مَلْأَى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى. فيقولُ اللهُ له: اذهبْ فادخل الجنةَ، فإن لك مثلَ الدنيا وعَشَرَةَ أمثالها- أو: إن لك عَشَرَةَ أمثال الدنيا**»[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**إن أهلَ الجنة يتَرَاءَوْنَ أهلَ الغرف من فوقهم، كما يتَرَاءَوْنَ الكوكبَ الدُّرِّيّ الغابرَ في الأُفُق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم**».

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 753)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 365)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 292).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 566)، و«تفسير القرطبي» (19/ 144)، و«تفسير السعدي» (ص901).

(3) أخرجه البخاري (6571)، ومسلم (186) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أي: يرون كوكبًا لا يكاد يُرى من بُعْده وعظمته يتلألأ فيقولون: إن هذه درجة فلان، وفي الحديث: قالوا: يا رسولَ الله، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلغُها غيرهُم! قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجالٌ آمَنوا بالله وصدَّقُوا المرسلينَ**»[1].

فهو مُلك كبير؛ لكثرة الخدم والحشم، والسعادة العظيمة، واللباس، وتيجان الملوك على رؤوسهم، والملائكة لا يدخلون عليهم إلا باستئذان، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: 23- 24]، فيدخلون عليهم بتبريك وتهنئة وتزكية وثناء على صبرهم وعلى جهدهم، وهم يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأعراف: 43].

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

السُّندس، وهو ما يلي البدن، وهو من الحرير الناعم.

والإستبرق هو: الحرير الغليظ الظاهر الذي تراه العيون، وفيه لمعان[2].

﴿□□□□﴾ إضافة إلى هذه الثياب فعندهم أساور من فضة يلبسها الرجال والنساء، والذهب حرامٌ على الرجال في الدنيا، حِلٌّ للإناث[3]، وأما في الجنة فهو حِلٌّ

(1) أخرجه البخاري (3256)، ومسلم (2831) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 754)، و«تفسير القرطبي» (19/ 146)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 293).

(3) كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**الحريرُ والذهبُ حرامٌ على ذكور أمتي، وحِلٌّ لإناثهم**». أخرجه الطيالسي (508)، وأحمد (19502، 19515)، والترمذي (1720)، والنسائي (8/ 190)، وغيرهم.

وأخرجه أحمد (750، 935)، وأبو داود (4057)، والنسائي (8/ 160)، وابن ماجه (3595)، وابن حبان (5434)، والضياء (2/ 206- 207) (588- 591) من حديث علي رضي الله عنه.

لهم رجالًا ونساءً، يتمتعون به كيف شاؤوا، ولا يتناقض هذا مع كمال رجولتهم وتمتعهم بألوان النعيم.

﴿□□□□﴾ وصفه هنا بأنه طَهور، وفي ذلك تعريض بخمر الدنيا؛ ولهذا ذهب جمهور الفقهاء إلى أن خمر الدنيا نجسة نجاسة حسيَّة.

وقال آخرون: هي طاهرة، وهو **الراجح**[1]، وإن كانت خبيثة محرمة.

وفي الحديث: «**مَن شربَ الخمرَ في الدنيا، ثم لم يتبْ منها، حُرِمها في الآخرة**»[2].

ثم ذكر أن الذي سقاهم هو الله سبحانه، فهذه مِنَّةٌ عُظمى؛ لأنه هو الذي أعدَّ لهم هذا، وأمر بأن يُسقوا منه، فيسقيهم إيَّاه الولدان أو غيرهم.

وهذا شرابٌ خاص إذا شربه المؤمن كان سببًا في زوال الشبع وتجدد شهوته، ويتحول الطعام الذي أكله إلى عَرَقٍ كالمِسْك[3]، فأهل الجنة لا يتبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون[4]، وهو بمثابة ما يتعاطاه الناس من أشربة الهضم بعد الطعام.

❊ ﴿□□□□□□□□□□﴾:

ورُوي عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم، وله أصل في «صحيح البخاري» (886، 2614، 2619، 5426، 5981)، و«صحيح مسلم» (2068، 2071، 2090). وينظر: «نصب الراية» (4/ 222- 225)، و«البدر المنير» (1/ 640- 650)، و«التلخيص الحبير» (1/ 86- 89)، و«إرواء الغليل» (277).

(1) ينظر: «المغني» (9/ 171)، و«المجموع» (2/ 563)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (5/ 27)، و«موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي» (1/ 118)، و«فقه العبادة» (1/ 99- 105).

(2) أخرجه البخاري (5575)، ومسلم (2003) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 569)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 405)، و«تفسير القرطبي» (19/ 147).

(4) كما في «صحيح البخاري» (3245، 3327)، و«صحيح مسلم» (2834) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و«صحيح مسلم» (2835) من حديث جابر رضي الله عنه.

أي: شَكَرَه الله عز وجل، وهو الشكور الحليم[1]، الذي وفَّقهم إليه واستعملهم فيه وأعانهم عليه، ثم قبله منهم وكافأهم عليه أفضل المكافأة، فأي فضل ورحمة أعظم؟!

فجمع الله بين العدل والفضل؛ فجازاهم على سعيهم بأن شكرهم، وجازاهم على ذنبهم بأنه غفره، وزادهم من واسع فضله ورحمته ما لم يكونوا يحتسبون.

❊ ﴿□□□□□□□﴾:

إشارة إلى أنه نزل منجَّمًا على حسب الوقائع والأسباب والأحوال، وقد استمر نزوله حتى آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فاستمر ثلاثًا وعشرين سنة[2].

❊ ﴿□□□□□□□□□□﴾:

﴿□□□﴾ أي: إن كذَّبوك ولم يؤمنوا بهذا الكتاب، والأمر بـ«الصبر» هنا له صلى الله عليه وسلم ولأمته أجمعين.

اصبر فيما أمرك الله واصبر عما نهاك، واصبر على ما قدَّره عليك، واصبر للشريعة ولا تعجل؛ كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿□□□□﴾ [الأحقاف: 35]؛ ولهذا كان صلى الله عليه وسلم في أول بعثته كلما عُرض عليه قتال الكفار قال: «**لم نُؤمر بقتال**»[3]. فكان يقول ذلك مع ما يلقاه من الأذى؛ لأنه مصطبر لحكم ربه، ولن يُقدم حتى يأذن له بذلك، فهذا أمره وهذا شرعه.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 571)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 57)، و«تفسير الرازي» (30/ 756)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 369).

(2) ينظر: «الإتقان» (1/ 146)، و«قلائد المرجان» (ص234).

(3) أخرجه أحمد (15798)، والفاكهي في «أخبار مكة» (4/ 215)، وابن حبان (7011)، والآجري في «الشريعة» (1142)، والحاكم (3/ 441)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (2/ 449).

وينظر أيضًا: «السيرة النبوية» لابن هشام (1/ 448)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (2/ 204).

وقد أُمِر بالصبر لحكم ربه، لا إلى حكم غيره، ولا إلى حكم النفس، والذين ينزلون عند حكم نفوسهم تضطرب أمورهم، وإن كانوا يحتسبونه حكم الله ورسوله.

﴿□□□□□□﴾: فالكفار كانوا يحاولون أن يصرفوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومَن معه عن بعض الوحي[1]؛ فأمره الله بالصبر وثبَّته، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: 74]، فهذا أبو جهل قال: «هل يُعفِّرُ محمدٌ وجهَه بين أظهركم؟ فقالوا: نعم. فقال: واللَّاتِ والعُزَّى، لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنّ على رقبته، أو لأعفرنّ وجهه في التراب». فأنزل الله تعالى: ﴿□□□ □□□□﴾ [العلق: 19]»[2].

وهذه الآية ليست خاصة بأبي جهل، بل عامة لكل مَن هو على شاكلته، والآثم هو فاعل الإثم، وأما الكَفور فهو الذي في قلبه الكفر؛ ولهذا فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفورًا، فقد يقع المرء في الإثم الذي هو دون الكفر[3].

❇ ﴿□□□□□□﴾:

أي: مما يُثبِّتك ويُصبِّرك أن تذكر اسمه تبارك وتعالى ﴿□□﴾، ويدخل في هذا الصلوات الخمس؛ لأن **البُكور** يعني: صلاة الفجر، **والأَصيل** هو آخر النهار، **والمراد به**: صلاة العصر[4]؛ ولذا جاءت الأحاديث في فضل هاتين الصلاتين[5].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 149)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 50)، و«التحرير والتنوير» (29/ 404).

(2) ينظر: «صحيح مسلم» (2797)، وما سيأتي في «سورة العلق».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 572)، و«تفسير السمرقندي» (2/ 222)، و«تفسير الماوردي» (4/ 409)، و«تفسير الرازي» (30/ 758)، و«تفسير ابن كثير» (294).

(4) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 529)، و«زاد المسير» (3/ 470).

(5) ينظر: «صحيح البخاري» (554، 574)، و«صحيح مسلم» (635).

وقد يراد بالأَصْيل: النصف الآخر من النهار، فتدخل صلاة الظهر معها[1].

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ﴾:

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ﴾ أي: صلاة المغرب وصلاة العشاء[2]، فذكر الصلوات الخمس، كما ذكرها في مواضع أخرى، كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء: 78]، والأمر ليس مقصورًا عليها فحسب، وإنما الأمر بالذكر عام، فلا يزال اللسان رطبًا بذكر الله تبارك وتعالى، ومن ذلك: الذكر طرفي النهار بأذكار الصباح والمساء، وذكر الله تعالى يكون في كل حين وأوان، وكلما تجدَّدت للإنسان نعمة وكلما ألمَّ به أمرٌ.

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ أي: قيام الليل[3]، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: 79]، وقوله: ﴿وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ﴾ [المزمل: 2- 4]، وقد كان قيام الليل واجبًا أول الأمر، ثم تحول إلى نافلة[4].

وقيام الليل من أشقِّ ما تجاهده النفس، وحريٌّ بالمؤمن أن يقوم ولو بثلاث ركعات أو خمس أو سبع أو تسع أو إحدى عشرة أو ما يسَّر الله، ولو أن تقوم ساعة أو نصف ساعة أو ربع ساعة، ففي ذلك خير كثير.

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 150)، و«فتح القدير» (5/ 426)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 529)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 75)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7943)، و«تفسير الماوردي» (6/ 172)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 61)، و«زاد المسير» (4/ 381).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (5/ 183)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7944)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر ما تقدم في «سورة المزمل»، والمصادر السابقة.

* ﴿أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ﴾:

القاعدة المطردة أن ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ اسم إشارة للجماعة، وإذا جاءت في القرآن الكريم دون أن يسبقها شيء فإن المقصود بها الإشارة إلى الكافرين[1]، كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [الأنعام: 89]، وكما هنا، وهذا فيه تعريض بحمقهم؛ لأنهم أحبوا ﴿مِن﴾، وليس هذا فقط، بل تركوا ﴿٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ﴾!

ووصف الله الدنيا بـ﴿مِن﴾، وسماها: الدنيا، من الدون[2]، فهؤلاء يحبون الحياة الدنيا دون غيرها، ولو أحبوا العاجلة والآجلة لم يضرّهم ذلك، فإن الله يقول: ﴿□□ □□□□□□□□□□﴾ [القصص: 77]، وأثنى على المؤمنين الداعين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة: 201]، وقال تعالى: ﴿فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [آل عمران: 14].

﴿مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ﴾: **المقصود باليوم الذي وراءهم هو**: ما أمامهم من يوم القيامة، وإنما جاء التعبير هنا بالوراء؛ لأنهم غفلوا عنه وتركوه وراءهم، فلم يهتموا به، ولم يذكروه، ولم يعملوا له، وولّوه ظهورهم[3].

فهو ليس كسائر الأيام التي ألفوها، وإنما هو يوم ثقيل، طويل مهول رَعيب.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 407).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 252)، و«مقاييس اللغة» (2/ 303) «د ن ى»، و«تاج العروس» (38/ 69) «د ن و».

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 760)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 53)، و«فتح القدير» (5/ 427).

ثم إن كلمة «وراء» و«أمام» تأتي في اللغة بمعنى واحد[1]، وهذا يسمى: التضاد في الألفاظ، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: 79]، أي: أمامهم[2].

وهذا تدوين لحماقة الذين أحبُّوا ﴿مِن﴾، فلو أنهم عاشوا الدنيا كلها منذ خُلقت إلى قيام الساعة ما كانت مكافئة وموازية للآخرة، فكيف والواحد منهم ما عاش سوى خمسين أو سبعين أو مئة سنة؟!

* ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي﴾:

والأَسْر: الأطراف، أو اتصال بعض الجسد ببعض، يقال: إنسان شديد الأَسْر، أي: قوي الجسم[3].

وما دام أنه هو الذي خلقهم فهو قادر على إعادتهم، فهو احتجاج بالخلق الأول على الخلق الثاني[4]، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: 15]، أي: هم يستغربون من الخلق الجديد، فلماذا لم يتذكَّروا خلقهم أول مرة[5]؟!

أولم يعلموا أن الذي خلقهم أول مرة قادر على بعثهم؟! فهذا بقياس العقل أهون، وإن كان الأمر بالنسبةِ لله عز وجل سواء.

---

(1) ينظر: «تهذيب اللغة» (15/ 219)، و«تاج العروس» (1/ 486).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (2/ 157)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص270)، و«تفسير القرطبي» (11/ 35)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 178)، و«روح المعاني» (8/ 332).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 372)، و«تفسير البغوي» (8/ 299)، و«تفسير الرازي» (30/ 761)، و«تفسير القرطبي» (19/ 151).

(4) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 294)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 420)، و«الكشاف» (4/ 382)، و«التحرير والتنوير» (26/ 297).

وفيها تذكير بالنعمة ودعوة إلى الشكر، أليس الله سبحانه قد أحسن خلقهم وشدَّ أسرهم؟ فالأطراف والمفاصل والأعضاء أحكمها الله عز وجل، وكلما تقدم العلم اكتشف المزيد من القوة والإبداع والقدرة والأسرار في خلق الإنسان والحيوان.

في أول السورة ذكر الله الإنسان والروح الذي به أصبح إنسانًا، فقال: ﴿   ﴾، وبيَّن مراحل خلق الإنسان، وأنه صار إنسانًا لما نُفخ فيه الروح؛ ولهذا يقول تعالى في «سورة المؤمنون»: ﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ﴾، ﴿كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ﴾ أما قبل نفخ الروح- حتى مع حياة الحيوان المنوي- فليس بإنسان.

وفي آخر السورة أشاد بالجسد وجماله وإتقانه وأَسْره[1].

﴿وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: جمهور المفسرين على أن المعنى: أن الله تعالى قادر على أن يذهب بهؤلاء ويأتي بغيرهم[2]، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: 133].

وهناك معنى آخر أشار إليه بعض المفسرين، ومنهم الشيخ السعدي رحمه الله، وهو: أن المقصود إحياؤهم للبعث مرة أخرى، كما خلقهم في الدنيا[1].

---

(1) وما ذكره بعض المتقدمين من أن العظام والعصب ونحوها من ماء الرجل، واللحم والشحم من ماء المرأة؛ فليس عليه دليل لا طبي ولا شرعي، وإنما هي اجتهادات لا تُسلَّم. ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 659)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 417)، و«خلق الإنسان بين الطب والقرآن» لمحمد علي البار (ص297- 298).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 577)، و«تفسير السمعاني» (6/ 123)، و«تفسير القرطبي» (19/ 152)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 294)، و«التحرير والتنوير» (29/ 410).

* ﴿جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

﴿جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي﴾ أي: هذه السورة، أو هذه الشريعة[2]، **وهو الأقرب**، ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾ أي: اختار، كما في قوله: ﴿□□□□□□□□﴾ [الإنسان: 3]، أي: مَن شاء أن يكون شاكرًا ومَن شاء أَلَّا يكون كذلك، ولم يذكر الأمر الآخر؛ وهو: مَن شاء اتخذ إلى الشيطان سبيلًا؛ لأن سياق السورة- كما ذكرنا- يبين جانب الرحمة والإيمان والنجاة والجنة، وهذا فيه إشارة إلى مسؤولية العبد في الاختيار، وأن مشيئة العبد مؤثِّرة وفاعلة في اختياره الطريق والسبيل إما إلى إيمان أو كفر، أو طاعة أو معصية -وليس صحيحًا أن الإنسان مقهور بالجينات كما يقال- وهي ضرورة يجدها الإنسان في نفسه، وأنه ليس بمجبور مطلقًا.

* ﴿١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾:

هذا معنى آخر، وليست الآية ناسخة للأولى كما ادَّعى بعضهم[3]، بل هما في سياق واحد هنا وفي مواضع أخرى، كـ«سورة التكوير»[4]؛ فإن مشيئة العبد وإرادته منطوية في إرادة الله تبارك وتعالى، فالعبد لا يغلِب ربه ولا يسبقه، والذين يكيدون لربهم تحبط أعمالهم ولا يصلون إلى شيء، ومن حكمته تعالى وعدله أن الذي يريد الهُدى يهديه، والذي يريد الضلال يخلِّي بينه وبين ما يريد حتى يلقى الله بذنبه، ومشيئة

---

(1) ينظر: «تفسير السعدي» (ص903).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 415)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 440)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (21/ 153).

(3) ينظر: «نواسخ القرآن» لابن الجوزي (2/ 505)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص494)، و«تفسير القرطبي» (19/ 152)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 57).

(4) في قوله تعالى: ﴿□□□□□□□□□□□□□□﴾.

الله ثابتة؛ وهو تعالى علم مَن سيطيع ومَن سيعصي، وكتب ذلك عنده في كتاب، وليس الإنسان مقهورًا على طريق الخطأ أو على طريق الانحراف، ولا على طريق الطاعة، ولكنه مختار؛ ولذا ينعَّم أو يعذَّب.

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ فهو سبحانه عليم بعباده وما سيفعلونه، وسيختارونه، وهو حَكِيمٌ في خلقه؛ ولهذا كان القدر سره في عباده سبحانه وتعالى.

وكان عبد القادر الجيلاني رحمه الله يقول: «كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه رَوْزَنَةٌ- يعني: فتحة- فنازعتُ أقدارَ الحقِّ بالحقِّ للحقِّ»[1].

ومراده: أن ينازع المؤمن أقدار الضلال بالهدى، والكفر بالإيمان، والجهل بالمعرفة، والإخفاق بالنجاح، والمرض بالعلاج، وهذا قَدَرٌ وهذا قَدَرٌ، كما قال عمر رضي الله عنه: «نفرُّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله»[2]. مع الاستعانة بالله على ذلك، ومعرفة أنه لا يريد الكفر والضرر على عباده إرادة شرعية، وإن كان هذا يقع كونًا وقدرًا.

* ﴿۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ﴾:

والرحمة هنا هي: الجنة[3]، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي عن الجنة: «**أنت رحمتي، أَرْحَم بك مَن أشاءُ من عبادي**»[4].

---

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (2/ 458)، (8/ 306)، (10/ 158)، و«طريق الهجرتين» (ص37)، و«مدارج السالكين» (1/ 217).

(2) أخرجه البخاري (5729)، ومسلم (2219) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 536)، و«زاد المسير» (4/ 381)، و«تفسير القرطبي» (19/ 153)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 272)، و«التحرير والتنوير» (25/ 39).

(4) أخرجه البخاري (4850)، ومسلم (2846) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهي أوسع من الجنة، فتشمل الإيمان في الدنيا؛ فإنه من رحمة الله تبارك وتعالى، وتشمل المغفرة والتوبة واللطف الإلهي.

﴿رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا﴾ هؤلاء هم الطرف الآخر الذين أخفقوا في الابتلاء.

وقال هنا: ﴿رَفَعَهَا﴾ منصوب بفعل محذوف، أي: وتوعَّد الظالمين بأن أعد لهم عذابًا أليمًا، وفي «سورة الشورى» يقول: ﴿۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّـارٍ ۝١٥﴾، فقال: ﴿۝١٤﴾؛ لأنه ليس بعدها فعل، أما هنا فبعدها فعل، فنُقدر قبلها فعلًا يدل عليه ويتضمنه الفعل الذي جاء بعدها[1].

وفي ابتداء السورة ذكر قصة الإنسان، وفي ختامها ذكر نهاية القصة، وأن هؤلاء صاروا إلى الجنة وهؤلاء صاروا إلى النار، والأمر لم يكن صعبًا ولا شاقًّا ولا شديدًا، بل هو يسيرٌ على مَن يسره الله عليه.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (4/ 395)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 66- 67)، و«تفسير القرطبي» (19/ 153).

سورة المرسلات

*** تسمية السورة:**

لها أسماء عدة، منها:

«**سورة المرسلات**»، وهو المثبت في المصاحف، ومعظم كتب التفسير[1].

و«**سورة ﴿فِي﴾**»، كما في بعض روايات حديث النظائر[2].

و«**سورة ﴿فِي ٱلْمِيزَانِ﴾**»[3]، وهذا المعروف عند الصحابة رضي الله عنهم، فقد جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار، وقد أُنْزلت عليه: ﴿فِي ٱلْمِيزَانِ﴾، فنحن نأخذُها من فِيهِ رَطْبَةً، إذ خرجت حيَّةٌ، فقال: «**اقتلوها**». فابْتَدرناها لنقتلها، فسبقتنا، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**وقاها اللهُ شرَّكُم، كما وقاكم شَرَّها**»[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 537)، و«تفسير الطبري» (23/ 580)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 407)، و«تفسير القرطبي» (19/ 153)، و«التفسير المظهري» (10/ 164)، و«التحرير والتنوير» (29/ 417).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص691)، و«صحيح البخاري» (6/ 164)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 77).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 417).

(4) أخرجه البخاري (4930، 4931)، ومسلم (2234).

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أيضًا في النظائر التي كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في الصلاة، أنه كان يقرأ: ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾، و﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾ في ركعة[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن أمَّ الفضل سمعته وهو يقرأ: ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ ...﴾، فقالت: «يا بُنيَّ، والله لقد ذكَّرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأُ بها في المغرب»[2].

وبعضهم يذكر أن من أسمائها: «**سورة العُرف**»[3]؛ لذكر «العُرف» فيها في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾.

❊ **عدد آياتها:** خمسون آية باتفاق علماء العدِّ[4].

❊ **وهي مكية** عند أكثر العلماء[5]، **ويدل على ذلك ما يأتي:**

1- حديث ابن مسعود رضي الله عنه السابق، وفيه أنها نزلت في الغار؛ ولهذا قال ابن العربي وغيره: إن من طرائف السورة أنها نزلت تحت الأرض، فكما أنه وجد في

---

(1) أخرجه البخاري (775، 4996، 5043)، ومسلم (822)- بدون سرد السور- وأبو داود (1396)، وابن خزيمة (538).

(2) أخرجه البخاري (763)، ومسلم (462).

(3) ينظر: «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 146)، و«روح المعاني» (15/ 187)، و«تفسير القاسمي» (9/ 381)، و«التحرير والتنوير» (29/ 418).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص261)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص319)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص312)، و«التحرير والتنوير» (29/ 419).

(5) ينظر: «زاد المسير» (4/ 382)، و«تفسير القرطبي» (19/ 153)، و«فتح القدير» (5/ 429)، و«التحرير والتنوير» (29/ 418).

القرآن المكي والمدني والسفري وغير ذلك، فيوجد ما نزل تحت الأرض، ومنه هذه السورة، فإنها نزلت في الغار[1].

2- أن نزولها كان في ليلة الجنِّ بمنى[2].

3- ومما يؤكِّد ذلك موضوعات السورة؛ فإنها حافلة بالوعيد والتهديد والتخويف، وذلك غالب في القرآن المكي.

4- أن السورة مليئة بتقرير التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر والثواب والعقاب والجنة والنار، وهذا شأن القرآن المكي في الغالب.

5- أن من علامات المكي قِصر آياته[3]، والسورة من هذا القبيل.

وقد أشكل على كونها مكية ذكر الركوع في آخرها في قوله: ﴿□□□□□□□﴾، فذُكر عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أنهم يرون هذه الآية مدنية[4].

والصواب أن السورة كلها مكية، وأما ذكر الركوع، فإن الذين استشكلوه ظنوه مدنيًّا وقالوا: إن هذا يوم القيامة، أي: إذا قيل لهم يوم القيامة: اركعوا، لا يركعون، كما ورد في الآية الأخرى: ﴿□□□□□□□□□ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القلم: 42- 43]، وهذا شأن المنافقين، والنفاق لم يوجد إلا في المدينة.

والصواب أن ذلك في الدنيا، وفيه إشارة إلى تمردهم وإبائهم ورفضهم الانصياع للحق وعدم إيمانهم وأدائهم للصلاة، كما في قوله سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ

---

(1) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 356).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (1830، 4934)، و«الدر المنثور» (15/ 172).

(3) ينظر: «مباحث في علوم القرآن» لصبحي صالح (ص183).

(4) ينظر: «زاد المسير» (4/ 382)، و«تفسير القرطبي» (19/ 153)، و«فتح القدير» (5/ 429)، و«التحرير والتنوير» (29/ 418).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الروم: 31- 32]، فذم المشركين بأنهم لا يقيمون الصلاة، فيكون المقصود: وصف المشركين في الدنيا، وبناءً عليه فالسورة مكية على القول **الراجح**.

* **وقد ورد في فضلها** حديث أبي بكر رضي الله عنه، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ! فقال: «**شَيَّبتني هودٌ، و﴿أَلَّا﴾، والمرسلاتُ، و﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾، و﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا﴾**»[1].

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ذلك ابن الصلاح، وغيره[2].

وتتميَّز بأن فيها عشرة مقاطع، كل مقطع منفصل عن الآخر ليس معطوفًا عليه، وإنما يبدأ مستقلًّا، يُفصل بينه وبين سابقه بالتهديد الرباني: ﴿□□□﴾؛ ليعطي معنى جديدًا يتعلَّق بالمقطع المشار إليه.

* ﴿فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾:

وهذا القَسَم يُشبه القَسَم في «سورة الذاريات»: ﴿□ □ □﴾، وفي «سورة النازعات»: ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾، فهو قَسَم بأشياء أراد الله تعالى أن يلفت نظر الناس إليها مما لا يعرفه الناس لأول وَهْلة.

ويقول بعض المفسِّرين: إن المقسَم به هنا كله شيء واحد؛ وهو القَسَم بالرِّيح[1]، فهي «المرسلات»، قال تعالى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾ [الروم: 48]، وقال:

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (30268)، والترمذي (3297)، وفي «العلل الكبير» (664)، والحاكم (2/ 343)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (4/ 350) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) ينظر ما تقدم في أول «سورة الواقعة».

﴿يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ﴾ [الحجر: 22]، وجاء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان أجودَ الناس بالخير من الريح المرسلة[2].

وهي «العاصفات»، وهذا من أسمائها، ومن صفتها: أنها «الناشرات»، و«الفارقات».

ويشكل على ذلك أنه قال في آخرها: ﴿لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا﴾، فهل الرياح تُلْقِي ذِكرًا؟

قيل: نعم، تُلْقِي ذِكرًا؛ لأن الريح إذا عصفت ودمَّرت، فإن الناس يفزعون إلى الذِّكر والتسبيح والاستغفار ويلجؤون إلى ربهم، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم أمر بالدعاء وسؤال الله الرحمة، والاستعاذة بالله من العذاب عند هبوب الريح[3]، فكأنها ألقت على ألسنة الناس ذكرًا لله سبحانه وتعالى، أو جدَّدت لهم ذكرًا لما نسوه[4].

* ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾:

والأقرب أن المقسَم به قسمان:

الأول: الرياح.

الثاني: الرُّوح؛ وهي الملائكة[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 376- 377)، و«الكشاف» (4/ 677)، و«تفسير الرازي» (3/ 765)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 374).

(2) أخرجه البخاري (1902)، ومسلم (2308).

(3) كما في حديث عائشة رضي الله عنها في «صحيح مسلم» (899): «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: «**اللهمَّ إني أسألُك خيرَها، وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسلت به، وأعوذُ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسلت به**»».

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 376- 377)، و«تفسير الرازي» (3/ 765).

(5) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 543)، و«تفسير القرطبي» (19/ 154)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 374)، و«التحرير والتنوير» (29/ 420).

فالمرسلات هي: الرياح، وهذا ظاهر.

و﴿ٱلۡمِيزَانِ﴾: عُرْف الفرس: الشعر الذي يكون على ناصيتها ذات اليمين وذات الشمال[1]، وكذلك عُرْف الديك، فيكون المقصود: الرياح المتتابعة[2]؛ لأن العرب يقولون: جاء القوم إلى فلان عُرْفًا كعُرْف الفرس، أي: إذا التفوا وتتابعوا عليه.

* ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾:

الفاء ليست من حروف القَسَم، وإنما هي حرف عطف، فلا بد أن تكون «العاصفات» هي «المرسلات»؛ لأنها صفة لها وذكر لبعض فعلها، ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ هي: الرياح إذا اشتدت هبوبها وعصفت[3]، وقد وصف الله تعالى الرياح في القرآن الكريم بأنها عاصفة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣﴾ [يونس: 22].

فتبدأ الريح هادئة ثم تزداد حتى تعصف عصفًا.

ولو قلنا: إن المقصود هو الملائكة، لكان المعنى واضحًا، فالملائكة تُرسَل إلى الأرض، فالله تعالى ﴿يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: 75]، و﴿٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ [النحل: 2]، يُرسلهم بالوحي وبالعذاب وبما شاء.

---

(1) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (2/ 111)، و«لسان العرب» (9/ 241) «ع ر ف»، و«التحرير والتنوير» (29/ 421).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 580)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 407)، و«تفسير البغوي» (8/ 301)، و«تفسير القرطبي» (19/ 154).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 583)، و«تفسير السمعاني» (6/ 125)، و«تفسير السعدي» (ص903)، و«التحرير والتنوير» (29/ 421).

وعليه يكون قوله: ﴿ٱلۡمِيزَانِ﴾ أي: معروفًا؛ فإنهم يُرسلون بالمعروف[1]، فيكون القَسَم هنا ليس بكل إرسال، وإنما بإرسالهم بالأمر الشرعي المعروف، كإرسالهم بالوحي وما أشبه ذلك.

ويكون المقصود بـ«العاصفات»: الملائكة في عصفها بالباطل، قال تعالى: ﴿ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنبياء: 18]، أو في عصفها بالمبطلين وإزالتهم ودحض حجتهم.

والأقرب أن المقصود بهاتين الآيتين: الرياح.

❊ ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾:

هذا قَسَم آخر، وهنا أبدل الفاء بالواو، فلم يقل: «فالناشرات»، بل قال: ﴿وَلَا﴾، فدل على أنه قَسم مختلف جديد[2]، والقسم هنا بالملائكة، فأقسم الله بالريح والرُّوح.

وهنا مناسبة لطيفة في الجمع في القَسم بين الرياح والملائكة؛ لأن الريح تُرسل مبشِّرة، تبعث السحاب، كما قال الله: ﴿ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾ [الروم: 48]، فهي تُرسل بالمطر، والمطر حياة للأرض وللنبات، والملائكة تُرسل بالوحي والحق، والحق فيه حياة القلوب؛ ولهذا جمع الله تعالى بينهما؛ لأن سرَّ الحياة فيهما.

وكثيرًا ما يجمع تعالى بين حياة القلوب وحياة الأرض، فمثلًا في «سورة الحديد» لما ذكر تعالى حياة القلوب في قوله: ﴿ ۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 221)، و«تفسير القشيري» (3/ 670)، و«تفسير القرطبي» (19/ 154).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 155)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 374)، و«التحرير والتنوير» (29/ 420).

عقَّب ذلك بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: 17]؛ إشارة إلى أن القلوب الميتة تحيا بالقرآن، كما تحيا الأرض بالمطر.

* ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا﴾:

وهذا قَسم واحد بشيء واحد، هو: الناشرات الفارقات الملقيات، وعطف بعضها على بعض بالفاء، والفاء ليست حرف قسم، كما سبق[1]، فالملائكة تنشر أجنحتها حينما تطير بين السماء والأرض، وتنشر الحق والخير، وتنشر الصحف، سواءً كانت هذه الصحف في السماء أو كانت في الأرض أو كانت يوم القيامة[2]، كما قال الله: ﴿مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾ [التكوير: 10]، وقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾ [الإسراء: 13]؛ فإذا أخذت المصحف وفتحته فهو منشور بين يديك، وعثمان رضي الله عنه قُتل والمصحف منشور بين يديه، وقد جاء في قصة الرجل والمرأة اللَّذَيْن زنيا من اليهود وفيه: «فأتوا بالتوراة فنشروها»[3]. ففتح الكتاب يسمى: نشرًا. والمصدر للتوكيد.

وبعدما نَشَرَت فَرَقَتْ، والفَرْق: التمييز والبيان، فهي تَفرُق فرقًا وفرقانًا بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، والإيمان والكفر، وبين أهل الجنة وأهل السعير[4].

---

(1) تقدم في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 764)، و«فتح القدير» (5/ 430)، و«التحرير والتنوير» (29/ 421).

(3) أخرجه البخاري (3635)، ومسلم (1699) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(4) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 421- 422).

وقد ذكر الله الفرقان في مواضع كثيرة في كتابه العزيز، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: 29]، وقال: ﴿﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴾ [الأنفال: 41]، والفرقان: التفريق والتمييز بين الحق والباطل، فالملائكة تفرق بما جاءت به من الوحي من السماء بين الحق والباطل، فيكون الفرق أثرًا عن نشرها[1].

وعند نزول الملائكة يبدأ الوضوح ويتمحَّض الحق من الباطل، ولا يحتاج الأمر إلى جهد جَهِيد وعمل كبير، فبعدما نشرت أجنحتها فرقت بين الحق والباطل، حتى قبل أن يتم إلقاء الذِّكر؛ لأن المقصود البداية والإرادة والتوجه لهذا الأمر؛ ولذا عبَّر بحرف الفاء الدال على التعقيب والمباشرة، والذِّكر هو الفرقان، فهي تُلقي الذِّكر على الرُّسل والأنبياء المصطفين عليهم السلام، ومنه القرآن، كما قال: ﴿﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴾ [الحجر: 6].

* ﴿فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴾:

أي: هذا **الذِّكر** المنزَّل يكون إعذارًا أو إنذارًا، وفي القرآن معنى ثالث هو التبشير، كما في قوله سبحانه: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الكهف: 2]، وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الإسراء: 9]، ولم يذكر البشارة هنا؛ لأن سياق الآيات سياق وعيد وتهديد وتخويف للكافرين المصرِّين الذين تعاظمت عليهم الحجج، ومع ذلك يصرفون وجوههم عنها، ويصدُّون عنها صدودًا.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 422).

والذِّكر عذر للمؤمنين الذين إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فاضت أعينهم من الدمع وأقبلوا وآمنوا بالله ورسوله، فكان ذلك إعذارًا لهم، وبيانًا للحجة، وغفرانًا لما سلف؛ لأن الله لا يؤاخذهم على ما كان منهم في زمن الجاهلية قبل أن تقوم عليهم الحجة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: 15]، وقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19]، وقال عن الكافرين: ﴿ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الأعراف: 172]، أي: حتى لا تقولوا ذلك.

والنُّذْر يكون للكافرين؛ لئلا يكون لهم حجة؛ لأنهم لم ينتفعوا بالوحي، ولكن الحجة قامت عليهم؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، فليس لهم حجة؛ لأن الإنذار بلغهم.

وعلى هذا المعنى يكون العذر في حق المؤمنين؛ لأنهم آمنوا ولأنهم بإيمانهم انتهوا، فغُفر لهم ما قد سلف، فلا يُؤاخذهم الله على ما كان منهم في زمن الجهل والشرك؛ لعدم العلم وقيام الحجة.

ولا بأس أن يكون المعنى عكس ذلك؛ فيكون إعذارًا للكافرين؛ لأنهم لن ينتفعوا من الوحي، ولكن معذرة إليهم لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وهو إنذار للمؤمنين الذين كانوا في عماية وجهالة قبل الوحي، فأنذرهم وصدَّقوا النذير وآمنوا[1].

❊ ﴿۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 590)، و«تفسير القرطبي» (19/ 156)، و«التفسير القرآني للقرآن» (15/ 1392)، والمصادر الآتية.

هذا جواب القَسَم، قَسم على أن الوعد واقع، **والمقصود به:** وعد الآخرة؛ القيامة والجزاء والحساب[1]، وسياق السورة كلها جاء بالوعد والوعيد ووصف القيامة وأحوالها وما يكون فيها.

ويحتمل أن يكون ما يُوعدون أشمل من ذلك، فكل ما تُوعدون على الإجمال وعلى التفصيل سيقع، فيدخل في ذلك الوعد بالخير أو بالشر، كقوله جل وعلا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: 55]، ويدخل فيه تفاصيل الوعد الذي أخبر الله تعالى أنه سيقع من الكوارث والمصائب وأمور الخير والشر المذكورة في القرآن، أو فيما ثبت في صحيح السنة[2].

وفيه إشارة إلى الفرق بين الوعد الحق والوعد الكاذب أو الوعد المفترى، والفرق بين وعد الرحمن ووعد الشيطان، قال تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟﴾ [إبراهيم: 22]، فوعد الشيطان وعد كاذب، قال الله تعالى: ﴿كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾ [البقرة: 268]، وأما وعد الله تعالى فهو حق: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس:55].

وثمة أمر ثالث بينهما، وهو وعد الإنسان، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في وعد الإنسان لأخيه: «**آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وعَدَ أخلفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ**»[3]. وهذا دليل على أن المسلم إذا كان من عادته إخلاف الوعد، ففيه

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 383)، و«تفسير الرازي» (30/ 768)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 297)، و«روح المعاني» (15/ 191)، و«التحرير والتنوير» (29/ 423)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 81)، و«تفسير الرازي» (30/ 768)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 67).

(3) أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

علامة من علامات النفاق، ولكنه لو وعد وفي نيته أن يفي، ثم لم يف لعارض فليس عليه شيء، وإذا ترتب على الوعد إقدام الآخر على فعل يكلِّفه ويحمله ما لم يكن يحتمل، **فالأقرب** أنه يجب الوفاء بالوعد ما لم يكن إثمًا.

❋ انتهى المشهد الأول، وانتقل السياق في السورة إلى مشهد آخر: ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ □□□□ □□□□﴾:

❋ ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾:

ذكر تعالى طمس النجوم، ولم يذكر مَن الذي طمسها؛ لأنه معلوم، فالأمر بيد الله سبحانه، والأمر أصبح عيانًا لا شك فيه؛ ولهذا لم يكن ثمة حاجة إلى أن يُبيِّن مَن هو الفاعل، وإنما أجمله بنوع من الاختصار.

والطَّمْس يحتمل أمرين:

1- ذُهب بنورها فأظلمت، وعلى هذا فتكون ﴿١٢﴾ أجرامًا لا ضوء لها[1].

2- ذُهب بها وبنورها، فأُزيلت ومُحيت[2].

تقول: طُمس الكتاب إذا كان عليه كتابة فمُحيت، وكذلك الطمس على الأعين، قال تعالى: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [يس: 66]، أي: بالعمى أو بإزالة العين بالكلية، وكذلك قوله سبحانه: ﴿□□□□﴾ [يونس: 88]، أي: نسألك أن تأخذ منهم أموالهم أو تُحيلها شيئًا آخر لا ينتفعون به.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 222)، و«زاد المسير» (4/ 383)، و«تفسير القرطبي» (19/ 157)، و«روح المعاني» (15/ 191)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 127)، و«الكشاف» (4/ 678)، و«تفسير الرازي» (30/ 768)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 375)، والمصادر السابقة.

من علامات الساعة والقيامة: أن تُطمس النجوم، وقد يكون في ذلك إشارة إلى زوال الشمس؛ لأن الشمس هي أكبر الأجرام الفلكية المضيئة القريبة من الناس، وكثير من النجوم التي يراها الناس نورها من نور الشمس، فذهاب نورها إشارة إلى ذهاب نور الشمس[1]، كما جاء النص عليه في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [التكوير: 1].

* ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ﴾:

﴿تُكَذِّبَانِ﴾ هي هذه القبة الزرقاء التي نراها فوقنا، وقوله: ﴿﴿١٣﴾﴾ معناها: تشقَّقت وصارت أبوابًا[2]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ [النبأ: 19]، أي: صار فيها شقوق وصدوع.

وأنت اليوم تنظر إليها فتجدها في غاية الإحكام والإتقان والجمال، كما قال تعالى: ﴿﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ﴾ [الملك: 3- 4]، أما في ذلك الموقف فالسماء تتصدَّع وتضعف فهي واهية مشقوقة.

* ﴿ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾:

النَّسْف قد يكون: التفجير، وقد يكون معناه: أن تتحول إلى شيء خفيف كالهباء[3].

* ﴿﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن﴾:

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 424).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 157)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 297)، و«فتح القدير» (5/ 431).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 590)، و«تفسير القرطبي» (19/ 157)، و«التحرير والتنوير» (29/ 424)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (3/ 2203).

وهذه هي القراءة المشهورة، وثمة قراءة أخرى متواترة بالواو: ﴿وُقِّتَتۡ﴾[1]، والمعنى واحد، أي: حُدِّد لها وقت[2]، فالرسل حُدِّد لهم وقت منذ أن بُعثوا، كما قال: ﴿۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ [المائدة: 109].

فتوقيت الرسل: تحديد وقت لهم يُجمعون فيه[3]، **والمقصود**: أنه حان وقت تنفيذ ما أُقِّتت له.

* ﴿مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾:

لقد بُعث نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من النبيين عليهم السلام، وكانت الرسالة تأتيهم والأجل يُضرب لهم، فأجّل الحساب للرسل ولأممهم، وربما استعجلت بعض الأمم، لكن الله تعالى يصبر على عباده، فيقول: ﴿٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾ [الإسراء: 99]، وهو يوم الحساب.

فهذا المشهد يصوِّر لنا الدنيا وقد زالت، والنجوم وقد طُمست، والسماء وقد فُرجت، والجبال وقد نُسفت، والرُّسل وقد أُقِّتَت وجُمعت، وانتهت الدنيا، وجاء موقف يوم القيامة.

و﴿ءَالَآءِ﴾ يكون بين الخلق بعضهم مع بعض، فيُقتص لبعضهم من بعض، حتى يُقتص للشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء[4]، قال الله: ﴿ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 592)، و«السبعة في القراءات» (ص666)، و«معجم القراءات» (10/ 238- 240).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 222)، و«معاني القراءات» للأزهري (3/ 112)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 364)، و«حجة القراءات» (ص742).

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7956)، و«تفسير القرطبي» (19/ 157)، و«تفسير القاسمي» (9/ 382).

(4) كما في «صحيح مسلم» (2582) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الكهف: 49].

ويكون بين الرسل والمكذِّبين، ويكون بين المؤمنين والكافرين، ويكون بين المظلومين والظالمين، فيقتص للناس بعضهم من بعض، وترفع المظالم وينصف المظلوم من الظالم حتى لو كان المظلوم كافرًا أو فاجرًا، ففجوره على نفسه.

* ﴿تُكَذِّبَانِ ١٦ □□□□﴾:

هذا تأكيد وتعظيم لماهيته ومعناه، وأن المسؤول عنه أمر عظيم فوق الإدراك والاستيعاب والقدرة، **والمقصود**: التعظيم والتهويل من شأنه[1].

وقال سُفيان بن عُيينة رحمه الله: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[2].

* ﴿□□□□﴾:

الويل: العذاب[3]، **والمعنى**: العذاب للمكذِّبين بالرسل يوم القيامة.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 593)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 85)، و«تفسير القرطبي» (19/ 158)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 70)، و«روح المعاني» (10/ 283).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ﴾.

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 226)، و«تفسير البغوي» (1/ 115)، و«تفسير الرازي» (3/ 565)، و«روح المعاني» (15/ 274).

وهذا الوعيد متصل بميقات يوم القيامة، فهو يقول: الويل الشديد والعذاب الأكيد في موقِف الفصل والقيامة للمكذِّبين بهذا الموقِف الجاحدين للبعث الظالمين المعتدين.

* ﴿□□□□ □□□□﴾:

وهذا استفهام، **والتقدير**: أهلكناهم[1].

والمقصود: الأمم القديمة، مثل: أمة نوح، قال: ﴿□□□﴾ أي: الأمم المتأخرة، كقوم هود وشعيب وصالح وموسى.

وقد يكون المقصود بـ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: كل الأمم الذين كانوا قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا أحسن، فيكون المقصود بـ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هنا: كل السابقين الذين أهلكهم[2].

وهل المقصود هنا: الإهلاك بالموت، أو الإهلاك بعذاب من عند الله سبحانه؟

الأقرب أن المقصود الإهلاك بالعذاب، بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي﴾، فدل على أن المقصود: الإهلاك بعذاب الاستئصال[3]، كأن ينزل الله تعالى عليهم عذابًا من السماء، أو يسقط عليهم كسفًا، أو يزلزل بهم الأرض، أو يُبيدهم سبحانه بآيةٍ من عنده، فهذا موضع العبرة، مع أن في هذا إشارة إلى الاعتبار بالموت والهلاك، وأن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة.

---

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 78)، و«تفسير الجلالين» (ص784)، و«روح البيان» (15/ 192).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 178)، و«المحرر الوجيز» (5/ 418)، و«تفسير الرازي» (30/ 770- 771)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 159)، و«فتح القدير» (5/ 431)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 592).

و﴿□﴾ مجزوم بـ«لم»، في حين أنه قال في الآية التي بعدها: ﴿□□□﴾ بالرفع في الفعل المضارع، فلم يقل: (ثُمَّ نُتْبِعْهُمُ) بالجزم، وإن كانت قراءة لبعضهم[1]؛ إشارة إلى أن المعنى: أننا سوف نتبعهم الآخرين، أو نحن نتبعهم الآخرين[2].

فكما أهلكنا مَن قبلكم نهلككم أنتم إذا فعلتم مثل فعلهم، فيكون المقصود بـ﴿□﴾ هنا: مَن كانوا في عهد الرسالة المحمدية وبلغتهم هذه الآيات، ومَن جاء بعدهم إلى اليوم، وفيه إشارة إلى عظمة القرآن، وأنه حجة على أبي لهب وأبي جهل وعُتْبة وشيبة والنَّضْر بن الحارث بن كَلَدَةَ، كما هو حجة على الذين يسمعون القرآن اليوم، ففيه إشارة إلى أن الذي أهلك ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قادر على أن يهلك ﴿□﴾ إذا عصوا وأصرُّوا.

فهو هنا يدعوهم إلى الاعتبار بحوادث التاريخ وسننه، وأن يستدركوا أنفسهم قبل أن تحق عليهم السنة الربانية.

❋ ﴿□□□□﴾:

أي: كما أهلكنا ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ نهلك ﴿□﴾؛ لأن السُّنَّة واحدة، وليس بين أحد من البشر وبين الله نسبٌ ولا سبب إلا التقوى، فالأرض لا تُقدِّس أحدًا، والقبيلة لا تقدِّس أحدًا، ولو كان من نسل الأنبياء الكرام، ولو كان من عُمَّار المسجد الحرام، ولو كان مَن كان، فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 223)، و«إعراب القرآن» للنحاس (5/ 74)، و«مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص167)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 364)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (2/ 346)، و«معجم القراءات» (10/ 241- 242).

(2) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 78)، و«تفسير السمعاني» (6/ 128)، و«تفسير الرازي» (30/ 771)، والمصادر السابقة.

❁ ﴿□□□□﴾:

وهذا وعيد متصل بالسياق، وعيد لِمَن يسخرون من مصاير الأمم السابقة، ويستخفون بمَن يحذِّرهم الهلاك إن لم يرعووا، فيوم يأذن الله لهلاك الآخرين كما أذن لهلاك الأولين، فالويل ثم الويل لهم.

❁ ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾:

وهذا استئناف لمعنى جديد غير متصل بما قبله، ولم يأت بحرف عطف، بل ابتدأ بسؤال عن أصل الخلق.

فهنا انتقل إلى حجة أخرى، **فالحجة الأولى** كانت حجة كونية: النجوم، السماء، الجبال.

والحجة الثانية كانت حجة تاريخية وهي قصص الأمم الغابرة والحاضرة.

وهنا **حجة ثالثة** في الإنسان، بين جنبيه، في أصل خلقته، تأتي بصيغة سؤال تقرير، والقرآن كثيرًا ما يطرح الأسئلة للفت البصائر والأبصار إلى محل الاعتبار.

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ﴾ ألستم مخلوقين؟

هل من خالق غير الله؟

هل ادَّعى أحدٌ خلق شيء في الكون؟ حتى ذبابة أو بعوضة أو ما دونها؟

أليس خلقكم ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ ضعيف مستقذر؟

سماه: ماءً مهينًا، وسماه: ماء دافقًا[1]، **والمقصود:** ماء الرجل[2]، مع أن الإنسان مخلوق من ماء الرجل ومن بويضة المرأة، كما في الحديث: «**ماءُ الرجل أبيضُ، وماءُ**

---

(1) كما في «سورة الطارق»: ﴿ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (18/ 601)، و«تفسير البغوي» (6/ 301)، و«فتح القدير» (4/ 288)، و«التفسير القرآني للقرآن» (15/ 1398)، و«التحرير والتنوير» (29/ 430).

المرأة أصفرُ، فإذا اجتمعا، فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن الله»[1]. وسماه: أمشاجًا، كما في «سورة الإنسان»[2]؛ لأنه مخلوط من مائهما، وهو في الحالين ﴿مَّهِينٍ﴾.

وفي هذا أعظم العبرة؛ كيف خلق الله تعالى من هذا الماء المهين إنسانًا قويًّا جلدًا يسمع ويرى، ويبصر ويفكِّر، ويعقل ويتحرَّك، ثم يتعالى على ربِّه ويستكبر في نفسه ويعرض عن الإيمان.

* ولأن السؤال عن الخلق ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تقرير وتوكيد كان بمثابة الخبر بأن خلقناكم ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، وفيه مزيد السؤال المستفِز للعقل؛ عطف عليه خبرًا آخر عن هذا الماء المهين: ﴿٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ﴾:

وهو رحم المرأة[3]، يستقر فيه تسعة أشهر غالبًا أو ما دون ذلك، في مكان ثابت محكم متمكن، من الذي يمسكه إلا الله أن يسقط؟ ومَن الذين هيَّأ هذا المكان ووفَّر فيه متطلبات الحياة لهذا الجنين؟

* ﴿مِن مُّدَّكِرٍ ٥١ وَكُلُّ﴾:

القدر المعلوم: قدر نزول الحمل إن كان تامًّا أو ناقصًا[4].

---

(1) أخرجه مسلم (315) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وفي «صحيح البخاري» (3329، 3938، 4480) من حديث أنس رضي الله عنه، و«صحيح مسلم» (211، 314) من حديث أم سُليم وعائشة رضي الله عنهما نحوه. وينظر: التعليق على «مختصر صحيح مسلم للمنذري» للمؤلِّف (1961).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الإنسان»: ﴿□□□□□□...﴾ [الإنسان:2].

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 594)، و«المحرر الوجيز» (5/ 418)، و«تفسير القرطبي» (19/ 160)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 299)، و«التحرير والتنوير» (29/ 431).

(4) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 128)، و«تفسير الرازي» (30/ 772)، و«تفسير القرطبي» (19/ 160)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 299)، و«التحرير والتنوير» (29/ 432).

* ﴿شَىۡءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾:

﴿شَىۡءٍ﴾ من: القدرة، فالله القدير الذي أذن بذلك وأمر فكان[1].

وفي قراءة أخرى سَبْعية: ﴿فَقَدَّرۡنَا﴾[2] من التقدير[3]، وهذا معنى صحيح، كقوله تعالى: ﴿□□□□□□﴾ [الفرقان: 2]، أي: قدَّر أن يكون نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً، إلى أن يصل إلى كماله الإنساني[4].

* ﴿۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾:

أي: ويل للذين تقوم عليهم هذه الحجة في أنفسهم، ويرون خلق الله تعالى، ويتذكرون أصل نشأتهم، ثم يُكَذِّبون ويتنكرون!

* ﴿مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾:

سؤال جديد، وموضوع مختلف، وفي كل مرَّة يحاصر المكذِّب بسؤال محيط به قريب منه لا مخلص له ولا مفرَّ من مواجهته، هذه الأرض التي تحملك مَن أنشأها؟

---

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 79)، و«تفسير البغوي» (8/ 305)، و«المحرر الوجيز» (5/ 418)، و«تفسير الخازن» (4/ 383).

(2) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص666)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص218)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 397)، و«معجم القراءات» (10/ 244- 245).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 595)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص360)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 365)، و«حجة القراءات» (ص743).

(4) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 305)، و«زاد المسير» (4/ 385)، و«تفسير الرازي» (30/ 772)، و«تفسير القرطبي» (19/ 160).

مَن جعلها ﴿ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؟ والكَفْت: الضم والجمع[1]، فمن خصائص الأرض أنها جُعلت كَفْتًا أو ذات كَفْت، تضم وتجمع الأشياء إليها من حيٍّ أو ميت[2].

ومن أقرب ما يفسِّر هذا: الجاذبية الأرضية التي تجعل الأشياء تنجذب إلى الأرض وتستقر عليها، ولولا ذلك ما كانت الأرض صالحة لحياة البشر.

* ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾:

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ ﴾ أي: جبالًا، ترسو بها الأرض وتثبت ولا تضطرب في حركة دورانها، كما قال تعالى: ﴿۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النبأ: 7]، أي: تثبت الأرض، وكذلك هي شامخة رفيعة، وفي اللغة يقال: شمخ فلان بأنفه، إذا ارتفع وتكبَّر، فقوله: ﴿عِندَ﴾ أي: مرتفعة[3].

﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾: **الفرات:** العذب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن ﴾ [فاطر: 12]، ومنه سُمي: نهر الفرات؛ لأنه عذب، والأنهار كلها عذبة[4].

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص506)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 356)، و«الكليات» للكَفَوي (ص773).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 545)، و«تفسير الطبري» (23/ 596)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 267)، و«تفسير القرطبي» (19/ 161).

(3) ينظر: «غريب القرآن» للزجاج (5/ 267)، و«تفسير البغوي» (8/ 306)، و«روح البيان» (10/ 286)، و«التحرير والتنوير» (29/ 434)، وما تقدم في «سورة ﴿ قٓ ﴾»: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾.

وينظر أيضًا: «العين» (4/ 174)، و«تهذيب اللغة» (7/ 47)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص95) «أ ن ف».

(4) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص692)، و«تفسير الطبري» (23/ 599)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 93)، و«تفسير الرازي» (30/ 773)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 299).

والأرض والجبال والماء الفرات هي سرٌّ من أسرار الحياة، فلولا الماء ما عاش الناس، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، وخاصية الكَفْت والجاذبية هي التي استدعت المطر من السماء؛ ليكون فراتًا عذبًا سائغًا للشاربين، والجبال بشموخها سبب في جريان الأنهار والينابيع ووصول الماء إلى مواقع لا يصل إليها إلا حين ينحط من قمم الجبال.

* ﴿ ١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ٢﴾:

أي: ويل يوم القيامة لهؤلاء المكذِّبين، الذين يمشون على الأرض، ويستمتعون بها، ويُسخِّرون الجبال في منافعهم، ويشربون المياه، ثم يكفرون بنعمة الله تبارك وتعالى ولا يؤمنون به.

* ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤ ٱلشَّمْسُ﴾:

الآن طُويت الدنيا، وانتقل المشهد إلى عَرَصات القيامة، والحديث عن الكفار والمجرمين والمكذِّبين؛ ولهذا يأتيهم خطاب الله تعالى آمرًا لهم بالانطلاق.. ولكن إلى أين؟

هم مقيَّدون مكبَّلون خائفون فزعون، فأول ما يسمع الواحد منهم كلمة ﴿خَلَقَ﴾ ربما يُداخله تساؤل عن الانطلاق من الأَسْر ومن القيود، ومن النار التي يسمعون حسيسها، أو يرونها من بعيد، أنه تهكُّم وسخرية.

والأمر بالانطلاق هنا ليس مخرجًا للنجاة، بل انطلاقٌ باتجاه هذا العذاب الذي يهربون منه!

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص314)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص628) «ف ر ت».

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾: انتهى الأمر، وأصبح عيانًا أمامكم، فهذا الذي كنتم به تكذِّبون، والأمر بالانطلاق فيه معنى السخرية[1]، كما في تبشير الكافرين بالعذاب في مواضع أخرى[2].

* ﴿وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾:

﴿وَٱلۡقَمَرُ﴾ مرة أخرى، وهذا قول الله تعالى، ويجوز أن يكون قول الملائكة[3].

والانطلاق لفظ يبعث بعض الأمل أن ينفكُّوا من مضيقهم الذي هم فيه.

﴿بِحُسۡبَانٍ ۝٥﴾: إنهم يبحثون عن الظل؛ لأنهم قد آذاهم حرُّ الشمس، ولفحهم هجيرها، ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾، فهذا الظل الذي ينطلقون إليه ليس كما يتمنون، بل هو ﴿□□□﴾ من دخان النار[4]، ﴿□□□□□﴾ [الواقعة: 43- 44]، بخلاف ظل المؤمنين، فهم في ظلٍ ظليل: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النساء: 57]، أما هؤلاء فظلهم هو النار نفسها أو ظل الدخان قبل أن يدخلوا النار.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 435).

(2) كما في قوله تعالى: ﴿□□□﴾ [آل عمران: 21، التوبة: 34، الانشقاق: 24].

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 545)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 409)، و«تفسير الرازي» (30/ 773)، و«تفسير القرطبي» (19/ 166)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 299).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 334)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 113)، و«تفسير السمعاني» (5/ 352)، و«تفسير القرطبي» (17/ 213).

فإذا بحثوا عن الظل قيل لهم: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾، ولكنه ليس كظل المؤمنين، بل هو ظلٌّ خاصٌّ، إنه ظل دخان جهنم، ﴿۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، قال كثير من السلف: إن هذا الظل من سرادق النار[1]، كما في قوله تعالى: ﴿۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الكهف: 29].

وقال بعضهم: إن هذا الظل هو النار ذاتها[2]، فالنار قد تسمى: ظلًّا أو ظُلَّة، كما في قوله سبحانه: ﴿يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الزمر: 16].

لكن **الأقرب** أن هذا الظل شيء يسبق النار، فهو كالتمهيد أو المقدِّمة لها؛ ولهذا قال تعالى في «سورة الواقعة»: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ فقال: «نُزُل»، والعرب تسمِّي ما يُقدَّم للضيف في بداية دخوله: نُزُلًا، وهي مقدِّمة الضيافة[3]، وليس هذا كل ما هنالك، فهناك ما هو أشدُّ وأنكى.

وفي قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ﴾ كأنما طوى الله تعالى الدنيا كلها، وأصبحنا في موقِف الآخرة، فالأمر يُشاهَد بالعيان، **وطريقة القرآن في تقرير معاني العقيدة وحوادث الآخرة تنقسم إلى قسمين:**

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 600)، و«تفسير الماوردي» (3/ 303)، و«الكشاف» (4/ 680)، و«تفسير الرازي» (30/ 774)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 299)، و«روح المعاني» (15/ 194)، و«التحرير والتنوير» (29/ 435).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 774)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تهذيب اللغة» (13/ 145)، و«المصباح المنير» (2/ 600) «ن ز ل».

الأول: مخاطبة العقل بإقامة الحجج، والله تعالى حينما خلق العقل خلقه ليكون شاهدًا للإنسان ومرشدًا، فالنظر في ملكوت السماوات والأرض وخلق الإنسان والأحوال هذا كله خطابٌ للعقل ليؤمن ويعتبر.

الثاني: مخاطبة الروح، وهو خطابٌ للقلب والعاطفة؛ لأنه ليس كل كفر سببه وجود الشبهات، بل قد يكون سببه الغفلة، وهذه يمكن رفعها بالمواعظ التي توقظ القلوب وتهزها هزًّا، فالله سبحانه وتعالى عند ما يقول: ﴿ خَلَقَ ﴾ يشعر القارئ أنه انطلق من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومن عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، وكأنه يشاهد الأمر بعينيه، وكأنه معنيٌّ بهذا الخطاب.

وهنا ستجد في الآية الكريمة النص على ﴿وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾، فأنت إذًا أمام تفصيل واضح محدَّد، لم يرد له ذكر في غير هذا الموضع من الكتاب الكريم، فلماذا هذه الشُّعب؟

الظن- والله أعلم- أنها درجات ومنازل ورُتب بحسب كفر الكافرين، فكما أن الله تعالى جعل للمؤمنين درجات بعضها فوق بعض في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ [فاطر: 32]؛ فكذلك الأمر بالنسبة للكافرين، فهم دركات وهلكات بحسب كفرهم.

ومن جميل ما يمكن فهمه هاهنا: أن قوله تعالى: ﴿﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ يفسِّره ما بعده، فيكون الظل غير ظليل.

وعادة العرب أن الظل إذا كان معتدلًا لا حارًّا ولا باردًا قالوا: هذا ظل ظليل، أي: جميل ومناسب، بخلاف ما إذا كان مكدَّرًا بهواء السَّموم، فهو لا ينفع ولا يقي حرَّ الظَّهيرة، فيتركون الظل؛ لأنه لا ينفع مع حرِّ الشمس، فهذا ليس ظلًّا ظليلًا،

وإنما الظل الظليل هو الظل الوارف الجميل الذي فيه هواء عليل، وهو ظل أهل الجنة المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: 57].

أما ظل الكافرين: فمنه **هذا القسم الأول** الذي هو غير ظليل، لا ينفع ولا يدفع.

ومنه القسم الثاني، وهو: ظل أشد من سابقه درجة، ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا﴾، فهذا الظل فيه لهب النار، فلا يقيهم من اللَّهب، فهم قريبون من النار بحيث تلفحهم أو يصيبهم حرها.

والقسم الثالث: الظل الذي هو أقرب إلى النار، حتى إن شَرَر النار يغشاهم ويصل إليهم وهم في الظل، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟﴾.

والمقصود بقوله: ﴿□﴾ أي: النار[1]، وليست مذكورة في السياق، وإنما أعاد الضمير إليها في قوله: ﴿□﴾؛ لأنها حاضرة في الأذهان، والقارئ أو السامع مأسور بالمشهد، وكأنه يرى النار ويسمع زفيرها ويجد لهيبها؛ فلا حاجة إلى ذكرها، بل تكفي الإشارة إليها بالضمير.

والشَّرر جمع: شررة، **والشَّرار** جمع: شرارة، والشَّرارة قطعة صغيرة من النار تنطلق منها[2]، وسرعان ما تنطفئ؛ لأنها انفصلت عن الأم، أما في هذه النار فالأمر مختلف، ﴿فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أي: كأنها قصدًا تدفع إليهم بشواظ من لهب وشَرَر ضخم ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 306)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 377)، و«التحرير والتنوير» (29/ 437).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 774)، و«تفسير القرطبي» (19/ 163)، و«لسان العرب» (4/ 401) «ش ر ر».

والأقرب من أقوال المفسرين- وهو قول الجمهور- أن المقصود: القصور والحصون والمباني المعروفة[1]؛ فتكون الشَّرارة حينما تنطلق كأنها القصر العظيم من ضخامتها وهولها، ثم تتفرق هذه الشَّرارة أيضًا؛ لأنه إذا كان الظل ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ فلا غرو أن الشَّرارة أيضًا تتفتت وتتقسم بعدما تنطلق، فبدايتها تكون كالقصر، ثم تتوزع فيكون القسم منها ﴿بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ﴾، وهي: الإبل أو النُّوق، ذات اللون الأصفر، وهو معروف؛ وذلك لأن الشَّرر في الغالب يكون أصفر؛ لما فيه من اللَّهب[2].

وذهب بعض المفسرين إلى إن الأصفر هنا هو المائل إلى السواد؛ وذلك لما فيه من النار[3]، وليس ثمة ما يمنع أن يكون الشَّرر أصفر، ويكون فيه سَفْعة من السواد؛ لقرينة خروجه من النار.

وهذا الشَّرر يأتيهم وهم في الظِّل الذي هو ذو ثلاث شُعب، ولو كانوا داخل النار لم يكن لوعيدهم بالشَّرر معنى؛ لأن الشَّرر يخرج من النار، فهذا يُرجِّح- والله أعلم- أن هذا الشَّرر يصلهم وهم في الظل الذي أُمروا أن ينطلقوا إليه.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾: ذكر الجمهور أن القَصْر هو البناء[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 110)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 97)، و«تفسير القرطبي» (19/ 163)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 299)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 307)، و«تفسير الرازي» (30/ 775)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 443)، و«فتح القدير» (5/ 434)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 605)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 409)، و«تفسير القرطبي» (19/ 164)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 299).

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 180)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 96)، و«تفسير البغوي» (5/ 197)، و«تفسير الرازي» (30/ 775)، و«تفسير القرطبي» (19/ 163)، و«فتح القدير» (5/ 434)، و«التحرير والتنوير» (29/ 437).

لكن ابن عباس رضي الله عنهما فسَّرها بأنها أطراف الخشب التي تُقطع على قدر الذراع والذراعين، وتُتخذ في الصيف؛ من أجل أن يوقد بها في الشتاء، فهذه تسمى: قَصْرًا[1].

وقيل: إنها أطراف النَّخيل[2].

ولكن المعنى الأول هو الأرجح، وهو المتبادر للذهن، وهو واحد القصور.

وقد شبَّه الله تعالى الشَّرر بالقَصْر؛ لأن هؤلاء الكفار كانوا في الدنيا منعَّمين، يسكنون القصور المشيدة الفخمة، ويأكلون الطيبات من الأطعمة، ويستمتعون بالحياة الدنيا، فكان ذلك تشبيهًا وإمعانًا في التهكُّم بهم فيما يُعذَّبون به في الدار الآخرة.

وكذلك قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟﴾؛ لأنهم كانوا يستمتعون بألوان المراكب في الدنيا، فالتشبيه له علاقة بما كانوا يتمتَّعون به في الدنيا، وكأن المعنى: ماذا أغنت عنهم دنياهم؟!

أو أن القَصْر إذا أوقدت مصابيحه ليلًا غدا أصفر يتلألأ، فكذلك الشَّرارة من النار تخرج صفراء تتلألأ مضيئة كأنها قصر في عظمها.

وذهب مجاهد إلى أن قوله: ﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾: أن تكون واحدة من الشُّعب فوق رأسه، وأخرى عن يمينه، وثالثة عن شماله[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 604)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 385)، و«تفسير الخازن» (4/ 384)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 131)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير ابن فورك» (3/ 120)، و«تفسير الماوردي» (6/ 179)، و«زاد المسير» (4/ 385)، و«تفسير الرازي» (30/ 774).

فعلى هذا التفسير لا يكون المقصود بالشُّعب شُعبًا لعامة المعذَّبين، وإنما كل واحدٍ منهم، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة: 34- 35]، فالله تعالى توعَّدهم بهذا الظِّل الذي هو مقدِّمة لما بعده من العذاب.

* ﴿ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾:

فهذا الموقِف الذي تشاهدونه الآن هو الوَيْل، وهو العذاب للمكذِّبين، قد أصبح عيانًا لا مجال للجدل ولا للتكذيب.

* ﴿ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ﴾:

﴿ ١٠﴾ اسم إشارة، والإشارة عادة تكون لأمر مشاهَد يُرى بالعيان، واليوم قد حلَّ ووقع، وقُرئ بالضم: ﴿فِيهَا﴾، وبالفتح: (يَوْمَ)[1]، فعلى الفتح هو ظرف؛ فهذا هو الوقت الذي لا ينطقون فيه، وعلى الضم خبر للمبتدأ، وهو اسم الإشارة.

وكيف يُجمع بين هذه الآية وبين آيات أخرى تدل على أنهم ينطقون ويحاجُّون، كقوله: ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23]، ويعتذرون إلى ربهم ويقولون: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [فاطر: 37]... إلى غير ذلك مما يقولونه في الآخرة؟

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 420)، و«زاد المسير» (4/ 386)، و«تفسير القرطبي» (19/ 166)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 378)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 643)، و«معجم القراءات» (10/ 251- 252).

والجواب: أن المقصود بالآية هنا: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: لا يقولون كلامًا له قيمة، فكلامهم هذر لا ينفع، ولا يدفع عنهم عذابًا؛ لأنه كلام باطل ولغو زائف، وهذا قول الحسن البصري(1).

أو يكون المقصود: حالًا دون حال، وهذا جواب ابن عباس رضي الله عنهما لنافع بن الأَزْرق عند ما سأله عن هذا(2)، فيوم القيامة- وإن كان الله تعالى سماه: يومًا- مقداره خمسون ألف سنة من سنوات الدنيا، فما بالك بما بعده من الجنة أو النار؟!

فإذا كان يوم القيامة ﴿□□□□□﴾ [المعارج: 4]، فليست كلها على حال واحد، وإنما فيها أحوال تختلف وتتغير، فأحيانًا يتجادلون، وأحيانًا ﴿□□□□□□□□□□□□ □□□﴾ [سبأ: 31]، وأحيانًا يسكتون، وأحيانًا يُبلَسون، وأحيانًا يتكلمون.. إلى غير ذلك(3).

وثَمَّ جواب ثالث متفرِّع عن الثاني؛ وهو أن يكون المقصود بقوله: ﴿(١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ﴾ في وقت خاص، وذلك حينما يُقال لهم: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤) ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [المرسلات: 29- 30]، فلا ينطقون ولا يستطيعون جوابًا، ولا يمتنعون من شيء، فينطلقون بالقدر والأمر الإلهي الرباني من غير إرادتهم، ولا يتكلمون، بل يختم الله تعالى على أفواههم وعلى ألسنتهم(4).

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 777)، و«تفسير القرطبي» (19/ 166)، و«فتح القدير» (5/ 434).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص692)، و«المستدرك» (4/ 573).

(3) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (4/ 409)، و«الدر المنثور» (15/ 185).

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 778).

وهذا غاية في الذِّلة والإهانة، أن يكونوا معذَّبين ينطلقون إلى ما يعلمون به عذابهم دون أن يتكلموا أو يعتذروا.

* ﴿ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾:

أي: لا يُؤذن لهم في الكلام أصلًا، إشارة إلى أن ذلك الموقِف موقِف رُعب، كما قال الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ [النبأ: 38]، فإذا كان جبريل والملائكة والرسل عليهم السلام لا يتكلمون إلا مَن أذن له الرحمن، فكيف بمثل هؤلاء المجرمين المكذِّبين؟!

فهم لا يتكلمون أصلًا، ولا يُؤذن لهم في الكلام، ولا أحد يتكلم إلا بإذن الله تعالى، ولو تكلَّموا واعتذروا لربما كان أكثر ما يعتذرون به ما كانوا يردِّدونه في الدنيا من الاعتذار بالقضاء والقدر: يا ربِّ، عصينا بعلمك وبإذنك، ولو شئتَ ما أشركنا. وهذا ليس بعذر، بل هذا كلام لا طائل تحته؛ لأنهم كانوا يعلمون ويدركون في الدنيا أن لكل إنسان إرادة خاصة، وهي التي يُحاسَب عليها، فهم الآن ينطلقون إلى الظلِّ اللاهب مقهورين مأمورين غير مخيَّرين، أما حينما كانوا ينطلقون إلى شهواتهم وجرائمهم ومظالمهم ومطامعهم فكانوا ينطلقون بمحض رغبتهم.

وهم في الدنيا يمكن أن يعتذروا كغيرهم عن خطأ أو زلل، ويمكن أن يتوبوا، فباب التوبة مفتوح، وربهم يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويقبل توبة العبد ما لم يغرغر، فلو أن أحدهم قبل أن يموت بلحظة ندم وتاب وأناب واستغفر صادقًا لنفعه ذلك.

وفي مواقف أخرى يمنعهم الله من الكلام، ويسمح لأعضائهم أن تنطق، فتتكلم بما كانوا يعملون في الدنيا من خير أو شر، يقول تعالى: ﴿فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ [يس: 65]، فالأيدي والأرجل حتى الألسن تتكلم، وليس هو

الكلام المعتاد الذي يخرج من الحلق، وإنما يتكلم اللسان كقطعة أو مضغة، فيُعبِّر عما قال من باطل أو لغو أو غير ذلك، فهم في ذلك الموقف لا ينطقون ولا يُؤذن لهم فيعتذرون.

* ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾:

والويل هنا محدَّد، والله تبارك وتعالى أعلم بشدة ما يعانونه من هول الموقِف ومن عجزهم حتى عن النطق وعن الاعتذار.

* ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ﴾:

﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ﴾ أي: الفصل بين الناس في الخصومات، الفصل في بيان الحق من الباطل؛ لأنه في الدنيا يكثر القيل والقال والجدل، فهناك خصام كبير في الدنيا، وجدل بين الناس حتى بين الطائفة الواحدة، وجدل بين المؤمنين، وجدل بين العلماء، وجدل بين الأزواج، وجدل في أمور الدين، وجدل في أمور العلم، وجدل في أمور الدنيا، فالله يقول: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ﴾ أي: يوم إزالة اللبس والوهم عن كل قضية وفي كل أمر.

إنه تحريض للإنسان أن يكون صادقًا في الدنيا؛ لأن ربنا سبحانه وتعالى قال: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ [المائدة: 119]، فالصادقون ينتفعون في يوم الفصل بالصدق، بخلاف الذي يجادل بالباطل، فحجته داحضة عند ربه؛ لأنه طالما جادل بالكلام الفارغ والسفسطة[1].

﴿ٱلۡإِنسَٰنَ مِن﴾: يخاطب الله تعالى كفار قريش، أي: بعثناكم الآن لهذا اليوم، وجمعنا معكم الأولين من الأمم السابقة قبلكم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 611)، و«تفسير القرطبي» (19/ 167)، و«التحرير والتنوير» (29/ 442).

وعند ما تقرأ كلمة: ﴿تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ﴾ تشعر بأن الأمر يتعلق بالديانة والإيمان، فلا يجدر بمن يؤمن بأن ثمة يومًا للفصل أن يقف مع قضية ظالمة أو كاذبة أو خاسرة، بل يجب أن يكون منساقًا للحق، وإن كلَّفه ذلك أعز ما يملك، فالمهم أن يكون ما بينك وبين الله قائم وعامر[1]:

فلَيتَ الَّذي بيني وبَينَكَ عامِرٌ *** وبيني وبَينَ العالَمِينَ خَرابُ

إذا صحَّ منك الوُدُّ فالكل هيِّنٌ *** وكلُّ الذي فوقَ التراب ترابُ

وخاطب الأولينَ أيضًا بأنهم جُمعوا وجُمعت معهم أمم الأرض كلها، ولكن في ذلك إشارة إلى أن الحجة على الإنسان تقوم بالأولين أكثر مما تقوم بالآخرين، فالإنسان يعتبر بما سلف وما رأى بعينه أو سمعه بأذنه، وبذلك تقوم عليه الحجة، بخلاف ما لم يقع بعد.

* ﴿كَٱلْفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾:

لقد كان الله يمهل الظالمين والطاغين ويصبر عليهم، ففرعون يقول: ﴿٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [القصص: 38]، والمشركون يقولون: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ٥٥ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الجاثية: 24]، وكفرة أهل الكتاب يقولون: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ٨﴾ [المائدة: 73]، وصبر عليهم وأمهلهم سبحانه، أما الآن فالأمر مختلف، وكلٌّ قد أتى فردًا، فلا يعتزون بالكثرة كما كانوا في الدنيا يقويهم اجتماعهم ويصبرهم، ففي ذلك الموقِف الرَّعيب أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم في صعيد واحد، وليس أحد منهم قادرًا أن ينفع نفسه ولا يساعد غيره، فضلًا عن أن يغيِّروا المعادلة أو يكيدوا له كما كانوا يكيدون له ولعباده المؤمنين في الدنيا:

---

(1) ينظر: «يتيمة الدهر» (1/ 95)، و«علم العروض والقافية» (ص158).

﴿ ﴾ [الطارق: 15- 17]، وأين هم من الكيد، والواحد منهم عاجز، حتى أن يتكلم بكلمة، وإنما الحال على ما وصف الله سبحانه: ﴿ ﴾ [غافر: 18- 19]، فإن كان لديكم قدرة تستطيعون بها أن تتخلَّصوا من العذاب أو تحتالوا كما كنتم تفعلون في الدنيا فافعلوا، وهذا تعجيز لهم؛ لأنهم لا يستطيعون.

والأقرب أن هذا كلام الله تعالى لهم، وهذا أوقع وأشد[1].

ويجوز- كما قال بعض المفسرين- أن يكون هذا من كلام الرسل أو الرسول صلى الله عليه وسلم[2]، كما قال هود عليه السلام: ﴿ ﴾ [هود: 55]، وكما قال نوح عليه السلام: ﴿ ﴾ [يونس: 71].

* ﴿ ﴾:

وهذا تكريرٌ للوعيد والتهديد، وهو متصلٌ بما قبله كاتصال نظيره المذكور آنفًا[3].

* ﴿ ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 167)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 300)، و«التحرير والتنوير» (29/ 442).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 167)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 85)، و«فتح القدير» (5/ 435)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 442).

طوى صفحة المكذِّبين وحالهم وظلالهم وما قال الله لهم ليذكر ما يقابلها، وهي عادة القرآن أَلَّا يذكر أهل النار إلا ذكر أهل الجنة، والمقصود بالتقوى أنهم اتقوا الكفر بالإيمان؛ كما كان يقول ابن المعتز[1]:

خَلِّ الذُّنوبَ صَغيرَها *** وكَبيرَها ذاكَ التُّقَى

واصنع كماشٍ فَوقَ أَر *** ضِ الشَّوكِ يَحذرُ ما يَرَى

لا تَحقِرَنَّ صَغيرَةً *** إِنَّ الجِبالَ مِنَ الحَصَى

وقد سُئل أحد السلف عن التقوى، فقال: «هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟». قال: نعم. قال: «فكيف صنعتَ؟». قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قصُرتُ عنه. قال: «ذاك التقوى»[2].

وفي يوم القيامة وما بعده ظِلال المتقين ليست كظلال أولئك القوم المكذِّبين، بل ظلال حقيقة قبل الجنة، يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة، وقد جاء في الحديث المتفق عليه: «**سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأَ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه معلَّقٌ في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقَا عليه، ورجلٌ طلبته امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال فقال: إني أخافُ اللهَ. ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالُهُ ما تُنْفقُ يمينُهُ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناه**»[3].

فهذا نموذج ممن وعدهم الله تعالى بالظل الظليل، وهم خلقٌ كثير.

---

(1) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (1/ 142)، و«أدب الدنيا والدين» (ص98)، و«الزهد الكبير» للبيهقي (963)، و«تفسير البغوي» (1/ 82)، و«تفسير القرطبي» (1/ 161)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 164)، و«الدر المنثور» (1/ 131).

(3) أخرجه البخاري (660)، ومسلم (1031) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمتقون، وإن تفاوتت ظلالهم، إلا أنهم جميعًا في ظلال طيبة؛ ولهذا جاء التعبير بالجمع: ﴿(١٦)﴾ اعتبارًا لكثرته وسعته، وأما في حق المجرمين فقد جاء مفردًا: ﴿(٥) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [المرسلات: 30].

ولهم كذلك عيون يشربون منها، والماء البارد قريب من الظل، وهذا قد يكون قبل دخول الجنة، كما يكون في الجنة أيضًا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿□□□﴾ **والفواكه**: كل ما يُتفكَّه به[1].

وربما يبدو في نظر السامع والقارئ أن المقصود بالفواكه ألوان الفاكهة التي في الدنيا، فالناس يعرفون البرتقال والرمان والتفاح وما أشبهه مما يسمى: فواكه، وهي من المقصود في الآخرة، لكن شتَّان ما بين فواكه الجنة وفواكه الدنيا، فليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]، وإلا فالطعم مختلف، والحجم مختلف، فيفكهون بها وبالأصوات والمناظر الجميلة، وأعظم ذلك التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم في جنة عدن؛ لأن النظر إلى جمال الدنيا من الخضرة أو المياه يبهج النفوس، فكيف بالنظر إلى وجه الله الكريم؟!

وهم مع هذه المتع كلها يستمتعون برضوان ربهم عليهم، كما جاء في الحديث: «**أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أَسخطُ عليكم بعده أبدًا**»[3].

---

(1) ينظر: «المغرب في ترتيب المعرب» (ص365)، و«المصباح المنير» (2/ 479) «ف ك هـ».

(2) تقدم في «سورة الملك»: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾.

(3) أخرجه البخاري (6549)، ومسلم (2829) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

وهذا من أطيب النعيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، فهو سبحانه لم يقل لهم هذا إلا لرضاه عنهم، وما أعطاهم الذي أعطاهم إلا برضاه عنهم سبحانه.

وفي ذلك إشارة إلى أن أكلهم وشربهم هنيء لا تخالطه تخمة ولا مرض ولا ضعف ولا فتور، ولا عيب من العيوب التي تلحق متع الدنيا، وليس هذا عوضًا عن عملهم، بل هو فضل الله تعالى عليهم، ولكن بسبب أعمالهم تأهلوا لرحمة الله، فالباء هنا ليست باء المعاوضة المحضة، وإنما هي باء السببية.

❋ ثم قال تعالى: ﴿□□□□□﴾:

أي: مثل هذا الجزاء نجزيه المحسنين.

❋ وفي المقابل قال: ﴿□□□□﴾:

أي: الذين يكذِّبون بهذا النعيم لهم الويل بالعذاب المقيم في النار.

❋ ﴿□□□□□□﴾:

أَرْجَعَ الخطاب الآن للمكذِّبين أن يأكلوا ويتمتعوا بما عندهم من النِّعم العاجلة، التي هي قليل بالنظر إلى نعيم الجنة، والدنيا قليل بالنظر إلى الآخرة.

وهذا فيه إشارة إلى أن من أسباب تكذِيبهم وإيثارهم الدنيا على الآخرة استغراقهم في المتاع العاجل وركضهم وراءه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ﴾ [الأعلى: 16- 17]، وقال: ﴿بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾ [إبراهيم: 3]، فهذا الأكل والشرب والتمتع كان من أسباب تكذيبهم وكفرهم، وهم ربما وجدوا في الدنيا بعض المتعة والراحة، وهذا ليس مستغربًا، فالتمتع بملذات الدنيا مشاع بين الخلق، يناله المسلم والكافر، فالله يعطي الدنيا مَن يحب ومن لا يحب، ولكن لا يعطي الآخرة إلا مَن يحب.

ومما يدل على أنه يتمتع في الدنيا قوله سبحانه: ﴿تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [الانشقاق: 13]، أي: كان في الدنيا في سرور وفرح[1].

والدنيا جنَّة الكافر بالقياس إلى ما ينتظره عند الله تعالى من النَّكال والعذاب، والدنيا كلها متاع قليل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾ [آل عمران: 196- 197]، وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ [النساء: 77].

فهم يخاطَبون بأن يأكلوا ويتمتعوا وهم في الدنيا، ويوصفون بأنهم مجرمون، وهم الذين كتب الله عليهم أن يموتوا كافرين.

وفي السياق لم يخصِّص الله منهم أحدًا، وترك لهم باب التوبة مفتوحًا، كما قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38].

❋ ﴿□□□□﴾:

وهو مثل نظيره المذكور ثانيًا في هذه السورة، وله ارتباط خاصٌّ بقوله: ﴿□□ □﴾؛ لما في «تمتَّعوا قليلًا» من الكناية عن ترقُّب سوء عاقبة لهم، فيقع قوله: ﴿□□□﴾ موقعَ البيان لتلك الكناية، أي: كلوا وتمتَّعوا قليلًا الآن، وويلٌ لكم يوم القيامة[2].

❋ ﴿□□□□□□□﴾:

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الانشقاق».

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 446).

الراجح في الآية- والذي عليه جمهور المفسرين- أن المقصود بها: الكفار في الدنيا، الذين يأبون الركوع[1]، والمقصود بالركوع عند الجمهور: الصلاة كلها، فقد يُعبَّر عن الصلاة ببعض أجزائها، كما هو معروف[2].

والركوع يُعبَّر به عن السجود أيضًا، فقد يقول الله في القرآن: ﴿□﴾، ويقصد به: اركعوا واسجدوا، فإذا لم يذكر السجود فهو يدخل في الركوع، فهنا قال: ﴿□□□□﴾ أي: اركعوا واسجدوا، وكان بعض قبائل العرب يستنكفون عن الركوع، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: نؤمن لك، لكن لا نركع ولا نسجد[3]. يقولونها أنفة عن تمريغ الجِباه والأنوف بالأرض، فهم لم يتذوقوا لذة المناجاة في السجود؛ لكِبْر في قلوبهم، ولجهالتهم، وإلا فلو أدرك الإنسان ما في الركوع والسجود من لذة التذلل لله ما أنف عنهما[4].

❊ ﴿□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 613)، و«تفسير القرطبي» (19/ 168)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 301).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 421)، و«تفسير الرازي» (30/ 781)، و«تفسير القرطبي» (19/ 168)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 88)، و«فتح القدير» (5/ 435).

(3) كما عند الطيالسي (981)، وأحمد (17913)، وأبي داود (3026)، وابن الجارود (373) من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه، أن وفد ثَقِيف لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترطوا أن لا يُجَبُّوا، فقال لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**لا خيرَ في دين ليس فيه ركوعٌ**». وينظر: «نصب الراية» (4/ 270)، و«السلسلة الضعيفة» (4319)، و«ضعيف أبي داود» (529).

والمراد بقولهم: «أن لا يُجَبُّوا» أي: لا يصلون، وأصل التجبية: أن يقوم الإنسان قيام الراكع، وقيل: أن ينكبَّ على وجهه باركًا، وهو السجود. ينظر: «النهاية» (1/ 238)، و«جامع الأصول» (8/ 413).

(4) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 168)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 87)، و«فتح القدير» (5/ 436).

هذه الجملة مثل نظيرها الموالية هي له، إذ يجوز أن تكون متصلةً بقوله: ﴿

 ﴾، ويكون التعبير بـ﴿ذَاتُ﴾ إظهارًا في مقام الإضمار لقصد وصفهم بالتكذيب.

والتقدير: ويل يوْمئذ لهم أو لكم، فهي تهديد ناشىء عن جملة: ﴿ ﴾، ويكون اليوم المشار إليه بـ﴿ ﴾: الزمان الذي يفيده «إذا» من قوله: ﴿ ﴾ الذي يُجازَى فيه بـ«الويل» للمجرمين الذين إذا ﴿ ﴾ أي: لا يؤمنون، وتفيد مع ذلك تقريرًا وتأكيدًا لنظيرها المذكور ثانيًا في هذه السورة[1].

❊ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾:

ختام حاسم قاطع أن الله تعالى صرف لهم الآيات من الكون والنفس والدنيا والآخرة وأخبار السابقين، وصوَّر لهم مشاهد الحساب والقيامة كأنها رأي عين، فخاطب أرواحهم وعقولهم وأمهلهم وأنظرهم ثم أصرُّوا وعاندوا وكذَّبوا، فمَن سوف يهديهم من بعد الله؟!

❍ ❍ ❍

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (29/ 447).

سورة النبأ

*** تسمية السورة:**

التسمية الأشهر لهذه السورة: «**سورة النبأ**»[1]؛ لقوله تعالى: ﴿وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

وسُمِّيت في بعض المصاحف، وكتب التفاسير، وهي كذلك في «صحيح البخاري»: «**سورة ﴿وَمَا أَمْرُنَا﴾**»[2].

وتختصر في بعض المصاحف والكتب إلى: «**سورة ﴿وَمَا﴾**»[3].

وسمَّاها بعض العلماء: «**سورة التساؤل**»[4]؛ أخذًا للمصدر من الفعل في قوله تعالى: ﴿أَمْرُنَا﴾.

وتُسمَّى: «**سورة المُعْصِرات**»[5]؛ لقوله تعالى: ﴿بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص694)، و«تفسير الطبري» (24/ 5)، و«تفسير الرازي» (31/ 5)، و«تفسير القرطبي» (19/ 169)، و«التحرير والتنوير» (30/ 5).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 382)، و«صحيح البخاري» (6/ 165)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 82)، و«زاد المسير» (4/ 387)، و«التحرير والتنوير» (30/ 5).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 169)، و«روح المعاني» (15/ 201)، و«التحرير والتنوير» (30/ 5).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص262)، و«جامع البيان في القراءات السبع» (4/ 1684)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 201)، و«التحرير والتنوير» (30/ 5).

(5) ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص295، 458)، و«التحرير والتنوير» (30/ 5).

وقد كتب الشيخ محمد عبد الله دراز كتابًا سماه: «النبأ العظيم»، ودوَّن فيه من معاني الربانية في القرآن ما يثلج الصدور.

* **عدد آياتها:** أربعون آية، أو إحدى وأربعون، على خلاف بين علماء العَدِّ[1].

* **والسورة مكية** بإجماع أهل التفسير، حكاه ابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والألوسي، وابن عاشور، وغيرهم[2].

* **وقد ورد في فضلها** حديث أبي بكر رضي الله عنه، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ! فقال: «**شَيَّبتني هودٌ، و﴿أَلَّا﴾، والمرسلاتُ، و﴿وَمَآ أَمَرُنَآ﴾، و﴿وَمَآ أَمَرُنَآ إِلَّا﴾**»[3].

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ذلك ابن الصلاح، وغيره[4].

* ﴿وَمَآ أَمَرُنَآ ﴿١١﴾﴾:

﴿وَمَآ﴾ كلمة مركبة من حرفين: «عن»، و«ما»، فأُدْغِمت النون في الميم، وحُذِفت الألف؛ لدخول حرف الجر «عن» على «ما»، والمعنى: عن أي شيء يتساءلون؟

وهذا تساؤل عن التساؤل: عن ماذا يتساءل هؤلاء القوم وعلامَ يختلفون؟!

---

(1) واختلافهم في قوله: ﴿ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ﴾ [النبأ: 40]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص262)، و«الكشاف» (4/ 683)، و«تفسير القرطبي» (19/ 169)، و«روح المعاني» (15/ 201)، و«التحرير والتنوير» (30/ 5).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 423)، و«زاد المسير» (4/ 387)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 541)، و«روح المعاني» (15/ 201)، و«التحرير والتنوير» (30/ 5).

(3) أخرجه الترمذي (3297)، والحاكم (2/ 343)، والبغوي (4176)، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(4) ينظر ما تقدم في أول «سورة الواقعة».

* ﴿وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠﴾:

أي: عن الأمر الهائل المُفْظِع، والحدث الكبير الذي وقع على العقول والقلوب والأسماع وقعًا عظيمًا غير هَيِّن، فهم يتساءلون عنه في مجالسهم ونواديهم وأسواقهم وأسفارهم.

ويحتمل أن تكون الآية استكمالًا للسؤال، أي: عن ماذا يتساءلون؟ هل يتساءلون عن النبأ العظيم[1]؟

أو يكون الأول سؤالًا والثاني جوابًا، والمعنى: أن الله تعالى سأل- وهو أعلم-: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾؟ ثم أجاب بأنهم يتساءلون ﴿وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الموضوع خطير، وكفاه أن الله تعالى سمَّاه نبأً عظيمًا.

هل كان تساؤلهم تساؤل الجادِّ الباحث عن الحقيقة، يختارها، ثم يُؤْثِرها، ويضحِّي في سبيلها؟ أم تساؤل العابث الذي يريد التشغيب والتسلية والتندُّر؟ أم تساؤل المُكذِّب الذي اتخذ قرارًا بالتكذيب قبل أن يسمع الخبر، وإنما يطرح بعض الأسئلة والشبهات حتى يصرف الناس؟!

وقد جاءت أقوال في ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[2]:

فقيل: القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ﴾ [ص: 67- 68].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 5)، و«الكشاف» (4/ 684)، و«تفسير القرطبي» (19/ 169- 170)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 302)، و«التحرير والتنوير» (30/ 6- 9).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 5- 6)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 271)، و«تفسير الماوردي» (6/ 182)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 112)، و«زاد المسير» (4/ 388)، و«تفسير القرطبي» (19/ 170)، و«الدر المنثور» (15/ 190)، و«التحرير والتنوير» (30/ 10).

وقيل: النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن القرآن أُنزِل على شخصه صلى الله عليه وسلم، وبه صار نبيًّا، وقد نُبِّئ بـ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وأُرْسِل بـ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، وكان يقول: «**إني نذيرٌ لكم، بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ**»[1].

وقيل: **البعث**؛ لأنه من أعظم ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وكان بالنسبة لهم أمرًا مُستغرَبًا، كما قال قائلهم[2]:

حياةٌ ثم موتٌ ثم نَشْـرٌ *** حديثُ خُرافةٍ يا أُمَّ عَمرٍو

وهذه الأقوال كلها حق، وقد يعمُّ المعنى ما هو أشمل وأوسع، وهو أمر الإسلام والنبوة والوحي والغيب والآخرة والحساب والجزاء.. فهي عندهم نبأ عظيم يختلفون حولها ويتساءلون.

* ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ فَبِأَيِّ ﴾:

والاختلاف هنا يحتمل أمرين[3]:

- **الاختلاف بين المُكذِّبين والمُصدِّقين**، وهذه سنة الله في العباد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النمل: 45].

- **الاختلاف في تشخيصهم للرسول صلى الله عليه وسلم، ووصفهم إياه، فمنهم** مَن قال: ساحر. ومنهم مَن قال: مجنون. ومنهم مَن قال: يريد الدنيا. ومنهم مَن قال: شاعر، ﴿□□□□□□□□□□□□□﴾ [الطور: 30- 31].

---

(1) أخرجه البخاري (4770)، ومسلم (208) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) تقدم تخريجه في «سورة ﴿ قٓ ﴾»: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ منسوبًا إلى ابن الزِّبَعْرَى، وأبي العلاء المَعَرِّي.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 7)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 112- 113)، و«زاد المسير» (4/ 388)، و«تفسير القرطبي» (19/ 170)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 302)، و«التحرير والتنوير» (30/ 10).

ذكر الله تعالى تساؤلهم واختلافهم، وسمَّى الموضوع الذي تساءلوا حوله بـ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾، **وهذا يقودنا إلى قضية التساؤل والاهتمام، وكيف يجب أن يكون؟**

1- **الموضوع**؛ بمعنى هل يستحق موضوعٌ ما أن يتساءل الناسُ عنه؟

والذي ينبغي في ذلك أن يُراعَى صدق الموضوع، فيكون جديرًا بأن يبحثه الناس، أو يتساءلوا عنه.

ولو نظرتَ إلى واقع المسلمين، بل بعض خاصتهم من الفقهاء وطلبة العلم والدعاة؛ لوجدتَ كثيرًا مما يشتغلون به من الأنباء والحوادث والقضايا، لا يستحق هذا الجهد.

وهذه مشكلة تتصل بقصور في الجانب التربوي؛ فالكثير من المعارك والصراعات تدور حول أشخاص أو مسائل وقتية أو هامشية على حساب ما هو أهم، بل حياة المسلمين اليوم أصبحت موبوءة بانشغالات، لا تنفعهم في دينهم، ولا تقرِّبهم إلى الله، ولا تصفِّي قلوبهم، ولا تنفعهم في دنياهم، بحيث تحقِّق لهم التقدم المدني والحضاري، بل هي أفكار وصراعات ومعارك، تشعرهم بالنشوة، وتخلق لهم شعورًا طيبًا بالإنجاز وهزيمة الطرف المقابل، والاحتشاد الوقتي حول قصة وهمية، أو موقف صغير يتم تضخيمه بتكرار الحديث عنه؛ حتى يصبح منفوخًا، وحقيقته: ﴿ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴾ [النور: ٣٩].

ولا يلتفت العاقل بعد سنة أو عشر ليتساءل: ماذا جنى وأفاد من الخروج من موقعة أو غزوة للولوج في أخرى؟ مع ما يصاحب ذلك من تغير النيات وقسوة القلوب والعجز عن الإنجاز الحق والبناء والتشييد، والمسألة مرتبطة من وجه آخر بخلل في التفكير ورعاية الأولويات وفقه الموازنات والمقادير.

2- **الاعتماد على المصادر الصادقة**، وليس على شائعات أو ظنون أو وسائط مشكوك فيها، فهل سمعوا كلُّهم كلام الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة؟

كلا، بل كان بعضهم يصل به الحال أن يضع في أذنه القطن، حتى لا يسمع النبي صلى الله عليه وسلم؛ فيصيبه شيء من أثره وفعله في القلوب[1].

إن بعض الناس يعتمد في حكمه وتصوره للأمور على وسائط ونَقَلَةٍ يقع منهم التحريف والتدليس والتشويه، ويفقد حياديته واتزانه وبحثه عن الحق لصالح أمر سبق أن قرَّره واعتقده.

والواجب أن يعتمد في تلقِّيه على منهج سليم ونقل مصدَّق، وفق الشريعة، فالحجة: آياتٌ قرآنية ظاهرة الدلالة، أو أحاديثُ نبوية صحيحة مُحْكَمة، ليست ضعيفة ولا مردودة ولا متشابهة، أو وثيقةٌ واضحةٌ فيما يُحكى ويُنْسَب إلى قائله، فلا تكون مزوَّرة ولا محرَّفة.

3- **قضية الدليل**، أكان دليلًا عقليًّا، مثل استدلالات القرآن على البعث بخلق الإنسان وبإحياء الأرض بعد موتها، أو كان شرعيًّا بإثبات حكم أو نفيه، أو كان منطقيًّا أو حسيًّا... إلخ.

أما الإِلْف والعادة، أو الموروث، أو قول فلان من الناس، فهذا كله ليس بدليل، وإنما ينبغي أن يكون الدليل على نمط ما في هذه السورة، فمثلًا قوله سبحانه: ﴿ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ﴾، فهذا نقل صادق قطعي؛ لأنه من الله، ولكنهم لا يؤمنون بالله، وهو دليل عقلي؛ لأنهم يشاهدونه بأعينهم، ولا يملكون نفيه أو نسبته لغيره، إذ لم يَدَّعِ أحدٌ أنه فعل ذلك.

---

(1) ينظر: «طبقات ابن سعد» (4/ 233- 234)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (3/ 1561- 1562)، و«تاريخ دمشق» (25/ 11، 13)، و«أسد الغابة» (3/ 77)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 345)، وما تقدم في «سورة القلم»: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا﴾.

4- **الفهم**، حيث إن كثيرًا من الناس يعادون أفكارًا، لو سألتهم عنها لحاروا، ولم يعرفوا كنهها!

وقد يكتب أحدهم نقدًا لمسألة لم يفهمها جيدًا، أو كان سمعها ممن حرَّف ودلَّس، فبنى حكمه على تصور خاطئ، كما قال المتنبِّي[1]:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا *** وآفتُه من الفهمِ السَّقِيمِ

ولذا كان العلماء يعتنون في بحوثهم بتحرير محل النزاع والخلاف، بعد بيان ما هو متفَق عليه.

وقد يكون سبب الاختلاف عدم فهم أحدهم للآخر؛ فيتكلم أحدهم عن مسألة، ويتكلم الآخر عن مسألة أخرى، كما يُنسب إلى ابن عطاء الله السَّكَنْدري:

أقولُ له: عمرًا، فيسمعُه: سعدًا *** ويكتبه: حمدًا، وينطقه: زيدًا!

وقد يسمع أحدهم خلافًا، ليس لديه تصور واضح عنه، فينزع إلى أحد الطرفين، دون تحقيق ولا نظر، بل لأول بادرة في ذهنه، أو لأن أحدهم يتكلم بطريقة تعجبه وتناسبه، أو لأنه يعرفه ويعظِّمه.

5- **المقصد، وأهمية التجرُّد وسلامة القصد:**

وكم من جدل وحوار بدأ بنية طيبة، ثم تحول مع الزمن إلى وسيلة للانتصار والغلبة وجرِّ نواصي الخَلْقِ وإذلالهم، أو إظهار التفوق والسيطرة، وقد قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: 83].

كم هو عدد الذين يتساءلون ويتجادلون بحيادية دون غرض، يبحثون عن الحق بصفاء وتجرد، وأنَّى وجدوه أخذوه! ومَن كان كذلك فإنه يُوَفَّق للخير، وحتى لو لم

(1) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص232)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (4/ 120).

يُصِبْ في مسألة ما، إِلَّا أنه أصاب حسن النية، فهو مأجور؛ لصدق مقصده واستفراغ وسعه في طلب الحق وعدم الصدود عنه، ومعذور في خطئه.

* ﴿مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾:

﴿مُّدَّكِرٍ﴾ عند جمهور أهل اللغة كلمة زجر وردع[1]، وهو يعني أن هؤلاء المتسائلين لم يكونوا أهل تحرٍّ وبحث عن الحق، وإنما تساءلوا تساؤل المكذِّب أو الملبِّس أو المشوِّه أو المُعرِض، ولهذا عاتبهم تعالى في مطلع البيان، والتكرار من أجل التوكيد[2].

ولا يعني أنه ليس ثمة معنًى آخرُ، وإن كان التوكيد نفسه معنى؛ لأنه دعوة إلى منح الأمر أهمية مضاعفة.

قال بعض المفسرين: إن ﴿مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾: عذاب الدنيا، و﴿شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي﴾: عذاب الآخرة[3].

وعذاب الدنيا حصل لهم في معركة بدر، حينما قُتِلوا وسُحِبوا إلى القَلِيب[4]، وأُتْبِعوا لعنة، ويوم القيامة بئس الرِّفْد المرفود.

وقريب منه أن يقال: **إن الأولى** إشارة إلى أن كثيرًا منهم سيعلم أن الله تعالى سينصر دينه ويعزُّ رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن مكة سوف يرثها القومُ الذين هم

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفرَّاء (5/ 223)، و«تفسير الرازي» (31/ 7)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 302).

(2) ينظر: «الصناعتين في الكتابة والشعر» (1/ 193)، و«تفسير البيضاوي» (1/ 438)، و«همع الهوامع» (2/ 594).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (31/ 8)، و«البرهان في علوم القرآن» (4/ 282).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (3976)، و«صحيح مسلم» (2874، 2875).

الآن مستضعَفون بها، حتى إن بلالًا رضي الله عنه يصعد على الكعبة ويؤذِّن، وقد علموا هذا ورأوه عيانًا بعد سنين.

فهي كقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۢ ٨٨﴾ [ص: 87- 88]، أي: سيعلمون نبأ الإسلام، ونبأ القرآن، ونبأ النبي صلى الله عليه وسلم، وما سيكون له من رفعة الشأن وظهور الدين وكسر شوكة أعدائه، ثم يعلمون عند ما يُبعثون صدق ما أخبر به[1]، وأن الميزان هناك ليس ميزانهم المادي، بل ميزان قسط يثقل فيه أمثال صُهيب وبلال وعَمَّار وسلمان وسُمَيَّة رضي الله عنهم، ويطيش أكابر المجرمين وزعماء المكذِّبين، كأبي جهل وأبي لهب وساداتهم الذين ماتوا على الكفر، **وهذه هي الثانية.**

و﴿شَيۡءٍ﴾ تُستخدم للترتيب الزمني، بمعنى عطف المتأخِّر على المتقدِّم، كما هنا لأنهم سيعلمون في الدنيا، ثم يعلمون في الآخرة.

ما السر وراء تهديد الله لهم؟

هو أن يحملهم على النظر إلى الموضوع بجِدٍّ، وكأنه يقول لهم: انظروا.. تفكَّروا.. تدبَّروا.. تأمَّلوا: ﴿رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي □﴾ [الطارق: 13- 14]، إنه جدٌّ لا لعبَ فيه، فهو يقصد تحفيزهم وحملهم على أن يتأمَّلوا، ويتدبَّروا، وينظروا، كما قال: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾ [سبأ: 46].

من المسلمين اليوم مَن عزبوا وغفلوا عن آيات القرآن التي تدعو إلى التفكر والتعقُّل والبحث المتجرّد والنظر، بل ظن بعضهم أن الدين ينافي استخدام العقل، وأصبح العقل مسبَّة عند آخرين، وربما كان ذلك بسبب الخلط بين العقل والهوى.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (20/ 150)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 83)، و«التحرير والتنوير» (23/ 310).

والتهديد المبطن ليس هو الأسلوب الأوحد ولا الأول الذي جاء في القرآن، فهناك التعليم والترغيب وإثارة الأسئلة، وتحريك العواطف.

ومن أعظم الخطأ أن يعتمد الناس والمربُّون والآباء والدُّعاة على أسلوب التهديد والتخويف وحده، ويُغفلون الحديث عن الرحمة وزرع الثقة بالمستهدفين وإعطاء الأهمية لهم، وهي خير ما يقودهم إلى الحق، **وإنما يكون التهديد والترهيب في أحوال؛ منها:**

1- أن يكون أسلوبًا ضمن أساليب أخرى يكمِّل بعضها بعضًا.

2- أن يكون لقوم أفرطوا وأمعنوا في الإهمال وعدم المبالاة وترك الانصياع، و«آخرُ الدواء الكَيُّ».

3- أن يكون في حالات خاصة يحتاج المرء فيها إلى تحريك الخوف لترك معصية أو مخالفة شهوة.

* ﴿﴾ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

السياق استفهام يحفِّز العقول على التفكير، والمعلومة قد تُقدَّم للإنسان جاهزة فيأخذها تقليدًا، أو لا يلتفت إليها بالكلية، فإذا جاءت مصوغة في قالب سؤال، كانت دعوة إلى المشاركة في صياغة الجواب وتوظيف القدرة الذهنية واستحضار المعلومة السابقة.

ولم يقل: «ألم نخلق الأرض»، وإنما عبَّر بـ«الجعل»؛ لأن الله خلقها ولم تكن مهادًا، ثم جعلها مهادًا بعد ذلك، فالمهد والبسط جاء متأخِّرًا.

ويعزِّز هذا: قوله تعالى في «سورة النازعات»: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا﴾ أي: بعد خلقها دُحِيَت، وبُسِطَت، ومُهِّدت، وجُعِلَت قابلة للحياة.

وظاهر السياق أن الأرض خُلِقَت قبل السماء؛ لأنه لما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾، والليل والضُّحى يكون في الأرض؟! ففيها إشارة إلى أن خلق الأرض كان سابقًا.

وهكذا هنا، فقال تعالى: ﴿۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾ أي: خُلِقَت أولًا، وكانت غير ممهَّدة، ثم بعد ذكر خلق السماء عاد السياق إلى الأرض؛ ليبيِّن جعلها مهادًا[1].

الأرض مهد للإنسان، وهي في مقام الأم الرَّؤوم، كما قال الشَّابيُّ[2]:

وقالــت ليَ الأرضُ لـمَّـا سَأَلْــتُ: *** أَيَا أمُّ هـل تكـرهينَ البَشَـرْ؟!

أبـــاركُ في النَّاس أهلَ الطُّمـوح *** ومَن يستلذُّ ركوبَ الخَطَـــرْ

ومَن يتهيَّـبْ صعــودَ الجبـــال *** يَعِشْ أبدَ الدَّهرِ بين الحُفَـــرْ

وفي الآية إشعار بالبعث؛ لأن هذه الأرض التي هي مهاد لهم وهم أحياء، هي مهاد لهم وهم أموات؛ حيث يُدفَنون فيها، ثم يُبعَثون منها، ولهذا سمَّاها الله تعالى مستودَعًا، تُودَعُ أجسادُهم وعظامُهم فيها، ثم تؤدِّي ما استُودِعَت.

فهذه إشارة تمهيدية عابرة تهيِّئ العقل لقبول ما بعدها، وهذا من لطيف العلم، كما يقول بعض أهل العلم في تحريم الخمر: إن قوله تعالى: ﴿۝٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ﴾ [النحل: 67]، إيماء غير مباشر إلى منع الخمر؛ لأنه فرَّق بين السَّكَر والرزق الحسن، فجعل السَّكَر شيئًا مغايرًا للرزق الحسن[3].

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات».

(2) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص91).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (2/ 141)، و«الدر المنثور» (5/ 467)، و«التفسير القرآني للقرآن» (1/ 151- 152)، و«التفسير المنير» للزحيلي (2/ 92)، و«التفسير الواضح» (2/ 321).

فإنَّ جَعْل الأرض مهادًا مشعرٌ بخروجهم من المهد إلى البعث.

جعل الله الأرض مهادًا بالعيش فيها، والمشي عليها، والبناء، وجعلها مستعدة لتحمل تكاليف وجود البشر، كما ترى في رصف الطرقات وحفر الأنفاق والبناء الشاهق وأنواع الاستخدامات التي سخَّر الله الأرض لها.

﴿ﱶ إِنَّ﴾: الجبال من الأرض، وإنما خصَّها؛ لأن لها مهمة أن تكون أوتادًا للأرض، وهذه الآية الوحيدة التي وصف الله تعالى فيها الجبال بالأوتاد، ومن معاني كونها أوتادًا: أنها تثبِّت الأرض أن تميد وتضطرب، فهي تحفظ توازنها[1].

ومن إقحام المعاني الغريبة: الاستدلال بالآية على أن الأرض ثابتة لا تدور، والله تعالى قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: 88]، وسواء كان هذا في الآخرة، كما يدل عليه السياق[2]، أو في الدنيا، كما يدل عليه اللحاق ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، فهو يدل على أن الحواس قد يقع لها انخداع وترى الأشياء على غير حقيقتها، فالاستدلال بظواهر الحس على الحقائق العلمية مضلِّل.

* ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾:

اختلف السياق هنا من الاستفهام إلى الخبر، وهو مقصود في تغيير رتابة السؤال؛ لأنه مع الطول يُؤْلَف فيحتاج إلى تنويع، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ [الشرح: 1- 2]، ولم يقل: «ألم نضع»؟

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 9)، و«الكشاف» (2/ 598)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 302)، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (4/ 117)، و«المحرر الوجيز» (4/ 273)، و«البحر المحيط في التفسير» (7/ 186)، و«روح المعاني» (8/ 272)، و«التحرير والتنوير» (20/ 50)، و«أضواء البيان» (7/ 510).

وفي الآية إشارة إلى جواب السؤال، **وكأن المعنى**: قد جعلنا الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا؛ ولذلك عطف سبحانه وقال: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ أي: أصنافًا وأنواعًا وأشباهًا، فهناك الذكر والأنثى، وهذا سرٌّ من أسرار الألوهية؛ لأن الزوجين مختلفان، فالذكر غير الأنثى، ومع ذلك فخَلْقُهما في غاية الحكمة والرحمة والإبداع؛ وما كان الرجل ليشعر بسعادة الحياة وهنائها لولا المرأة، ولا المرأة تشعر بكمال سعادة الحياة لولا الرجل، فجعل تعالى الأنثى تحنُّ للذكر، والذكر يحنُّ للأنثى، كما قال: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الروم: 21].

ولا يصح حصر الأزواج من الخلق في جنس الرجال والنساء، بل يشمل أجناسًا كثيرة من المخلوقات، ولذلك يقول تعالى: ﴿□ □ □ □ □﴾ [الذاريات: 49]، أي: في الألوان، وفي الأعداد، وفي الأحوال[1].

ومن ذلك: الغنى والفقر، ويقابله: الشكر والإحسان للغني، والصبر والرضا للفقير.. والصحيح والمريض.. والقوي والضعيف.. والمأمور والأمير.. والعالم والجاهل.. والذَّكي والبَلِيد...

وهذا التنويع موجِب للشكر لَمن فضَّله الله على غيره، ومقتضٍ للصبر؛ فالإنسان إذا ابتُلِي بمصيبة، أو آفة، أو عاهة، أو فقر، أو مرض؛ عليه أن يصبر ويؤدِّي عبودية ما هو فيه.

وهو مدعاة للإحسان: ﴿□□□□□﴾ [البقرة: 237]، إذ جعل الله تعالى بين العباد التعاون؛ لأن التعاون بين الضدَّين يُوجِد حالة من الانسجام في الحياة، تستقيم الحياة بها.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 547)، (24/ 9)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 272)، و«تفسير الرازي» (31/ 9)، و«تفسير القرطبي» (19/ 171)، و«التحرير والتنوير» (27/ 17).

وهو مَدْرَجٌ إلى التكامل، فهذا يبني، وهذا يصنع، وهذا يزرع، وهذا يتعلَّم، وهذا يفكِّر، وهذا يكتب، وهذا يقرأ، فمن خلال مجموع هذه الأعمال يوجد تكامل رائع في الحياة، وهو من أسرار الصنعة الإلهية.

والتعبير بصيغة الماضي إشارة إلى تقرير المسألة وبدهيتها ووضوحها للمخاطبين؛ لأن منهم مَن لا يتأمل السماء والأرض والجبال، لكن الزوجية قضية ضرورية يعايشونها في ذاتهم ويرونها فيمَن حولهم، فهي مما لا يحتاج إلى استدلال، بل هي نفسها دليل وحجة.

* ﴿فِي مَقْعَدِ رَبِّكُمَا﴾:

أضاف النوم إلى الناس؛ لأنه لا يغني فيه أحد عن أحد، فكل إنسان يحتاجه، ولو أن في الناس مَن لا ينام مطلقًا، لشعر بالحرمان والنقص والعَطَب والخلل؛ فالنوم ضروري لا غنى عنه، ولا حياة لَمن حُرِمه.

وقد ذكر الأطباء مدة معينة إذا عاشها الإنسان دون نوم فإنه يصاب بالإجهاد ثم الهلوسة ثم يموت؛ إذ لا بد لهذا الجسم أن يأخذ حقَّه من الراحة والاسترخاء، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حزم في «طوق الحمامة»[1].

لم يقل الله: «ليلكم»؛ لأنه سيأتي في الآية التي بعدها، ولأن الليل ليس خاصًّا بالإنسان، بل المخلوقات على الأرض يتلبَّسها الليل، حتى إن إحدى الشركات في اليابان وضعت إعلانًا مضيئًا في وسط مزرعة، فاكتشف الُمزارع أن زرعه تأثر بهذه الإضاءة الليلية، فرفع عليهم دعوى يطالب فيها بالتعويض عما لحق زرعه، ودخل النزاع في مرحلة من البحوث العلمية، وكانت النتيجة العجيبة أن هذا الإعلان المضيئ قد أقلق راحة النبات؛ لأنه يؤرِّقه بالليل، وهي فترة راحته، وتبيَّن أنه حتى

---

(1) ينظر: «طوق الحمامة» (ص307).

النباتات تحتاج إلى فترة إظلام معينة، وأن توزيع النبات على ظهر الأرض ليس تابعًا للرطوبة والجفاف، والحرارة والبرودة فحسب، ولكن تابع كذلك لطول الليل والنهار، أما النوم فهو للأرواح[1].

يقول أهل اللغة: السُّبات هو: القطْعُ[2]، أي: أن النوم يقطع حياة الإنسان الرتيبة؛ لأن الإنسان في النهار يعمل ويكدح، وربما يصاب بأمراض جراء ضغوط العمل والحياة، وقد ينام المرء على تعب وعناء ويصحو على سكينة وراحة وهدوء وسعادة.

ومن معاني السُّبات: أن النوم يأخذك بالقهر والقوة، حتى الجبابرة والسلاطين يأخذهم النوم أخذًا، ثم يرمي بهم في مهاجعهم، حيث النَّفَس يتردد، بلا حسٍّ ولا إدراك، ولا يسمع أحدهم السؤال، ولا يردُّ الجواب، ولا يعي ما حوله، وهذه أعجوبة، **أما كيف يتم النوم؟** فهو سرٌّ من الأسرار الإلهية.

والنوم نفسه يخلُد فيه الإنسان إلى عالم آخر مستقلٍّ، فيه أحلام ورُؤى، وأحوال غريبة؛ فالنائم يسافر ويطير، ويكتب ويمضي عقودًا، ويهادن ويحارب، ويرى الموتى أحياء، والأشياء على غير مألوفها.

وقد جعل اللهُ تعالى النوم أَمَنَةً، كما قال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: 11]، حتى كان السيف يسقط من يد الصحابي مرارًا من شدة النُّعاس، ثم يصحو، فإذا به قد استعاد قوته ونشاطه[3]، فالنوم يقطع عن الإنسان التعب والإجهاد والإعياء، ويعيد له قوته وحيويته، وكأنه يضخ فيه طاقة روحية جديدة.

---

(1) ينظر: «دراسات قرآنية» للأستاذ محمد قطب (ص159).

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص392)، و«القاموس المحيط» (1/ 195)، و«لسان العرب» (2/ 36)، و«تاج العروس» (1/ 1094) «س ب ت».

(3) كما في «صحيح البخاري» (4068، 4562)، و«صحيح مسلم» (1811).

والعلماء يسمون النوم: الوفاة الصغرى. أخذًا من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: 42].

وقد جعل الله تعالى النائم قابلًا للاستيقاظ من ذاته أو من غيره، بخلاف الحالات الاستثنائية، كما في قصة أصحاب الكهف: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ﴾ [الكهف: 11].

فمن معنى جعل النوم سُباتًا، أنه يقبل القطع، ويكون بقدر حاجة الإنسان.

والنوم ضرورة من ضرورات صحة البدن، ولا يزال العلماء يؤكِّدون أن الإنسان يدفع ثمن قلة النوم أو اضطرابه من صحته وحياته؛ بسبب الإجهاد، وضعف التركيز، وهَرَم الذاكرة والنسيان، والتأثير في الاستقرار العاطفي والنفسي، فيكون نقصه سببًا لسرعة الانفعال والغضب، كما يؤثِّر على خلايا المخ، فعلى الإنسان أن يأخذ القدر الكافي من النوم، وهو يختلف من شخص لآخر، ولكن غالب الناس يحتاجون ما بين ستٍّ إلى ثمانِ ساعات، من أجل المحافظة على حيويتهم وقوتهم ونشاطهم، وتجنب التعرض للأزمات النفسية أو القلبية، وإذا قسمها الإنسان بين الليل والقيلولة كان أنفع، وهو ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم.

ونوم الليل أفضل من نوم النهار، وبعض العلماء يقولون: نوم ساعة واحدة في الليل أفضل من ساعتين في النهار؛ لأن الليل مناسب بهدوئه وصفائه للاسترخاء، وأخذ قسط من الراحة، واسترخاء ساعة في الليل يعادل نوم نصف ساعة حتى لو لم يستطع أن ينام!

وينظر: «تفسير الطبري» (6/ 161- 163)، و«زاد المسير» (1/ 337)، و«تفسير القرطبي» (4/ 242)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 22)، و«التحرير والتنوير» (4/ 133).

* ﴿عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾:

فهو لباسٌ للأرض، أشبه ما يكون بالثوب أو الجلباب الذي تلبسه الأرض.

وهو لباس للإنسان ذاته، يمنحه قَدْرًا من الهدوء والسكون، وأكثر الناس لا يجدون الراحة إلا في الليل، ففيه من لحظات الأنس، والسمر، والجلسات الممتعة ما ليس في النهار.

وصف الله الليل بالسَّكَن ووصف العلاقة الزوجية بالسَّكَن: ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴾ [الروم: 21]. والمرأة أشبه بالليل، سترًا وروحانية وعاطفة، والرجل أشبه بالنهار، ظهورًا وتجليًا ودأبًا واحتمالًا، وفي الحياة تناسق رائع بين مهمات الرجل ومهمات المرأة، وطبيعة كل منهما، فالزوجية تتجلَّى في الليل والنهار، وفي السماء والأرض، كما تتجلَّى في الذكر والأنثى؛ ولذا أقسم الله بذلك كما في «سورة الليل».

والليل غالبًا ملتقى الحياة الزوجية ومستراحها بعد الفراق والعناء والسَّبْح الطويل مع الناس.

ذكر القرطبي في «تفسيره» أن بعض المغفَّلين قال: ما دام الليل لباسًا، فللإنسان أن يصلِّي فيه وهو عُريان؛ لأن الليل بحدِّ ذاته يغني عن اللباس[1].

وهذا من أقوال أهل الغفلة، فكون الليل لباسًا فيه معانٍ متعدِّدة، لكنه لا يغني عن اللباس الحسِّي الذي امتنَّ الله به على الناس، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (13/ 38).

عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: 26]، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهُ أحقُّ أن يُستحيا منه**»[1].

والناس ينقطعون في الليل غالبًا عن الخروج، ويأوون إلى بيوتهم أو حقولهم، ويجتمع شملهم على طعامهم وشرابهم ونومهم، فتكون المساكن كاللِّباس لهم.

وبعض الناس عكسوا الحال، فجعلوا الليلَ نهارًا، والنهارَ ليلًا، على أن غالب الأمم يهجعون أول الليل إلى مضاجعهم ويأوون إلى بيوتهم، ويقومون مبكرين إلى أعمالهم ومصالحهم.

حين يشرق الصباح يصحو الكون ويتهيَّأ ليوم جديد، فلتكن روحك متطلِّعة لهذا الصباح الجميل، قانعة راضية متفائلة بعطاء الله الكريم، داعية بالخير للعباد.

❊ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ﴾:

كرَّر «الجعل»، ولم يقل: «والنهار معاشًا»؛ لأن الآيات قصيرة، ولا يلائم أن تقتصر على مفردتين.

وفيه بيان أن الاستفهام في ﴿٥٢ وَكُلُّ﴾ تقريري للإثبات؛ ولذا عقَّب عليه بفعل ماضٍ يدل على حصول الفعل، وعلى الفاعل وهو الله تعالى.

وفي الآية تكرار التذكير بالنعمة واستحضارها؛ لأن الإلف يُنسي النعم، فهذه الشمس التي تشرق كل يوم ثم تغيب، لا يدرك الناس قيمتها؛ لاعتيادهم عليها، وكذلك مَن يعيشون في المناطق الخضراء الممطرة، لا يلفت نظرهم ما فيها من الجمال الأخَّاذ مما يلفت نظر غيرهم، وكذلك أهل الصحراء والرمال أو السواحل والبحار..

---

(1) أخرجه أحمد (20034، 20040)، والبخاري (1/ 64) معلقًا، وأبو داود (4017)، والترمذي (2769)، وابن ماجه (1920)، والحاكم (4/ 179) من حديث بَهْز بن حَكِيم، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فيه تأكيد الردِّ على مَن لا يؤمنون بالصانع سبحانه من الدهريين والطبائعيين، كالمانوية الذين يجعلون آلهة للنور وآلهة للظلام... فالآيات تدحض هذه المقولة، وتبين أن الفاعل هو الله وحده لا شريك له، وأنه خلق النور والظلام، كما قال المتنبِّي[1]:

وكم لظلامِ الليلِ عندك من يدٍ *** تخبِّرُ أن المانَوِيَّةَ تكذِبُ

وأقرب ما يكون من معنى كلمة «المعاش»: أنه ظرف لطلب العيش، والتصرف في شؤون الرزق[2]، وهذا ظاهر في حال أكثر الأمم والشعوب.

* ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾:

البناء يدل على القوة: ﴿بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذاريات: 47]، **والأيد** هنا: القوة[3]، فالله تعالى هو الذي بنى الكون كلَّه، ومن ذلك السماء ﴿خَلَقَ﴾ شيء ترونه وتشاهدونه في عُلوِّه وشموخه، والبناء كلما ارتفع وعلا فإنه يدل على قدرة الصانع، وفي القديم كان الناس يتفاخرون بالمباني الشامخة العظيمة، ولا زالوا يتفاخرون بناطحات السحاب، والمباني الضخمة، ولذلك جاء السياق يمتنُّ عليهم، ويذكِّرهم بالقدرة الإلهية في بناء السماء التي لا يتصوَّرون سعتها وأبعادها، والإنسان يرى النجوم حوله تلمع، لكنه لا يدري أنها ذرات في مجرات تسبح في فضاء واسع لا يحيط به إلا الله.

وهذا ليس بحديث خرافة وتَخَرُّص، بل هو صنع الله العظيم، والمتخصِّصون في علم الفلك يشاهدون من خلال المكبِّرات في هذه القبةَ الزرقاءَ ونجومها وشموسها

---

(1) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص466)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (1/ 178).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 9)، و«الكشاف» (4/ 685)، و«زاد المسير» (4/ 388).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص621)، و«تفسير الطبري» (21/ 545)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص97) «أ ي د»، و«تفسير البغوي» (4/ 287)، و«تفسير القرطبي» (17/ 52)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 411).

وأقمارها ومجرَّاتها أشياء هائلة تُذهِل العقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85]، ﴿□□□□□□□□□□وَٱلشَّجَرُ﴾ [الواقعة: 75- 76].

والمراد: السماوات السبع، وصَفَها بالشدَّة؛ لكونها قويةً مُحْكَمةً مُحَصَّنةً، بحيث لا تستطيع الشياطين ولا البشر أن يصلوا إليها؛ فإن كل إمكانيَّات البشر وقدراتهم وحديثهم هو عما دون السماء الأولى، وإلا فالسماوات التي بناها الله تعالى فوق ذلك، لا يصل إليها علم البشر ولم يحيطوا بها علمًا.

وعامة البشر يؤمنون بأن فوقهم سبعَ سماواتٍ، وهذا مألوفٌ وموروث ثقافي عند معظم الشعوب، وقد جاء في القرآن: ﴿□□□□□□□□□﴾ [الطلاق: 12]، ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ [نوح: 15].

والآية وما شاكلها دلالة على أن فوقنا سبع سماوات، وأنها طِباق- أي: بعضها فوق بعض- وهذا هو المقصود في الآية، وهو الذي عليه جمهور المفسرين[1].

وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور: «يجوز أن يُراد بالسبع: الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ، وهي: زُحَل والمشترَى والمريخ والشمس والزُّهَرة وعُطارد والقمر».

وقال: «وهذا المحمل هو الأظهر؛ لأن العبرة بها أظفر؛ لأن المخاطَبين لا يرون السماوات السبع، ويرون هذه السيَّارات ويعهدونها دون غيرها من السيَّارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد»[2].

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 119)، و«زاد المسير» (4/ 314)، و«تفسير القرطبي» (18/ 304)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 156).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 23).

والأقرب هو ما ذهب إليه الجمهور أن المقصود سبع سماوات، كما في مواضع أخرى، وكون الناس لا يعرفونها بالرؤية؛ فإن الله تعالى يعرِّفهم بها، ويحتج عليهم بالقدر المعروف والمشهور منها.

والقرآن الكريم حجة على الناس في كل زمان ومكان، وفي العصور السابقة لم يكن عندهم إلمام ومعرفة بهذه المَجرَّات الهائلة، والمدارات الفلكية المُذهِلة، وهذا البعد الذي تدور منه الرؤوس، وكلما تقدَّم العلم، زاد فَهم الناس وتعمَّق لبعض الألفاظ ودلالاتها.

وأمام البشر فرص ضخمة لمزيد من الكشوف الفلكية والاستدلال على وجود العوالم العليا، وها هم علماء الفلك قاموا أخيرًا بطرد الكوكب (بُلوتو) من المجموعة الشمسية، ليصبح عدد كواكب المجموعة الشمسية ثمانية.

❁ ﴿ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ ▯﴾:

ذكر الشمس دليل على أن المقصود السماوات السبع وليس الكواكب؛ لأن الشمس هي أحد النجوم السبعة، **فالأقرب** أنه بعدما ذكر السماء ذكر بعض ما في السماء، وهي الشمس.

ولم يذكر اسم الشمس اكتفاءً بما هو معلوم، وسمَّاها: ﴿٤﴾؛ لأنها تضيء الكون، فهي مصباح ضخم هائل أكبر من الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، كما يقول الفلكيون، ومع ذلك يراها الرائي بسبب بُعدها بهذا الحجم الصغير، وهي معلقة في الفضاء، لا يمسكها إلا الله سبحانه بسننه ونواميسه التي تجري في سائر الأفلاك.

والوهَّاج: المتوقِّد، ففي الشمس إنعام آخر بالإنضاج والحرارة، والحرارة هي إحدى النعم العظيمة في الكون، والتي تسهم في حفظ الحياة والإنسان والنبات وتحقيق البيئة المتوازنة[1].

* ﴿بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝﴾:

هذا له علاقة بالشمس؛ لأن الشمس هي أحد أسباب تبخُّر ماء البحر؛ ليكون مطرًا وغيثًا.

وفي قوله: ﴿ٱلۡبَيَانَ﴾.. ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾.. ﴿۝٢﴾ صياغات تشعر بتمام القدرة وكمال التصريف الإلهي وراء كل شيء، فهذه الأشياء العادية التي يمرُّ بها الناس وهم عنها معرضون، ينبغي أن ينظروا فيها بروح أكثر حيوية، وأكثر إيمانًا، وأكثر استحضارًا لقدرة الخالق المبدِع الرحيم الكريم سبحانه.

والإنزال إشعار بأن كل قطرة تنزل من السماء هي بقَدَر: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ﴾ [الحجر: 21]، وهي رحمة وحكمة، وكل شيء بحسبان؛ ولذا يقول العلماء: إن كمية المطر النازل إلى الأرض هو بقدر كفاية الناس، فهو موزون ومخزون، ولكن العبث البشري يؤثِّر على المطر كما يؤثر على البحر وعلى اليابسة وعلى البيئة كلها، وهو جزء من الفساد في الأرض الذي نهى عنه القرآن وشنَّع على مرتكبيه.

واختُلِف في تفسير ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ على أقوال[2]:

هل هي: الرياح، أم: السماء، أم: السُّحب؟ **وهذا قول الأكثرين.**

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 451)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (2/ 684)، و«الكشاف» (4/ 618)، و«تفسير القرطبي» (18/ 305)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 382)، و«روح المعاني» (15/ 83).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 11- 13)، و«تفسير الماوردي» (6/ 184)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 119- 120)، و«تفسير البغوي» (5/ 200)، و«الدر المنثور» (15/ 193- 196).

وفي الآية تشبيه بليغ؛ لأن «المُعْصِر» عند العرب هي الجارية قُبَيْل بلوغها، أي: آن لها أن تحيض ولم تحض بعد، فيقال: هذه جارية مُعْصِر[1]، شبَّه السَّحاب هنا بالجواري، فهو يخلع على السحاب روح الحياة، وما لها لا تكون حية، ومنها ينزل الغيث الذي يُحيي الله به الأرض بعد موتها، والسُّحب ورد وصفها بالجارية في موضع آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿□□﴾ [الذاريات: 3].

وصف المطر بأنه ثجَّاج، أي: يُصَبُّ صبًّا بدفق وقوة[2]، وفيه دليل على الحكمة الإلهية في تصريف الكون، وتحريكه، ولذلك تُسمَّى الأرض بالكوكب الأزرق، لأن أكثر من (71٪) من مساحتها ماء.

وهذا الماء يصعد من البحر إلى السماء، ثم يعود إلى الأرض، ويقال: إن ما ينزل من المطر كل سنة يكاد أن يكون متساويًا، ويُروى حديث: «**ما عامٌ بأمطرَ من عامٍ، ولكِنَّ اللهَ يصرِّفُه حيث يشاءُ**»[3]. فهذه حكمته سبحانه، أنه يُنزِلُ من هذه السماء الماء الثجَّاج الذي يُصَبُّ بقوة.

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 121)، و«الكشاف» (4/ 686)، و«تفسير الرازي» (31/ 11)، و«تفسير القرطبي» (19/ 174)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 382).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 15)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 393)، و«تفسير القرطبي» (19/ 174)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 303)، و«التحرير والتنوير» (30/ 26).

(3) أخرجه العقيلي (3/ 228)، وابن حبان في «الثقات» (8/ 462)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (7/ 208)، وابن مردويه- كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (2/ 464)- والبيهقي (3/ 363) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا، وقال الذهبي في «الميزان» (3/ 126): «منكر... غريب جدًّا».

وأخرجه موقوفًا: الفسوي (3/ 377)، وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (76)، وابن وضَّاح في «البدع» (76/ 229)، والطبري (14/ 40)، (17/ 469)، والعقيلي (3/ 228)، وابن أبي زمنين في «أصول السنة» (10)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (213، 214)، والبيهقي (3/ 363).

ورجَّح الموقوف غير واحد. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (4131، 4460).

وفيه معنى الكرم، والعطاء الذي يُصَبُّ على العباد صبًّا، ومع أنه محسوب، وكل قطرة بإرادة الله، إلا أنه عطاء جزيل، وهذا أقوى ما يكون حجة على الناس، فهم يرون الأرض يابسة، فإذا نزل عليها المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5]، والعرب خاصة يعلمون هذا؛ لأن حياتهم تقوم غالبًا على الرعي والمطر والغيث، فيمتنُّ الله تعالى به عليهم.

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ ۝٥٠﴾:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾: عبَّر بالفعل المضارع؛ إشارة إلى الحركة التدريجية في النبات، فالنبات لا يأتي دفعة واحدة، بل يتكون شيئًا فشيئًا، لذا قال: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ [الأنعام: 99].

والحَبُّ هو: القمح والحنطة والشَّعير[1]، ونحوه مما يأكله الناس، والغالب أن الحبَّ يكون أقواتًا للناس، مع أن الحيوان يستفيد منه أيضًا، وبدأ به؛ لأنه من الضروريات التي لا غنى للإنسان عنها، وكل شعب في الأرض تتكون وجبته الرئيسية من الحب.

والمقصود بالنبات ما يكون أخضر، فيشمل طعام الإنسان من الخضراوات والبقول، ويشمل طعام الحيوان من الأعلاف وغيرها.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 16)، و«الهداية الى بلوغ النهاية» (12/ 7991)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 304)، والمصادر السابقة.

ثم ذكر «الجنَّات»، وهي الأشياء التحسينية التجميلية للحياة، وتدخل فيها الفواكه، **والجنة** هي البستان الذي تكثر فيه الأشجار، ولهذا وصفها بقوله: ﴿تَطْغَوۡاْ﴾ أي: ملتفٌّ بعضها فوق بعض[1].

حينما يرى الإنسان مظاهر الإبداع في خلق الكون يجد عجبًا، ولذلك فإن الزُّرَّاع أكثر تديُّنًا وصلاحًا واستعدادًا لقبول الحق والفطرة ممن يتعاملون مع الآلة؛ لأن الذي يتعامل مع الأرض حرثًا وزرعًا، ويراقب الصنعة الإلهية بشكل مباشر، يرى آثار هذه الصنعة والإبداع، فيقوى إيمانه ويزيد تواضعه، في حين أن الذي يتعامل مع الآلة يتعامل مع شيء من صنع الإنسان؛ فيغلب عليه النظر إلى إنجاز الإنسان وإبداعه ويذهل أن مبدِع الإنسان هو الله جل وعز، فهو خالق عقله وقدرته وإمكانيَّاته، وهو خالق الأمم والحضارات والأكوان، ومسخِّر الآلة والمادة وواضع نواميسها وقوانينها.

وفي الآية إشارة إلى ملحظ الجمال، وهو مقصود في صنع الله تعالى، ففي السماء تلحظ القوة والشدة، والبعد والارتفاع، كما تلحظ الجمال في النجوم المتلألئة، وكأنها تتناجى في هذا الليل المظلم، ولو نظر الإنسان إليها عبر المكبِّر، أو في الصور الوثائقية أو العروض الفضائية؛ أو التقنيات ثلاثية الأبعاد؛ لرأى شيئًا يذهل ويدهش.

وهذا كله مما امتنَّ الله به على عباده في هذه الدار، وسخَّره لهم، ورزقهم إياه، وجعل به قوام الحياة إلى أجل مسمًّى، وعلى المرء أن يحسن الانتفاع به، ولا ينشغل به عما هو أهم وأعظم.

* ﴿ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ مُّدَّكِرٍ﴾:

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩﴾.

وعادةً ما يعقد الله تعالى المقارنة بين إحياء الأرض بالنبات، وبين إحياء الإنسان بالبعث، كما في سور: ﴿قٓ﴾، والأنعام، ويونس، والحج.

وفي هذا السياق ذكر المطر، وأنه يحيي الأرض بعد موتها، ويجعل منها جنات ألفافًا؛ فناسب أن يبين أنها جنات عابرة تذبل وتموت، وعلى الإنسان أن يستعد لجنات الآخرة، ولذا ذكَّرهم بالبعث وخروجهم من قبورهم.

لم سماه: يوم الفصل؟

1- لأنه حقٌّ لا ريب فيه، ومَن كذَّب به فهو في ضلال بعيد، ولهذا قال سبحانه: ﴿رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى﴾ [الطارق: 13- 14]، أي: لقولٌ حقٌّ، وليس بالكذب والهزل، فهو اعتقاد يقيني قطعي لا تردد فيه من جهة النقل ولا ريب فيه من جهة العقل.

2- لأنه يَفْصِل بين الناس فيما كذَّبوا به، وهو الذي ينهي جدلهم ونزاعهم، ويفصل القضية بالحق الذي يرونه بأعينهم، وينتقل من كونه خبرَ وحيٍ إلى كونه شهادةَ عينٍ.

3- لأن الله تعالى يَفْصِل فيه بين العباد في مظالمهم وحقوقهم، ويقتصُّ لبعضهم من بعض، والعدل المطلق لا يُرى إلا إذا وُصلت فصول الحياة بعضها ببعض، والحياة الدنيا ليست سوى الفصل الأول فحسب، وفي الآخرة الفصل الأكبر والأخير والدائم[1].

ومن الطريف أن الله سماه هنا: فصلًا، بل هو الفصل، والألف واللام قد تدخل على الاسم لتدل على الاستيعاب والأهمية الجوهرية، وكأنه لا «فصل» إلا هو.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 209)، (10/ 379، 394)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 272)، و«تفسير الماوردي» (5/ 42، 256)، و«تفسير الرازي» (27/ 663)، و«تفسير القرطبي» (16/ 147)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 106).

وحينما تنظر للدنيا متصلة بالآخرة، فسوف ترى العدل المطلق للحق سبحانه، فلن يهمل الظالمين، ويغفل عنهم، ويترك المظلومين بلا نصرة، فهناك في عَرَصات[1] القيامة تتكامل فصول العدل، فربما رأيتَ الظالم يموت بعد أن أسرف في طغيانه وتعديه وتمتَّع متاعًا واسعًا دون أن يناله شيء من عقوبة البغي في الدنيا، وربما رأيت آخر مبتلى بالقهر والحرمان وتسلط الظلمة عليه فيموت ولم يقتص ممن ظلمه، فهل هذا مما يناقض العدل الإلهي؟!

كلا! لأن فصول القصة لم تنتهِ بعدُ، فثمة جنة ونار وحساب وعقاب، فيأتي يوم الفصل لتُسْتَكْمَل فيه الأمور، ويُقتصَّ لبعض الناس من بعض، وتكتمل الحكمة الربانية التي لا يراها الناس أحيانًا في هذه الدنيا.

وربما سُمِّي: فصلًا؛ لأن الأمور تُحسم فيه، وثَمَّ نهايتان وطريقان، هما الجنة والنار، أما في الدنيا فثَمَّ آلاف الطرق والمذاهب والأفكار والنظريات والأعمال والخيارات.

والميقات له عدة معانٍ[2]:

1- أن له وقتًا محدودًا، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٖ﴾ [هود: 104]، وقد اختصَّ الله بعلمه، فلم يبلِّغ به مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسَلًا، فهذا من العلم الذي لا يحيط به إلا الله، ومَن ادَّعى أنه يعلم ميقات يوم الفصل فقد كذب.

---

(1) مفردها: عَرْصَة، وهي كل موضع واسع لا بناء فيه.

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 185)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 125)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 100)، و«التحرير والتنوير» (30/ 34)، والمصادر السابقة.

وكل الحكايات والأقاويل التي تُنشر في الصحف والأفلام والمواقع، والرُّؤى والتوقعات والحسابات بقيام الساعة ونهاية العالم باطلة: ﴿ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ [طه: 15]، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187].

2- أنه اليوم الموعود الذي واعد الله فيه عباده بالفصل بينهم ومحاكمتهم.

وإذا كان يوم الفصل ميقاتًا، فهذا يعني أنه لا جدوى من استعجاله؛ لأنه مؤقَّت بوقت معلوم عند رب العالمين، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر لرغبة أحد: ﴿يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [النحل: 1]، ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ﴾ [الشورى: 18].

ومن لوازم كونه ميقاتًا، أنه حقٌّ فلا تكذِّبوه؛ لأن الله تعالى أخبر به، وبيَّن أن له وقتًا مضروبًا عنده سبحانه.

وفيه تصبير للمكلومين والمعذَّبين في الدنيا والمقهورين المستبطئين؛ لأن من عادة الإنسان إذا علم أن أمامه موعدًا محدَّدًا، كان أقرب إلى الاطمئنان والسَّكينة.

* ﴿تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝٥٢﴾:

شرع في ذكر وقائع ذلك اليوم، والإنسان هو المقصود الأول من خلق الكون والحياة؛ ولذا بدأ السياق في الحديث عنه.

والحساب والجزاء والسؤال هو لك شخصيًّا، فلا تحسب للآخرين حسابًا، ففي يوم القيامة يهتمُّ كلٌّ بنفسه، حتى الرسل والأنبياء يقول الواحد منهم: «**نفسي.. نفسي**». وينسى أهله وقرابته، ويفر من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه[1].

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة المدثر»: ﴿□ □ □ □﴾، وما سيأتي في «سورة عبس»: ﴿□□□□□□□□□□□ ۝١٥﴾.

والنفخ في الصُّور هو للحياة، **والصُّور**: بوق، أو قرن يُنْفَخ فيه[1]، لكن هيئته وشكله وطوله وعرضه وصفته مما لم نُحِطْ بعلمه، فنحن نؤمن بأن ثَمَّ صُورًا، وأنه يُنفخ فيه، وتشخيص صفة الصُّور أو طريقة النفخ، هي من الغيب الذي لم نحط به علمًا، ولا طائل من البحث وراءها، ونتيجة لذلك تأتي الصيحة الصاخَّة الطامَّة التي يُبْعَث الناس بها من قبورهم.

ولاحظ تسارع السياق: ﴿تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، حيث عبَّر بالحرف «فـ»، فبمجرد ما يُنفخ فيه يحشر الناس إلى ربهم أفواجًا، أي: جماعات[2]، كل أمة تأتي مع نبيِّها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: 71]، فكل أمة تُدْعَى إلى كتابها، وتُدْعَى مع نبيِّها، المؤمنون مع المؤمنين، والكافرون مع الكافرين؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التكوير: 7]، أي: قُرِنت مع أشباهها[3]، فأهل الإيمان مراتب، وأهل الكفر والنفاق مراتب، ويوم القيامة طويل يقع فيه اختلاط الناس حينًا وتمايزهم شيئًا فشيئًا، حسبما تدل عليه النصوص المختلفة الواردة.

* ﴿فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ﴿٥٣﴾﴾:

---

(1) ينظر: «مختار الصحاح» (ص375)، و«النهاية» (3/ 122)، و«الكليات» للكَفَوي (ص566)، و«تاج العروس» (1/ 3081).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 687)، و«تفسير الرازي» (31/ 12)، و«تفسير القرطبي» (19/ 175)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 445)، و«فتح القدير» (5/ 441)، وما سيأتي في «سورة النصر»: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلْعَصْفِ﴾.

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة التكوير».

هذا مما يقع بعد انبعاث الناس ومجيئهم أفواجًا، **والمعنى**: شُقِّقت ومُزِّقت، لتنزل منها الملائكة إلى الأرض للمهمَّات التي انتُدِبوا إليها[1].

والسَّماء من مقاصدها أنها سقف للأرض، إلا أنها ليست مقصورة على هذه المنفعة، فهي عالم آخر وبناء مستقل، ولهذا عبَّر بالبناء، وكما عبَّر عنها في آية أخرى بكونها: ﴿سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء: 32]، ولم يقل: «سقفًا حافظًا»، أي: محفوظًا عما دونه[2]، فقصارى ما يستطيعه الإنسان هو أن يلحظوا هذه السماء على هيئة السَّقف، وأما ما وراءها فهو محفوظ لا يستطيع البشر أن يلاحظوه إلا بإذن ربهم.

* ﴿١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ جَنَّٰتٍ﴾، وقال في «سورة التكوير»: ﴿أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن﴾:

وهذه إحدى أحوال الجبال؛ أن يأذن الله لها أن تسير سيرًا سريعًا، حتى إنها تمرُّ مرَّ السحاب، وتُرى مثل السَّراب، وقد ورد عن الجبال سبع صفات في القرآن الكريم، هذه أحدها.

وتكون مرةً كالعِهْن، وكالهباء وكالسَّحاب، وتزول كما في قوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: 106- 107].

وكأن هذا يقع بالتدريج خلال هذه السنين المتطاولة التي يشملها اسم «يوم الفصل»، وهذا أحسن من النظر إلى تلك الأحوال باعتبارها مترادفة، فالقول باستقلال كل لفظ بمعنى خاص أولى من حمل بعضها على بعض، وأمكن في الإفادة.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 19)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 273)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 394)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 305).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (16/ 263)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (1/ 127)، و«تفسير الرازي» (22/ 139)، و«تفسير القرطبي» (11/ 285)، و«فتح القدير» (3/ 479)، و«روح المعاني» (9/ 37).

* ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا فِي ﴾:

حين تقرأ هذه الآية المؤكَّدة بـ﴿ ﴾ تشعر أن ما سبقها من علامات وتغيرات لم يكن إلا تمهيدًا لهذه الحقيقة المرعبة المخيفة.

وإذا كان تلك الآيات الممهِّدة تثير الفزع من النفخ في الصُّور، ومجيء الأمم كلها جماعات، وتشقُّق السماء، وتسيير الأرض، فكيف حين تُرى النار وهي تترصَّد وتتربَّص بمَن وُعدت بهم.

والمِرصاد هو الذي يقف في الطريق يترصَّد[1]، ولهذا قال في «سورة الفجر»: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ﴾، فلو أن إنسانًا يمشي في طريق وهو يعرف أن أحدًا ينتظر مروره ليوقع به، كيف يكون حاله؟ سوف يحذر ويتوقَّى كلَّ ما يريب، وهذا السياق إنما يقال؛ لأن المقام مقام وعيد للمكذِّبين والمتسائلين باستخفاف عن ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾، وإلا فالأصل في صفات الرب تعالى الرحمة واللُّطف والبِرّ والجُود والكرم والعفو والصفح، ولا يقع في أسمائه الحسنى إلا كل جميل، كما هو مقرَّر معلوم مبسوط في بابه[2].

وكونها مرصادًا يدل على أن الناس كلهم سوف يمرُّون عليها: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾ [مريم: 71]، وذلك أن الصراط منصوب على متن جهنم، فالناس يمرُّون عليه جميعُهم؛ المؤمنون والأنبياء والمرسلون، وسائر البشر، لكن منهم مَن يمرُّ كلمح البصر، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن يمشي ويعثر، ومنهم مَن يسقط ويهوي[3].

وبدأ بذكر جهنم؛ لأنها في الطريق إلى الجنة، مع كون السياق تهديدًا للمكذِّبين.

---

(1) ينظر: «فتح الباري» (8/ 702).

(2) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف.

(3) كما في «صحيح البخاري» (7439)، و«صحيح مسلم» (183) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

* ﴿خَلَقَ مَلِيكٍ ﴿١٣﴾﴾:

تخصيص بعد عموم، وهذا اللفظ يُطلَق على الكفار، الذين كفروا بالله، وجحدوا آياته، وعَصَوْا رسله، واتَّبعوا أمرَ كل جبار عنيد، واسترسلوا وراء المغريات والشهوات واللذَّات، فيتوعَّدهم بأن جهنم أُعدت لهم.

والتعبير بـ«الطغيان»؛ إشارة إلى سبب التعذيب، وهو الاستكبار والتعاظم الذي يحول دون قبول الحق، ويكون سببًا في العدوان على الخلق وازدرائهم، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبر**». قال رجلٌ: إن الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: «**إن اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس**»[1].

وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 60]. وناسب مقابلة الكبر بالإهانة والتعذيب.

والمآب هو: المرجع[2]، فمرجعهم ومصيرهم إليها، كما قال: ﴿كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن﴾ [الصافات: 68]، والعادة أن الإنسان ربما يتعب في سفر، ثم يؤوب إلى بيته وأسرته، فيجد الراحة والأنس، ويزول عنه العناء والتعب، فكيف إذا كان مردُّ الإنسان هو العذاب، ولعل هذا من معاني قوله سبحانه: ﴿﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ رَبِّكُمَا﴾ [القارعة: 8- 9].

والمؤمنون الذين يعصون الله تعالى، ما شأنهم؟ يغفر الله تعالى لمَن يشاء منهم، ويعذِّب مَن يشاء، ورحمته سبقت غضبه، ولكننا نعلم بمقتضى النصوص الشرعية

---

(1) أخرجه مسلم (91) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص97)، و«تاج العروس» (2/ 33) «أ و ب».

المتوافرة أن من المسلمين مَن يُعذَّب، ثم يخرج من النار برحمة أرحم الراحمين، أو بشفاعة المرسلين، أو بغير ذلك من الأسباب التي أذن بها رب العالمين[1].

* ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾:

﴿مِن﴾ أي: ماكثين[2]، و﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ جمع: حُقُب[3]، **والحِقْبة**: سبعون سنة، وقال آخرون: سبعون ألف سنة، وقيل غير ذلك.

وفي الآية لم يحدِّد مدَّتها، ومن هنا قال جمهور المفسرين: إن المقصود بالأحقاب: الدُّهور التي لا نهاية لها[4].

وقال آخرون: إن السياق دليل على أنهم يمكثون فيها مددًا طويلة، ولكن لها أمد تنتهي إليه.

ولذلك اختلف أهل السنة: أتفنى النار أم لا؟

أما الجنة: فلا خلاف في بقائها أبد الآبدين، وهذا محل إجماع أهل الإسلام[5].

وأما النار: فقد ذكر شارح «الطحاوية» عند قول الإمام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان». قولين لأهل السنة:

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (806، 4581، 4718، 7509)، و«صحيح مسلم» (182، 183).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 538)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 105)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص248)، و«مختار الصحاح» (ص77)، و«لسان العرب» (1/ 326)، و«تاج العروس» (2/ 201) «ح ق ب».

(4) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 383)، و«تفسير الطبري» (24/ 161)، و«الكشاف» (4/ 688-689)، و«تفسير القرطبي» (19/ 178)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 306)، و«الدر المنثور» (15/ 200)، و«التحرير والتنوير» (30/ 36).

(5) ينظر: «مراتب الإجماع» (ص173).

الأول: أن النار باقية، وأصحابها من الكفار والمشركين باقون فيها أبدًا، وأما الموحِّدون فيخرجون منها، وهذا مذهب الأكثرين.

الثاني: أنه يخرج منها أهل الإيمان، ثم تبقى فترة ثم يأذن الله تعالى بزوالها وفنائها.

واستدلوا على ذلك بهذه الآية الكريمة؛ لأن التحديد بالأحقاب دليل على التوقيت، كما استدلوا بقوله تعالى في «سورة هود»: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

وقالوا: إن الخلود من معانيه: المكث الطويل، وهو معروف في اللغة، **والمعنى**: خالدين فيها ما دامت موجودة.

وابن القيم في بعض كتبه يميل إلى هذا القول، وذُكِر عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود رضي الله عنهما، والحسن البصري، وجماعة من السلف، ويُنسب إلى ابن تيمية، وذكر الشيخ رشيد رضا هذا القول، وأطال فيه النفس مقرِّرًا مؤيِّدًا[1].

فهو قول ضمن أقوال أهل السنة، وليس منكرًا يُوصم صاحبه بالتضليل أو التكفير أو التبديع، أو يُدعى إلى الملاعنة أو المباهلة، كما يقع من بعضهم بسبب التعصب والاستغراب.

* ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ خَلَقَ﴾:

البرد هو: البرودة، وذلك أنهم في حر شديد ونار، فهم يتمنَّون البرودة فلا يذوقونها، لأن الإنسان إذا شعر بشدة الحرارة تمنَّى البرودة، وإذا شعر بشدة البرودة

---

(1) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (1/ 285)، و«الرد على مَن قال بفناء الجنة والنار» لابن تيمية، و«حادي الأرواح» (ص248)، و«شفاء العليل» (ص264)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (ص263)، و«رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار» للصنعاني، و«تفسير المنار» (8/ 59)، وما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، و«سورة الحديد»: ﴿ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا ...﴾ [الحديد:21].

تمنَّى الحرارة واللَّهب، وفي الحديث مرفوعًا عن خَوْلة بنت قيس رضي الله عنها: «**ابنُ آدمَ إن أصابه البردُ قال: حَسِّ**[1]**. وإن أصابه الحرُّ قال: حَسِّ**»[2].

ومن الطريف أن أعرابيًّا اشتد عليه البرد حتى كاد يهلك، ثم وجد نارًا يستدفئ بها، فقال: اللهمَّ اكتبها لي ولوالدي!

ومن معاني البرد: النوم[3]، قال الشاعر[4]:

فإن شئتِ حرَّمتُ النِّساءَ سواكمُ *** وإن شئتِ لم أَطْعَمْ نُقاخًا ولا بَرْدا

والنُّقَاخ هو: الماء، **والبَرْد**: النوم، وهو قول مجاهد وبعض السلف[5]، وهو معروف في اللغة[6]؛ وذلك لأن الإنسان في النوم أبرد منه في اليقظة، وكذا إذا مات برد جسمه.

فلا برودة تخفِّف عنهم من لهب النار، ولا يذوقون الماء البارد، ولا يذوقون النوم الذي يخفف عنهم، أو يُنسيهم، أو يعطي أجسادهم بعض البرد.

---

(1) بفتح الحاء وكسر السين المشدَّدة: كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما مضَّه وأحرقه غفلةً، كالجمرة. ينظر: «حاشية السندي على مسند أحمد» (15/ 104).

(2) أخرجه أحمد (27316)، وابن حبان (2892)، والطبراني في «الكبير» (24/ 231) (589). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1578).

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 187)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 131)، و«تفسير الرازي» (31/ 16)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 307)، والمصادر الآتية.

(4) ينظر: «الحيوان» للجاحظ (5/ 16)، و«الفاخر» للمفضَّل بن سلمة (ص17)، و«الصحاح» (1/ 456)، و«لسان العرب» (2/ 320) منسوبًا إلى عبد الله بن عمرو بن عثمان العَرْجي.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 27)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 273)، و«الكشاف» (4/ 689)، و«تفسير القرطبي» (19/ 180)، و«فتح القدير» (5/ 442)، والمصادر السابقة.

(6) ينظر: «مختار الصحاح» (ص73)، و«تاج العروس» (7/ 361) «ن ق خ».

* نفى البَرْد، ثم نفى الشراب؛ لأن عادة المرء أن يحب الشراب باردًا، فإذا نفى البرد لم يكن إلى البرودة إليهم من سبيل بوجه من الوجوه، ثم عقَّب بنفي الشراب كله بارده وغير بارده، إلا ما استثناه في الآية بعدها: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا ٱلشَّمْسُ ﴾:

الحَمِيم: الماء الحار، ﴿**وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ**﴾ [محمد: 15]، فإذا غلي الماء سُمِّي: حَمِيمًا[1].

ومنه: الحَمَّام؛ لأنهم كانوا يتطهَّرون ويتنظَّفون بالماء الحارِّ.

ومنه: الحمَّى أيضًا، فهم يشربون الماء الحميم الحارَّ المغلي، الذي يُقطِّع أمعاءهم ويُمزِّق أجوافهم[2].

والغَسَّاق: **قيل**: هو: الشراب المنتن.

وقيل: البارد شديد البرودة، الذي يعذِّبهم ببرودته[3].

ولا مانع من اجتماع الأمرين، فيكون الغسَّاق شرابًا باردًا منتنًا يشربونه، عقوبة على ما كانوا يتلذَّذون به في الدنيا مما حرَّم الله تعالى من ألوان المطاعم والمشارب والشهوات.

* ﴿ ١٦ □ ٦ ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 187)، و«الكشاف» (3/ 150)، و«المحرر الوجيز» (5/ 427)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «الصحاح» (5/ 183)، و«تاج العروس» (32/ 11).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (3/ 651)، و«تفسير الماتريدي» (8/ 641)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 84)، و«تفسير الماوردي» (6/ 187)، و«تفسير الرازي» (31/ 17).

وينظر أيضًا: «معجم ديوان الأدب» (1/ 329)، و«تاج العروس» (26/ 252) «غ س ق».

فهو جزاء عادل، موافق لنوع العمل، وليس فيه زيادة في العقوبة، بل هو مكافئ للإجرام، وفي جزاء المؤمنين قال: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ٥٣ ١٥ ﴾؛ فهو فضل من الله تعالى، وليس مقابلًا لأعمالهم، بل هو فوقها.

ولهذا لا أحد يدخل النار وهو يقول: أنا مظلوم. ولا أحد يُعاقَب وهو يقول: لا أستحق هذا، كما قال سبحانه: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾ [الملك: 10- 11].

وهذا من كمال العدل الإلهي، حتى إن الجوارح تشهد على الإنسان والملائكة، والديوان المسطور الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

❊ ﴿□□□□□فِي﴾:

هذا بيان لكمال الحجة عليهم، وعظم الذنب الذي اقترفوه، وأنه لا ذنب أعظم من الحَوْبِ الذي وقعوا فيه، وهو جحود الخالق والكفر به وتكذيب أنبيائه ورسله، وهم كانوا في الدنيا لا ينتظرون البعث وما بعده، وجمع بين الفعل الماضي والمضارع، أي: لم يكونوا يرجون حسابًا، وما من حجة أقيمت عليهم في إثبات الجزاء والنشور إلا قابلوها بالاستكبار والرفض، ولذا أعرضوا عنه ولم يضعوه في اعتبارهم ولم يدرجوه في حسابهم، وكانت غايتهم الحياة الدنيا، وبهذا اختل ميزانهم.

وعبَّر بـ«الرجاء»، وهو يُطلَق على ما يحب الإنسان، أي: لم يكونوا يرجون الجنة والرضوان، ولهذا لم يكونوا يفعلون الطاعات؛ لأن الذي يرجو لا بد وأن يفعل الطاعة، وفي ذلك إشارة إلى أن أصل كفرهم ترك الطاعة والإيمان، وهو أعظم من الوقوع في المعصية.

❊ ﴿□□□ٱلۡوَزۡنَ﴾:

ذكر تذكيبهم بصيغة الماضي؛ للإشارة إلى أنه كان حاسمًا جازمًا صريحًا، وكان سريعًا لم يسبقه بحث ولا تأمل ولا تفكير.

والآيات جمع: آية، **وهي نوعان:**

1- **الآيات الكونية الدالة على الله**، وهذا من جنس ما ذكره في صدر السورة من الأرض والجبال والليل والنهار، وكثير من المشركين زمن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، فتكذيبهم بها عدم تحققها في نفوسهم وعدم الالتزام بمقتضى ما يقولون بألسنتهم من الإيمان المجرد بالإله الخالق.

2- **الآيات الشرعية**، فكذَّبوا بوحي الله، ومن ذلك: التكذيب بالقرآن، والعربيُّ إذا قرأ القرآن عَرَفَ بعربيته إعجازَه وبلاغته وفصاحته.

فهؤلاء كذَّبوا بالآيات كلها، عقليها ونقليها، مسطورها ومشهودها، ولذا استوعب تكذيبهم الآيات كلها، ولهذا قال: ﴿□﴾ أي: تكذيبًا، فهو مصدر، ولكنه أبلغ من «تكذيبًا»، أي: كذَّبوا مرة بعد أخرى، وكلما وُجِد في قلوبهم شيء من الميل أو التصديق قاوموه ودافعوه[1].

و﴿□﴾ قُرئت بالتخفيف والتشديد، كما سيأتي في قوله: ﴿٥١ **وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٱلْجَآنَّ**﴾.

وهذا التكذيب بآيات الله جعلهم لا يؤمنون بيوم الحساب، ولا يعملون له، ولا يرتدعون عن المعاصي.

❊ ﴿□□□□ ٩﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 563)، و«تفسير الطبري» (24/ 35)، و«تفسير السمعاني» (6/ 140)، و«تفسير الرازي» (31/ 19).

التقدير: وأحصينا كلَّ شيء. فـ«كل»: مفعول به، وفي «سورة يس»: ﴿□□□□□ □□﴾، أي: في كتاب حافظ، وهو: اللَّوح المحفوظ[1].

و«**كل**» من ألفاظ العموم؛ كما قال: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: 53]، كل صغير أو كبير من الأفعال والأقوال والخواطر التي في القلب والنيات والمقاصد مُحصًى عند الله ومسطور.

ولذا يقول المجرمون: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾ [الكهف: 49].

ويدل لفظ: «كل» على استيعاب ما عملوا وما لم يعملوا، فهو مكتوب.

أي: كل ما تركوا مما هو واجب عليهم أن يعملوه، وما همُّوا به ثم أعرضوا عنه، أو عجزوا عن فعله، فيُكتب لهم ما تركوه لله، ويُكتب عليهم ما تركوه عجزًا.

والكتابة هي: الحفظ والضبط والتسجيل الدقيق.

وهي وثيقة يُبنى عليها الحساب والثواب والعقاب، كما يُبنى عليها الترك لما لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وهو عموم لا يدع مجالًا للتوقع بأن ثَمَّةَ شيئًا فات ذلك الإحصاء الدقيق[2].

واختلف العلماء فيما يكتبه المِلك[3]؟

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (2/ 542)، و«تفسير الماتريدي» (8/ 508)، و«تفسير الماوردي» (5/ 9)، و«زاد المسير» (3/ 519).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 36)، و«تفسير الرازي» (31/ 20)، و«روح المعاني» (15/ 217)، و«التحرير والتنوير» (30/ 41).

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7039)، و«الكشاف» (4/ 385)، و«زاد المسير» (4/ 160)، و«تفسير القرطبي» (17/ 11)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 398).

فقال الحسن وقتادة ومجاهد: «يكتب كل شيء».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما- في إحدى الروايتين عنه- وعكرمة: «يكتب ما فيه ثواب وعقاب».

وظاهر الآية الأول، ويؤيِّده قوله تعالى في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝٥٢﴾.

وقيل: يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار مُحي عنه ما كان مباحًا، مما لا يتعلق به أجر ولا وزر، والله أعلم.

والإحصاء يدل على الضبط الدقيق، فهو مُحْصًى معروف؛ لأن الله تعالى عليم بكل شيء، ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن ﴾ [طه: 52].

والضمير يعود إلى الله سبحانه، فهو يعلمه، وأيضًا بواسطة ملائكته الكتبة الحافظين، الذين قال الله عنهم: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الانفطار: 10- 12].

وغالب ما تأتي النون فيما يكون للملائكة تكليف فيه، كالموت والعلم والمعية والنصر.

وهذا الإحصاء ليس علمًا فحسب، بل هو مكتوب أيضًا؛ لأن عند الله كتابًا لكل إنسان يخصه، ويُزاد فيه يومًا بعد يوم، ويُكْتَب فيه الخير والشر، كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: 13]، وهو الكتاب الذي يقول تعالى عنه: ﴿۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الكهف: 49]، يرون الكتاب من بعيد، قبل أن يأخذوه، فهم منه مشفقون.

وقوله: ﴿□﴾ أي: مكتوبًا أو كتابةً[1]، ولا يمنع أن يكون مدونًا بأعلى صيغ التوثيق التي لا تدع لقائل مقالة، ولهذا قال في آخر السورة: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ﴾.

وإذا كان البشر بإمكانيَّاتهم القليلة استطاعوا أن يوثِّقوا ويضبطوا حركات الإنسان وأعماله من خلال وسائل التقنية والكاميرات الدقيقة المبثوثة في كل مكان، فتُصوَّر الحركات والسكنات وتُسجَّل الأصوات وهي في غاية الخفاء والضآلة، فكيف بقدرة الخالق العظيم جل وتعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحَدُّ؟!

فثَمَّ شريط شاهد على ما يعمله الإنسان يعرض عليه يوم القيامة.

❁ ﴿□□□□□فِيهَا﴾:

ذوقوا بدايات العذاب، فما تجدونه ما هو إلا عينة لما هو أشد؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ﴾ [الواقعة: 56]؛ أي: البداية التي تُقدَّم للضيف.

وهذا دليل على أن العذاب يزيد، أي: سوف نزيدكم عذابًا؛ لأن العذاب الجديد يضاف إلى العذاب الأول، فالعذاب الأول نال من الإنسان، من جلده ومن نفسه، فإذا جاء العذاب الجديد كان مضافًا إلى الأول، فهو عذاب بعد عذاب، وقد يكون العذاب الثاني أشد من العذاب الأول.

وهذا أقوى مما لو قال: «فسوف نزيدكم عذابًا»؛ لأن فيه نفيًا وإثباتًا، فهو نفى أن يزيدهم شيئًا آخر؛ أي: لن نزيدكم رحمةً وعفوًا ومغفرةً ونعيمًا، وإنما نزيدكم عذابًا فحسب.

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 690)، و«تفسير الرازي» (31/ 20)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 389)، و«فتح القدير» (5/ 443).

❊ وبينما القوم يتألَّمون بالمعاناة والعذاب الذي هو جزاء لأعمالهم، تنتقل السورة إلى الفريق الآخر وما له من النعيم: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا ﴿١١﴾﴾:

بدأ بـ﴿وَمَآ﴾ المؤكِّدة؛ إشارة إلى عظمة هذه الحقيقة، **والمتَّقِي** هو: مَن اتَّقى الكفر بالإيمان، فلكل مؤمن قدر من التقوى يزيد بقدر ما عنده من توقِّي الذنوب؛ ولهذا يقول سبحانه: ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ﴾ [البقرة: 2]، فكل مؤمن له حظٌّ من هداية القرآن؛ لأن أول مراتب التقوى هي الإسلام[1].

وقد سُئل أحد السلف عن التقوى؟ فقال: هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قصُرتُ عنه. قال: ذاك التقوى[2].

والذي يمشي في حقل ألغام، يحذر أن يضع قدمه إلا في مكان آمن، فهكذا المتقي لا يضع رجله أو يده أو عمله إلا حيث يعلم أنه لا حرج عليه، والتقوى لا تعني العصمة، وكان ابن المعتز يقول[3]:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها *** وكبيرَها ذاك التُّقَى

واصنع كماشٍ فوق أر *** ضِ الشوكِ يحذرُ ما يَرَى

لا تحقرنَ صغيرةً *** إن الجبالَ من الحَصَى

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 780).

(2) تقدم تخريجه في «سورة المرسلات»: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

(3) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [آل عمران: 133 - 135].

فالمتقي عنده أوبة كلما وقعت منه زلة، والمؤمن يخطئ ويتوب ويستغفر.

فهؤلاء المتقون علموا أن كل شيء سيُحصَى عليهم، فتركوا ما لا يُرضي الله قَدْرَ استطاعتهم، وكانوا يرجون الحساب ويخافون العذاب، وبهذا تميزوا عن الطائفة الأولى.

والمفاز: النجاة[1]، وكفى بها فوزًا؛ لأنه لـمَّا ذكر وعيد المشركين ذكر نجاة المتقين، ولذلك كان الأنبياء في ذلك الموقف يطلبون السلامة، ويقولون: «**اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»[2].

* ولكن الله تعالى بفضله وكرمه وعَدَهَم بما هو أعظم من ذلك وخير: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾:

والحدائق جمع: حديقة، وهي البساتين ذات الأشجار العظيمة[3]، سُمِّيت «الجنة» بذلك؛ لما فيها من الأشجار الملتفَّة، التي تجن وتغطي ما دونها، والقارئ عند ذكر الحدائق أو الأعناب يتبادر إلى ذهنه الصور التي يعرفها ويتذوَّقها مما في الدنيا، و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماءُ»، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[4]، وقال

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 37)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 539)، و«تفسير الماوردي» (6/ 188)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 136)، و«تفسير القرطبي» (19/ 183)، و«التحرير والتنوير» (30/ 43).

(2) أخرجه البخاري (806)، ومسلم (182) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 38)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 397)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 137)، و«تفسير البغوي» (5/ 202)، والمصادر السابقة.

(4) تقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾.

سبحانه: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ [البقرة: 25]، وقال: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ مُّدَّكِرٖ ﴾ [السجدة: 17]، وفي الحديث الصحيح أن الجنة: «**فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ**»[1].

ولم يقل: ﴿□﴾، كما في «سورة عبس»: ﴿□ □ ٱلۡوَزۡنَ﴾، بل قال: ﴿بِٱلۡبَصَرِ﴾، إشارة إلى كثرتها وتنوُّعها، فهي ضروب وألوان وأشكال، وذلك لأن آية «سورة عبس» امتنان على أهل الدنيا، فذكر العنب مفردًا، أما في الجنة، فجاء بصيغة الجمع؛ إشارة إلى كثرتها وتنوعها.

والكواعب جمع: كاعب، وهي الفتاة التي تفلَّك أو تكعَّب ثديها[2]، أصبح مثل كعب الإنسان في استدارته ونضجه وتصلُّبِه، فالله تعالى ذكر المرأة كأجمل وأكمل ما تكون في مرحلة بلوغها وفتوَّتها وعنفوان شبابها[3].

وأعمار أهل الجنة هي ثلاث وثلاثون سنة[4]، وهي مرحلة اكتمال الشباب.

والأتراب جمع: تِرْب، أي: المتشابهات في السن، فسِنُّهن واحد[5].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3244، 4780)، و«صحيح مسلم» (2824، 2825).

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص510)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص713) «ك ع ب»، و«الكليات» للكَفَوي (ص776).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (17/ 11)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 398)، و«تفسير ابن رجب» (2/ 302).

(4) كما في حديث أبي هريرة ومعاذ رضي الله عنهما. أخرجه أحمد (7933، 8524)، والترمذي (2545).

(5) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (4/ 338)، و«تفسير الماوردي» (5/ 456)، و«تفسير القرطبي» (17/ 211)، وينظر: «المزهر» (1/ 342).

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (1/ 231)، و«تاج العروس» (2/ 68) «ت ر ب».

فعند ما تكون نساء الجنة كواعب جميلات، وأترابًا في سِنٍّ واحد، فهذا يعني أن الحب والمودة لهن في درجة واحدة، فلا توجد واحدة منهن تظن أن غيرها تُحَبُّ أكثر منها أو أنها أجمل منها، بل كلهن في جمال واحد، وسن واحد، والميل لهن واحد، وهنَّ أتراب فيما بينهن، وعادة النساء عند ما يكون سِنُّهن واحدًا أن يكون بينهن الأُنْس، وهذا متعة للنساء المتقيات بكونهن الكواعب الموصوفات بالجمال والحسن والنعيم، لأنه قوله: ﴿أَمْرُنَآ﴾ يشمل الذكور والإناث.

وقد يكون قوله: ﴿أَهْلَكْنَآ﴾ أي: مع أزواجهن[1]، وهذا مُلاحَظ أن سِنَّ الرجل وسِنَّ المرأة واحد في الجنة، وهذا أدعى لكمال المتعة وحسن المعاشرة في الجنة.

والبعض يتعجب: لماذا يذكر الله سبحانه في القرآن مثل هذه المتعة؟

وهذا من المغالطة؛ لأن من أعظم ما يُفتَن به الإنسان في الدنيا التعلق بالجنس الآخر، وحتى مَن يستشكل هذا يعرف حقيقة نفسه وكيف يعاني من ضغط الميل النفسي والجسدي، إن كان تقيًّا يعاني من مدافعة الشهوة، وإن كان فاجرًا يعاني من ملاحقة صنوف الإشباع وتبعاته المرهقة، وهو مما جبل الله عليه البشر، وهو من أعظم ألوان النعيم والمتعة في الدنيا والآخرة، وقد جمع الله تعالى لهم أنواع النعيم بالمجالس والبيوت وبالمطاعم والمشارب وبالمناكح والمَلَذَّات.

فإن قيل: فماذا للنساء؟

فأقول: لهن قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ تُكَذِّبَانِ﴾ [الواقعة: 35- 37]. وهن شريكات في سائر النعيم المفصَّل، بما في ذلك رؤية الله تعالى وسماع كلامه، وسائر المتع والمباهج المعنوية والحسية المسوقة في الكتاب العزيز.

وقد يقول قائل: لماذا للرجل أكثر من امرأة في الجنة؟

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 45)، والمصادر السابقة.

فأقول: هذا من حكمة الله، أن المرأة عادة أحادية العاطفة، إذا أحبَّت شخصًا فلا ترى في الدنيا إلا هو، ولهذا لو تزوَّج عليها وَجَدَتْ في قلبها ألمًا عظيمًا وإن صبرت، ولا تجد في نفسها ما يجده الرجل من التطلع وإمكانية وجود الحب لأكثر من امرأة، فإن مسارات العاطفة عنده قابلة للتعدد.

وكثير من الرجال يحب امرأته ويقصر نفسه عليها، وهذا حسن، وهو أدعى للألفة، وأبعد عن المشكلات، وأجدر أن ينشأ الأولاد في جو من الأنس والصفاء، لكن المقصود أن طبيعة الرجل العاطفية تختلف عن المرأة؛ ولهذا وصفهن الله بقوله: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: 56].

فالمرأة قاصرة الطرف على زوجها لا ترى إلا حسنه وجماله، ولا تستمتع إلا به ومعه، ولا تطمح في نظرها إلى سواه[1].

﴿فَهَلْ مِن﴾: وهذا نعيم آخر مع السَّمَر، والمجالس الجميلة، والخضرة، والمآكل والمشارب، والزوجات الحسان الجميلات، **والكأس** لا يُذكَر في القرآن إلا ويُراد به الخمر، وهذا معروف في لغة العرب، فإذا قال: شربت كأسًا، ولم يميِّز، فهو يعني الخمر[2].

والدِّهاق لها معانٍ، منها: الملأى المتتابعة عند أكثر المفسرين[3]، وملء الكأس يُعَدُّ من كرم الساقي.

وقيل: الصافية، كما يقول الصاحب بن عَبَّاد[1]:

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص568)، و«تفسير الطبري» (19/ 538).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 217)، و«إعراب القرآن» لِقِوام السُّنَّة (ص399).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 39)، و«تفسير الماوردي» (6/ 188)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 138)، و«زاد المسير» (4/ 390)، و«تفسير الرازي» (31/ 22)، و«تفسير القرطبي» (19/ 183)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 308).

رقَّ الزجاجُ ورَقَّتِ الخمرُ *** فتشابها فتشاكَلَ الأمرُ

فكأنمـا خمـرٌ ولا قـــدحٌ *** وكأنما قدحٌ ولا خمـرُ

ويقول محمد إقبال[2]:

كمثلِ الكأسِ تُبْصِرُهـا دِهاقًا *** وليس لأجلِها صُنِعَ الشـرابُ

فاجتمع صفاء الخمر وصفاء الكأس، فهذا من أجود وأحسن ما يكون، وعادة ما يمدح العرب الخمر المعتقة القديمة، التي أُتقِن صنعها، فالله تعالى يذكر للمؤمنين هذه الخمر التي هي ﴿□□□﴾ [الصافات: 46]، فيجتمع لهم كل ألوان اللَّذَّة في الجنة[3].

* وجرت العادة أن مثل هذه المجالس في الحدائق تشتمل على صنوفٍ من النعيم، والنساء الجميلات، والمآكل والمشارب والمطاعم، والأصوات الجميلة بالغناء وغيره، ولما كانت هذه المجالس لا تخلو غالبًا من غوائل السكر بالخمر؛ من التشاتم والسباب والبطش والاعتداء، عقَّب بما يميِّز مجالس الخمر في الجنان عن مجالسها في الدنيا، فقال سبحانه: ﴿٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٱلۡجَآنَّ﴾:

فعند ما يشربون لا تذهب عقولهم، كأهل الدنيا، بل يتمتعون بالخمر دون أن يفقدوا لذَّاتهم وكمالاتهم النفسية: ﴿□□□□□□□﴾ [الصافات: 47]، فلا تغتال عقولَهم، ولا تذهب بألبابهم، فيدوم لهم نعيم المعرفة والرضا بالله والفرح برحمته والرجاء في مزيد فضله، مع نعيم الشرب والسماع ولذة العين والنظر.

واللَّغو هو: الكلام الزائد الذي لا فائدة فيه، وهو الكلام البذيء الفاحش[1].

---

(1) ينظر: «خاص الخاص» (ص161)، و«يتيمة الدهر» (3/ 304)، و«وفيات الأعيان» (1/ 230).

(2) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (1/ 106).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (4/ 303)، و«تفسير الماوردي» (5/ 47)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (3/ 525)، و«تفسير القرطبي» (19/ 183)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 13).

و﴿﴾ قُرئت بالتخفيف والتشديد، كقوله في الآية السابقة: ﴿ ٱلْوَزْنَ ﴾[2]. وتعني: شدة التكذيب والتكاذب والقول السوء[3].

وفي هذه الآية تلميح إلى ما كانوا عليه في الدنيا، وأن من أعظم صفاتهم حفظَ اللسان، فهم يتكلمون بالكلام النافع المفيد، كأن يكون ذكرًا لله، أو علمًا نافعًا، أو إحسانًا إلى عباد الله، أو تسلية مؤمن، أو تطييب خاطر، أو دفاعًا عن حق، أو ردَّ خطأ، فليسوا من أهل اللغو الذين يكثرُ فيهم الهرج والمرج والقيل والقال، وليسوا من أهل الكلام الباطل الذين يتزيَّنون بالأباطيل والألاعيب والأكاذيب، ولهذا جُوزوا في الجنة بذلك، **والجزاء من جنس العمل**.

وأهل الدنيا يقع التكاذب بينهم، ويكذِّب بعضُهم بعضًا، فيقول هذا لهذا: كذبت. أو يكذِّب بعضهم على بعض، وإذا سكروا كبُر هذا فيهم، وهذا كله ليس في الجنة، وفيه إشارة إلى أن ضبط اللسان من أعظم الأسباب التي يتخذها العبد إلى ربه سبيلًا لنيل مرضاته.

* ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ (53) (15):

بخلاف أولئك الذين قال فيهم: ﴿ (16) ﴾، وهذا دليل على أن هذا من الله تعالى للمؤمنين فضل، ومنه سبحانه بالنسبة للكافرين عدل، وهو ﴿ وَكُلُّ ﴾ أي: أن

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص296)، و«تفسير الطبري» (4/ 33)، و«معاني القرآن» للزجاج (1/ 299)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص742)، و«تفسير البغوي» (5/ 202)، و«تفسير القرطبي» (19/ 184)، و«فتح القدير» (5/ 445).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 35، 42)، و«السبعة في القراءات» (ص669)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص219)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 397)، و«معجم القراءات» (10/ 269-270).

(3) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص361)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 369)، و«حجة القراءات» (1/ 746).

ثَمَّةَ عملًا لهم في الدنيا فجُوزوا عليه بالجنان، وهو مصداق لقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل: 32]؛ أي: بسبب عملكم في الدنيا[1].

وليس المعنى أنهم لم يجازوا إلا بأعمالهم، بل أعمالهم سبب لنيل الرحمة، والرحمة لا حد لها، فجُوزوا بالحسنة عشرًا، وثماني عشرة، وعشرين، وخمسًا وعشرين، وسبعًا وعشرين، وخمسين، وسبعمئة، وأضعافًا كثيرة، لا يقدر قدرها إلا الله عز وجل.

وبيَّن مصدر الجزاء، فهو من عند الله الرب الكريم.

وفيه دليل على الفضل والعطاء، ولهذا قال: ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾، فليس هو محض جزاء فحسب، ولو جُوزوا بأعمالهم ما وصلوا إلى هذا، وربما استنفدت أعمالهم النعم التي أُعطوها في الدنيا، ولكنه عطاء وجود من الله تعالى.

ومن معاني ربوبيته سبحانه: رحمته بخلقه ومجازاته لهم؛ ولهذا لم يذكر هذا بالنسبة للكافرين؛ لأن المقام مقام توبيخ وتقريع وتخويف.

وجاء في مواضع أنهم أُعطوا بغير حساب، كما قال: ﴿□□□□□□﴾ [الزمر: 10].

فيقول أهل اللغة: إن ﴿﴿٥٣﴾﴾ هنا ليس معناه: أنهم حُوسبوا على أعمالهم وجُوزوا عليها، وإنما: ﴿مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ أي: عطاءً كبيرًا بغير عَدٍّ ولا إحصاء[2]، فيُعطى ثم يُعطى ثم يُعطى، حتى يقول: «حَسْبِي.. حَسْبِي..». أي: يكفي، فيُعطى حتى تنقطع مسألته، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ تُركوا**»[3].

---

(1) ينظر: «الكشاف» (2/ 106)، و«تفسير ابن كثير» (3/ 416)، و«فتح القدير» (3/ 192)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (7/ 237).

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص510)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص233).

(3) أخرجه مسلم (1887).

وأهل الجنة كلما تطلَّعت نفوسهم لشيء تحقَّق لهم بفضل الله تعالى عليهم، فلهم كل ما تمنّوا، لا مثنوية ولا رجعة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ [ق: 35]، أي كل ما يريدون، قصورًا أو أفلاكًا.. أو كواكب، أهلًا.. مالًا.. ولدًا.. كل ما يخطر على البال، وما لا يخطر عليه أيضًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، أي: ما لم يشاؤوا ولم يخطر ببالهم[1].

أن ينعَّم المرء في الدنيا مئة سنة بصحة وهناء وعيش رغيد ومال وفير وزوجة حنون وذرية صالحة، يشعر بالسعادة في مأكله ومشربه ونومه وحديثه وسفره وإقامته، ويستمتع بلحظاتها، فهذا عطاء لا يقاومه شكر، ولا يقدَّر بثمن، فكيف بنعيم الجنة السرمدي؟!

وكيف لا يكون العطاء بهذا القدر وهذا الفضل والرحمة، وهو عطاء رب السماوات والأرض، فهو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، وعطاؤه كلام، وأمره كلام، وعقابه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، هذا معنى كون عطائه كلامًا، ومَنْعِه كلامًا، فهو يخلق لهم بكلامه ما يتنعَّمون به.

* ﴿ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ تُكَذِّبَانِ﴾:

قرأ عاصم، وابن عامر، وغيرهما: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بكسر الباء؛ لأنها بدل من قوله تعالى: ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ في الآية السابقة، وقرأها الجمهور بالضم: ﴿رَّبُّ﴾[2] على أنها ابتداء[1].

---

(1) وفي الحديث أن الله تعالى يقول: «**أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ**». أخرجه البخاري (3244)، ومسلم (2824) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 105)، و«تفسير السمعاني» (5/ 246)، و«الكشاف» (4/ 390)، و«روح المعاني» (13/ 340)، و«التحرير والتنوير» (26/ 321).

(2) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص669)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص219)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 397)، و«معجم القراءات» (10/ 273).

﴿ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ أي: خالقها ومدبِّرها[2]، وهي مسخَّرة بأمره تسخيرًا جبريًّا، لا حيلة لها فيه ولا ثواب.

﴿وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: ما فيهما من إنس وجن، وخلق وبشر، وملائكة، ونجوم.. وغيرها.

﴿فِى مَقْعَدِ﴾: اختار هذه الصفة؛ لأنها مناسبة ولائقة بمقام الرحمة بالمؤمنين وجزائهم[3].

وفي هذا الاختيار توبيخ للكافرين؛ فإذا كانوا هلكوا وعُوقبوا- والذي عاقبهم هو الرحمن- فمعناه أنه لم تُجْدِ فيهم طرائق الخير وأسبابه وأبوابه وتمحَّضوا للشر والكفر والعدوان، فلا يهلك على الله تعالى إلا هالك.

﴿صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: في ذلك الموقف، لا يستطيع الناس مخاطبة الله عز وجل؛ لأن المقام مقام هيبة وجلال ترتعد منه الفرائص ويخافه الناس حتى الأنبياء والملائكة.

* ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾:

صار الوصف للمشهد كله، فالخلق قيام لرب العالمين، إنسهم وجنهم وملائكتهم، كما قال تعالى: ﴿﴾ [المطففين: 6]، ويشي هذا برهبة الموقف وعظم شأنه وهول مشهده.

---

(1) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص362)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 370)، و«حجة القراءات» (ص747).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 400)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 250).

(3) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

وفي الرُّوح أقوال[1]:

1- أنه جبريل عليه السلام، كما في قوله: ﴿٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ﴾ [القدر: 4].

2- المقصود كل ذي روح من الإنس والجن.

3- أن يكون خَلْقًا من خلق الله عز وجل، الله أعلم به.

والأقرب هو العموم، فيدخل جبريل والملائكة وغيرهم، ويكون المقصود بالروح هنا: المخلوقات ذوات الروح مما نعلم وما لا نعلم، فهي تقوم أيضًا، وهذا أنسب للسياق؛ لأن المقصود أصلًا بالبعث والمحاسبة هم أولئك المخلوقون العقلاء المكلفون، والله أعلم.

وبذا يكون ذكر الروح تأسيسًا وليس تأكيدًا أو ذكرًا خاصًّا.

وكل ذي روح يقوم، والملائكة يقومون صفوفًا بعضهم خلف بعض.

﴿ٱلْإِنسَـٰنَ ٣﴾: يفيد أن في ذلك المشهد الرهيب صمتًا مُطْبِقًا، بخلاف عادة الناس فإنهم إذا احتشدوا في منتدياتهم ومجالسهم وساحاتهم تسمع منهم الضجيج والصياح، لكن في ذلك الموقف: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108]، وكما في قوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [طه: 103].

وقوله: ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ ٣﴾ لها ثلاثة معانٍ[2]:

1- لا يتكلمون إلا همسًا فيما بينهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 46)، و«تفسير الماوردي» (6/ 190)، و«الكشاف» (4/ 691)، و«زاد المسير» (4/ 391)، و«تفسير الرازي» (31/ 25)، و«تفسير القرطبي» (19/ 186)، وما سيأتي في «سورة القدر».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 51)، و«تفسير الماوردي» (6/ 190)، و«تفسير القرطبي» (19/ 118)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 309).

2- لا يتكلمون مطلقًا، وذلك في بعض مواقف القيامة، فهم حينًا يتهامسون، وحينًا يتوقفون حتى عن الهمس.

3- أنهم لا يخاطبون الله عز وجل، ولا يتكلمون إليه.

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ وهم الرسل وغيرهم من الشافعين.

وقد اشترط تعالى الرضا والإذن، فقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: 28]، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255]، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: 109]، وهو سبحانه يعلم أن هؤلاء الذين أذن لهم بالكلام لا يقولون إلا صوابًا، مثل شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في فصل القضاء بين الناس، والشفاعة في بعض المؤمنين أن لا يدخلوا النار، والشفاعة في بعض مَن دخل النار أن يخرجوا منها، والشفاعة في بعض أهل النار أن يُخَفَّف عنهم من عذابها، والشفاعة في بعض أهل الجنة أن تُرْفَع درجاتهم ومنازلهم فيها.. إلى غير ذلك مما هو خير وثواب يحبه الله عز وجل.

* ﴿وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ ﴾:

إشارة إلى عظمة ذلك اليوم، الذي هو الحق، خلافًا لمن كذَّب به، فهو حق لا مرية فيه، يبيِّن صدق ما جاء به المرسلون.

واليوم الحق خلافًا لأيام الدنيا، فهي لعب ولهو، وأشبه ما تكون بالباطل، لقصرها وسرعة تصرُّمها ونسيان أفراحها وأتراحها، وتحولها من صفة إلى أخرى.

اليوم الحق الذي يُفْصَل فيه بين الناس، ويُقْتَصُّ لبعضهم من بعض، حتى في أصغر الأمور وأحقرها.

﴿رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾: فيه إشارة إلى أن سلوك الطريق الصحيح مرهون بإرادة الإنسان ومشيئته، فلا وجه لأن يحتجَّ أحد بقَدَر الله على المعاصي، فإنه ما عصى اللهَ أحدٌ، ولا ترك طاعة إلا وهو يعمل ما تملي عليه نفسه، وتحفِّزه إليه رغبته وشهوته وميله، فهو يجد ضرورة في نفسه أنه يُقْدم على الأشياء التي يحبها ويترك الأشياء التي يكرهها.

وهذا هو الأمر الذي يُحاسَب عليه في الآخرة، وهو لا يدري ما المقدور إلا بعد أن يفعل ما فعل، والقدر ليس قسرًا للمكلَّف على ما لا يحب، بل هو إذن الله للعبد أن يفعل أو لا يفعل، ولو شاء الله لقسر الناس على ما يريد ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ [الأنعام: 107]. ولكنه لم يفعل، بل تركهم وإرادتهم الحسية الضرورية في عمل الآخرة كما هي في عمل الدنيا سواءً بسواء.

و﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾ أقوى من «أخذ»؛ وهو دليل على الاستمرار، وعلى أن الإنسان كدح حتى شقَّ له طريقًا إلى ربه، والعادة أن «الاتخاذ» في اللغة يُستعمل في الأمر المعتاد المتكرر، كاستعمال الآنية والملابس والفرش والمواضع والبساتين ونحوها، فكأن المعنى هنا أنه كرر العبودية بصيغها المتعددة حتى صارت سَجِيَّة وطبعًا، ومع تراكمها الزمني سهلت عليه، وذل لها قلبه ولسانه وجوارحه، وذهبت عنه مع الزمن وتقادم الأيام دواعي الشهوات ونوازعها، ومواضع الشبهات والتباساتها، فآمن عقله وقلبه وجوارحه، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

والمآب هو: الطريق والمرجع والمنهج الذي يسلكه[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 53)، و«تفسير الماوردي» (6/ 190)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 149)، و«زاد المسير» (4/ 392)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 310).

* ﴿ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾:

آية خاتمة جامعة لأول الحديث وآخره، يتكلم تعالى بضمير المعظِّم لنفسه، المعظَّم من عباده: ﴿ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾، **والإنذار** هو: التعليم على سبيل التحذير والتخويف[1]، وهو واضح في هذه السورة، بذكر النار وعذابها وهول الموقف، وقدَّمه لتقدمه في السياق ولطبيعة الحال التي نزلت فيها السورة؛ حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يواجه التكذيب والعناد بمكة.

وكيف يكون هذا العذاب قريبا[2]؟

1- يجوز أن يكون المعنى أنَّ يوم القيامة أجل معدود، وميقات معلوم، إلا أنه قريب بالقياس إلى سرعة أيام الدنيا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا﴾ [الأنبياء: 1].

2- أو يكون قريبًا باعتبار أن المقصود عذاب الدنيا؛ لأن الله أنذرهم عذاب الدنيا والآخرة، كما وقع لهم في بدر وفتح مكة، وهذه كانت للمخاطبين أنفسهم وليس لجنسهم، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21].

3- **ومن معاني كونه قريبًا:** أنه مرهون بالموت، فإن الإنسان إذا مات قامت قيامته.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 402)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 8015)، و«التفسير البسيط» للواحدي (2/ 95)، (15/ 90)، و«المحرر الوجيز» (1/ 88)، و«تفسير الرازي» (31/ 26).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 191)، و«تفسير القشيري» (3/ 680)، و«تفسير الرازي» (31/ 26)، و«تفسير القرطبي» (19/ 188)، والمصادر السابقة.

﴿بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ﴾ بعينه ﴿ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، **والمقصود**: ما عمل، وما سمعت أذنه، وما مشت إليه قدمه، وما فاه به لسانه، وهو جارٍ على لغة العرب في التعبير باليدين، **والمقصود**: الجوارح.

وقوله هنا: ﴿وَلَا﴾ يعزِّز أن المرء يوم القيامة يرى صورته وهو يعمل أو يقول، وهي مسجلة كما وقعت، تُرى وتُسمع وتُدْرك بما لا يدرك في الدنيا.

﴿وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ إشارة إلى أن أصل الوعيد للكافرين، وأن المؤمن بمنجاة من ذلك كله، وإن عُذِّب في ذنب ما إلا أن مَرَدَّه بإذن الله إلى رحمة الله ورضوانه، ولهذا قال هنا: ﴿وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾، واستخدام حرف ليت يدل على بُعْد هذا الأمر، وأنه صار مجرد أمنية**!**

وقد يجوز أن يكون المعنى: أنه يتمنى ذلك إذا رأى الحيوانات والوحوش قد استحالت ترابًا، حين يقال لها: «**كوني ترابًا**». فتكون ترابًا، بعدما يُقتَصُّ لبعضها من بعض- كما قاله بعض السلف[1]- فيتمنى مصير الحيوانات وهو تحوُّلها إلى تراب، ويحتمل تمنِّي أنه لم يُخلق؛ لأنه مخلوق أصلًا من التراب، أو لم يبعث بعدما هلك، كما قال: ﴿□□□﴾ [الحاقة: 27].

وكلا المعنيين قريب[2]، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «العظمة» (3/ 821)، و«المستدرك» (2/ 316)، (4/ 575)، و«البعث والنشور» للبيهقي (ص336)، و«السلسلة الصحيحة» (1966).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 191)، و«الكشاف» (4/ 692)، و«تفسير الرازي» (31/ 27)، والمصادر السابقة.

سورة النازعات

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «**سورة النازعات**»، أو «**سورة** ﴿ذَاتُ﴾»[1].

ويسمِّيها البعض بأسماء باعتبار ألفاظٍ لم تَرِد إلَّا فيها، كـ: «**سورة الساهرة**»، و«**سورة الطامَّة**»[2].

* **عدد آياتها:** ست وأربعون آية عند أهل الكوفة، وخمس وأربعون عند الجمهور[3].

* **وهي مكية** بإجماع المفسِّرين، كما ذكر ابن عطية، والقرطبي، وابن الجوزي، والقاسمي، وابن عاشور، وغيرهم[4].

* ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص701)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 387)، و«صحيح البخاري» (6/ 166)، و«تفسير الطبري» (24/ 57)، و«المحرر الوجيز» (5/ 430)، و«تفسير القرطبي» (19/ 190)، و«التحرير والتنوير» (30/ 59).

(2) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 201)، و«فتح القدير» (5/ 449)، و«روح المعاني» (15/ 223)، و«التحرير والتنوير» (30/ 59).

(3) وقد اختلفوا في قوله: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾، وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص363)، و«الكشاف» (4/ 692)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص319)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 554)، و«تفسير القرطبي» (19/ 190).

(4) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 430)، و«زاد المسير» (4/ 493)، و«تفسير القرطبي» (19/ 190)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 547)، و«تفسير القاسمي» (9/ 395)، والمصادر السابقة.

هذا قَسَمٌ من الله بـ«النازعات»، **وقد اختلف المفسرون في تحديد معناها على أقوال:**

هل هي الملائكة؟ **أم** سكرات الموت؟ **أم** هي الوحوش؟ **أم** هي النجوم؟ إلى غير ذلك من الأقوال المبثوثة في كتب التفسير.

والمختار أن «النازعات» وما عُطِف عليها من المُقْسَم به في هذه السورة ترجع إلى شيء واحد، ولعلها «الملائكة»، كما هو قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما، وجماعة من السلف وأئمة التفسير[1].

أقسم تعالى بها على أحوال متعدِّدة، فأول ما أقسم به: ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ أي: الملائكة تنزع أرواح الكفار بقوة وشدة.

وقوله: ﴿ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ أي: أنها تستغرق في النزع مثل صاحب القوس، فالملائكة تنزع أرواح الكفار من كل أطرافهم؛ فإن روح الكافر تتفرَّق في جسده، فيجمعها الملائكة وينتزعونها نزعًا شديدًا كما يُنتَزَع السَّفُّود من الصوف المبلول، ولذلك يُقال لحالة الموت: حالة النـزع.

* ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾:

الناشطات هي: الملائكة حينما تنشط أرواح المؤمنين فتقبضها برفق ورحمة ولين، فتسيل روح المؤمن كما تسيل القطرة مِن فم السقاء، وكما قال النبيُّ صلى الله عليه

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 57)، و«تفسير البغوي» (5/ 204)، و«المحرر الوجيز» (5/ 430)، و«تفسير الرازي» (31/ 28)، و«تفسير القرطبي» (19/ 190)، و«التحرير والتنوير» (30/ 61)، والمصادر السابقة.

وسلم: «**المؤمنُ يموتُ بعَرَقِ الجبينِ**»[1]؛ لأن الملائكة تنزع روحه برفق وتبشِّره: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: 30].

❊ ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ﴾:

هي الملائكة تَسْبَح بين السماء والأرض، فتصعد بأرواح المؤمنين، أو تنزل لقبض مَن حانت منيَّته من العباد، أو تنزل بالوحي، أو تنزل بأمر الله عز وجل.

وقد ذكر الله أن للملائكة أجنحةً، كما في قوله: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: 1].

❊ ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾:

من هنا اختلف السياق وانتقل من كونه قَسَمًا إلى كونه عطفًا، فالسابقات هنا تابعة للسابحات، وهي الملائكة تَسْبح بين السماء والأرض، والسَّبْح يدل على السرعة، مما ناسب أن يعطف على ذلك السَّبْقِ في قوله: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾، فالملائكة سَبَقت بني آدم بالإيمان: ﴿□ □ □ □ □ □ □ □﴾ [التحريم: 6]، وسَبَقت بالوحي إلى الأنبياء، وسَبَقت بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وتسبق بتنفيذ ما أُمرت به.

❊ ﴿١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾:

عامة المفسرون على أن المقصود بالمدبِّرات: الملائكة[2]؛ فهي تدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بإذن ربها؛ **فمنهم** مَن يكون مُوكَلًا بالقَطْر، **ومنهم** مَن يكون مُوكلًا

---

(1) أخرجه الطيالسي (846)، وأحمد (22964)، والترمذي (982)، وابن ماجه (1452)، والنسائي (4/ 6)، والحاكم (1/ 361) من حديث بُريدة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 65)، و«تفسير الماوردي» (6/ 194)، و«المحرر الوجيز» (5/ 431)، و«زاد المسير» (4/ 394)، و«تفسير القرطبي» (19/ 194)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 313).

بالوحي، **ومنهم** مَن يكون مُوكلًا بقبض الأرواح، **ومنهم** مَن يكون مُوكلًا بالحفظ، **ومنهم** مَن يكون مُوكلًا بالأخذ والعقاب.. إلخ.

وفي قوله: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾.. ﴿ءَالَآءِ﴾.. ﴿١٣﴾ تسلسل طبيعي في بيان شيء من وظائف الملائكة، فهي تَسْبَح بين السماء والأرض وتسبق؛ لأنها من أمر الله، وتدبِّر ما كُلِّفت به، وهذا أحد أسباب اختيار هذا القول، وهو أن المقصود بالقَسَم كله: الملائكة، **للأسباب الآتية:**

1- عامة المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى: ﴿١٣ خَلَقَ﴾: الملائكة، فكذلك ما قبله؛ لأن حمل قسم على معنى وحمل الآخر على معنى مختلف، لا يخلو من بُعد وتكلُّف.

2- أن السورة كلها تتعلق بالدار الآخرة والبعث والجزاء والنشور، وأول مراحل الدار الآخرة هو الموت، فكان مناسبًا أن يكون القسم مبدوءًا بـ«النازعات» ثم «الناشطات» إشارة إلى بداية مرحلة الدار الآخرة، وإنما فَصَل الله تعالى في أول السورة بين «النازعات» و«الناشطات» للفرق بين حالة قبض أرواح المؤمنين وحالة قبض أرواح الكافرين، وأنهما مختلفتان لا تستويان، وكأن في ذلك إشارة إلى أنه من بداية انتقالهم من الدار الدنيا إلى الدار الأخرى يبدأ الفرق يتضح ويظهر جليًّا، فهؤلاء تُنْزَع أرواحُهم بقوة وشدة، وأولئك تُنْزَع أرواحهم برفق ولين، وتُنشط نشطًا.

* ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن﴾:

وهنا لا نجد جواب القَسَم في السياق، ولا في اللفظ، لكنه متضمّن في المعنى، وهو يتعلق بالراجفة والرادفة والبعث، فيكون معنى القسم: لتُبْعَثُنَّ أيها الناس، إذ البعث واقع لا محالة.

وهذا القَسَم فيه قوة؛ لأن الله تعالى لا يُقْسم إلا بعظيم ينبغي أن تلتفت إليه الأنظار، وعند ما يكون القسم بأشياء جديدة يسمعها لأول وهلةٍ، فإن هذا يهزُّ الإنسان هزًّا، خاصة إن كان ممن لديهم ذائقة عربية صافية، فيلتفت لهذا القَسَم ويصغي، باحثًا عن الموضوع، لكنه يفاجأ بأن السياق تجاوز موضوع المقسم عليه، وترك التصريح بجواب القسم، وانتقل بالإضراب إلى موضوع آخر، فقال: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾، فهذا يُحدِث في القلب تطلُّعًا إلى البحث، ويأتي الجواب أن المُقْسَم به محذوف معروف، وتقديره هو البعث وعودة الأرواح إلى أجسادها، كما دلت عليه الأقسام ذاتها.

وهذا يدل على عظمة موضوع البعث، وأنه من أركان الإيمان، وهو الفارق بين الإيمان والكفر، فإن الإنسان إذا آمن بالبعث اعتدل الميزان عنده، وسعى لإصلاح آخرته، كما يسعى لإصلاح دنياه.

والراجفة هي: النفخة الأولى، وهي الظرف الذي يقع فيه البعث، قال تعالى: ﴿ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [المزمل: 14]، فهي صوت مُزَلزِل مُجلجِل قوي، الله تعالى أعلم بكُنْهِه، من أثره تحصل زلزلة الأرض، وموت الكائنات، وتغيُّر نظام الحياة المألوف.

والرَّادفة هي: صيحة أخرى، وبينهما ما شاء الله تعالى من السنين، وفيها إِحياء الناس بعد موتهم، وإعادة الأرواح إلى الأجساد، وقيام الناس لرب العالمين[1].

❋ وهذه الحقيقة جديرة أن تغيِّر من حياة المرء الذي يؤمن بها، وتضيف بُعدًا جديدًا لحساباته ومقاييسه، وتؤثِّر في مواقفه وخياراته، ولهذا قال سبحانه:

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 278)، و«زاد المسير» (4/ 393- 394)، و«الكشاف» (4/ 693)، و«تفسير الرازي» (31/ 34)، و«تفسير ابن كثير» (3/ 382)، والمصادر الآتية.

﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ أي: يوم البعث، وجاءت القلوب هنا مُنكَّرة؛ إشارة إلى عدم الاستغراق، أي: ليست كل القلوب كذلك، وإنما ثمة قلوب واجفة وهي قلوب الكافرين، والتعبير بالجمع يدل على كثرتها.

والواجفة هي: الخائفة القلقة[1]، كما وصفها بقوله: ﴿فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى﴾ [غافر: 18].

* ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا ﴾:

قال: ﴿ فَبِأَيِّ ﴾، ولم يقل: «أبصارهم»، أي: أبصار تلك القلوب.

وفيه معنى لطيف؛ وهو أن السمع والجوارح مرتبطة بالقلب، فبمجرد ما ترى الإنسان تعرف كثيرًا مما يخفي قلبه، كما يقول الشاعر[2]:

والعينُ تعرفُ من عَيْنَيْ محدِّثِها *** إن كان من حزبِها أو مِن أعاديها

وكما تقول لإنسان: إني أقرأ في عينيك أنك خائف أو متردِّد.

وكثيرًا ما يمكن معرفة الصفات الأساسية عبر قراءة الملامح الأولى للإنسان، حين نشاهده لأول وهلة.

ومشهد الأبصار الخاشعة مناسب لمشهد القلوب الواجفة، فما دامت هذه القلوب واجفة قلقة خائفة مرعوبة، فإن هذا يظهر في الأبصار جليًّا، وثَمَّ فرق بين إنسان ثابت البصر قويه، وآخر زائغ العين، قلق لا يستقرُّ على حال، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: 45].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 387)، و«تفسير الطبري» (24/ 65، 68)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 174)، و«تفسير القرطبي» (19/ 196)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «غرر الخصائص الواضحة» (ص58)، و«فاكهة الخلفاء» (ص261).

ولم يقل: «ذليلة»، وإن كان المعنى مقاربًا، لكنه عبَّر بـ﴿ءَالَآءِ﴾؛ لأن هؤلاء كانوا في الدنيا يُطْلَب منهم الخشوع لله، فيُعْرِضون ويستكبرون: ﴿ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الصافات: 35]، وربما كان لهم صولجان وسلطان وبأس وقوة، وكانت تخشع منهم النفوس وتخشاهم، فيوم القيامة يصوِّرهم الله تعالى بهذا المشهد المَهِين، وهو أن قلوبهم واجفة، وأبصارهم خاشعة منكسرة، نقيض ما كانوا يظهرون عليه من القوة والبطش في الدنيا، وفي حال مثل التي كانوا يذيقونها الناس من التخويف والإرعاب!

* ﴿تُكَذِّبَانِ ١٦ □□□□﴾:

وهذا المقال يقولونه- والله أعلم- في الدنيا، فبعد أن صوَّر لنا الله هذه اللمحة السريعة والصورة العابرة عنهم وهم في موقف القيامة، أراد أن يقارن ذلك بما كانوا عليه في الدنيا، حينما كانوا ينكرون ويجحدون.

والتعبير بالفعل المضارع يدل على التكرار، فهم كثيرًا ما يجادلون في شأن البعث والنشور، فكلما دُعوا إلى التوحيد والإيمان بالبعث استكبروا، وقالوا: هل سوف نُرَدُّ إلى الحافرة؟

والحافرة هي: الحالة الأولى، كما تقول العرب: رجع فلان إلى حافرته. يعني: إلى ما كان عليه في حالته الأولى. فلو أن إنسانًا كان على فساد، ثم صلح، ثم رجع إلى ما كان عليه، فإنك تقول: فلان رجع إلى حافرته، أي: إلى حالته الأولى.

أو هي الأرض، تُسمَّى: الحافرة؛ لأنها تُحفَر بأقدام الخلق في مشيهم وركضهم وسعيهم، وفي ذلك إشارة إلى العمل والدأب في الدنيا، فهم يقولون: هل سوف نعاد إلى الأرض مرة أخرى؟[1].

❁ ﴿□□□□□﴾:

هذا يؤكِّد أن مساق كلامهم في الدنيا؛ لأنهم لو كانوا في الآخرة لما قالوا ذلك؛ لأنهم قد كانوا عظامًا نَخِرة ثم بُعِثوا، وهم يتساءلون عن المستقبل بعد الموت، وهم يؤمنون بالموت، إذْ لا أحد إلا وهو يؤمن بالموت، أي: إذا بَلِيَت أجسادُهم، ولم يبقَ إلا العظام المتآكلة، وحتى العظام تَبْلَى، ولكنهم يتحدَّثون عما يشاهدون من آثار الموتى، فهم بقولهم هذا يستبعدون البعث، وينسون أن الروح مما لم يشهدوا ولم يقفوا له على فناء!

فإذا بلي الجسد بقيت الروح، ثم تعود مرة أخرى بإذن ربها.

❁ ﴿□□□□□□﴾:

ظاهر هذا القول الاستهزاء والسخرية.

وهنا نلحظ أنه تعالى عبَّر في هذه الآية بـ﴿□﴾، ولم يعبِّر بـ«يقولون»؛ لأن قولهم هذا ليس من الحجج التي يكرِّرونها، ولكنها كلمة خرجت في حالة استبعاد للأمر، أو تضاحك بعضهم مع بعض.

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 195)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص244)، و«تفسير البغوي» (5/ 206)، و«المحرر الوجيز» (5/ 432)، و«زاد المسير» (4/ 395)، و«تفسير القرطبي» (19/ 196).

وينظر أيضًا: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (1/ 360)، و«أساس البلاغة» (1/ 199)، و«الجمهرة» (1/ 593)، و«تاج العروس» (11/ 64، 68، 69) «ح ف ر».

❊ ﴿□□□□□﴾ فالأمر يسير، ﴿□□□□﴾ أي: لا يحتاج الأمر إلى معالجة وجهد؛ لأن أمره ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، فإعادة خلقهم في الآخرة لا يحتاج إلى ما كانت عليه نشأتهم أول مرة بأن يكون أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة، ويظلَّ تسعة أشهر في بطن أمه، ثم يولد... إلخ، فهاهم على ظهر الأرض أحياءً بعدما كانوا في بطنها أمواتًا.

والساهرة على قول الجمهور: الأرض. **وبعضهم يقول**: هي: أرض الشام. **والصواب**: أنها الأرض كلها[1].

واختيرت هذه المفردة دون غيرها؛ لأن الأرض التي سيُبْعَثون عليها غير أرض الدنيا، في تضاريسها وطبيعتها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ [إبراهيم: 48]، فمعنى كونها «ساهرة» أي: ممتدة ليس فيها جبال ولا مرتفعات ولا منخفضات، كما قال تعالى: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: 105- 107]، أي: يمشي فيها السَّراب، فيرى الناس الأرض كالسَّراب؛ لامتدادها واتساعها.

❊ ﴿□□□□□﴾:

خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد أتاه هذا الحديث مرارًا، وقصة موسى عليه السلام هي أكثر قصص القرآن، حتى قال بعض المفسرين[2]: كاد القرآن أن يكون كله حديثًا عن بني إسرائيل؛ لشدة الشبه بين دعوة موسى عليه السلام ودعوة

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 74)، و«المحرر الوجيز» (5/ 433)، و«زاد المسير» (4/ 395)، و«تفسير القرطبي» (19/ 200)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 324)، و«التحرير والتنوير» (30/ 73).

(2) ينظر: «تفسير ابن عرفة» (1/ 313)، و«في ظلال القرآن» (1/ 66، 261)، (3/ 1328)، و«التفسير القرآني للقرآن» (10/ 112).

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وللمعركة التي علم الله أنها سوف تكون في آخر الزمن بين الأمة المسلمة وبين الصهاينة ومَن وراءهم.

والمعنى: قد أتاك[1]، فهو سؤال للتقرير، وفيه تذكير بالقصة، وقد سمَّاه الله تعالى حديثًا، إشارة إلى أنه خبر حقيقي.

واختار الله تعالى قصة موسى عليه السلام تسليةً للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان يعايش أهل الكفر في مكة، فهي دعوة لاقتباس العبرة والدرس.

وهو تلويح وتلميح للمشركين بمكة أن سيصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم إن لم يعتبروا.

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾:

ذُكِرَت قصة موسى عليه السلام مختصرة، والاختصار يتطلَّب ذِكْرَ الأمر المهمِّ في السياق، وهذا من أسرار التكرار في القرآن، فإن القصة تُكرَّر، وفي كل موضع يُذْكَر ما يناسب السياق، فهنا بدأ من وقت نداء الله لموسى عليه السلام وهذا يشبه ما في «سورة طه»: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾، وقال: ﴿٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٥٠﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 408)، و«تفسير الماوردي» (3/ 395)، و«تفسير الرازي» (31/ 33)، و«تفسير القرطبي» (19/ 195)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿ مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾، وأول «سورة الغاشية».

ولك أن تتصور إنسانًا يتيه في الصحراء، ثم يجد النار، فيذهب إليها كي يظفر بقبس يهتدي به في الطريق هو وزوجته، فيفاجأ أن الله تعالى يمنحه قَبَسًا يهديه، ويهدي به مَن شاء من عباده إلى خيري الدنيا والآخرة، ثم يخاطبه ربه مباشرة.

ووقع التكليم مرة أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾ [الأعراف: 143]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، ولتكرار التكليم سُمِّي موسى بـ«الكليم».

و﴿بِٱلْبَصَرِ﴾ اسم الوادي على القول الصحيح، وقيل غير ذلك[1]، وهذا الوادي يوجد في سَيْناء، قريبًا من مصر، أي: بين مصر وفلسطين، وهو بقرب جبل الطُّور.

وقد وصفه تعالى بأنه «مقدَّس»، أي: مطهَّر، ولذلك اختاره محلًّا للنداء.

* ﴿ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿صَلْصَٰلٍ﴾ واحد الفراعنة، وهي أمة حكمت مصر أزمنة متطاولة، ويقال: إن «إخناتون» هو أول مَن تَسمَّى بفرعون، والملك الذي خاطبه موسى ودعاه يُسمَّى فرعون أيضًا.

وفي القرآن ما يدل على أن الفراعنة ليسوا وحدهم الذين حكموا مصر قديمًا، كما في قصة يوسف عليه السلام، حيث سمَّى الله تعالى حاكم مصر بـ﴿وَكُلُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ [يوسف: 54]، وقال: ﴿۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ﴾ [يوسف: 76]، ولم يكن يُسمَّى بـ«الفرعون».

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص703)، و«تفسير عبد الرزاق» (2/ 367)، (3/ 388)، و«تفسير الطبري» (16/ 28)، (24/ 79)، و«تفسير الرازي» (22/ 19)، (31/ 38)، و«تفسير القرطبي» (11/ 175)، و«التحرير والتنوير» (30/ 75).

واختلف المؤرِّخون وعلماء الآثار في تحديد اسم ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾ الذي أُرْسِل له موسى عليه السلام، والكثيرون منهم يقولون: إنه: رمسيس الثاني.

وموريس بوكاي في كتابه: «القرآن والتوراة والإنجيل في العلم الحديث» رجَّح أن فرعون المرسَل إليه موسى هو: ابن رمسيس الثاني[1].

ويقال: إن جثة فرعون الذي أُرسل إليه موسى عليه السلام هي الموجودة اليوم في المتحف المصري في القاهرة، وهي محنَّطة بطريقة تحفظ الجثة تمامًا، حتى إنك ترى الأظفار والشعر والجسد كاملًا غير منقوص، ويقول بعضهم: إن هذه الجثة فيها كسور في العظام من غير أن يكون فيها جروح في الجلد، مما يدل على أن الكسر كان بسبب ضغط الماء، وقد ذكر الله سبحانه في ذلك آية معجزة، فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ﴾ [يونس: 92]، فبعدما أغرقه البحر، وأماته الله تعالى، قذفه البحر إلى الشاطئ، فأخذه أتباعه من بعده وحنَّطوه، وبقي بأمر الله؛ ليكون لَمن خلفه آية، وهذا احتمال لا يمكن الجزم به.

وكلمة ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾ كلمة مركَّبة من لفظين: «فر»، ومعناه: القصر، أو المبنى الفخم. و«عون»، ومعناه: العظيم، فيكون معنى «فرعون»: عظيم القصر، وهو مكان سكن فرعون.

وقد وصف تعالى فرعون في هذه الآية بالطغيان، وهو مجاوزة الحد بأمرين[2]:

---

(1) ينظر: «قصة الحضارة» (2/ 181)، و«أوضح التفاسير» (ص468)، و«التفسير الوسيط» لطنطاوي (5/ 342)، (7/ 267)، (10/ 374)، (12/ 278)، و«التفسير الوسيط» (1/ 98)، (4/ 136- مجمع البحوث الإسلامية)، وما تقدم في «سورة التحريم»: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ ...﴾ [التحريم: 11].

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (1/ 90)، و«زاد المسير» (1/ 231)، و«تفسير الرازي» (2/ 311)، و«تفسير القرطبي» (1/ 209)، و«فتح القدير» (1/ 53).

1- عصيان الله عز وجل؛ لأن الطغيان تمرُّد على الله تعالى وكفرٌ به، ويكفي من كفره ادعاء الألوهية.

2- استعباد الناس.

فهو تمرُّد على الله، وظلم لعباد الله.

❊ ومع أن فرعون قد طغى، إلا أن الله علَّم موسى عليه السلام الأدب في الدعوة، فقال: ﴿(٥١) وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ (٥٢)﴾:

وجملة: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ ﴾ أسلوب من أساليب التلطُّف والتأدُّب.

وقال تعالى لموسى وهارون عليه السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 44]، ولكن في هذه الآية تحديدًا ذكر تعالى أنه رتَّب لموسى هذا القول اللَّين، فأمره أن يقول لفرعون: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾، أن تكون زاكيًا طاهرًا، فعرض عليه الأمر الأول الذي هو في مصلحته، وفيه زكاة قلبه وطهارته بالمعاني الفاضلة، وفي عقله وفي ضميره، وفي وجدانه وحياته.

❊ ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)﴾:

ولم يذكر اسم الله تعالى هنا، وإنما قال: ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾، يعني: إلى خالقك وموجدك؛ لأن الفطرة تهدي إلى الله، وتدلُّ على الخالق الموجِد المبدِع سبحانه؛ ولأن الفراعنة كانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة.

وهكذا كان فرعون هذا يزعم أنه ابن للإله، ولهذا خاطبه موسى بهذا الخطاب، فقال: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ يعني: الذي خلقك ورزقك وسوَّاك وعدلك.

وقول موسى عليه السلام: ﴿ وَكُلُّ ﴾ نقض لمفهوم الربوبية المزيَّف الذي كان ينتحله الفرعون وحاشيته، وتأسيس لمفهوم جديد يقوم على التوحيد والعبودية والفصل الحاسم بين الخالق المعبود وبين المخلوق الخاشع المتذلِّل.

وقوله: ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾ دليل على أن العلم الحقيقي ثمرته الخشية، ولا خير في علم لا يُورث الخشية.

* وطَوَى الله تعالى كثيرًا من القصة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ﴾، أي: العصا أو اليد التي فيها العبرة، وقصتها معلومة وردت مفصَّلة في مواضع من القرآن.

* ﴿وَنَهَرٖ ٥٤ فِي﴾:

إشارة إلى سرعة التكذيب، وفيه دلالة على مبلغ الكِبْر في نفس فرعون، مع أنه مستيقن بصدق موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [النمل: 14] والطغيان يفضي بصاحبه إلى رد الحق والاستكبار عنه.

والعصيان: نتيجة طبيعية مرتَقبة للتكذيب برسالات الله.

* ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

الإدبار إعراض، وكأنه انشغل بحرب الدعوة عن التفكير فيها وتأملها.

والتعبير بـ﴿عِندَ﴾ إشارة إلى بذل غاية الوسع في التخطيط والكيد وللقضاء على الدعوة التي تهدِّد سلطانه وملكه، وإلى الاستعجال والسرعة نتيجة الشعور بالخطر، ولهذا قال: ﴿مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾، يعني: حشر السَّحَرة، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ﴾ [الأعراف: 111]، فحشرهم من كل الأنحاء في اجتماع عامٍّ، وجمع الناس وناداهم وصاح فيهم بدعوى الإلهية.

* ﴿١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ﴾:

وقد ذكر بعض المفسرين أن معنى هذا القول: أنا سيِّدكم.. أنا حاكمكم.. أنا الذي تجب عليكم طاعتي، وقد أشار الرازي إلى شيء من هذا المعنى[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (14/ 341).

والأرجح أنها على ظاهرها، ولا يعني بالضرورة ادِّعاء أنه مبدع الكون وخالقه، لكن كان يعتقد أن له نسبًا إلى الآلهة.

ومثل هذا الاعتقاد كان منتشِرًا في الأمم الوثنية، كاليونان والرومان وغيرهم؛ ولهذا لما اعتنق قُسطنطين النصرانية حرَّفها وخلط فيها بين الألوهية وبين البشرية، فاعتقدوا أن في بعض البشر شيئًا من خصائص الألوهية.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن فرعون كان منذ أربعين سنة يقول لهم: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [القصص: 38]»[1].

ولكي يظهر للناس صدقه، فإنه خاطب هامان بقوله: ﴿۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ﴾.

والتعبير بالظن كان كلامًا خاصًّا، وإلا فهو يعلن للناس تكذيبه بتصريح مشبَّع باليقين.

❊ وعند نشوة الطغيان والتكبر كان أمره أقرب ما يكون إلى الزوال، وهذه سنة الله تعالى في الظالمين: ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ﴾:

الفاء تدل على التعقيب، أي: أنزل عليه عقابًا مُنَـكِّلًا يعتبر به المعتبرون، و﴿ٱلْبَيَانَ﴾ هي: الدار الآخرة، وقدَّمها؛ لأن عقابها أطول وأشد، ﴿۝٤﴾ هي: الدنيا؛ لأن عقابها مهما طال فهو يسير، ففرعون غرق في الماء، وكان هذا عقابه وعقاب مَن معه، وهذا اختيار ابن كثير وجماعة.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (12/ 433)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 315).

أما الطبري فيرى أن المقصود بـ﴿ٱلْبَيَانَ﴾: الكلمة الآخرة، وهي قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾، ﴿۝٤﴾: قوله: ﴿۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [القصص: 38].

وهذا له وجه، **وأولى منه** ما قاله مجاهد: إن المقصود بقوله: ﴿ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ أي: أخذه الله عقوبة الأول والآخر من أعماله[1].

وهذا معروف في أساليب العرب، فيقولون على سبيل التهديد والوعيد: يا فلان، إذا عاقبتك فسوف أعاقبك عقوبة الآخرة والأولى من أعمالك، يعني: على كل عمل عملته وأسلفته من الأخطاء والذنوب.

* ﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾:

في نهاية حال فرعون عبرة لقريش إن كانوا يعتبرون ويخشون مثل هذا المصير أن يحلَّ بهم، وهو كان أقوى منهم، وهم يعلمون مصيره، وقد كان في قريش مَن سُمِّي بفرعون هذه الأمة، فكان من وعيد الله وتهديده إياه أن قال في شأنه: ﴿تُكَذِّبَانِ ۝١٦ ▯ ▯▯▯﴾ [العلق: 15].

ومن العبر العظيمة التي تضمنتها القصة:

1- أهمية الاعتبار بالحوادث؛ فإن التاريخ يعيد نفسه، والحاضر هو نمط الماضي، والمستقبل نمط الحاضر، والتاريخ يخلو غالبًا من القفزات والمفاجآت، فهو يمضي وفق سُنَّة وناموس، فمَن عرف هذا الناموس من خلال استقراء أحداث الماضي استطاع أن يوظِّفه بإصلاح الحاضر وبناء المستقبل.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 83)، و«تفسير الماوردي» (6/ 198)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 190)، و«زاد المسير» (4/ 396)، و«تفسير الرازي» (31/ 42)، و«تفسير القرطبي» (19/ 202)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 315).

ولهذا يقول تعالى: ﴿بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ﴾ [النور: 44]، وقال سبحانه: ﴿۝١٦ ▯▯﴾ [الحشر: 2]، فأثنى الله تعالى على مَن يعتبرون ويفيدون من مثل هذه العبر والآيات، وكما قال الشاعر:

فمَن وعَى التاريخَ في صَدْرِه *** أضـــافَ أعمـارًا إلى عُمْـرِه

وقال آخر:

اقرؤوا التاريخَ إذ فيهِ العِبَـرْ *** ضلَّ قومٌ ليس يدرونَ الخبرْ

وما أكثر الذين يقرؤون كتب التاريخ قراءة التسلية وحب الاطلاع، دون قراءة الاعتبار والاتعاظ الكاشفة للنواميس والسنن الإلهية، أو أن يقيسوا أنفسهم عليها، كأفراد أو جماعات أو دول.

2- مع طغيان فرعون أمر موسى باللِّين!

وفي هذا السياق قصة شهيرة، وهي أن رجلًا قال لهارون الرَّشيد: يا أميرَ المؤمنين، إني أريدُ أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة، فاحتملها. فقال: كلا؛ إن الله أمر مَن هو خيرٌ منك بإلانة القول لَمن هو شرٌّ مني؛ قال لنبيِّه موسى إذ أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤][1].

ومن الحقائق المؤسفة أن في خطاباتنا الدعوية شيئًا من القسوة والتعنيف، خاصة للبسطاء والضعفاء، وعامة الناس فضلًا عن خاصتهم، وثَمَّ خلط بين مفهوم القوة في الحق وبين القسوة، كالصلف والاندفاع، والتهجم على المخالف أو التسرع في تصنيفه

---

(1) ينظر: «العقد الفريد» (3/ 110)، و«مرآة الجنان» (2/ 55).

ونحوها مع المأمون وغيره: ينظر: «العفو والاعتذار» للرقام البصري (2/ 579)، و«العقد الفريد» (1/ 54)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (6/ 54)، و«مرآة الجنان» (2/ 55)، (4/ 135)، و«نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة» (ص9).

والحكم عليه، وهذا ليس من القوة في شيء، كما أن الهدوء واللِّين ليس ضعفًا، و«**الشَّديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب**»[1].

فالهدوء في لغة الخطاب، والتدرج، والبحث عن الأساليب التي تكون مدعاة للقبول أمر مطلوب، وهو من أسباب الاستجابة، كما يقول سُليمان التَّيْمِيُّ: «ما أغضبتَ أحدًا فقَبِلَ منك»[2].

ويقول سبحانه عن نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ**﴾ [آل عمران: 159].

ينبغي للداعية أن يستخدم اللِّين في دعوته.. والابتسامة.. والكلمة الطيبة.. وتحمُّل ما يصدر من الناس من الانفعال أو ردود الأفعال.. والتدرُّج، بحيث يهيِّئ نفسه أن الفرد أو المجتمع لا يحتمل الاستجابة جملة واحدة، فيحتاج إلى التدرُّج والترقِّي، دون مساسٍ بكرامته، أو تبكيت أو تقريع، بل تحفيز على قبول النصح مع الحفاظ على إنسانية الفرد وكرامته ومكانته.

وقد كان أبو سفيان رضي الله عنه رجلًا حديث عهد بإسلام، ومع ذلك فإن النبيَّ صلى الله عليه وسلم من باب الحفاظ على شخصيته، وأن يشعر أن الدين لم يرزأه شيئًا[3] قال يوم الفتح: «**مَن دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ**»[4]. والناس ليسوا بحاجة إلى

(1) كما في «صحيح البخاري» (6114)، و«صحيح مسلم» (2609) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «التبصرة» لابن الجوزي (2/ 305)، و«اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» لابن رجب (ص84).

(3) أي: لم ينقصه شيئًا.

(4) أخرجه مسلم (1780) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الخروج لدار أبي سفيان؛ لأن مَن دخل داره فهو آمن، لكن من باب تشجيعه على تغيير موقفه التاريخي الرافض للإسلام.

فإياك أن تظن أن دعوة إنسان تستوجب إذلاله وتحقيره وتجريده من كرامته، ولا بد من بيان أن حقيقة التوبة والإنابة إلى الله لا تستدعي أن يفضح الإنسان نفسه أمام الخلائق، ولا أن يفتح لهم صفحات الماضي؛ ليظهر لهم توبته من كل خطيئة، بل يكفيه أن يجعل الأمر بينه وبين ربه.

يقول الشاعر[1]:

ولو أنَّ فرعونَ لَمَّا طغى *** وقال على الله إفكًا وزورا

أنابَ إلى الله مستغفـرًا *** لما وجـدَ اللهَ إلا غـفــورا

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64]، فرحمة الله تعالى واسعة، والداعي يُعتَبر دليلًا أو دلَّالًا يدلُّ الناس على الطريق، وليس مُقَنِّطًا من رحمة الله، أو مُنَفِّرًا عن الصراط المستقيم.

3- أشار الغزالي وابن القيم وغيرهما إلى أن النفس البشرية غالبًا ما تتشرَّب من منـزع الفرعونية إن لم يعالجها صاحبها[2].

إن مداخل التفرعن والأنانية والطغيان عند الإنسان تحتاج إلى تتبعها بالمناقيش، ولو أن الإنسان جاهد نفسه زمنًا طويلًا وذلَّلها وجرَّدها من بعض أنانيتها ثم غفل عنها

---

(1) ينظر: «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني» (ص881) منسوبًا إلى أبي بكر محمد بن يحيى الصُّولي.

(2) ينظر: «إحياء علوم الدين» (4/ 70)، و«الفوائد» لابن القيم (ص74)، و«مدارج السالكين» (1/ 224).

قليلًا، لوجد في نفسه ركامًا من التعاظم والطغيان، وقد يقع بعض ذلك تحت ستار التدين والزهد والاحتساب.

وكثير من ألوان الطغيان والكبر قد تبدو لصاحبها خفيفة وهي لطيفة المدخل، وتتسلَّل إلى النفوس كما يتسلَّل الهواء، وكما يتسلَّل النوم إلى عين المُجْهَد، حتى تتمكَّن من القلب، فيصبح الإنسان مُعْجَبًا بنفسه متكبِّرًا متعاظِمًا، فمرة يتعاظم بعلمه، كما قال تعالى: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ﴾ [غافر: 83]، ومرة يتعاظم بماله، كما قال تعالى عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: 78]، ومرة بجاهه ومنصبه أو بنسبه أو بجماله أو بمنطقه، أو بشخصيته أو بصلاحه.

وكثرة مسارب العُجب[1] والغرور والكِبْر إلى النفس تتطلَّب من صاحبها مراجعة دقيقة ومعالجة دائمة لنفسه[2].

4- في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾؛ إشارة إلى سُنَّة الله سبحانه في الطغاة- من أمثال فرعون- فإنهم هم العائق الأكبر في وجه الأنبياء والمصلحين، ومن الملاحَظ أن موسى عليه السلام لم يُبعَث إلى فرعون وهامان وقارون فحسب، بل بُعِثَ إلى بني إسرائيل كذلك، وإنما خصَّهم الله تعالى بالذكر، كما في قوله: ﴿﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ □□□□□﴾ [غافر: 23- 24]؛ لأن هؤلاء الطغاة صادروا حقوق الناس، وصادروا الأرض فجعلوها ملكهم، وصادروا المال فحازوه لهم، وصادروا حرية البشر فجعلوهم عبيدًا لهم، بل صادروا حتى عقولهم.

والمتأمِّل في حياة الناس اليوم يجد بعض ذلك في وسائل الإعلام، فكثير منها تُمارِس وصاية ومصادرة لعقول الناس، وتستخفُّ وتستهين بها، وإن كانوا يتظاهرون

---

(1) المراد: مداخله.

(2) ينظر: «أنا وأخواتها» للمؤلِّف.

بالواقعية والموضوعية والحياد، ولهذا جعل الله تعالى مقارعة الطغيان ومقاومته سرًّا في ابتلاء المؤمنين.

5- أهلك الله تعالى فرعون بالغرق، ولكن ظلَّ الحكم في مصر للفراعنة من بعده، وامتد الحكم الفرعوني لمصر طويلًا، حتى قيل: إنه تعاقب على الحكم عشرون أسرة فرعونية.

وسنة الله لا تحابي أحدًا، ولا تسير وفق هوى الناس، وإنما هي حكم ونواميس يجب أن يفقهها الإنسان ويفهمها.

ولا شك- مع ذلك- أن هلاك فرعون، ونجاة بني إسرائيل من بطشه مدعاة للسرور والفرح، ولذا لما قدم النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ وجد اليهود يصومون عاشوراء، فقال لهم: «**ما هذا اليومُ الذي تصومونه؟**». فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى اللهُ فيه موسى وقومَه، وغرَّق فيه فرعونَ وملأَه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**فنحن أحقُّ وأولى بموسى منكم**». فصامه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأمر بصيامه[1]، فنحن نصومه لله تعالى شكرًا.

فمِن حقِّنا أن نفرح بهلاك الطاغية، ولو كان هذا شيئًا جزئيًّا.

وبعض الناس محرومون من هذه المشاعر؛ لأنهم لا يعبؤون بالمكاسب الجزئية، ونحن نقول: أعطِ نفسَك فرصةً أن تفرح بما تحقَّق من الخير، واندفع من الشر، وأحسِن الظن، أما أن يظلَّ الإنسان لا يفرح إلا بتحقُّق الخير من جميع الوجوه، وزوال الشر من جميع الوجوه، ففي هذا شيء من الخيالات البعيدة التي لا يسندها الواقع.

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي﴾:

---

(1) أخرجه البخاري (2004، 3943، 4737)، ومسلم (1130) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرجه البخاري (2005)، ومسلم (1131) من حديث أبي موسى رضي الله عنه نحوه.

عَطْفُ هذه الآية على ما سبق فيه مناسبة ظاهرة، وهي أن فرعون لما تعاظم في نفسه، وادَّعى الربوبية جاءت الآية مبيِّنة لجانب من عجز الإنسان مهما طغى وتجبَّر.

وجواب هذا السؤال معروف، فمَن ذا الذي يستطيع أن يقرن نفسه بخلق السماوات والأرض؟!

فلو تأملت آثار الأمم الماضية من الفراعنة واليونان والرومان والإغريقيين والآشوريين وغيرهم، لوجدت شيئًا مدهشًا وعظيمًا، لكن ما نسبة هذا الذي رأيت إلى ما تشاهده في ملكوت السماوات والأرض؟! وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟﴾ أي: أقوَّتُكم أشدُّ وأجسامكم أمتن وأقوى أم السماء؟

والسماء تُطلَق على كل ما علا وارتفع[1]، **وقد يكون المقصود:** هذه القبة التي فوقنا، فيكون في هذا إشارة إلى مجَرَّاتها ونجومها وأقمارها وشموسها وأفلاكها الضخمة الهائلة.

والإنسان عاجز عن أن يحيط بأبعادها، فضلًا عن أن يقيس نفسه بها، ولهذا عبَّر بالبناء، أي: القوة والإحكام، فإذا كان هؤلاء البشر يبنون هياكل ومعابد، وقبورًا وأهرامات، فالله تعالى قد بنى هذه السماء العظيمة.

* ﴿ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ﴾:

والسَّمْك: السقف[2]، فالله تعالى جعلها مستوية، ليس فيها شقوق، كما قال سبحانه: ﴿وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [الملك: 3].

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص427) «س م ا»، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿□□□□□□□﴾، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 411)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 420)، و«تفسير القرطبي» (19/ 203)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 450).

يقول ابن تيمية: «إن في هذا دليلًا على كُرَوِيَّة الأرض والسماء؛ لأن عدم التفاوت والتسوية إنما يكون في الجِرْم المدوَّر الذي يستوي، بخلاف ما إذا كان مربَّعًا أو مستطيلًا أو مسطَّحًا أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يُوصَف بأنه مستوٍ؛ لأن فيه أشياء تختلف عن غيرها، وفيه زوايا وأطراف وغير ذلك»[1].

* ﴿بِٱلْقِسْطِ وَلَا﴾ أي: أظلمه، فجعله شديد الظلمة، **والليل** هنا هو الليل الذي يراه الناس على الأرض، ولكن مصدر الظلمة والنور الشمس التي هي في السماء، ولذا قال: ﴿تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾، **والضُّحى** هو نور طارئ؛ بسبب الشمس، والظلمة سببها غياب الشمس، أي: عدم وجود مصدر للنور، ولو لم يوجد مصدر للنور لكان الكون مظلمًا[2].

* ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا﴾:

أي: بعد خلق السماء، **وقد اختلف العلماء في أيهما خلق أولا؛ السماء أم الأرض؟**

فذهب جمع إلى أن السماء خُلِقت أولًا؛ استدلالًا بهذه الآية.

وذهب آخرون- **وهو الأرجح**- إلى أن الأرض خُلِقت أولًا، ثم خُلِقت السماء، ثم دُحيَت الأرض بعد خلق السماء، كما في قوله تعالى: ﴿فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن

وينظر أيضًا: «العين» (5/ 318)، و«تهذيب اللغة» (10/ 50)، و«لسان العرب» (10/ 444)، و«تاج العروس» (27/ 210) «س م ك».

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (5/ 150)، (6/ 565)، وما تقدم في «سورة نوح»: ﴿يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 89، 91)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 193- 194)، و«زاد المسير» (4/ 397)، و«تفسير القرطبي» (19/ 204).

صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ ﴾ [فصلت: 9- 11].

وهذه الآيات تدل على أن الأرض خُلِقَت أولًا في يومين، ثم بارك فيها وقدَّر فيها أقواتها، ثم استوى إلى السماء، وهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما[1]، مع أن الآيات تحتمل، والسياق لم يأت ليقرِّر مسألة فلكية ويقطع بها، بل ليوجِّه نظر الإنسان للتأمل والاعتبار والتواضع والشكر.

والدَّحْو هو: البسط والتهيئة[2]، أي: جعلها مدحوَّة مهيَّأة مُعَبَّدة مذلَّلة؛ ليعيش الناس عليها، ويمشوا ويركبوا ويبنوا ويزرعوا... فلو أن الأرض كانت صخرية لمات الناس جوعًا وعطشًا، ولو كانت مضطربة تميل؛ لما أمكن أن يبنوا عليها.

وقد جعل الله قشرتها صالحة للسُّكنى، وصالحة للنبات، وأودع في باطنها خيرات مكنوزة من الماء وغيره، وجعلها كرة معلقة في الفضاء، والذي يمسكها هو الله سبحانه، كما قال: ﴿ ﴾ [النحل: 79]، وقال: ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ﴾ [فاطر: 41].

❊ **ومن معاني «الدَّحْو»**: أن يُضمن باطن الأرض الخيرات الكثيرة، ولهذا قال: ﴿فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾، وغالب ما يحتاجه الإنسان هو: الماء والمرعى- أي: الطعام والشراب- ولهذا نجد في سياق نعيم أهل الجنة ذِكْر هاتين النعمتين، وما

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 462)، و«تفسير الماوردي» (5/ 170)، و«زاد المسير» (4/ 46- 47)، و«التحرير والتنوير» (1/ 384).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 94)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 128)، و«تفسير الماوردي» (6/ 199)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 53)، و«تفسير البغوي» (5/ 208)، و«تفسير الرازي» (31/ 46).

أكثر ما نقرأ في القرآن قوله: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ففي قوله: ﴿جَنَّٰتٖ﴾ إشارة إلى نعمة الزرع والرزق، وفي قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ إشارة إلى نعمة الماء.

* ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾:

وهذا معدود من دحو الأرض وضبطها، أي: جعل الجبال لها أوتادًا تثبتها، فالجبل بالنسبة للأرض كالوتد بالنسبة للخيمة، فهي تجعل حركتها منتظمة غير قلقة، حتى إن الإنسان لا يحس بها.

فكل جبل مغروس متجذِّر في باطن الأرض؛ ليحفظ توازنها[1]، فلا تميل ولا تضطرب، إضافة إلى كونها مصدرًا من مصادر الرزق، حيث تشتمل على المعادن وغيرها مما ينتفع الناس به.

* ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾:

هذه الآية تكررت مرتين، مرة هنا، ومرة في «سورة عبس»، لكن هنا لها سياق، وهناك لها سياق آخر، ففي «سورة عبس» ذكرها الله تعالى بعد آيات في تعداد مفردات من الرزق في قوله: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□ٱلۡعَصۡفِ﴾، بخلاف السياق هنا فلم يكن تعدادًا لمفردات الرزق، وإنما هو لفت الأنظار إلى سنن الله تعالى في الكون والحياة، وكأنه إشارة إلى أن هذه الأرزاق لو لم يكن معها سنن إلهية تحفظها لما انتفع بها الإنسان.

أو أنها محصِّلة سننٍ إلهية لطيفة كان من جرَّائها بقاء الرزق وتنوعه وتجدده بقدر حاجة البشر.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧﴾.

* ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾:

﴿﴿١٣﴾﴾: الشيء العظيم الذي يعمُّ ويغطِّي[1]، وهي شيء مرعب مفزع لا أعظم ولا أهول منه.

تجد هذا المعنى في إيقاع الكلمة ووزنها، كما هو ظاهر، **والمقصود**: القيامة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[2].

والتعبير بهذا الوصف أبلغ مما لو قال: «فإذا جاءت القيامة»؛ لأنه جاء بوصف جديد مضافًا إلى الحقيقة نفسها، وهي أن القيامة مرعبة مفزعة.

* ﴿مِن صَلۡصَـٰلٍ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾:

والتذكر يكون بعد انقطاع بذهول أو نسيان أو موت، ويكون عند رؤية القيامة والبعث، كما قال تعالى: ﴿□□□□□□□□□□□□□□﴾ [يس: 52].

وفي موضع آخر يتذكر ما سعى حين يُعرَض عليه الحساب ويُناقَش؛ فإذا جحد شيئًا شهد عليه سمعه وبصره ويداه ورجلاه بما كان يكسب[3]، ويجدها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فيتذكر ما سعى حين شهادة الجوارح عليه، وحين الحساب، وحين يؤتى الكتاب.

وهذا التذكر هو للإنسان مطلقًا، على أن من الناس مَن يتذكر ما يزيد سروره وسعادته؛ لأنه تذكر أشياء محمودة يحبها الله ويرضاها، ومنهم مَن يتذكر ما يؤلمه ويخيفه من الجرائم والجرائر.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 97)، و«تفسير القرطبي» (19/ 206)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (11/ 622)، (12/ 205)، و«الدر المنثور» (15/ 235).

(3) كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: 24]، وقوله: ﴿□□□□□□□□□□□□□﴾ [فصلت: 20].

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قصة ذلك الرجل الذي تاب؛ فيقرِّره الله تعالى بذنوبه الصغار، ويترك عنه الكبار، وهو يقرُّ بها، ولا يستطيع أن ينكر منها شيئًا، حتى إذا بشَّره الله بأنه قد أبدلها له حسنات؛ لأنه تاب إلى الله منها، فيقول: ربِّ، قد عملتُ أشياء لا أراها هاهنا. ثم ضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه[1].

* ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾:

والمقصود هنا: الكافر[2]، كما قال تعالى: ﴿□□□□□□□□□□□﴾ [الكهف: 53]، وكما أن الكفار يرون النار، فإنها تراهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ﴾ [الفرقان: 12]، وكذلك المؤمنون يرون النار، لكنها ليست رؤية الفزع والخوف والرُّعب، بل رؤية الطُّمأنينة في أن الله تعالى نجَّاهم منها، ولم يجعلهم يعملون عمل أهلها.

* ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾:

مثل فرعون ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾، وفيه تعريض بالطُّغاة في مكة الذين كانوا يحاربون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

* ﴿﴿١٦﴾□□□﴾:

أي: استحبَّها على الآخرة، وقدَّم شهواته على مرضاة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ﴾ [الأعلى: 16- 17]، وهذا سرُّ الطُّغيان؛ فإن

(1) ينظر: «صحيح مسلم» (190).

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 199)، و«تفسير القرطبي» (19/ 207)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 401)، و«فتح القدير» (5/ 459).

الإنسان يتعلق بالدنيا وزينتها وزخرفها ومتاعها، ويُؤثِر المشهود على الموعود، ويُؤثِر الفاني على الباقي[1]!

* ﴿□□□□□﴾:

أي: مردُّه ومصيره ومنتهاه إليها.

* ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□﴾:

﴿□□□□□﴾ وهي إشارة إلى مشروعية أن يُعبد الله ويُتقرَّب إليه خوفًا من النار، كما يُتقرَّب إليه حبًّا له سبحانه، والإنسان لا يعبد الله بالحب وحده، ولا بالخوف وحده، بل يعبده بالحب والرجاء والخوف، وآيات القرآن تشهد لهذا، وتدل على مشروعية أن يفعل المرء الطاعة، ويحذر المعصية؛ خوفًا من الوعيد، كما في قوله سبحانه: ﴿ ٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ﴾ [الرحمن: 46]، وقال: ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ﴾ [إبراهيم: 14].

وخوف مقام الله، إما أن يكون المقصود الخوف منه سبحانه، ومَن همَّ بالمعصية فاستحضر عظمة الله ومشاهدته ورقابته، فتركها؛ خوفًا من الله، كتبت له حسنة كاملة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**قالت الملائكةُ: ربِّ، ذاك عبدُك يريدُ أن يعملَ سيئةً- وهو أبصرُ به- فقال: ارْقُبُوه، فإن عملها، فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها، فاكتبوها له حسنةً؛ إنما تركها من جَرَّايَ**[2]»[3].

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الأعلى».

(2) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (2/ 148): «بالمدِّ- يعني: جرائي- والقصر، لغتان، معناه: من أَجْلي».

(3) أخرجه البخاري (42)، ومسلم (129).

فعلامة الخوف من الله أن يترك المعصية حيث لا يراه إلا الله، ولا يجوز أن يكون الله تعالى أهون الناظرين إليك.

وإما أن يكون المقصود الخوف من مقام الله تعالى يوم الحساب، فإنك ستُوقَف بين يديه، وسيسألك ويحاسبك، فما هو جوابك؟ وما هو قولك؟

﴿□□□□﴾ إشارة إلى وجود الهوى في النفس، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن اللهَ كتبَ على ابنِ آدمَ حظَّه مِن الزنا، أدركَ ذلك لا محالةَ، فزنا العينين النظرُ، وزنا اللسانِ المنطقُ، والنفسُ تتمنَّى وتشتهي، والفرجُ يصدِّقُ ذلك أو يكذِّبُه**»[1]. وليس النهي في أن يقع الهوى في نفس الإنسان؛ فإن كل إنسان سَوِيٍّ يقع عنده الهوى، ولكن المشروع أن ينهى نفسه عن الهوى، وعن الاسترسال معه، والعمل بمقتضاه.

وفي ذلك إشارة للفضلاء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين خافوا مقام ربهم سبحانه، وآثروا ما عنده على شهواتهم وتحمَّلوا الأذى في سبيله: ﴿□□□ □﴾، وشتان ما بين المصيرين؛ فالمؤمنون مصيرهم إلى جنة عرضها السماوات، والأرض خالدين فيها أبدًا، لا يبلى شبابهم، ولا يزول نعيمهم، وأولئك في نار تلظَّى، يتمنى أحدهم راحة يوم فلا يجدها، أو نومًا فلا يجده، أو تخفيفًا فلا يظفر به.

❊ ﴿□□□□□□﴾:

بعد ما أُخبروا عن المصيرَيْن إذا بهم يسألون عن الساعة: متى رُسُوُّها؟ والرُّسُوُّ عادة ما يكون للأشياء الكبيرة، مثل قوله: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾، وهكذا السفينة يقال عنها: ترسو، ولا يقال: رسا القارب؛ لصغره.

---

(1) أخرجه البخاري (6243)، ومسلم (2657).

والسائلون هم كفار مكة، كانوا يسألون عن الساعة، ويقولون: متى هي؟ وهو سؤال استعجال وتكذيب وسخرية.

أما اليهود والنصارى فكانوا يسألون النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الساعة، لكن سؤالهم سؤال تعجيز[1].

وكذلك بعض المسلمين كانوا يسألون النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، ولكن على جهة الاستعداد، فعن أنس رضي الله عنه، أن رجلًا من أهل البادية أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ قال: «**ما أعددتَ لها؟**». قال: حبَّ الله ورسوله. قال: «**أنت مع مَن أحببتَ**»[2].

أناسٌ يتساءلون اليوم عن وقت قيام الساعة، ويحاولون أن يحدِّدوا موعدها من خلال علم النجوم والسِّحر والكَهانة والحسابات الفلكية، أو يحاولون الوصول إلى تحديد نهاية لهذا الكون.

وبعضهم يحاول ذلك باعتماد الرُّؤى والأحلام والظُّنون، ووُجِد مَن يحاول ذلك بتأويل النصوص القرآنية[3].

❊ والقرآن يحسم ذلك كله بما لا مجال معه للتردد أو التأويل: ﴿□□□□□﴾:

أي: ليس هذا إليك، وليس لك علم به، فلا تلتفت إليهم، ولا تُجِبْهم؛ لأن هذا من علم الله عز وجل[1]، كما قال تعالى: ﴿ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾ [طه: 15].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 99)، و«تفسير الماوردي» (2/ 284)، (6/ 199)، و«تفسير النسفي» (1/ 622)، و«تفسير ابن كثير» (3/ 518)، و«فتح القدير» (2/ 311)، و«مباحث في علوم القرآن» لمنَّاع القطَّان (ص110).

(2) أخرجه البخاري (6171)، ومسلم (2639).

(3) ينظر ما تقدم في «سورة القيامة»: ﴿ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾.

❊ ﴿□□□□﴾:

أي: منتهى علمها، وهذا معنًى واضح ومناسب للسياق، أي: أن الذي يعلم متى تقوم الساعة هو الله وحده.

أو أنَّ أمْرَ الساعة إلى الله، فهو الذي يقيمها، وهو الذي يقدِّرها متى شاء، فهي من أمره ومنه وإليه[2].

وليست مهمتك أن تخبر الناس متى الساعة، ولا أن تجيب عن سؤالهم عنها، وإنما شأنك أن تحدِّثَهم عن أشراطها، وتَحُثَّهم على الإيمان بها والاستعداد لها، كما في حديث جبريل عليه السلام: «**قال: فأخبِرْني عن الساعةِ؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائلِ. قال: فأخبِرْني عن أمارتِها؟**...»[3]. يعني: علاماتها الصغرى والوسطى والكبرى.

❊ ﴿□□□□□□﴾:

قرأ الجمهور: ﴿□﴾، وقُرِئت: ﴿مُنذِرٌ﴾ بالتنوين[4]، أي: مَن يخشى الساعة فيؤمن بها ويستعد لها، ولا يتخذ الكلام في الساعة لهوًا وعبثًا.

❊ ﴿□□□□□□□□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 92)، و«تفسير الماوردي» (6/ 200)، و«زاد المسير» (4/ 398)، و«تفسير القرطبي» (19/ 209).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 100)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 203)، و«تفسير السمعاني» (6/ 153)، و«الكشاف» (4/ 699)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 318).

(3) أخرجه البخاري (50، 4777)، ومسلم (9، 10) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (8) من حديث عمر رضي الله عنه.

(4) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص671)، و«المحرر الوجيز» (5/ 435)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 398)، و«معجم القراءات» (10/ 296).

العشيَّة: ما بين زوال الشمس إلى غروبها، **والضُّحى**: من طلوع الشمس إلى وقت الزوال، أي: كأن مقامهم في الدنيا كوقت العَشِيِّ أو الضُّحى في قصره، وسرعة تقضِّيه.

وذكر الله عنهم في آيات أخرى أنهم يقولون: ﴿صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾ [المؤمنون: 113]. ومرة: عشرة أيام، ومرة: ساعة من نهار، كما في قوله: ﴿□□ □□□□□□□□□□﴾ [الأحقاف: 35]، وقوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه: 103– 104].

وإنما اختلفت إجاباتهم؛ تبعًا لاختلاف ما لبثوا وعمّروا في الحياة الدنيا، فمنهم مَن قال: لبثنا عشرة أيام. وأعقلهم وأكثرهم خبرة ومعرفة قال: لبثنا يومًا. وبعضهم قال: إنما هو بعض يوم. وبعضهم قال: إنما هي عشية أو ضحاها.

أو يكون ذلك لاختلاف تقديراتهم وحساباتهم وظنونهم، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

سورة ﴿وَمَآ﴾

*** تسمية السورة:**

اسمها الشهير في كتب التفسير والحديث: «**سورة ﴿وَمَآ أَمَرُنَآ﴾**»، أو: «**سورة ﴿وَمَآ﴾**»[1].

ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان» ضمن السور التي لها أكثر من اسم[2].

غير أنك تجد في المصادر أسماء أخرى للسورة مُقْتَبَسة من بعض مدلولاتها ومضامينها، وقد سُمِّيت: «**سورة ابن أم مكتوم**»؛ بالنظر إلى سبب النزول، و«**سورة الأعمى**»، و«**سورة الصاخَّة**»، وذكر العيني لها اسم: «**سورة السَّفَرة**»[3].

*** عدد آياتها:** أربعون آية، **وقيل**: إحدى وأربعون، **وقيل**: اثنتان وأربعون[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص705)، و«تفسير مقاتل» (4/ 587)، و«جامع الترمذي» (5/ 289)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 324)، و«تفسير الطبري» (24/ 102)، و«المستدرك» (2/ 514)، و«المحرر الوجيز» (5/ 436)، و«التحرير والتنوير» (30/ 101).

(2) ينظر: «الإتقان» (1/ 196)، و«التحرير والتنوير» (30/ 101).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 587)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 201)، و«فتح القدير» (5/ 462)، و«روح المعاني» (15/ 241)، و«عمدة القاري» (19/ 278)، و«التحرير والتنوير» (30/ 101).

(4) وقد اختلفوا في ثلاث آيات: ﴿صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾، ﴿□ □ □﴾، ﴿□□□□﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص264)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 130)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 554)، و«روح المعاني» (15/ 241)، و«التحرير والتنوير» (30/ 101).

* **نزلت بمكة** اتفاقًا، ويظهر أنها من أوائل السور المكية؛ لأن عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام[1].

* **سبب نزولها:** أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان مشغولًا بدعوة الأكابر من قريش، كعُتْبة وشَيْبة ابني رَبِيعة، فجاءه ابن أم مكتوم، وهو أعمى، فكان ينادي النبيَّ صلى الله عليه وسلم ويقول: يا رسولَ الله، علِّمني مما علَّمك الله. فكأن النبي صلى الله عليه وسلم وجد في نفسه عليه، فأعرض عنه؛ لأنه مشغول بهؤلاء القوم الذين كان يرجو إسلامهم، وذلك موقف عابر وخاطر طائر، لم يكن له استقرار ولا ثبات.

وهي تربية ربانية تأخذ بالألباب، أن يحدث هذا بسبب موازنة وترجيح نبوي بين المصالح المتعارضة، فينزل عليه الوحي الذي اعتاد أن يكون له مسلِّيًا معزِّيًا مصبِّرًا، فإذا به يحمل عتابًا على عبوسه وتولِّيه عن هذا الأعمى، وهو مشهد مليء بالدروس في الدعوة.. والصبر.. والتواضع.. وفي حساب المصالح والمفاسد.

وعبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه: اسمه: عمرو، أو: عبد الله، وعمرو أشهر، وأمه: عاتكة، واشتُهِر بهذا اللقب، وهو قريب لخديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ومن المسلمين الأوائل.

والنبي صلى الله عليه وسلم وَكَله إلى ما عنده من الدين والسابقة، حيث إنه كان من أول المهاجرين- بعد مصعب بن عُمير رضي الله عنه- إلى المدينة، ولما جاء سأله أهلُ المدينة: ما فعلَ أصحابُك الذين من بعدك؟ قال: هم أولاء على أثري، سيأتون من بعدي.

وقيل: إنه استُشهِد في معركة القادسية رضي الله عنه[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 102)، و«المحرر الوجيز» (5/ 436)، و«زاد المسير» (4/ 399)، و«تفسير القرطبي» (19/ 211)، و«التحرير والتنوير» (30/ 101)، والمصادر الآتية.

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ ۝١١﴾:

أي: كَلَحَ وقطَّب وتجهَّم وجهه[2]، **والمقصود**: النبي صلى الله عليه وسلم قطعًا من دون شك، وأعرض ببدنه، فالعُبوس يكون بالوجه، والتولِّي يكون بالبدن[3].

عاتب اللهُ عز وجل رسولَه صلى الله عليه وسلم على لمحة العُبوس التي ظهرت في تقاسيم الوجه، ولم يقع منه صلى الله عليه وسلم غير هذين الأمرين؛ العُبوس والتولِّي عن الأعمى؛ ذلك لأن مقام النبوة عظيم، لا ينبغي أن يكون فيه مثل هذا.

وفيه دليل على التفات الإسلام منذ أيامه الأولى إلى الفقراء والضعفاء والمساكين، ولهذا لما سأل هِرَقل أبا سفيان رضي الله عنه: «أشرافُ الناسِ يتَّبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم»[4].

وقد وقع للإمام الرازي- صاحب «التفسير الكبير»- زلة في تفسير هذه السورة، فذكر أن ما فعله ابن أم مكتوم كان معصية؛ لأنه أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يسأله وهو مشغولٌ بدعوة كبراء قريش، وإن ما فعله النبيُّ صلى الله عليه وسلم كان سائغًا أن يفعله.

---

(1) ينظر: «الاستيعاب» (3/ 1199)، و«تهذيب الكمال» (22/ 27)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 364- 365)، و«الإصابة» (7/ 332).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 202)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص340).

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 546)، و«تفسير السمعاني» (6/ 155)، و«تفسير القرطبي» (19/ 211)، و«فتح القدير» (5/ 462)، والمصادر السابقة.

(4) أخرجه البخاري (7، 2940، 2941، 4553)، ومسلم (1773) من حديث ابن عباس، عن أبي سفيان رضي الله عنهم.

ثم حاول بهذا أن ينفك من الإشكال، فذكر أن الله تعالى عاتب النبيَّ صلى الله عليه وسلم، إما لأنه التفت لهؤلاء بحكم القرابة، أو أنه أعرض عن ابن أم مكتوم بحكم العمى[1].

وهذا تأويل رديء، وافتعال لإشكال لا معنى ولا وجود له في الآيات، فإن العتاب واضح مصدره وسببه.

والأقرب أن أساس العتاب للرسول صلى الله عليه وسلم هو زيادة الحرص منه صلى الله عليه وسلم على هداية هؤلاء القوم الذي حمله على الإعراض عن الأعمى والعُبوس في وجهه.

والإنسان كلما علا قَدْره، وزادت منزلته كان العتب عليه يَرِد في أصغر الصغائر؛ لأنه محل الكمال والجلال.

وكان دافعه صلى الله عليه وسلم الحرص على هداية القوم، وتوقُّع الخير الكثير من وراء إسلامهم، وعادة ما يترتب على مثل هذا أن يكون الداعية منهمكًا منشغلًا، فربما أرجأ أمر الأَتْباع الموثوقين أو وَكَلَهم إلى ما عندهم من الإيمان.

والإنسان إذا أفرط في الانشغال، أو تكاثفت عليه الأعمال وملأت خاطره؛ فإنه لا يكون مع زوجته وأهله ومَن حوله على حال الانسجام والرضا والطواعية، وربما علاه شيءٌ من التوتر والانفعال.

وفي هذا تأكيد على القاعدة الشرعية المعروفة، وهي أن المصلحة المُحَقَّقة لا تُتْرَك لمصلحة متوقَّعة، والأمور المؤكَّدة لا تُترَك لما هو أقل تأكيدًا منها، والمصلحة العظمى لا تُترَك للمصلحة الصغرى.

ويتحصِّل من هذا الموقف دروس عديدة وفوائد كثيرة:

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (31/ 52- 53)، وينظر أيضًا: «نكث الهميان في نكت العميان» (ص20)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 153).

1- العناية بالمقبِل أكثر من المُعرِض؛ لأن له سابقة ومبادرة، والإعراض عنه ربما يفضي إلى صدوده أو انتكاسه.

2- دعوة المسلمين مقدَّمة على دعوة الكفار.

صحيح أننا مؤتمَنون أن ندعو الناس كلهم إلى الإسلام، ونقيم الحجة عليهم، ولكن الذي يظهر أن دعوة المسلمين إلى التمسك بدينهم أولى وأهمُّ، وهذا لا يعني التقليل من أهمية وجود مَن يتخصَّصون في دعوة الكفار، وإقامة الحجة عليهم.

3- دعوة المهتدين وتعليمهم في الجملة أولى من دعوة المنحرفين الضالِّين البعيدين، وهذا لا يعني التقصير في دعوة المفرِّطين، فيجب أن يكون في المسلمين مَن يتخصَّص بدعوة أسرى الشهوات والشبهات.

ربما تكون هذه المقارنات موهمة، أو تستخدم في غير سياقها، وإنما أردت التفضيل في حال وجود شخص واحد متردِّد بين هذا وهذا، ولا يمكنه التوفيق بينها، لا وقته ولا جهده يسمح بذلك، فلا بد له من اختيار أحد الطريقين، فالأفضل له كقاعدة عامة دعوة المسلمين، ودعوة المقبلين بصفة أخص.

4- الواقعية في أمر الدعوة؛ وتحديد الأهداف ووضوحها وكونها ممكنة التحقيق، فمن الشباب مَن يفكر في واقع الأمة ومشكلاتها، ويغرق في هذا إلى درجة تعميه عن الأعمال المستطاعة التي تخفِّف المعاناة ولو جزئيًّا.

عليك أن تفكِّر في الأشياء المقدورة، وبدلًا من أن تقول: متى يتغير واقع الأمة. قل: ماذا عليَّ أن أعمل؟ كيف أستطيع أن أستثمر طاقاتي ومواهبي؟ يمكنك أن تتعلَّم أو تُعلِّم أن تكون خطيبًا ناجحًا، أو كاتبًا، أو شاعرًا، أو أديبًا، أو داعيةً، أو إداريًّا، أو أستاذًا أو مُبدِعًا...

* ﴿وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ الْعَصَفِ﴾:

هذا شروع في بيان السبب المباشر، وإلا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم عبس بسبب الأعمى فحسب، فهو صاحبه وحبيبه، وله سابقته وإسلامه، ووَصَفَ تعالى الرجلَ القادم بالأعمى، ولم يذكر اسمه، بل ذكر عاهة مكروهة عند بعض الناس.

لماذا **وصف الله عبد الله ابن أم مكتوم** رضي الله عنه **بالأعمى، وليس بوصفٍ آخر؟**

كان هذا لبيان عذر الرجل، وأنه لم يكن يرى المشهد، ولم يلحظ انهماك النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة أولئك الملأ، وهو عتاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وكأنه يقول: الرجل معذور بالعمى؛ والعمى سبب للتخفيف فيما هو فوق ذلك.

ربما يظن ظان أن الإسلام وهو في بداية ظهوره لن يفيد من رجل أعمى كإفادته من البصير القوي كامل الحواس، ولذا جاء العتاب مُعْلَنًا يُتلى في آيات محكمات إلى يوم القيامة، ولو أراد الله لجعله عتابًا يُسِرُّ به جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من غير أن يعلم بذلك أحدٌ، ولكنه أراد أن يكون درسًا للأمة كلها: أن الإيمان والتقوى إذا أشرقت في قلب فقد تحقق بذلك المقصود الأعظم من الرسالة، أيًّا كان هذا القلب، وأن المصالح العاجلة يجب أن تتأخر في هذا المقام: ﴿وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾ [البقرة: 221].

وفي هذه الآيات دلالة على ربانية القرآن، وأنه وحي الله، فالعتاب لم يأتِ من أحد من البشر، بل من رب العالمين، والمسلم متعبَّد بحفظ هذه الآيات وتلاوتها وتعليمها للناس، كما هو متعبَّد بأن يحفظ ويتلو قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠﴾ [القلم: 4]، وكلا الأمرين لا يخلو من مدخل يتسلَّل منه الخصوم ليقولوا مرة: إنه يمدح نفسه ويزكِّيها. ويقولوا أخرى: انظروا إلى كراهيته لموقف رجل من أصحابه وتبرمه منه ومن عاهته. أو يقولوا: ودَّعه ربه وقَلَاه وعاتبه.

وهنا النبوة والصدق في التبليغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: 67]، يعني: لو كتمت آيةً أو لفظًا أو حرفًا لم تكن مبلِّغًا لرسالة الله عز وجل، تقول عائشة رضي الله عنها: «لو كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا مما أُنْزِل عليه؛ لكتم هذه الآية: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37]»[1].

وهذا عتاب أعظم وأبلغ في شأن زواجه صلى الله عليه وسلم بزينب، وكشفٌ عن شيء كان يخفيه في نفسه، والله تعالى يقرِّر إبداءه وإعلاءه ليسمعه التابع الموافق والكافر واليهودي والمنافق.. خطاب الله العظيم لمصطفاه: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37].

وهو شيء عظيم حقًّا، ولو أن أبًا عاتب ابنه، أو قائدًا عاتب متبوعه بمثل هذا، لكان حريصًا على تجاوز الموقف ونسيانه وكتمانه أو التشكيك فيه.. فكيف والخطاب من رب العالمين من فوق سبع سماوات، وفي ظروف وأحوال صعبة ومخاطر محدقة!

وجاء الخطاب في ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ﴾ بضمير الغائب، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم هو المخاطَب به، وفي عتاب الله إياه في «سورة الأحزاب» جاء العتاب بخطاب مباشر: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37].

وفي هذا أسرار لطيفة:

1- عدم مفاجأة النبي صلى الله عليه وسلم بالخطاب والعتاب؛ لأن مخاطبة الغائب أولى من مخاطبته في البداية وجهًا لوجه، وعلى هذا فالبداية هذه أخفُّ وألطف

(1) أخرجه البخاري (7420)، ومسلم (177).

مما لو قال له: «عبستَ وتولَّيتَ». ففي العتاب تدرج وترقٍّ، بدأ بمخاطبة الغائب، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ فَبِأَيِّ ﴾:

2- هذا العُبوس والتولِّي أخفُّ من أن يُوصف بالذنب، وإنما هو خلاف الأولى، ومع ذلك عاتبه فيه ربه عز وجل؛ لأنه ليس من مألوف أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فجاء الخطاب بصيغة الغائب للإشارة إلى أن ذلك الحدث كان استثناء بالقياس لأخلاقه صلى الله عليه وسلم.

3- التعبير بضمير الغَيبة يجعل المعنِيَّ به كأنه يراه واقعًا من غيره، وهذا أبلغ في تصوير المشهد وملاحظة ما فيه من مخالفة ما هو الأولى في حقه.

4- أن الرجل الأعمى لم يلحظ ذلك؛ لأنه لا يرى، ولأنه لم يظهر من فعل النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى ما حدث على سيماء وجهه الطاهر من أثر الضيق العابر.

5- جاء الخطاب متَّسقًا مع فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، فهو صلى الله عليه وسلم قد أعرض، فقابل فعله شيء من الإعراض في المخاطبة المباشرة إلى خطاب الغَيبة، ولكنه لم يدُم طويلًا، ولذا جاء بعد هاتين الآيتين خطاب مباشر: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ فَبِأَيِّ ﴾، فهو عتاب المحب لحبيبه، وهو دليل على عظمته، وقوة احتماله، ورباطة جأشه صلى الله عليه وسلم.

كما أنه دليل على أهمية المراجعة والتصحيح، وأن قوة الإنسان وكماله ليست بالادِّعاء، ولا بالشهرة، ولا بالاسم، ولا بالنسب، وإنما هي بدأبه وصبره ومواصلته في تطلُّب الكمال وتدارك العثار.

* ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ فَبِأَيِّ ﴾:

يحتمل أن تكون الآية استفهامًا؛ يعني: ما يدريك لعل هذا الرجل الذي أعرضتَ عنه ولم تُجِبْه، لعله يتزكَّى.

وقال سُفيان بن عُيينة رحمه الله: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[1].

وفي الآية ثناء على عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، بأنه من المتزكِّين الأوائل، شهد له بذلك ربه جلَّ وعلا، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم عند ما أعرض عنه إعراضةً خفيفةً وهو منشغل بما يظن أنه أهم، ترتَّب عليه أن يُنزل الله شهادةً لابن أم مكتوم في وحي يُتلى أنه ﴿فَهَلۡ﴾، فهذه بركة نبينا صلى الله عليه وسلم، كما قال في آخر عمره: «**اللهمَّ إني اتخذتُ عندك عهدًا لن تخلفنيه، فأيما مؤمن سببتُه أو جلدتُه، فاجعلْ ذلك كفارةً له يومَ القيامة**»[2].

فكان من بركة ذلك العُبوس أن تنزل تزكية الرجل من السماء، وأن يخلِّد الله ذكره والثناء عليه إلى يوم القيامة.

وفي الآية إشارة إلى أنه وإن كان أعمى البصر، فهو مُبصِر بقلبه، ولذلك سيتزكَّى ويَذَّكَّر.

* والفرق بين قوله: ﴿فَهَلۡ﴾، وقوله: ﴿مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيۡءٍ تُكَذِّبَانِ﴾: أن

﴿فَهَلۡ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة من البر والمعروف والخير والصلاة والذكر والتقوى والإيمان وكل عمل صالح.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾.

(2) أخرجه البخاري (6361)، ومسلم (2601) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أما ﴿مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾ فهي إشارة إلى الانزجار عن الذنوب والمعاصي، وهذان هما الركنان الأساسيان للرسالة: فعل الطاعة وترك المعصية، فعل المعروف وترك المنكر، **وقد أجمع العلماء على أن الرُّسل كلهم بُعِثوا بأمرين:**

1- تحصيل المصلحة.

2- دفع المفسدة.

فكل ما أمر الله تعالى به فهي مصالح ينبغي تحصيلها، وكل ما نهى الله تعالى عنه فهي مفاسد ينبغي دفعها وإبعادها قَدْرَ المستطاع.

ولذلك انتفع الناس بهذا التعليم الرباني، فكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد القرب من أصحابه الضعفاء والفقراء، وكان يتلو: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ﴾ [الكهف: 28].

وفعل هذا أصحابه من بعده، والأئمة والعلماء، حتى قيل: «إن الفقراء في مجلس سفيان الثوري كانوا كالملوك في تكريمهم واحترامهم، وتوقيرهم وتقديرهم، والإقبال عليهم»[1].

هذه هي النبوة، ليست مُلْكًا ولا سلطانًا، ولا فخرًا ولا رياءً، بل تواضعًا لله واهتمامًا بالناس وبضعفائهم، ولا يعني هذا قصد إهانة الأكابر، فليس هذا مطلوبًا، ولا هو من المروءة، بل يُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَه.

ولم يعاتب الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم على مجرد الإقبال عليهم ودعوتهم، وكان واجبًا عليه أن يدعو الأكابر كما يدعو المستضعفين، وإنما العتاب في الإعراض عن الضعفاء والفقراء.

---

(1) ينظر: «الجرح والتعديل» (1/ 97)، و«المجالسة» للدينوري (7/ 77) (2951)، و«حلية الأولياء» (6/ 365)، و«تاريخ الإسلام» (10/ 230).

* ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

أي: عن الحق وقبوله[1]، وهذا هو ما يُذمون به، لا أن يكونوا كبراء وسادةً وأغنياء في قومهم، فالغنى في ذاته ليس بمذموم، كما أن الفقر في ذاته ليس بممدوح.

* ﴿صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ۝١٤﴾:

أي: تَصْدُد، وأُبدلت الدال الثانية حرف علة، أي: تلتفت وتتوجَّه إليه وتدعوه[2]، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يكون طامعًا في أموالهم أو جاههم، وإنما كان يطمع في إسلامهم؛ لأن بإسلامهم يسلم أتباعهم، وهو دليل على شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية الناس حتى المعرِضين منهم.

* ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ مِن﴾:

أي: إذا قمت بالواجب وبلَّغْتَه الدعوة، ثم لم يقبل، فليس عليك من وزره شيء: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: 52]. ليس عليك تبعته بعد أن أقمت الحجة، وأديت واجب البلاغ[3].

* ﴿۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ رَبِّكُمَا﴾:

وهذه شهادة أخرى لعبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه بأنه يخشى الله، وهي من بركة النبي صلى الله عليه وسلم عليه.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 420)، و«تفسير البغوي» (5/ 210)، و«زاد المسير» (4/ 400)، و«فتح القدير» (5/ 463).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 107)، و«تفسير القرطبي» (15/ 142)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 319)، و«التحرير والتنوير» (30/ 107)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 284)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 215)، و«المحرر الوجيز» (5/ 437)، والمصادر السابقة.

* ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ▯﴾:

وبأي شيء تلهَّى عنه صلى الله عليه وسلم؟ يتلهَّى بدعوة الأكابر، فهو قد صدَّ عن دعوة إلى دعوة أخرى، ومع ذلك عاتبه ربه، فيتلقن الدرس صلى الله عليه وسلم، وهذه هي العظمة والنبوة، وبمثل هذا وغيره صار إمام المرسلين، فلا يُفتح باب الجنة لأحد قبله[1]، وصارت أُمَّتُه خير الأمم، وأتباعه خير الأتباع، وأصحابه خير الأصحاب، وهديه خير الهدي، وسيرته أفضل السير، فيؤدِّب الله سبحانه نبيَّه صلى الله عليه وسلم هذا التأديب الرباني الواضح المُعْلَن على خاطر عابر لعل صاحب الشأن فيه وهو ابن أم مكتوم لم يعلم به إلا من الوحي!

* ﴿٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ▯﴾:

﴿٢﴾ كلمة زجر وردع، يعني: لا تَعُدْ لمثل هذا[2].

وهذا درس للعلماء والدعاة والأفراد والجماعات في استيعاب الناس والتواصل معهم، بعيدًا عن حسابات الغنى والفقر والذكاء والنبوغ أو الضعف، فدعوة الإيمان والتزكية والطهارة لا يجوز أن تكون مربوطة بمصالح فئوية أو حزبية أو مكاسب عاجلة، بل هي فوق ذلك.

ودرس في ضرورة قبول النقد والتصحيح والمراجعة، وأن لا يصرَّ الناس على تكرار تجارب فاشلة أو خاطئة، لمجرد أنها مألوفة أو متلقاة عن الشيوخ والقادة.

---

(1) كما في «مسند أحمد» (12469)، و«صحيح مسلم» (196، 197)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1570)، وما تقدم في «سورة القلم»: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (31/ 55)، و«تفسير القرطبي» (19/ 215)، و«التحرير والتنوير» (30/ 114- 115).

ودرس للحكام، فهذا سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم يتلقَّى من ربه العتاب والتأديب، ويعلنه على الناس، ولم ينقص هذا من قَدْرِه؛ بل زاده رفعة وعظمة، فلِمَ يظنون أن نقد فعل فعلوه أو قول نطقوه أو سياسة جروا عليها هو ازدراء لهم أو بخس لحقهم؟

ودرس لعامة الناس وخاصتهم في التوازن، وعدم الانخراط في قراءة المصالح المادية البحتة، فالجانب الإنساني والأخلاقي هو من أهم المصالح وأولاها بالاعتبار.

ودرس في قبول النقد والتدرب عليه وعدم التبرُّم منه، أو اعتقاد أن النقد يدمِّر الإنسان، بل الواقع يقول: أهميتك بقدر النقد الموجَّه إليك، فلا تقلق من النقد، والناس دائمًا يختلفون حول الأشياء المهمة والأشخاص المهمِّين والقضايا المهمَّة، أما مَن لا حضور لهم ولا تأثير، فهم يخطئون ويصيبون ويتنقلون ولا أحد يكترث لهم!

ولستَ بناجٍ من مَقَالـــةِ طاعـــنٍ *** ولو كنتَ في غـارٍ على جبلٍ وَعْـرِ

ومَن ذا الذي ينجو من الناسِ سالمًا *** ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نَسْرِ[1]

نَمْ قرير العين، وتأكَّد أن النقد جرعات تطعيم تقوِّي شخصيتك، وتشد أزرك، وامضِ بثقة وجرأة، ودَعِ الناس ينقدونك كيف شاؤوا، وعليك الاستماع له، والإفادة بما فيه من الحق، وإن وجدتَ شيئًا غير مقنع فارفضه ولا تبال به، ولا تقل: هذا حاسد، أو حاقد، أو شانئ، أو مُغرِض، أو مدفوع. فلا يصح في نهاية المطاف إلا الصحيح.

على أن النقدَ يجب أن يكونَ بأسلوبٍ عادلٍ صادقٍ راقٍ لَيِّنٍ، يقول عيسى عليه السلام: «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، بل انظروا في أعمالكم كأنكم عبيد»[1].

---

(1) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (2/ 1140).

وخافِيَتَي النَّسْر: الريش الصغار التي في جناحه، واحدتُها: خافية.

يجب أن تكون متواضعًا بعيدًا عن التعالي، وعليك أن لا تجزم بصوابك فيما ليس فيه نص، ولو جزمت بصوابك فعليك أن تراعي الحكمة والموعظة الحسنة، والرفق واللين مع مَن تختلف معهم.

والضمير في قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ ضمير المؤنث، وفي «سورة المدثر» جاء مذكرًا: ﴿ﮑ ٱلرَّحْمَٰنُ فِي﴾، والمعنى واحد.

ويحتمل أن يكون المراد به السورة كلها، أو الموعظة التي في هذا السياق، يعني: هذا الجزء من السورة الذي عُوتب به النبي صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يكون القرآن كله[2].

* ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ وهؤلاء الناس الذين أعرضوا ولم يقبلوا منك ليس عليك من حسابهم شيء، فالقرآن إنما هو تذكرة وعظة: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﮒ ﮓ﴾. ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﮑ ﯗ﴾ [يونس: 99]، فلا تحزن عليهم، ولا تقلق من إعراضهم، فقد أدَّيت ما عليك، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: 48]، ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ مَلِيكٍ﴾ [الغاشية: 21- 22].

* ﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﮒ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﮕ﴾:

﴿ﮒ﴾؛ لأنها من الكريم سبحانه، وتنـزَّل بها جبريل عليه السلام، وهو مَلَك كريم ﴿ﮚ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﮛ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ [التكوير: 20- 21]، على نبيٍّ كريم وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(1) أخرجه مالك (2/ 986)، وابن المبارك في «الزهد» (135)، وابن أبي شيبة (31879، 34230)، وأحمد في «الزهد» (311)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (6/ 58، 328).

(2) ينظر: «زاد المسير» (3/ 561)، و«تفسير الرازي» (31/ 55)، و«تفسير القرطبي» (15/ 154)، (19/ 215)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 321)، و«التحرير والتنوير» (30/ 115).

و﴿يَسۡجُدَانِ﴾ أذن الله بتطهيرها ورِفْعتها، وأن لا يمسّها إلا المطهَّرون، ومطهَّرة من الخطأ واللغو والباطل، وكل رجس معنوي.

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ (٥٠):

يعني: هي محمولة بأيدي سَفَرة، **والسَّفَرَة** جمع: سافِر، وقد يكون من السِّفْر، وهو: الكتاب، والسافر هو: الكاتب، ومنها: السَّفِير الذي ينتقل بين فريقين للإصلاح.

قال وهب بن مُنَبِّه: «هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم»[1].

وقد وردت صفتهم في الإنجيل بـ«القدِّيسين».

وقال قتادة: «هم القرَّاء»[2]، ﴿۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ [العنكبوت: 49].

وقال أكثر أهل العلم- كما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره-: هم الملائكة[3].

وقد يشهد له حديث عائشة رضي الله عنها: «**الماهرُ بالقرآنِ مع السَّفَرةِ الكرامِ البَرَرةِ، والذي يقرأُ القرآنَ ويتتعتعُ فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران**»[4].

وفيه الثناء على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم حملة القرآن وحُفَّاظه، والثناء على قُرَّاء القرآن عبر العصور؛ فهم فهموه وعملوا بما يقتضيه.

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 132)، و«الدر المنثور» (15/ 244).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 109)، و«الكشاف» (4/ 702)، و«تفسير القرطبي» (19/ 216).

(3) ينظر: «مسند الدارمي» (3412)، و«تفسير الطبري» (22/ 364)، (24/ 109)، و«زاد المسير» (4/ 401)، و«تفسير القرطبي» (19/ 216)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 321)، و«روح المعاني» (15/ 245)، و«التحرير والتنوير» (30/ 118- 119).

(4) أخرجه البخاري (4937)، ومسلم (798).

وهو توكيد لحفظ الله تعالى لكتابه بتسخير السَّفَرة الكرام البَرَرة المعنيين بحفظه في السماء والأرض، خلافًا لأباطيل السَّحرة والمكذِّبين التي تطير بها الشياطين، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: 210- 222].

* ﴿تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ مُّدَّكِرٍ﴾:

هذا- والله أعلم- حديث عن بعض أولئك المكذِّبين من عِلْيَة القوم الذين انشغل بهم صلى الله عليه وسلم[1].

فإذا كان عُتْبة وشَيْبة ابنا رَبِيعة، والأَخْنس بن شَرِيق، وغيرهم من المستكبرين قد رفضوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وتصدَّى النبيُّ صلى الله عليه وسلم لدعوتهم يوم جاءه ابن أم مكتوم، فالآيات تتضمن التوعُّد والدعاء عليهم، والدعاء من الله واجب؛ لأن بيده الأمر.

وهي إشارة إلى أن أولئك النفر ممن حقَّت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون.

والسياق يقرِّر أن مهمة الرسل هي تبليغ الدعوة وإقامة الحجة، وأنه لا عذر لَمن بلغته فتولَّى وكفر، ولذا حقَّ عليه قوله تعالى: ﴿تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾.

والصيغة صيغة دعاء، إلا أن حقيقتها توبيخ وزجر وتأنيب، فهذا الجاحد المعرض مستحق للموت ما دام ليس في قلبه إيمان ولا حياة، فالموت أجدر به.

* ﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ مَلِيكٍ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 205)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 221)، و«تفسير السمعاني» (6/ 158)، و«زاد المسير» (4/ 401)، والمصادر السابقة.

تدرُّجٌ إلى المجادلة وإقامة الحجة.

وهؤلاء القوم المتحدَّث عنهم موصوفون بصفتين: الكفر، والكِبْر عن قبول الحق، فأقام عليهم الحجة فيما يتعلق بالكفر بالآيات، وأقام عليهم الحجة فيما يتعلق بالكبر بتذكيرهم بأصل الخلق الذي خُلقوا منه، فهذه الخلقة لا تهيِّئ الإنسان أن يتكبَّر أو يتعاظم.

وكثير من المفسرين يرون أن المقصود شخص بعينه، مثل عُتبة، أو شيبة، أو الأَخْنس، أو عُتبة بن أبي لهب... وهذا احتمال، ولكن السياق عام في جنس الإنسان، كما يُشعر بذلك قوله: ﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ﴾؛ ولهذا ذهب آخرون إلى أن المقصود بالإنسان هنا الجنس[1].

وهنا إيراد يحتاج إلى كشف، وهو أن المعهود في القرآن أن الله تعالى يرفع الإنسان ويكرِّمه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، **فما معنى أن يقول:** ﴿تَطْغَوْاْ فِى﴾، **وأن يشيرإلى هوان أصله ومهانته؟**

والجواب: أننا إذا قلنا: إن المقصود: جنس الإنسان، فلا يعني ذلك الناس كلهم؛ لأن جنس الإنسان فيهم الأنبياء والعلماء والصلحاء والدعاة، وإنما الإشارة لما صار إليه غالب الناس: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

ولا يلزم أن يكون المراد بالكفر الجحود والكفر الأكبر، وإنما يشمل هذا، ويشمل ما دونه من الكبائر التي لا تُخرِج من الملة، ولذلك فسَّرها الرازي والسعدي

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (20/ 219)، (31/ 58)، و«اللباب في علوم الكتاب» (12/ 75)، (20/ 160)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (21/ 459)، و«التحرير والتنوير» (30/ 120).

وغيرهما بأن المقصود كفر النعمة، أي: جحودها[1]. وفيه تناسب مع السياق حيث عدَّد نعمه على الإنسان بعد هذه الآية.

وكأن المقصود جنس الإنسان الكافر، **وهذا المعنى محتمل وجيه.**

وقوله: ﴿ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾ أي: ما أشدَّ كفره وعناده[2]، كما تقول: ما أشد بياض هذا الشيء، أو: سواده.

ويكفي في شدة كفر الإنسان: إعراضه عن عبادة ربه سبحانه، مع أنه الذي أسبغ عليه نعمه وعرَّفه بآياته وصفاته وأظهر له عظمته وكبرياءه، ثم يذهب يعبد صنمًا، أو حجرًا، أو بقرةً.. فلا شك أن هذا جدير بأن يوصف بشدة الكفر ويتعجب منه[3]!

فيا عجبًا كيف يُعْصَى الإلـ *** ـهُ أم كيف يجحدُه الجاحدُ؟

ولله في كـــلِّ تحـريكـةٍ *** وتسكينةٍ أبدًا شاهـدُ

وفي كـلِّ شيءٍ لــه آيـــةٌ *** تدلُّ على أنه واحــدُ[4]

أو يكون قوله: ﴿ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾ استفهام، أي: ما الذي جعله يكفر؟ كقوله: ﴿وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي﴾ [الانفطار: 6]، وهذا مروي عن قتادة[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (31/ 57)، و«تفسير السعدي» (ص911).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 423)، و«تفسير البغوي» (5/ 211)، و«زاد المسير» (4/ 401)، و«تفسير القرطبي» (19/ 218).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (4/ 40)، و«تفسير المراغي» (30/ 44)، و«تفسير السعدي» (ص911).

(4) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿نَّارٖ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ □□□□﴾ منسوبًا إلى أبي العتاهية.

(5) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 132)، و«المحرر الوجيز» (5/ 438)، و«تفسير القرطبي» (19/ 218).

والمؤمن يستشعر هنا الحلم الرباني؛ لأن الله تعالى وهو يُعجِّب من فعل الإنسان، ويبيِّن استحقاقه للقتل واللعن، يصبر عليه ويحلم، ولا يعاجله بالعقاب: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن﴾ [فاطر: 45]، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما أحدٌ أصبرُ على أذًى يسمعُه من الله تعالى؛ إنهم يجعلون له ندًّا ويجعلون له ولدًا، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم**»[1].

وفي الأثر: «إني والإنسُ والجنُّ في نبأٍ عظيمٍ! أخلقُ ويُعبَدُ غيري، وأرزقُ ويُشكَرُ غيري»[2].

وفي الأثر أيضًا: «يا ابنَ آدمَ، خيري ينزلُ إليك، وشرُّك يصعدُ إليَّ!»[3].

ولو كان الأمر في يد واحد من أحلم البشر وأصبرهم، لأباد كلَّ مَن يخالفه في الدين أو في الرأي أو المَشْرب، وعاجلهم بالأخذ، وكان الشاعر أبو القاسم الشَّابي يقول[4]:

أَيُّها الشَّعْبُ ليتني كنتُ حطَّابًا *** فأهوِي على الجذوعِ بفأسي

ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سالتْ *** تَهُدُّ القبورَ رَمْسًا برَمْسِ

ليتني كنتُ كالرِّياحِ فأَطْوِي *** كلَّ مَا يخنقُ الزُّهُورَ بنحسي

* ﴿ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ۝٥٢﴾:

هنا سؤال عن مادة الخلق، متجاوزًا السؤال عن الخالق والمخلوق، فذلك شيء معلوم مُسَلَّم به، فليس ثَمَّ أحد يقول: إنه غير مخلوق، حتى فرعون وهامان والنمرود

---

(1) أخرجه البخاري (6099)، ومسلم (2804) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(2) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (975)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (4563) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (2371).

(3) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (43)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (2/ 377)، (4/ 27)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (4589).

(4) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص117).

وأبو جهل يعترفون بأنهم مخلوقون، والله تعالى ينقلهم من الأمر المعروف المتفق عليه إلى سؤال آخر، وهو: من أي شيء خُلقتم؟ كما في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الطور: 35-36]، فهذه تُلامِس ضميرَ الإنسان وتحرِّكه: أنت مخلوق.. ومخلوق من ماذا؟[1].

هل ادعى أحد أنه خالق يخلق كخلق الله؟

في قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود قال: ﴿جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [البقرة: 258]، هل كان النمرود يقصد أنه يحيي الموتى؟ كلا، وإنما يقصد أنه يأتي برجل مستحق للقتل فيعفو عنه، فذلك إحياؤه إياه، ويأتي بآخر لا يستحق القتل فيقتله[2]، وهو نوع من التلاعب بالألفاظ والعبارات.

* أما الخالق الذي يُوجِد من عدم، ويحوِّل الجماد الهامد الرَّميم إلى حيٍّ متحرك، عاقل متكلِّم، واعٍ فاهم، فهو واحد لا شريك له، وهو الذي يخاطب الإنسان ويقول: ﴿﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿٥٣﴾﴾، **والنطفة** هنا هي الشيء اليسير من ماء الرجل الذي خُلِق منه الإنسان[3]، فهل يتكبَّر وقد خُلِق من نطفة ضعيفة ليس لها قوام؟

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الطور».

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (3/ 33).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 434)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 8060)، و«تفسير القرطبي» (15/ 58)، و«فتح القدير» (4/ 439).

والدفقة فيها الملايين من الحيوانات المنوية، والإنسان مخلوق من حيوان واحد من هذه الملايين، وهي مؤهَّلة من حيث الإمكان المجرَّد أن يُخلَق منها الملايين، لكن الله تعالى بحكمته يختار حيوانًا واحدًا منها، فيسبق غيره ويخترق البويضة ويتكوَّن منه الإنسان.

فلماذا يتكبَّر وهذه حقيقته؟! وكيف ينسى ربَّه، ويجحد فضله، وهو الذي رعاه منذ كان نطفة في رحم أمه حتى صار رجلًا بالغًا راشدًا؟

وفي السؤال تنشيط للعقل ولفت للأنظار، وهو أسلوب مجدٍ مع مَن كفرُهم كفرُ جهالةٍ لا كفر عناد وجحود.

﴿لِلْأَنَامِ﴾: الفاء للتعقيب، يعني: بعد الخلق جاء التقدير مباشرة.

وللتقدير ثلاثة معانٍ، كلها صحيحة[1]:

1- قدَّر أعضاءه، فجعل له عينين ولسانًا وشفتين، ولو اختلَّ فيه شيء من أعضائه لظهر فيه النقص والعجز والتشوه.

2- قدَّر الأطوار التي يمرُّ بها؛ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم يكون إنسانًا سويًّا خلقًا آخر، ثم طفلًا، ثم فتى، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ثم هَرِمًا، وهي مراحل وتحولات في غاية الانسجام والانضباط، والحكمة والإبداع: ﴿ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن﴾ [المؤمنون: 14].

3- قدَّره في اعتدال قامته، وسلامة أعضائه في جماله، حيث جعله في أحسن تقويم، وميَّزه عن الحيوانات والوحوش وغيرها.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 111)، و«الكشاف» (4/ 703)، و«زاد المسير» (4/ 402)، و«تفسير الرازي» (31/ 57)، و«تفسير القرطبي» (19/ 218)، و«تفسير الخازن» (4/ 495)، و«تفسير السعدي» (ص911).

* ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ جَنَّٰتٍ﴾:

﴿فِيهَا﴾ تفيد التراخي، والمعنى: ثم الله تعالى يسَّر السَّبيل، فالسَّبيل: مفعول به منصوب وهو الذي وقع عليه التيسير.

و﴿فَٰكِهَةٞ﴾ له معانٍ:

1- هو مَخْرَج الجنين من رحم الأم. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وقتادة، ورجَّحه الطبري[1].

والمقصود أن الله تعالى يسَّر للإنسان السَّبيل للخروج من رحم الأم.

وهو معنى جيد، وفيه إشارة إلى صبر الأم على خروج الجنين، فإنها تعاني من حمله تسعة أشهر، ثم المعاناة الأشد في الولادة وآلام الطَّلْق التي تشبه الموت.

إن في خروج الإنسان من هذا المضيق وبهذه الطريقة آيةً وعبرةً يجب أن لا ينساها، كما يجب أَلَّا ينسى فضل الأم التي حملته وعانت، وقبله فضل الرب الذي يسَّر له السَّبيل.

2- يَسَّر طريق الخير والشر، الهُدى والضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿□□□□□□□﴾ [الإنسان: 3]، وهذا قول مجاهد، واختاره ابن كثير[2].

3- يسَّر له معرفة المنافع والمضار، فإن الإنسان بطبعه حتى وإن كان طفلًا صغيرًا، يعرف شيئًا من مصالحه، يعرف كيف يرضع من لبن الأم، ثم كيف يتجنب

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 110- 113)، و«تفسير الماوردي» (6/ 206)، و«زاد المسير» (4/ 402)، و«التحرير والتنوير» (30/ 123)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص705)، و«تفسير الرازي» (31/ 58)، و«تفسير القرطبي» (19/ 218)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 322)، و«اللباب في علوم الكتاب» (10/ 409)، و«روح المعاني» (15/ 246).

الأشياء الحارة، وكيف يتجنَّب المخاطر، وإذا عَقَلَ بدأ يفكِّر في مصالحه التجارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، فهذا من تيسير الله تعالى.

ولعل المعاني الثلاثة كلها مقصودة.

* ﴿ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ فِي﴾:

وهذا انتقال إلى مرحلة أخرى بعد مرحلة الجنين وبعد مرحلة الحياة الدنيا كما كان: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: 28].

والنص يؤكِّد أن الموت فعل مقصود، ليس مجرد بِلَى أو انتهاء.

ولم يقل: «فقبره»؛ لأن الذي يباشر دفنه في القبر هو إنسان مثله، وأما الله تعالى فهو يسخِّر ويهيِّئ له القبر، كما قال: ﴿مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ [المرسلات: 25 - 26].

وقد علَّم الله الإنسان كيف يحفر الأرض ويدفن فيها الموتى، كما في قصة ابني آدم: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ [المائدة: 31].

وجعل تعالى من طبيعة الأرض ما يسهِّل ذلك، حتى إن بعض البلاد الصخرية أو الجزر يكون وجود المقبرة فيها من أصعب الأمور.

فالله تعالى يُقبِر، بضم الياء، والإنسان يَقبُر، بفتحها، قال الأَعْشى[1]:

لو أَسْنَدَتْ مَيْتًا إلى صدرِها *** قام ولم يُنْقَلْ إلى قابـــرِ

حتى يقولَ النـــاسُ لَمَّا رَأَوْا: *** يا عجبًا للميتِ الناشرِ

والقابر هو: الذي يتولَّى القبر.

دلَّت الآية على أن الله تعالى شرعَ للمسلمين أن يدفنوا موتاهم، فيجب أن يحفروا لهم القبور وأن يدفنوهم، وبعض الأمم الأخرى، كالفرس وبعض الهنود كانوا يحرقون

---

(1) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص139 - 141).

الأموات، ثم يرمون رمادهم في الأنهار أو الصوامع، ومنهم مَن يترك الموتى لجوارح الطير والسباع، وهذا كان موجودًا عند العرب، لا سيما إذا ماتوا في المعارك؛ لأنهم يفتخرون بذلك، حتى قال الشَّنْفَرَى[1]:

ولا تَقبُروني إنَّ دَفني مُحَرَّمٌ *** عَلَيكُم ولَكِن أَبْشِـرِي أُمَّ عامِرِ

وأم عامر هي: الضَّبْعة[2]؛ وهي تأكل أجساد الموتى، وكان الفراعنة يقبرون عظماءهم في أبنية وأقبية عظيمة، ومنها الأهرامات المعروفة، واشتُهِروا بتحنيط الموتى، في حين شرع الإسلام أن يُحْفَر للإنسان قبرٌ ويُدْفَن فيه.

ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم قالت فاطمة رضي الله عنها: «يا أنسُ، أطابت أنفسُكم أن تَحْثُوا على رسول الله الترابَ؟»[3].

* ﴿ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ مَلِيكٍ﴾:

أي: إذا شاء الله تعالى بعثه[4]، وهذا انتقال من المعلوم للمجهول، ومن المتفق عليه إلى محل الجدل والإقناع مع المعاندين المُعْرِضين، المكذِّبين بالبعث.

وإيراد حرف التراخي ﴿ٱلْعَصْفِ﴾؛ لأن البعث يأتي بعد زمان طويل مقرَّر في علم الله، وهم كانوا يستعجلونه ويقولون: ما رأينا أحدًا بُعِثَ بعد موته. فكان قوله: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ تعليقًا للنشور بإرادة الله وأنه لا يستجيب لاستعجالهم.

---

(1) ينظر: «البرصان والعرجان» للجاحظ (ص252)، و«جمهرة الأمثال» (2/ 305)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص347).

(2) ينظر: «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 112).

(3) أخرجه البخاري (4462) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 285)، و«زاد المسير» (4/ 402)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 323)، و«التحرير والتنوير» (30/ 126).

ولو أن الناس كانوا يُبْعَثون على دفعات في هذه الحياة، لما كان ثَمَّةَ حكمة في الابتلاء بالإيمان، فاستبطاؤهم لا معنى له!

* ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾:

الأكثرون على أن معناها: إن الإنسان لم يؤدِّ ما عليه من حقِّ الله كاملًا، و﴿تُكَذِّبَانِ﴾ قريبة المعنى من «لم»، على أنها تفيد احتمال الحدوث في المستقبل القريب، تقول: هممت ولمَّا. يعني: لم أفعل بعد، وربما أفعل قريبًا، أو قاربت الفعل.

يقول مجاهد: «لا يقضي أحدٌ أبدًا كلَّ ما افتُرِض عليه»[1].

ومما يناسب هذا المعنى: قوله صلى الله عليه وسلم: «**لن يُدْخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنةَ**». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني اللهُ منه بفضلٍ ورحمةٍ**»[2].

والعبد مهما اجتهد لن يؤدِّي شكر نعمة الله تعالى عليه، وهو لم يتدبَّر حقَّ التدبُّر، ولم يتفكَّر حقَّ التفكُّر، ولو تفكَّر في ملكوت السماوات والأرض، ونظر في نفسه؛ لأبصر الآيات، يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل:

إلهي رأيتُك.. إلهي سمعتُك..

رأيتُك في كلِّ شيء..

سمعتُك في كلِّ حيٍّ..

تعاليَت لم يبدُ شيءٌ لعيني..

تباركتَ لم ينبُ صوتٌ بأذني..

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 8062)، و«المحرر الوجيز» (5/ 439)، و«زاد المسير» (4/ 402)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 323).

(2) أخرجه البخاري (5673)، ومسلم (2816) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولكنَّ طيفًا بقلبي يطل..

ومِن طيفِه كلُّ نورٍ يهل..

لقد رأى آيات الله، التي جعلته يعبده كأنه يراه، أو يحاول.

وهذا المعنى مناسب لما بعده، وهو قوله سبحانه: ﴿صَلۡصَـٰلٖ كَٱلۡفَخَّـارِ ١٤ وَخَلَقَ ﴾ أي: فليتدبَّر إذًا بالنظر إلى طعامه.

قال ابن كثير: «لم أجد للمتقدِّمين فيه كلامًا سوى هذا». أي: أن الإنسان لم يؤدِّ ما أوجب الله تعالى عليه.

ثم قال: «والذي يقع لي في معنى ذلك- والله أعلم- أن المعنى: ﴿تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ ﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القَدَر من بني آدم ممن كتب الله له أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كونًا وقَدَرًا، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم»[1].

وكأنه جواب لما يثار من تساؤل: لماذا لم يبعث الآن الأقدمون؟

فكان الجواب: لو شاء الله لأنشر الإنسان الآن، ولكن لم يشأ ذلك، ولم ينته بعد ما أمر الله به قضاءً وقدرًا من خلق الناس، فقد أذن الله أن تأتي أجيال بعد أجيال، وأمم وقرون، حتى ينتهي الأمر، ويأذن الله تعالى بالبعث، أما بعث الناس قبل موعد البعث فلا يكون.

وهو معنى لطيف، وابن كثير- وإن كان مفسِّرًا سلفيًّا- لم يجد غضاضة أن يبتكر معنى للآية جميلًا صحيحًا، تدل عليه نصوص أخرى، ولم يسبقه إليه أحد فيما يعلم.

وقد يظن بعض الناس أن الإتيان بالمعاني اللطيفة الجديدة والأسرار من الآيات خطأ، وليس الأمر كذلك، بل الأمر كما قال علماء السلوك: كما أن القرآن نزل على

---

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 323).

النبي صلى الله عليه وسلم منجَّمًا- يعني: مفرَّقًا- فكذلك قرَّاء القرآن تأتيهم أسرار القرآن ومعانيه منجَّمة، فكلما قرأ الإنسان تجدَّد له معنى لم يلحظه من قبل.

وقد نقل الرازي عن الأستاذ ابن فُورَك معنًى في الآية مختلفًا، فقال: «كلا لم يقضِ لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك الكِبْر، بل أمره بما لم يقضِ له به»[1].

يعني: كلا لن يؤمن هذا الكافر؛ لأن الله لم يرد له أن يؤمن، ولم يقضِ له الإيمان، فالله أمره بالإيمان، لكن لم يقضِه له.

وهذا المعنى صحيحٌ في ذاته، فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: 107]، ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 111].

لكن السياق لا يساعد؛ لأنه يبدو وكأنه يعطي الكافر العذر في كفره إذ لم يُقْضَ له ذلك.

* ﴿صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ خَلَقَ﴾:

بعدما ذكر تعالى خلق الإنسان، انتقل إلى نوع آخر من الحجج والآيات الدالة على وحدانية الله سبحانه، وهي من النعم والفضائل والكرامات التي أكرم الله بها الإنسان، ودعا إلى التأمُّل في شيء محسوس قريب تشتد الحاجة إليه، وهو الطعام.

﴿صَلْصَٰلٍ﴾ هو نظر واسع؛ نَظَرَ إيمانٍ واعتبار، فمَن نظر في هذه المخلوقات توصَّل إلى الإيمان بخالقه سبحانه، وإدراك حكمته في الخلق ورحمته وكرمه وأسمائه الحسنى.

نَظَر امتنانٍ وشكر؛ لأنه إذا نظر إلى هذا الطعام شكر مَن أعطاه إياه.

وهو نظر دائم؛ لأن الطعام، ومثله الشراب، من الضرورات الملازمة للإنسان في ليله ونهاره[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (31/ 58- 59).

* ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ٱلشَّمْسُ﴾:

الجمهور يقرؤونها بكسر الهمزة: ﴿إِنَّا﴾، على سبيل الاستئناف، وأما قراءة عاصم فهي بالفتح: ﴿مِن﴾[2]، وهذا ما يسمِّيه النحويون: بدل الاشتمال[3].

والرابط بين الآية وبين الطعام ظاهر، **والصبُّ** عادة يكون من الأعلى إلى الأسفل، والمقصود بـ﴿مِّن﴾ هنا: المطر[4].

و﴿نَّارٍ﴾ مفعول مطلق، وهو دليل على قوة الصَّبِّ، والله تعالى تولَّى هذا الأمر بنفسه وذاته، كما توحي الآية، وإن كان وكَّل به الملائكة[5].

* ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦﴾:

جاء التعبير بـ﴿فَبِأَيِّ﴾ إشارة إلى النواميس الإلهية في هذه الحياة، فالنبات لا ينبت إلا بالماء بإذن الله، والأرض تحيا بالنبات، وبعضه مترتِّب على بعض، ترتيب النتيجة على السبب، ولو شاء الله لأنبت الزرع وأحيا الأرض بغير نزول المطر، ولكنها سنته.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 286)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 425- 426)، و«تفسير الماوردي» (6/ 206)، و«الكشاف» (4/ 704)، و«فتح القدير» (5/ 468).

(2) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص672)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 378)، و«حجة القراءات» (ص750)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص220)، و«تفسير القرطبي» (19/ 221)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 398)، و«معجم القراءات» (10/ 311).

(3) ينظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1309)، و«تفسير النسفي» (3/ 603)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 165)، و«فتح القدير» (5/ 465)، و«روح المعاني» (15/ 248).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 592)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 96)، و«تفسير الماوردي» (6/ 207)، و«فتح القدير» (5/ 468).

(5) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 227)، والمصادر السابقة.

وفي الآية صورة تخيلية، فكأنك ترى الأمطار تهطل بغزارة، تجتاز تلك المسافة بسرعة، فتستجيب الأرض، وتتشقَّق بالنبات، حتى إنك ترى الأرض يابسة هامدة شهباء: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: 5].

وأشار إلى الفاصل الزمني بعد نزول المطر وقبل خروج النبات، وهو يوضِّح معنى قوله: ﴿نَارٖ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ □□□□﴾ [الحج: 63] أنه لا يعني النبات الفوري.

* وقد ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□ ۝١١﴾:

الحَبَّ هو كل ما يُحصَد، كالقمح والبُر والحِنطة والشَّعير والأرز، وهي غالبًا قوت للإنسان.

ثم **العنب**، وهو فاكهة معروفة، وهو مفيد للهضم، فإذا جُفِّف سُمِّي زَبيبًا، وكان العرب يجفِّفونه ويجعلونه قوتًا يأكلونه في غير موسمه، وله منافع كثيرة للبدن، وهو أحد الفواكه الثلاث التي هي ملوك الفواكه؛ العنب والرُّطب والتِّين، كما قال ابن القيم[1].

والقَضْبُ هو: القَتُّ، أو العلف، ويُسمَّى قديمًا: الفِصْفِصَة، وهو ما تأكله الحيوانات، وبعض أهل العلم يقولون: إن القَضْب هو ما يُحْصَد مرة بعد أخرى[2].

والزيتون معروف، وزيته نافع، وقد ذكره تعالى في مواضع من القرآن، وسمَّى بلاد الشام بلاد التين والزيتون بالبلاد المباركة[1].

---

(1) ينظر: «زاد المعاد» (4/ 339 – 341).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 116)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 133)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 329)، و«تفسير البغوي» (5/ 212)، و«زاد المسير» (4/ 403)، و«تفسير القرطبي» (19/ 221)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 324)، و«روح المعاني» (15/ 249).

والنخل معروف، ولم يقل: «تمرًا»؛ لأن ثمرة النخل تتشكَّل على أنواع، فتبدأ بُسرًا، ثم رُطبًا، ثم تمرًا.

ولأن النخل لا تنحصر الإفادة منه في جني ثمرته، وإنما يُنتفَع من أجزائه كلها، حتى لا يكاد يُرمى منه شيء.

والحديقة هي: البستان، والغالب أنها تُطلَق على الأشجار الملتفَّة الكثيرة المحيط بعضها ببعض، ففيها ثمار وجمال في منظرها، يقول مجاهد في قوله تعالى: ﴿ﮋﮌ﴾ أي: أشجارًا ملتفة. وأكثر أهل التفسير على أن الغُلْب جمع: أَغْلَب، ويُطلق على الأشياء المتينة[2].

والفاكهة معلومة، أما **الأَبُّ**، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هو: الكلأ، أو ما تنبت الأرض من الحشيش أو المرعى، وهي ألفاظ متقاربة[3]. وسُمِّي بذلك؛ لأن الناس يأبُّونه، أي: يؤمُّونه.

وذكر الطبري في «تفسيره» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية، فقال: «قد عرفنا الفاكهة، فما الأَبُّ؟». ثم أقبل على نفسه وقال: «لعَمْرُكَ يا ابن الخطاب، إن هذا لهـو التكلُّف»[1].

---

(1) كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: 71]. وقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: 137]. وينظر: «تفسير الطبري» (10/ 404)، (16/ 313)، و«التحرير والتنوير» (18/ 240).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4/ 107)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 133)، و«تفسير السمعاني» (6/ 161)، و«تفسير القرطبي» (19/ 222)، و«فتح الباري» (6/ 296)، و«تغليق التعليق» (3/ 490)، و«الدر المنثور» (15/ 250)، و«التحرير والتنوير» (30/ 132).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 121)، و«تفسير السمعاني» (6/ 161)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 324)، و«روح المعاني» (15/ 250)، و«التحرير والتنوير» (30/ 133).

وسُئل أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عن هذه الآية بخصوصها؟ فقال: «أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني، إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم!»[2].

فالصِّدِّيق والفاروق رضي الله عنهما وقفا عند «الأَبِّ» ولم يحدِّداه.

وابن عباس رضي الله عنهما حَبْر الأمة وترجمان القرآن عرَّفه، ونقله عنه مجاهد، كما سلف.

أما توقُّف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما **عند «الأَبِّ» وعدم تحديده، فله احتمالان:**

1- أن تكون من الكلمات التي جاءت في القرآن، وليست على لغة قريش.

2- أن يكونا قد عرفا «الأَبَّ»، لكن لأنه لفظ مشترك يُطلَق على أكثر من شيء، فقد تردَّدا في تعيينه، هل المقصود بالآية المرعى والكلأ، أم المقصود به نبات آخر؟

وهذا درس في عدم التكلف والتنقير والهجوم على المشتبهات دون علم، خاصة وأن السياق مفهوم، وهو في مقام تعداد النعم والامتنان بها على الخلق وشكرها، وليس أمرًا تعبديًّا ولا يتعلق بخصوصه تكليف من زكاة أو غيرها حتى يتوجب على المكلَّفين معرفته.

وتوقُّف الشيخين في تحديد معناه لم يمنع غيرهما من البيان؛ لأن المفردة من العلم قد توجد عند المفضول وتخفى على الفاضل.

وفي الآية إشارة إلى أن هذه النعم يشترك فيها الإنسان والحيوان، ولذا ذكر ما يخص الإنسان كالفاكهة، وما يخص الحيوان كالعلف، وما يشتركان فيه كالحب، مما يوجب الحذر أن يكون الأكل والتمتع هو قصارى ما يسعى إليه العقلاء.

---

(1) أخرجه ابن سعد (3/ 327)، وسعيد بن منصور (43- تفسير)، وابن أبي شيبة (30105)، والطبري في «تفسيره» (30/ 59). وينظر: «الدر المنثور» (15/ 251).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة (30107)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص227)، وينظر: «تفسير سعيد بن منصور» (39)، و«الدر المنثور» (15/ 251).

يا خادمَ الجسمِ كم تَشْقَى بخدمتِــه *** لتطلبَ الربحَ فيما فيه خسـرانُ

أقبِلْ على النفسِ فاستكملْ فضائلَها *** فأنت بالنَّفسِ، لا بالجسمِ إنسانُ[1]

ولذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ﴾ [محمد: 12]، والذين آمنوا ألَا يتمتعون ويأكلون؟

بلى، ولكن الذين كفروا: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾، أما المؤمن فإنه يأكل باسم الله، وينتهي بحمد الله: «**إن اللهَ ليرضى عن العبد أن يأكلَ الأَكْلَةَ فيحمدَه عليها، أو يشربَ الشَّربةَ فيحمدَه عليها**»[2]. ويتزوَّد ويتقوَّى بها على الطاعة، ويستحضر الفضل والنعمة لُمسْدِيها ومواليها.

* ﴿ ٱلۡعَصۡفِ﴾:

فهذه المذكورات بعضها للناس، وبعضها للأنعام: ﴿تُكَذِّبَانِ ١٦ ﴾ [يونس: 24][3]. **وكأن المعنى**: كلوا وتمتعوا، وتذكَّروا أن هذا الأمر في حدِّ ذاته لا يرفع قيمة الإنسان، فليست قيمته بما يأكل أو يلبس، أو يملك، وإنما هي بأمر فوق ذلك بكثير.

والسياق يشير من طرف خفي إلى أن على المكلَّف أن يبحث عن الكمال الإنساني، وأن يترفَّع عن مشابهة البهائم والأنعام التي لا هَمَّ لها إلا الأكل والشرب، ومع تمتعه بما أحل الله له، فعليه أن يفعل ذلك بطريقة شرعية مستحضرًا اسم الله وحمده، والتزام أحكامه، ومعرفة حقوق الجائع والمسكين وابن السبيل.

---

(1) ينظر: «ديوان أبي الفتح البُستي» (ص183).

(2) أخرجه مسلم (2734) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 124)، و«تفسير البغوي» (5/ 212)، و«تفسير الرازي» (31/ 60)، و«تفسير الخازن» (4/ 396)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 145).

وأن يتذكَّر النعم التي شُرِّف بها الإنسان وكُرِّم دون الحيوان، وهي نعمة العقل والتكليف والمعرفة والاختيار والمواهب والأشواق والخيالات والمناجاة التي هي من أعظم المتعة: «**أرحنا بها يا بلالُ**»[1].

وفي هذا السياق: دعوة إلى التوحيد والاعتراف بالخالق الرازق تبارك وتعالى.

ودعوة إلى شكر الخالق الرازق، فالله تعالى حقيق بأن يُشْكر ويُحْمَد عليها.

ودلالة على البعث؛ وهذه الأرض التي كانت هامدة، ثم شقَّها الله تعالى بالنبات كثيرًا ما تأتي في القرآن إشارة إلى البعث، وتنبيهًا إلى أن البعث يحاكي ما يقع في الأرض من خروج النبات.

* ﴿□□□ءَالآءِ □□□□□□□□□□ ﴿١٥﴾﴾:

تضمنت الآيات السابقة دعوة إلى التأمل والتوحيد والإيمان، فناسب أن يأتي بعدها تأكيد البعث، ونقل المشهد من الدنيا إلى يوم النشور، و«إذا» أداة شرط.

وقد ذكر الشيخ ابن عاشور في «التحرير والتنوير»[2] أن جواب الشرط قوله تعالى: ﴿□□□□﴾.

وهذا بعيد، **والأقرب** أن الجواب قوله سبحانه: ﴿□□□□□﴾.

و﴿□﴾ هي: الصيحة، وهي من أسماء القيامة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]، وقد أُطْلِق يوم القيامة في القرآن حتى صار عَلَمًا عليه، وهو يوم النفخة.

---

(1) أخرجه أحمد (23088، 23154)، وأبو داود (4985، 4986)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (5549)، والطبراني في «المعجم الكبير» (6215)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (6/ 3097) (7149) من حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وفي إسناده اختلاف، ورُوي مرسلًا. وينظر: «علل الدارقطني» (4/ 120- 122)، و«تاريخ بغداد» (10/ 442- 445)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (1/ 62- 63)، و«تخريج أحاديث الإحياء» (ص195).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 137).

فهي الصوت الذي يصخُّ الأسماع، وقد يكون معناه: تصيخ له الأسماع، وقد يقال: فلان يصيخ، يعني: ينصت للصوت، وهذا رأي الطبري والزمخشري وجماعة[2].

وذهب آخرون إلى أنها الصوت القوي الذي يصخُّ أو يصمُّ الأسماعَ بقوته[3]، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالأمر قريب.

فإذا جاءت القيامة بصوتها المجلجل القوي فذلك ﴿□□□□□□□□□□ ۝١٥﴾، وورود التسلسل بهذه الصيغة انتقال من القريب إلى الأقرب، فأخوه قريب، وأقرب منه أمه وأبوه، وأقرب منهما زوجته وبنوه، في حين أن في «سورة المعارج» كان التسلسل من الأقرب إلى الأبعد، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ □﴾.

وسبب فرار الإنسان من أقرب الناس إليه أنه مشغول بما يهمُّه، حتى الرسل والأنبياء عليهم السلام هِجِّيرَاهم[4]: «**نفسي.. نفسي**»[5].

---

(1) أخرجه الطبري (24/ 124).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 124)، و«الكشاف» (4/ 705)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 287)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 134)، و«زاد المسير» (4/ 403)، و«تفسير القرطبي» (19/ 224)، و«التحرير والتنوير» (30/ 134)، وينظر أيضًا: «أساس البلاغة» (1/ 539)، و«لسان العرب» (3/ 33)، و«تاج العروس» (7/ 290) «ص خ خ».

(4) أي: شأنهم ودأبهم.

(5) كما في «صحيح البخاري» (4712)، و«صحيح مسلم» (194) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في حديث الشفاعة الطويل.

أو يفرُّ منهم خشية المطالبة، كما قال قتادة؛ لأنهم بحكم المخالطة والقرابة يكون بينهم حقوق، ولهذا قال قتادة: يفرُّ قابيل من هابيل[1]؛ لأنه سوف يُمْسِك به ويقول: يا ربِّ، سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ وهكذا كل قاتلٍ يُسأَل يوم القيامة: لماذا قَتَل؟

ذلك أنه إذا اشتد الخوف والقلق أصبح الإنسان يهتمُّ بنفسه أكثر مما يهتمُّ بزوجه أو ولده أو والده أو أخيه أو قرابته، ثم إن النتيجة المحصّلة ليست أمرًا سهلًا يمكن أن يتحمله أحد عن أحد، أو يؤثر فيه مَن يحب ويعظِّم، فهي نهاية المطاف وخاتمة المسعى، والجنة أبدًا أو النار أبدًا.

وعبر بـ﴿□﴾، ولم يقل: «عن أخيه»؛ لأن الأخ هو المقصود بالفرار، فيفرُّ منه بالذات؛ لأنه مشغول عنه، أو لأنه يخشى أن يطالبه، فسبب الفرار هو الأخ نفسه، أما لو قال: «عن أخيه»: فمثل أن يكون الإنسان في معركة مثلًا وفَرَّ عن أخيه، أو عن زوجه، أي: تخلَّى عنهم، دون أن يقصدهم بالفرار[2].

* ﴿□□□□□□تُكَذِّبَانِ﴾:

يشغله عما سواه، وفي «الصحيح» عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا**[3]». فقالت عائشةُ: يا رسولَ الله، النساءُ والرجالُ جميعًا،

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 135)، و«حلية الأولياء» (2/ 341)، و«تفسير البغوي» (5/ 212)، و«زاد المسير» (4/ 403)، و«تفسير الرازي» (31/ 61)، و«تفسير الخازن» (4/ 396)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 171)، و«روح المعاني» (15/ 251).

(2) وقد ذهب البعض إلى أن ﴿□﴾ و﴿عَنْ﴾ في هذا الموضع سواء. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 238)، و«تفسير الطبري» (24/ 124- 125)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 605).

(3) أي: غير مختونين.

ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**يا عائشةُ، الأمرُ أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ**»[1].

الخطب عظيم، وأمامهم من الأهوال والكروب ما يشغلهم عن نظر بعضهم إلى بعض، ليس هذا الموقف بضع دقائق أو ساعات أو أيامًا، بل ﴿□□□□□□□﴾ [المعارج: 4].

❊ ﴿□□□□□□□﴾:

بدأ بالفريق الأول؛ لأن السورة نزلت في شأن عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه من جهة، وحثَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم على الاهتمام بالمؤمنين ولو كانوا من الضعفاء والمساكين والمستضعفين، وعاتب الله تعالى نبيَّه بشأن هؤلاء الكفار الذين استظهرنا فيما سبق من الآيات أنهم ممن كتب الله عليهم الشقاء، وعلم أنهم لا يؤمنون، وسجَّل عليهم ذلك، فكان الأنسب أن يبدأ بالمؤمنين؛ ليبشرهم بحسن مآلهم.

والوجه قد يُراد به وجه الإنسان، ويُعَبَّر به عنه غالبًا تقول: فلان وجهه طيب. وأنت لا تقصد وجهه بالذات، لكن طِيْب معدنه وخلقه، وهي مُسْفِرَة؛ لأنها آمنت بالله عز وجل وصدَّقت المرسلين.

وجمع فيهم الصفات الثلاث كلها:

الإسفار في الوجه، وهو نور الإيمان، والتقوى، والصفاء في قلوبهم فاض على وجوههم.

الضحك، وهو فعل الإنسان، وعادةً أنه لا يضحك إلا في طمأنينة وانشراح، وهي درجة أعلى من الإسفار.

---

(1) أخرجه البخاري (6527)، ومسلم (2859).

الاستبشار، وهي درجة ثالثة أعلى منها، أي: أن في قلوبهم بِشْرًا وفرحًا وابتهاجًا، فهم يرون من هدايا ربهم ولطفه وتحفه وعطاياه ما يطمئنهم ويبشِّرهم[1].

❊ ﴿□□□□□□□□﴾:

وهي في مقابلة الوجوه الأولى، وكُرِّرت كلمة ﴿□﴾؛ لطول الفصل، واستحضارًا للموقف نفسه.

والغَبَرة: لون الغبار المائل للسواد، كقوله تعالى: ﴿ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: 106].

ومع سوادها ﴿□﴾ أي: تدركها وتغشاها، و﴿□﴾ هي: الغبرة، **وقيل**: سواد كالدخان، أي أن وجوههم كاسفة ذليلة مغبرَّة سوداء لما هي فيه من الكرب والشدة[2]، كما قال تعالى: ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [يونس: 27][3].

❊ ﴿□□□□□﴾:

﴿□﴾ بما في قلوبهم من الجحود والعناد والاستكبار، و﴿□﴾ في أعمالهم، وكثيرًا ما يُطْلَق الفجور على الأعمال، كقوله صلى الله عليه وسلم: «**إذا خاصم فجرَ**»[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 209)، و«تفسير الرازي» (31/ 62)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 127)، و«معاني القرآن» للزجاج (2/ 343)، و«تفسير الماوردي» (6/ 209– 210)، و«تفسير الرازي» (31/ 62)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 327).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 429)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 135)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 241)، و«زاد المسير» (4/ 404)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 327).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص432، 601).

(4) أخرجه البخاري (2459)، ومسلم (58) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وغالبًا ما يكون الكافر فاجرًا، كما قال نوح عليه السلام: ﴿□□□□□□□□□□﴾ [نوح: 27].

فجمعوا بين الكفر والفجور؛ ولذا جمع الله لهم بين الصفة الذاتية، وهي السَّواد في وجوههم، وبين ما يحيط بهم من حولهم، وهو القَتَرة التي تغشاهم.

وكما أن الفجور يظهر في تصرفاتهم وأعمالهم جعل القَتَرة تغشاهم وترهقهم وتحيط بهم كإحاطة أعمالهم السيئة الظالمة الفاجرة، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾ [البقرة: 81]، وقال عن النار: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الكهف: 29]، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

سورة التكوير

*** تسمية السورة:**

اسمها في غالب كتب التفسير: «**سورة التكوير**»[1]، ومع كونه لم يرد نصًّا في السورة، إلَّا أنه مصدر من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾، مثل «الانفطار» من قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾ و«الزلزلة» من قوله تعالى: ﴿٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي﴾.

وتسمَّى: «**سورة** ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾»، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن سرَّه أن ينظرَ يومَ القيامةِ كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأْ:** ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾، و﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾، و﴿مِن مُّدَّكِرٍ ٥١﴾»[2].

وكذلك سمَّاها البخاري، وبوَّب بذلك في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»، وبعض المفسرين[3]، فهو اسم للسورة بإحدى آياتها، كما تُسَمَّى «الانفطار»: «سورة ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾».

*** عدد آياتها:** تسع وعشرون آية، أو ثمان وعشرون، حسب اختلافهم[1].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 599)، و«تفسير الطبري» (24/ 128)، و«تفسير الماوردي» (6/ 211)، و«المحرر الوجيز» (5/ 441)، و«تفسير القرطبي» (19/ 226)، و«التحرير والتنوير» (30/ 139).

(2) أخرجه أحمد (4806)، والترمذي (3333)، وابن أبي الدنيا في «الأهوال» (19)، والحاكم (4/ 576).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص707)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 395)، و«صحيح البخاري» (6/ 166)، و«جامع الترمذي» (5/ 290)، و«التحرير والتنوير» (30/ 139).

* **وهي مكية** بإجماع أهل التفسير[2].

* **وقد ورد في فضلها** حديث أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ! قال: «**شَيَّبتني هودٌ، و﴿أَلَّا﴾، والمرسلاتُ،**

و﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ﴾، و﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾».

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ابن الصلاح، وغيره، وقد تقدم[3].

* **موضوع السورة:**

في صدرها أخبر تعالى باثني عشر خبرًا متتاليًا: ستة منها تتعلق بالدنيا، وستة تتعلق بالآخرة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[4].

فالستة التي تتعلق بالدنيا ستقع في آخرها، والستة التي تتعلق بالآخرة ستقع في أولها، فكأنها متتابعة، يفضي بعضها إلى بعض.

* **﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا ﴿١١﴾﴾:**

﴿وَمَآ﴾ أداة شرط للمستقبل، وقد تكرر هنا ثنتي عشرة مرة، وفيه إطناب، ولم يقل: «إذا كوِّرت الشمس، وانكدرت النجوم، وسيِّرت الجبال».. وهذا من البلاغة؛

---

(1) واختلافهم في قوله: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص265)، و«روح المعاني» (15/ 253)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 441)، و«زاد المسير» (4/ 405)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 555)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» للبقاعي (3/ 160)، و«روح المعاني» (15/ 253)، و«التحرير والتنوير» (30/ 139).

(3) تقدم تخريجه في أول «سورة الواقعة»، و«سورة المرسلات».

(4) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 141)، و«تفسير البغوي» (5/ 215)، و«زاد المسير» (4/ 407)، و«تفسير القرطبي» (19/ 236).

لأنه يشعرك أن كلَّ حدث خبر مستقلٌّ له هيبته ووَقْعُه وتأثيره، وكل حدث جدير بالاهتمام والعناية والتكريس، وفيه تشويق للخبر الذي بعده؛ فبعد ثنتي عشرة آية مُصَدَّرة بـ﴿وَمَآ﴾ يأتي الجواب: ﴿۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۞﴾.

وفيه تخويف؛ لأنه يسرد مجموعة من الحوادث العظيمة الهائلة بسرعة، ولكن بتفصيل، وكأنها مشاهد متلاحقة، كل واحد منها يستقل بإطاره، ثم يمضي ليلحقه ما بعده.

ويُرْوَى أن أبا الوفاء بن عَقِيل كان في مجلس، وقُرِئت هذه السورة، فقال بعض الحاضرين: يا سيدي، هَبْ أنه أَنشر الموتى للبعث والحساب، وزوَّج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلِمَ هدَمَ الأبنيةَ، وسيَّر الجبالَ، ودكَّ الأرضَ، وفطَرَ السماءَ، ونثرَ النجومَ، وكوَّر الشمسَ؟

فذكر أن ذلك لعدة معان:

1- أنه بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها؛ لانتقال الساكن منها.

2- في ذلك تكذيب لأهل الإلحاد والزنادقة، وفضحهم وتكذيبهم؛ بهدم آلهتهم ونثر معبوداتهم ومحوها.

3- في ذلك إظهار أن العالَمَ مربوب محدَث مدبَّر، له ربٌّ يصرِّفه كيف يشاء، تكذيبًا للملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم[1].

4- في ذلك بيان لعزة الله وقهره وغلبته.

---

(1) ينظر: «بدائع الفوائد» (3/ 183).

وقدَّم الاسم: ﴿أَمَرْنَآ﴾.. ﴿بِٱلْبَصَرِ﴾ على الفعل: ﴿إِلَّا﴾.. ﴿﴿٥٠﴾﴾؛ لأن الشمس والنجوم والجبال موجودة ويراها الناس، ومستقرة في الأذهان، فإذا قال لك قائل: «الشمس» تخيَّلت صورة الشمس وهي في كبد السماء تلقائيًّا، وكذلك إذا قال لك: «النجوم» تخيَّلت هذه القبة الزرقاء، وتخيَّلت نجومها تتلألأ وتضيء، فيكون الخبر واقعًا على أمر حاضر في الأذهان، يسرع الخيال إلى تصوره وتصويره، فيكون أقوى في التأثير، حيث جعل الاسم المُسْنَد إليه أولًا، ثم بيَّن ما يطرأ عليه من الفعل، وتغيير صورته البهيَّة الجميلة.

ومعنى ﴿إِلَّا﴾: ذهب ضوؤها فأظلمت، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ويحتمل أن يكون المعنى: توقفها، وعدم جريانها مع ذهاب ضوئها، كما في قوله سبحانه: ﴿كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ﴾ [القيامة: 9] وإنما جُمِعَا، لاختلال نظام جريانهما.

ويحتمل أن يكون المعنى: رُمِيَت وأُلْقِيَت، كما يقال: إن فلانًا صارع فلانًا، فكوَّره. يعني: أسقطه أرضًا.

وكل هذه المعاني واردة، فهي تعني أن الشمس تُظْلِم ويذهب ضوؤها وتنطفئ، وتتوقف عن حركتها المعتادة وطلوعها وغروبها، وتسقط.

ولا يلزم أن تقع هذه الحوادث كلها دفعة واحدة، بل تقع على التوالي مرة بعد أخرى[1].

* ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ٱلۡعَصۡفِ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 482)، (24/ 128- 131)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 136)، و«تفسير السمعاني» (6/ 164)، و«زاد المسير» (4/ 406)، و«فتح القدير» (5/ 469).

و﴿بِٱلْبَصَرِ﴾ معروفة، **وانكدارها:** ذهاب ضوئها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ [المرسلات: 8].

وفي الآية الأخرى: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [الانفطار: 2]، وعلى هذا فإن من معاني الآية: انتثارها وتفرُّقها، فعند ما يحصل انهيار النظام الكوني المعهود تظلم النجوم وتسودُّ وتتساقط، وربما تهوي في الفضاء، ويحطِّم بعضها بعضًا، أو تسقط في الأرض، أو في البحر[1].

* ﴿أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ فَبِأَيِّ﴾:

والجبال راسخة، حتى صارت مثلًا ورمزًا للقوة والثبات، ومع ذلك تُسيَّر، وجاء وصف المشهد في آيات أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿□ □ □﴾ [المعارج: 9]، وقوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القارعة: 5].

تصبح مثل القطن في خِفَّته، وكالسَّحاب في مروره، ثم تُدَكُّ وتزول، وتصبح الأرض بعد ذلك ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: 106- 107]، ولا ارتفاعًا ولا انخفاضًا[2].

* ﴿مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ تُكَذِّبَانِ﴾:

أكثر المفسرين على أن ﴿﴿٥١﴾﴾ **هي:** النوق الحوامل؛ فالناقة الحامل إذا دخلت في شهرها العاشر تُسَمَّى: عُشَراء، حتى تلد، وكانت من أنفس أموال العرب.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 430)، و«تفسير الماوردي» (6/ 211)، و«تفسير القرطبي» (19/ 228)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 297)، و«التحرير والتنوير» (30/ 141- 142).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 133)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 289)، و«تفسير البغوي» (5/ 215)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 330)، وما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿□□□□﴾.

ويحتمل أن ﴿٥١﴾ **هي**: الأرض أو الدِّيار التي تُعشَّر، أي: يُؤْخَذ منها الخراج، فالأرض الثمينة النفيسة لدى أصحابها تُهمل وتُتْرَك وتتعطَّل، وهذا لا يكون إلا لوقوع أهوال من علامات الساعة في الدنيا[1].

وتعطيلها: تركها، فلا أحد يهتمُّ بها، ولا يركبها، ولا يقتنيها، ولا يحلبها، ولا يعتني بها؛ لأن الناس مشغولون بما هو أعظم.

* ﴿فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٱلْإِنسَانَ﴾:

والوحوش معروفة، وهي الحيوانات المتوحِّشة، ﴿ٱلزُّبُرِ﴾ أي: جُمِعت، وهذا أحسن وأصحُّ ما قيل، وهو أكثر ما يَرِدُ في القرآن في معنى الحشر، كقوله تعالى: ﴿مُّقْتَدِرٍ ٥٥﴾ [النازعات: 23]. يعني: جمع قومه، ونادى فيهم.

ومنها: قوله: ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ﴾ [الكهف: 47]، يعني: جمعناهم.

وقوله: ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [ص: 19]، يعني: مجموعة.

وقوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 22]، أي: اجمعوهم[2].

فهذا هو الأقرب في معنى الآية، ولا يمنع أن يكون جمعها هنا لإهلاكها، يعني: جُمِعَت ثم أُهْلِكَت؛ لأن السياق قبلها وبعدها لا يزال في وصف زوال الدنيا وقيام الساعة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ستٌّ في الدنيا...» وذكرهن، وقد تقدم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 240)، و«تفسير القرطبي» (19/ 229)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 330)، و«التحرير والتنوير» (30/ 142).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 136)، و«تفسير الماوردي» (6/ 212)، و«تفسير الرازي» (31/ 64)، و«تفسير القرطبي» (19/ 229)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 331).

أما لو كان السياق عن الآخرة ويوم القيامة، فيكون معنى ﴿ٱلزُّبُرِ﴾: بُعِثَت، لِيُقْتَصَّ لبعضها من بعض، حتى يُقْتَصَّ للشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء[1]، ثم يقال لها: «**كوني ترابًا**»[2].

وقد يكون جمع الوحوش بسبب الخراب الذي سيلحق الحياة البشرية، فترتعد له الوحوش الضواري، ويقترب بعضها من بعض، وقد ورد عن مجاهد- ورُوي مرفوعًا- في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ﴾ [محمد: 4]، يعني: «حتى ينزلَ عيسى ابنُ مريم، فيُسْلِم له كلُّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ، وكلُّ صاحبِ مِلَّة، وتأمنُ الشاةُ الذئبَ..»[3].

* ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ۝١٤﴾:

وجاء في «سورة الانفطار»: ﴿أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ فَبِأَيِّ﴾.

ولا مانع من إرادة المعنيين، فتفجيرها يكون بإعادتها إلى عناصرها الأولية، وإحداث الانفجار، ومِن ثَمَّ تتوقَّد وتخرج منها النار، والتسجير هو من: سجَّرت التنور، يعني: أوقدته.

ويحتمل المعنى: أن تُفْتَح البحار بعضها على بعض، ثم تفجَّر وتكون لهبًا ونارًا[4].

---

(1) ينظر: «صحيح مسلم» (2582).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ﴾.

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص604)، و«أشراط الساعة» لعبد الملك بن حبيب (4/ 136)، و«تفسير الطبري» (21/ 188)، و«سنن البيهقي» (9/ 180)، و«تفسير السمعاني» (5/ 208)، و«تاريخ دمشق» (47/ 512)، و«تفسير القرطبي» (16/ 228).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 137)، و«الكشاف» (4/ 408)، و«زاد المسير» (4/ 406)، و«تفسير القرطبي» (19/ 230).

فهذه ست آيات تتعلَّق أخبارها بالدنيا، وهي علامات على يوم القيامة.

ثم انتقل إلى ذكر آيات أخرى تتعلق بالدار الآخرة، بعد بَعْث الناس من قبورهم، ورؤيتهم لمشاهد الآخرة عيانًا أمام أبصارهم.

* ﴿٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ مِن﴾:

وفي تفسيرها ثلاثة أقوال:

1- **أشهرها: حشرُ كلٍّ إلى نظيره،** فيُحْشَر الأخيار مع الأخيار، والأشرار مع الأشرار.

وتدل على أهمية الصحبة الصالحة؛ لأن الإنسان يُحْشَر مع قرنائه وأَخِلَّائه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: 22]، أي: نظراءهم[1]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]، فالأشرار يُحْشَرون معًا، ولكنهم متباغضون، والأخيار يُحْشَرون معًا متحابِّين متآلِفين حتى في عرصات القيامة، وهذا من بركة الأخوة والمحبة في الله، فهي لا تنقطع بالموت.

وهذا القول منسوب إلى عمر رضي الله عنه، واختاره الطبري، وابن كثير، وعليه أكثر المفسرين[2].

2- **إعادة الأرواح إلى أجسادها**[1]، وهو معنًى صحيح، ويؤيده أن ذلك بداية البعث وأوله، وما بعده تبع له مما جاء في سياق السورة.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (19/ 519).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص707)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 396)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (13/ 279)، و«تفسير الطبري» (24/ 141- 142)، و«المستدرك» (2/ 515، 516)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 9)، (8/ 332)، و«تغليق التعليق» (4/ 361)، و«فتح الباري» (6/ 694)، و«الدر المنثور» (12/ 395)، (15/ 265).

3- **قرن النفوس بأعمالها.** قاله الزَّجَّاج، وغيره[2]، فكأنه حكاية عن إيتاء الإنسان كتابه بيمينه أو شماله.

* ﴿جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ ١٥﴾:

بعدما قام الناس أحياءً، وزُوِّجَت الأجساد بأرواحها، وحُشِرَ الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، ينتظر السامع عما سيقع بعد ذلك، فيُفاجأ بأول ما يطرق سمعه بعد، وهو مشهد الموءودة تُسأل: بأي ذنب قتلت، والناس يُسألون عما كانوا يعبدون من دون الله، وعما كانوا يعملون، وماذا أجابوا المرسلين، وعن النعيم، والسورة مكية متقدِّمة النـزول، وقد تضمَّنت تقريعًا للمشركين على الفعلة الشنعاء.

و﴿وَنَهَرٖ﴾: الجارية الوَئِيدة[3]، وقد كان القليل من قبائل العرب إذا قاربت المرأة الحامل عندهم أن تضع حملها وضعوها على شفير حفرة، فإن كان غلامًا أخذوه، وإن كانت جارية وضعوها في الحفرة، وواروها بالتراب!

وقد ذكر تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: 17]، وفي الآية الأخرى: ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [النحل: 58-59]، يعني: هل يبقيها حيَّة مع الهوان أو يدفنها؟

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 144)، و«معجم ابن المقرئ» (600)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 139)، و«زاد المسير» (4/ 406)، و«التحرير والتنوير» (30/ 130)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 290)، و«تفسير السمعاني» (6/ 166)، و«تفسير الرازي» (31/ 65)، و«تفسير القرطبي» (19/ 232)، و«التحرير والتنوير» (30/ 130).

(3) ينظر: «لسان العرب» (3/ 442)، و«تاج العروس» (9/ 246) «و أ د».

وقد رُوي أن قيس بن عاصم المِنْقَري- وهو مَن هو في شرفه ومجده وكرمه- وأد عشرًا من البنات[1]؛ ولذلك كان الفرزدق- وهو تميمي- يفخر بجدِّه صَعْصَعة بن ناجية الذي يقال: إنه أحيا أكثر من أربعمئة وئيدة، وكان إذا أراد والدها أن يئدها، قال له: أنا أكفلها. ويعطيه ناقتين، ثم يتركها حيَّة؛ فكان الفرزدق يثني عليه بقوله[2]:

ومنَّا الذي مَنعَ الوائِداتِ *** وأَحيَا الوَئِيدَ فلمْ يُوأَدِ

ويُروى أن عمر رضي الله عنه وأد إحدى بناته، وكانت تنفض الترابَ عن لحيته، وأنه كان يروي قصته بعد الإسلام ويبكي، وهي قصة موضوعة لا تصح[3].

وهذه العادة كانت موجودة في بعض قبائل العرب، وعند كثير من أمم الأرض، كالصينيين والهنود وغيرهم، ولا تزال بعض الأمم تمارِس شيئًا من الوأد الظاهر أو الوأد الخفي، منها التحكم في المواليد واختيار الذكور على الإناث، ففي كوريا كان يُولد في أوائل التسعينات من القرن العشرين (122) صبيًّا مقابل (100) بنت، كما بلغت في الصين الشعبية (117) صبيًّا لكل (100) بنت، وأدَّى هذا إلى نقص البنات في آسيا، وبحلول العقد الثاني من القرن (21) ستواجه الصين حسب التقديرات وضعًا لن يجد فيه خُمس السكان الذكور في سن الزواج عرائس لهم! مما يترتب عليه نزوع الشباب إلى الجريمة، علمًا أن النسبة الطبيعية هي (105) فتى مقابل (100) بنت[4].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 397)، و«تفسير الطبري» (24/ 147)، و«تفسير الرازي» (20/ 225)، و«تفسير القرطبي» (19/ 233)، و«روح المعاني» (15/ 257)، و«التحرير والتنوير» (30/ 146).

(2) ينظر: «الكامل» للمبرد (2/ 57)، و«منتهى الطلب» (ص225، 226)، و«التذكرة الحمدونية» (2/ 389)، و«أسد الغابة» (1/ 519)، و«الإصابة» (3/ 430).

(3) ينظر: «عبقرية عمر» للعقاد (ص221- 222)، و«دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر رضي الله عنه» (ص111- 112).

(4) ينظر: كتاب «مستقبلنا بعد البشر» لفوكوياما.

ومن ذلك عمليات التحويل الجنسية المتبادلة لأسباب شتى، مما يجور على الأنثى في الحالين، ويبخسها حقها وخصوصيتها.

ومن ذلك تجاهل الفروق الجوهرية بين الذكر والأنثى، وقد أظهرت دراسات علمية وجود فروق ثابتة، فالأنثى تملك قدرات لفظية أكثر من الذكر، وتتفوق عادة في القدرات البصرية، بينما يملك الولد قدرات رياضية، وتكون عدوانية الذكور أكثر بكثير، ولعب الأولاد بدني أكثر من البنات، وهم أكثر تنافسية جماعية، وخطاب البنات يركز أكثر على العلاقات الأسرية.

هذا فضلًا عن الفروق الجسدية، والتي كثيرًا ما تجور عليها طبيعة الأعمال التي تسند إلى المرأة، أو نوع التربية أو تركيز الإعلام.

أما تسليع المرأة وتوظيف جسدها في الإثارة والتشويق والاستهلاك، فقد أصبح فنًّا تقوم عليه دوائر اقتصادية ضخمة، وتسخَّر له جهود وإمكانيَّات، والله المستعان.

وفي العالم الإسلامي طرف من ذلك كله، فضلًا عن التبرم بولادة الأنثى، واعتبارها عارًا وعيبًا في بعض المجتمعات، والاستحياء من النطق باسمها، وحرمانها من حقوقها المشروعة، حتى من الميراث أحيانًا، ومن حق اختيار الزوج، وحق الدراسة والعمل المباح، والحقوق السياسية التي كفلها الإسلام حتى استشيرت النساء في مَن يلي الخلافة بعد عمر رضي الله عنه!

وهنا سؤال: لماذا تُسأل الموءودة، مع أن السؤال في حقيقته موجَّه لوائدها، وهو سؤال يرد في مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ﴾ [المائدة: 116].

والجواب:

1- أنه في يوم القيامة ينطق مَن لم يكن ينطق، ويُبِيْن مَن لم يكن يُبِين، ويتكلم كل أحد بحجته، فالمظلومون في الدنيا من الضعفاء والفقراء والنساء والمستضعفين

المحرومين من حقوقهم يمكَّنون من البوح بشكواهم والمطالبة بالاقتصاص والشكوى إلى الله عز وجل، فهي لما سُئلت، تجيب: إنها قُتِلَت بغير ذنب.

2- أن سؤال الموءودة توبيخ وتبكيت لوائدها، والظالم قد يتمادى في الغي والاستبداد والطغيان، ويزيِّن له عقله وبطانته الفاسدة كثيرًا مما يعمل، فلا يلتفت ولا يتوقف، ثم يأذن الله بانكشافه وتأنيب ضميره بما يسمعه من شكاية مظلوميه، وهكذا مجرد كون الموءودة تُسأل وتُعطى حق السؤال وحق الجواب، وتعترض وتحتج، وتشتكي إلى الله، فهذا تبكيت وإيلام للوائد، فضلًا عن أنه يُوحِي بمجيء الحساب.

والوائد غالبًا هو الأب أو مَن يقوم مقامه، وفي هذا عبرة، فالله تعالى ينتقم يوم القيامة للولد من أبيه، فينتقم للموءودة من وائدها، ويعاقبه بالنار والنَّكال الشديد، وهذا دليل على ثقل المسؤولية، وأنها لا تعني إطلاق اليد، وإنما تعني التبعة والمحاسبة والسؤال، كما قال الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات: 24]، ولذلك يكون أصحاب المسؤوليات أطول وقوفًا، وأعظم سؤالًا يوم القيامة.

* ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّكُمَا﴾:

وفيه تقبيح لفعل الوائد؛ فإن هذه الموءودة قُتِلَت وهي صغيرة، فأيُّ ذنب قد جَنَتْهُ حتى تُقْتَل؟! وهو تجريد لهذه الفعلة من أي مسوِّغ، فهي فعلة شنيعة، يزيدها شناعة براءة مَن وقعت عليه من كل ذنب؛ لأنه ليس محلًّا لصدور الذنب منه.

وتضمنت الآية إشارة إلى مبحث مصير الأطفال يوم القيامة، وهو بحث طويل، تكلَّم فيه أهل العلم؛ كالبخاري والأشعري وابن عبد البر وابن حزم وابن تيمية وابن القيم والشوكاني وغيرهم.

أما أولاد المسلمين، فنُقِل عن الإمام أحمد الإجماع على أنهم في الجنة[1].

وأما أطفال المشركين، فقد اختُلف فيهم على أقوال، ذكرها ابن القيم في «أحكام أهل الذمَّة»[2]، وأطال كثير من الباحثين القول فيها، وأفردوا فيها مصنفات خاصة، أحد هذه الأقوال أن أطفال المشركين ممن ماتوا دون البلوغ هم في الجنة، ونُقِل هذا عن سلمان الفارسي رضي الله عنه[3]، وابن عباس رضي الله عنهما؛ مستدلًّا بهذه الآية، ونُقِل أنه قال: «أطفال المشركين في الجنة، فمَن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ ﴿١٥﴾﴾». وهذا مذهب البخاري وابن حزم وجماعة من الفقهاء والسلف والمتكلِّمين[4].

وقيل: إنهم يختبرون في عَرَصات القيامة، وهذا ما مال إليه ابن القيم.

لكن يحتاج إلى أدلة قوية ثابتة؛ لأنه خلاف الأصل الراسخ أن الاختبار في الدنيا قبل الموت وليس بعده.

والراجح أنهم في الجنة، كما في حديث الرؤيا أنه صلى الله عليه وسلم رأى إبراهيم عليه السلام وحوله صبيان؛ أولاد الناس، وفيه: «**وأما الولدان الذين حوله،**

---

(1) ينظر: «المنتخب من علل الخلال» (ص53)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (16/ 183)، و«فتح الباري» (3/ 244).

(2) ينظر: «أحكام أهل الذمة» (1/ 944)، وما بعدها.

(3) أخرجه معمر في «جامعه» (20079)، ولُوَين في «حديثه» (33)، وابن نصر- كما في «أحكام أهل الذمة» (2/ 1130)- والبيهقي في «القضاء والقدر» (567).

(4) ينظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (4/ 65)، و«أمالي الشجري» (1/ 24)، و«تفسير القرطبي» (17/ 203)، و«أحكام أهل الذمة» (1/ 944)، وما بعدها، و«تفسير ابن كثير» (4/ 478)، وما تقدم في «سورة الواقعة»: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ﴾.

فكلُّ مولود مات على الفطرة». فقال بعضهم: يا رسولَ الله، وأولاد المشركين؟ قال: «**وأولاد المشركين**»[1].

* ﴿مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾:

﴿ ﴿٥٥﴾ ﴾ جمع: صحيفة، وهي: الكتب، فآخذٌ كتابَه باليمين، وآخذٌ كتابَه بالشمال، **فنَشْر الصُّحف**: إعطاؤها لأصحابها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ ﴾ [الإسراء: 13- 14][2].

ومن معاني النَّشْر: فتح الصحائف، فهي تُفَرَّق على أصحابها منشورة، أي: مفتوحة[3].

* ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾:

وهذا في الآخرة، وليس في الدنيا، فهو مختلف عما جرى لها قبل ذلك مما ورد أنها تتشقَّق وتتمزَّق وتُفتَّح فتكون أبوابًا لنزول الملائكة، وهذه هي حالها في آخر الدنيا، أما كَشْطُ السماء هنا فمُوجِب السياق أنه يكون يوم القيامة بعد البعث[4].

والكَشْط هو: الإزالة[1]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ ﴾ [إبراهيم: 48].

---

(1) أخرجه البخاري (7047) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 602)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 291)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 432)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 335).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 234)، و«تفسير النسفي» (3/ 606)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 184)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 492).

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (4/ 274)، و«التفسير البسيط» للواحدي (18/ 437)، و«تفسير القرطبي» (19/ 235)، و«فتح القدير» (5/ 471).

* ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ﴾:

فيه إشارة إلى أن النار مخلوقة الآن، وهو ظاهر النصوص الشرعية، كما يقول الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان»[2].

ولكن يزاد يوم القيامة تسعير الجحيم.

* ﴿٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴾:

عَطَف الجنة على النار؛ ليقارن المكلَّف بينهما، **والإزلاف** هو: التقريب، وسُمِّي المشعر الحرام «مزدلفة» بهذا الاسم؛ لأنه يقترب إليها الحجاج، **والزُّلْفَى**: القربى، **وازدلف** يعني: تقرَّب، كما قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: 31][3].

وفي هذا التقريب إكرامٌ لأهلها، فكأنها هي التي تأتيهم أو تقترب منهم؛ إشادة بأعمالهم الصالحة وتقواهم التي تقرَّبوا بها إلى ربهم.

* ﴿٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾:

أي: علمت كل نفس ما أحضرت من الأعمال في كتابها، وقد جاء في بعض الآيات حكاية عن الكافرين أنهم عند أول وهلة من البعث لا يستوعبون حدث البعث العظيم، فيتساءلون: ﴿ ﴾، فهم بين مصدِّق ومكذِّب، فيبهتهم الجواب: ﴿ ﴾ [يس: 52]، وإذا بالمشاهد العظيمة تتوالى عليهم، كل مشهد أشد من سابقه.

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص712)، و«لسان العرب» (7/ 387) «ك ش ط»، و«تاج العروس» (20/ 59).

(2) ينظر: «العقيدة الطحاوية» (ص51).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (17/ 585)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 433)، و«تفسير الرازي» (28/ 145)، و«فتح القدير» (5/ 92)، و«التحرير والتنوير» (26/ 318).

وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (13/ 146)، و«لسان العرب» (9/ 138) «ز ل ف».

فإذا حصل هذا: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦﴾ أي: ما في يدها الآن، وما في كتابها، فالكتاب معها حاضر، ترى ما فيه خيرًا أو شرًّا.

* انتقل السياق إلى موضوع آخر، وقَسَم رباني عجيب مهيب: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٧ أَلَّا ٥٠ فِى ٱلْمِيزَانِ ٨ مُّدَّكِرٍ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا ٥٢﴾:

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٧ أَلَّا ٥٠﴾:

هذا قَسَم، وإن كان ظاهره النفي، كما في نظائره الكثيرة في القرآن الكريم[1].

ويخنس، أي: يختفي[2]، ومنه قيل للشيطان: الوسواس الخنَّاس؛ لأنه يوسوس، فإذا استعاذ منه الإنسان هرب، **فالخُنَّس** هي: الأشياء التي تظهر ثم تختفي.

وفسرها بـ﴿٧ أَلَّا﴾ أي: التي تجري فتدخل في الكِناس، وهو مكان الاختفاء، والعرب تسمِّي بيت الظَّبي: كِناسًا؛ لأن الظَّبي يختفي فيه[3]، ومنه: الكَنِيْسة أيضًا.

ويحتمل أن يكون المقصود بها: النجوم التي تظهر بالليل وتختفي في النهار[4]. قال بعض أهل العلم: إنها نجوم خمسة: عُطارد، والمِرِّيخ، والمشترِي، والزُّهَرة، وزُحَل.

وقال بعضهم: النجوم كلها، وشبَّهها بالظِّباء؛ لأن النجم في خِفَّته وإشراقه وحركته يُشبَّه بالظَّبي، وهذا تشبيه حيوي بديع.

---

(1) ينظر ما تقدم في سورة «الواقعة»: ﴿□□□□□﴾، وما سيأتي في «سورة الانشقاق»: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾.

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص300)، و«لسان العرب» (6/ 351)، و«الكليات» للكَفَوي (ص437).

(3) ينظر: «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 141)، و«تاج العروس» (16/ 451) «ك ن س».

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 435)، و«تفسير الماوردي» (6/ 216)، و«المحرر الوجيز» (5/ 443)، و«تفسير القرطبي» (19/ 236- 237)، و«التحرير والتنوير» (30/ 152).

وقال بعضهم: المراد بالخُنَّس: الظِّباء.

وقيل: بقر الوحش التي تشبه الظِّباء.

وقيل: المقصود: الملائكة[1].

والأقرب القول الأول، وأن المقصود: النجوم، وهو أليق بالسياق، والليل والصبح.

* ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ مُّدَّكِرٖ﴾:

﴿٨﴾ تحتمل معنى: أقبل، ومعنى: أدبر، **والأظهر** أن المعنى شامل للصورتين؛ إقبال الليل وإدباره، فكلاهما يتحقق بالتدرج، وكأن ﴿٨﴾ على هذا من الأضداد[2].

* ﴿ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا ٥٢﴾:

والمقصود بتنفس الصبح: شروقه[3]، والتعبير بالتنفس في غاية الروعة، وهو يُوحي بالحياة والإشراق والتجدُّد والتغيير، وأن كل صبح يمرُّ عليك ينبغي أن يُحيي فيك يومًا جديدًا، فتتزود فيه بالطاعة، فهو على عملك شهيد، وإذا طُوِيَت صفحته فإنه لا يعود إلى قيام الساعة، وأن يبعث فيك الأمل والتفاؤل والثقة بما عند الله،

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (8/ 337)، و«تفسير الماوردي» (6/ 216، 217)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1312)، و«زاد المسير» (4/ 407)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «الأزمنة وتلبية الجاهلية» لقُطْرُب (ص51)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص32)، و«تهذيب اللغة» (1/ 62)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (4/ 22)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (4/ 178)، و«إرشاد الساري» (7/ 413).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 163)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 101)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 338)، و«روح البيان» (10/ 350)، و«روح المعاني» (15/ 262).

والرغبة المتجدِّدة في النجاح والإنجاز وتخطِّي الصعاب، فما ليس ممكنًا بالأمس هو اليوم مقدور ومتاح.

يقول الحسن البصري رحمه الله: «ليس يومٌ يأتي من أيام الدنيا إِلَّا يتكلَّمُ يقولُ: يا أيها الناسُ، إني يومٌ جديدٌ، وأنا على مَن يعملُ فيَّ شَهِيدٌ، وإني لو غربت الشمسُ لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة»[1].

* ﴿ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴿٥٣﴾ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ جَنَّٰتِ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ فِي﴾:

هذا جواب القسم، **والمقصود**: القرآن، ولا يعني أن الرسول تقوَّله من تلقاء نفسه، ولكنه المُبَلِّغ به من ربه، ووَصْفُه بأنه ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ يوحي بهذا، كما هو ظاهر.

والمقصود عند الجمهور: جبريل عليه السلام[2]، ووصفه تعالى بستِّ صفات جليلة:

فأول وصف: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، فالرُّسل يكونون من الملائكة، ويكونون من الناس.

الثاني: ﴿وَضَعَهَا﴾ **والكرم**: الشرف والفضيلة، ويكفي في كرمه أنه مبلِّغُ وحي ربِّنا سبحانه إلى أفضل خلقه، وهم الرسل، ومكانته عند الملائكة عظيمة.

---

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (424)، وفي «كلام الليالي والأيام» (22)، وابن الجوزي في «حفظ العمر» (ص36).

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (408)، وفي «كلام الليالي والأيام» (6) من قول عبد الرحمن بن زُبيد اليَامي نحوه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 163)، و«زاد المسير» (4/ 408)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 338)، و«الدر المنثور» (15/ 273)، و«التحرير والتنوير» (30/ 158).

الثالث: ﴿ فِيهَا ﴾ ويكفي في قوته: أن الله تعالى لما أمره أن يحمل قرى قوم لوط، حملهم جميعًا على جناحه حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، وصياح ديكتهم، ثم قلبها[1].

وأعظم من ذلك تحمُّله تبعات الوحي والتلقِّي عن رب العزة وحمل الرسالة للنبي البشريِّ.

الرابع: ﴿فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي: صاحب مكانة عند الله، وأي مكانة أعظم من أن يكون رسول ربه إلى الرسل والأنبياء والمؤتمن على وحيه؟

الخامس: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو﴾، و﴿ذُو﴾ ظرف، ومعناها: هناك، فهو مُطَاع عند الملائكة والملأ الأعلى، بمثابة الرئيس عليهم، وله عليهم الطاعة.

السادس: ﴿ٱلْعَصْفِ﴾ يعني: مأمون فيما كُلِّف به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يخل بشيء منه. فهذه الصفات الست لجبريل عليه السلام.

* ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ مَلِيكٍ﴾:

والمقصود هنا: محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفه هنا بـ﴿فَبِأَيِّ﴾ على سبيل التذكير لهم بأنه لم يَفِدْ إليهم من غيرهم غريبًا لا يعرفون نسبه وسيرته، بل قد وُلِدَ ونشأ فيهم، وعرفوا أصله ونسبه وسيرته وخُلُقَه، وهذا ردٌّ على ما كانوا يَدَّعونه من أنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، كأن السياق يقول: لا حاجة إلى مزيد من التفصيل في شأن محمد صلى الله عليه وسلم، فأنتم تعرفونه، وهو ﴿فَبِأَيِّ﴾[2].

---

(1) ينظر: «العقوبات» لابن أبي الدنيا (ص99- 103)، و«تاريخ الطبري» (1/ 304- 306)، و«ذم اللواط» للآجري (ص38)، و«العظمة» (2/ 798)، و«التبصرة» لابن الجوزي (1/ 157)، و«البداية والنهاية» (1/ 99).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة النجم»: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾.

وفيه تحفيز للإيمان؛ لأن اختيار رسول منهم هو رفعة للجنس كله، وهو صاحبكم عزه عزكم ونصره نصركم وأنتم أسعد الناس به.

* ﴿تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

أي: الأفق البيِّن الواضح، فقد رأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم جبريلَ عليه السلام في صورته التي خُلق عليها، وله ستمئة جناح، قد سدَّ ما بين السماء والأرض، وهذه هي الرؤية الأولى[1]، وكانت بالبَطْحاء، ثم رآه صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ [النجم: 13- 15].

* ﴿صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ خَلَقَ﴾:

والضَّنين: البخيل، وفي قراءة سبعية: ﴿بِظَنِينٖ﴾ بالظاء[2]، **والمقصود به**: المُتَّهم، أي: لم يكن متهمًا بسوء[3].

* ﴿مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ٱلشَّمۡسُ﴾:

وقد كان الكفار يدَّعون أن القرآن من إلقاء الشيطان، كما يُلْقِي على السَّحرة والكهنة والعرَّافين والشعراء، فرد الله عليهم ذلك[4].

* ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦﴾﴾:

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3234)، و«صحيح مسلم» (174).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 169)، و«السبعة في القراءات» (ص673)، و«تفسير القرطبي» (19/ 242)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 398)، و«معجم القراءات» (10/ 329- 330).

(3) ينظر: «حجة القراءات» (ص852)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 380)، و«تفسير الرازي» (31/ 70)، و«الدر المنثور» (15/ 277)، و«التحرير والتنوير» (30/ 160).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 605)، و«تفسير الطبري» (24/ 171)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 439)، و«تفسير الرازي» (30/ 633)، و«تفسير القرطبي» (19/ 242).

قد أُغْلِقت الأبواب أمامكم، وليس لكم حجة أبدًا، فهذا مُنْزِلُ الوحي وهو الله، وهذا ناقله وهو جبريل عليه السلام، وهذا مُتَلَقِّيه وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان من مألوف كلام العرب قولهم لَمَن عمل سوءًا أو قبيحًا يُلْمَز به: أين يُذهب بك؟ يعني: أين ذهب عقلك؟ فجاء القرآن بأسلوب مبتكَر، لم يكن موجودًا عندهم، ثم استعملوه، وجرى عندهم مجرى المثل، وهو أقوى من قولهم: أين يُذْهَب بك؟ لأنه حين يقال: أين يُذهَب بك؟ كأنه يُعْطَى عذرًا بأنه ذُهب به بغير اختياره، أما صيغة أين تذهب؟ فهي تحمِّله المسؤولية، وأنه هو الذي تعمَّد صرف وجهه عن الحق، والإعراض عن آياته[1].

❊ ﴿□□□□□فِي﴾:

فهو ليس سوى ذكر، ودعوة، وإصلاح، ووعظ، وبيان، وهدًى، ليس للعرب بخاصة، بل للعالمين كافَّة، إنسهم وجِنِّهم، فهذه هي عالمية الإسلام، تأتي مؤكِّدة في أوائل السور المكية، وهي لفتة إلى دعاة الإسلام أن يأخذوا بعالمية الرسالة في الدعوة، وأن يطبِّقوه في أقصى درجات التمدن والحضارة، كما كانوا يطبِّقونه في أدنى درجات البساطة والضعف، وأن يستوعبوا النماذج البشرية المختلفة وينقوا الرسالة من الإضافات المحلية الخاصة حين يريدون عرضه على العالمين، بل يقدموه بأصوله وقواعده الربانية وخياراته المتنوعة في التطبيق وسَعته وشموليته في احتواء الموروث الإنساني وتنقيته والتعامل معه.

❊ ﴿□□□□□أَلۡوَزۡنَ﴾:

فهو مِن حيث تنزيله هداية للناس كلِّهم، فليس دينًا إقليميًّا أو عنصريًّا، أما قبول الناس وعدم قبولهم فهو شأن آخر، فمِن الناس مَن يشاء الاستقامة، فيستقيم،

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 553)، و«الكشاف» (4/ 713)، و«تفسير الرازي» (31/ 71).

فيكون القرآن ذكرًا عمليًّا له، ومنهم مَن لا يريد ذلك، وهو المسؤول المحاسب على اختياره.

وفي الآية الإشارة إلى أن الإنسان إذا أراد الخير هداه الله، ويَسَّر له أسبابه، ومهما تكن العقبات في النفس أو في المجتمع فإن الإرادة الصادقة تذلِّلها بإذن الله، وقد جاء في الحديث القدسي: «**ومَن تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت إليه ذِراعًا، ومَن تقرَّبَ إليَّ ذِراعًا تقرَّبت إليه باعًا، وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلْتُ إليه أهرولُ**»[1].

❊ ﴿□□□□□□□□ (٩)﴾:

فللإنسان مشيئته الخاصة به، وللرب المشيئة المطلقة التامَّة، وكثير من الناس يدخلون في جدال في القدر: هل العبد مُسَيَّر أم مخيَّر؟ وإذا كان الله قد قدَّر كلَّ شيء فلِمَ العملُ إذًا؟

وهو جدل لا ينتهي، على أن الإنسان يعرف بفطرته الضرورية المحسوسة أن له إرادة، فإذا تهدَّده خطر فرَّ منه بكل ما أوتي من قوة، وثَمَّةَ فرق بين إنسان يريد أن يصنع شيئًا فيصنعه، وبين آخر يُجْبَر على شيء، ويُقْهَر عليه قهرًا، بين مَن يريد النزول فيأخذ الدرج، خطوة خطوة حتى يصل، وآخر يتم حمله قَسْرًا والرمي به أرضًا، وهذا القدر المدرك لعامة العقلاء يكفي أن يكون مناط التكليف والمحاسبة.

ثم مَن الذي يظن أن مشيئة الله سبحانه مشيئة عشوائية، فيريد لهذا الهدى، ولهذا الضلال، ولهذا الخير، ولهذا الشرِّ، بمعزل عن إرادتهم ورغبتهم الذاتية!

فالله تعالى حكيم، وقد علم من الأزل أنَّ مِن خلقه المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر، وأن هذا من أهل الهداية، وهذا من أهل الشقاوة، فأراد الهداية لقوم والضلال لقوم، وهو يعلم ما أرادوه لأنفسهم، فهو قد علم وأراد، فلا يُظَن أن إنسانًا

---

(1) أخرجه البخاري (7405)، ومسلم (2675) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كان يريد الهداية، ولكن الله عوَّق مسيرته، ولم يُرِدْ له الهداية، وإن كان تعالى قد يتدارك عبده ويرحمه فيهديه ولو لم يكن مريدًا للهداية أصلًا، لكن أن يريد الإنسان الهداية فلا تتحقق له؛ لأن الله لا يريدها له، فهذا لا يكون؛ لأن الله تعالى حكيم في أعماله، عادل في أحكامه، سبحانه وبحمده.



سورة الانفطار

*** تسمية السورة:**

الذي في غالب المصاحف، وكتب التفسير: «**سورة الانفطار**»[1]، وهو مصدر من ﴿إِلَّا﴾ كما مضى في «سورة التكوير».

وتسمَّى: «**سورة ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾**»، وهو الذي ورد في السنة، واعتمده البخاري في «صحيحه»، وبعض كتب التفسير[2].

وفي «السنن» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن سرَّه أن ينظر إلى يومِ القيامةِ، كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأْ: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾**، و﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾، و﴿مِن مُّدَّكِرٖ ٥١﴾»[3]. وهو من تسمية السورة بإحدى آياتها، وقد يتسامح بعضهم فيُسَمِّيها: «**سورة ﴿إِلَّا﴾**» اختصارًا[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 611)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 326)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 145)، و«تفسير البغوي» (5/ 218)، و«المحرر الوجيز» (5/ 446)، و«تفسير القرطبي» (19/ 244)، و«التحرير والتنوير» (30/ 169).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص710)، و«معاني القرآن» للفراء (3/ 243)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 402)، و«صحيح البخاري» (6/ 167- 168)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 103)، و«التحرير والتنوير» (30/ 169).

(3) تقدم تخريجه في أول «سورة التكوير».

(4) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص674)، و«معاني القرآن» للنحاس (5/ 104)، و«تفسير السمعاني» (6/ 172)، و«روح المعاني» (15/ 267)، و«التحرير والتنوير» (30/ 169).

* **عدد آياتها:** تسع عشرة آية باتفاق[1].

* **وهي مكية** إجماعًا[2].

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا ﴿١١﴾﴾:

﴿وَمَآ﴾ ظرف للمستقبل، وموضوع السورة عن أهوال يوم القيامة والساعة وما يجري فيها، وفي السورة تسلسل عجيب، فهي تبدأ بانفطار السماء، **والمقصود**: هذه القبة الزرقاء التي نشاهدها فوقنا، وإلا فإن لفظ السماء في اللغة يُطلَق على كل ما علا وارتفع؛ ولذلك يُسمُّون السَّحاب: سماء[3].

هذه القبة التي نرفع أبصارنا فنراها في أجمل صورة، تنفطر وتنشق، وتتغير حالها يوم القيامة، وتبدو متهتِّكة متمزِّقة، وقد يكون هذا لنزول الملائكة.

* ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ٱلۡعَصۡفِ﴾:

والكواكب: النجوم، وهي ذات علاقة بالسماء؛ فقد جعلها زينةً لها، وفي ذلك اليوم ينخرم نظامها ويتناثر عقدها، فتتساقط وتتهافت[4].

والانتثار: وقوع الأشياء على الأرض على غير انتظام، لكن إذا كان على غير الأرض، فهل يُسمَّى نثرًا؟

---

(1) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص266)، و«روح المعاني» (15/ 267).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 446)، و«تفسير القرطبي» (19/ 244)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 559)، و«روح المعاني» (15/ 267)، و«التحرير والتنوير» (30/ 169).

(3) ينظر: «تهذيب اللغة» (13/ 79)، و«مقاييس اللغة» (3/ 98)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص283)، و«تاج العروس» (38/ 303) «س م و».

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 295)، و«تفسير الرازي» (31/ 72)، و«تفسير القرطبي» (19/ 244)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 341)، و«فتح القدير» (5/ 478).

هذا وارد على سبيل المجاز، كما في قوله سبحانه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23]، والهباء المنثور ليس على الأرض، وإنما هو في الهواء.

فيكون معنى النَّثْر: التفريق غير المُرتَّب، سواءً كان على الأرض أو على غيرها[1].

والمقصود: خروج الكواكب عن مداراتها؛ لأن الله تعالى جعل لها نظامًا دقيقًا، وفي ذلك اليوم تضطرب، وتخرج عن سياقها المعتاد، وتَسْبَح في الفضاء على غير مسارها، ويترتَّب على ذلك تضاربها وتصادمها، وسقوطها على الأرض، كما تفيده الآية الأخرى في «سورة التكوير»: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ ٱلۡعَصۡفِ﴾.

بدأ السياق بالسماء؛ لأنه عادة ما يكون الهدم من أعلى، فإذا أراد إنسان أن يهدم بيتًا أو بناءً بدأ بهدم أعلاه، وهذا فيما إذا كان الهدم مقصودًا، أما الهدم الذي يكون بغير اختيار، بسبب الأعاصير أو الفيضانات أو الزلازل، فليس له نظام، وهكذا جاء الأمر هاهنا مرتَّبًا من الأعلى؛ لأنه مقصود، فأول ما بدأ بذكر السقف، وهو السماء وما يتعلق بها وهي النجوم، ثم انتقل بعد ذلك إلى البحار.

* ﴿أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ فَبِأَيِّ﴾:

تفجير البحار أن يُفْتَح بعضها على بعض، وتزول الحدود والبرازخ بينها، فيتصل بعضها ببعض وتصبح بحرًا واحدًا.

وقيل: معناه أن يخرج الماء إلى اليابسة.

وقيل: معناه أن تيبس ويذهب ماؤها[2].

---

(1) ينظر: «مقاييس اللغة» (5/ 389)، و«المخصص» (4/ 101)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (4/ 160)، و«تاج العروس» (14/ 175) «ن ث ر».

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص710)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 402)، و«تفسير الطبري» (24/ 174)، و«المحرر الوجيز» (5/ 446)، و«زاد المسير» (4/ 410)، و«تفسير الرازي» (31/ 72-73)، و«تفسير القرطبي» (19/ 244)، و«روح المعاني» (15/ 267)، و«التحرير والتنوير» (30/ 171).

وثمة معنًى رابع قَلَّ مَن ذَكَرَه، وهو أن المقصود أن تنفجر وتلتهب نارًا.

ويدل على هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ [التكوير: 6]، فإن التسجير هو الإحراق، كما في قوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: 6][1].

فالماء الذي يطفئ النار يتحول إلى نارٍ تتلهَّب وتتلظَّى، وهذا اختيار إمام المفسِّرين مجاهد، ونُقِل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سأل يهوديًّا: أين جهنم؟ فقال اليهوديُّ: البحرُ. فقال علي رضي الله عنه: والله ما أُراه إلا صادقًا، ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: 6]، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ [التكوير: 6][2].

* ﴿مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ تُكَذِّبَانِ﴾:

والقبور في اليابسة، وكأن هذا من تسوية الأرض، فالإشارة إلى بعثرة القبور تنبيه على مجموعة حوادث تقع على الأرض، منها قوله تعالى: ﴿۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي﴾ [الزلزلة: 1- 2].

فالأرض تُخْرِج ما فيها، ومن ذلك: أن تُخْرِج ما في باطنها من الناس، وهكذا يسوِّي الله تعالى الأرض، فلا يكون فيها مرتفَع ولا منخفَض وتتحول إلى أرض مستوية.

و﴿وَكُلُّ﴾: أُثيرت وفُتحت وأُخْرِج ما فيها[3]. فكأنك تشاهد الأرض وهي كلها أو جُلُّها قبور، كما يقول أبو العلاء المَعَرِّي[4]:

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الطُّور»، و«سورة التكوير».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 568)، و«زاد المسير» (4/ 406)، و«تفسير الرازي» (31/ 65)، و«تفسير القرطبي» (17/ 61)، (19/ 230)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 332)، و«فتح القدير» (5/ 470).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 175)، و«تفسير القرطبي» (19/ 244)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 341)، و«روح المعاني» (15/ 267).

(4) تقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾.

صاحِ، هذي قبورُنا تمـلأُ الرَّحْـ *** ـبَ فأينَ القبورُ مِن عهدِ عادِ
خَفِّفِ الوَطءَ ما أظنُّ أَدِيم الـ *** أرض إلا من هذه الأجساد
رُبَّ لَحْدٍ قد صـار لَحْدًا مرارًا *** ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضدادِ
ودَفِـيـنٍ على بـقــايـا دَفِـيـنٍ *** في طـويـلِ الأزمـانِ والآبـادِ

والحوادث مختصَرة هنا، في حين أنها قد فُصِّلت في «سورة ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾»، وقد ختمها الله سبحانه هنا ببعثرة القبور، وأن هذا الحدث ليس عشوائيًّا أو عاديًّا، وإنما هو اليوم الموعود المُرتَّب المقصود، المضروب للجزاء والحساب.

* ﴿فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

فإذا وقعت تلك الحوادث العظيمة، علمت كلُّ نفس ما عملت من خير أو شرٍّ.

وأهل اللغة والأصول يقولون: إن النكرة في سياق النفي تفيد العموم. فإذا قلت: لم يأتِ أحدٌ. فهو نفي مُطلَق، أما إذا كانت في سياق الإثبات كما هنا: ﴿فَعَلُوهُ فِي﴾ فهي لا تدل على العموم بذاتها إلا بالسياق، فالسياق هنا أبلغُ مِن كل كلام، أبلغ مِن أن يقول: علمت كلُّ نفس؛ لأنه حين يقال: «كل» ينتقل الحديث للعامَّة، والعادة في الحديث العامِّ أن كل واحد يظن أنه غير مقصود به؛ لكن إذا قال: ﴿فَعَلُوهُ فِي﴾ فكل واحد يشعر أنه هو المقصود. وهذا من جليل المعاني، وبليغ المواعظ؛ لأن من البلاء أن يشعر كل أحد أن الخطاب موجَّه إلى غيره، فلا يستفيد منه، بخلاف ما لو أدرك أنه هو المخاطب دون غيره، أو قبل غيره.

﴿ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ﴾: لم يذكر ماذا قدَّمت، وماذا أَخَّرت؛ لأنها سوف تعلم حينئذ ماذا قدَّمت من الأعمال، فتذكره إن كانت ناسية، وتحيط بما لم تحط به من قبل، وتعلم ثوابه وجزاءه وقيمته.

وسوف تعلم ما أَخَّرت، فلم تعمله، بل أجَّلت وسوَّفت.

ويشمل ما قدَّمت لنفسها في الآخرة، وما أخَّرت لورثتها بعد موتها.

ويشمل ما قدَّمت في صدر حياتها، وما أخَّرت في نهاياتها، والله أعلم[1].

ولا أحد يموت إلا وعنده أعمال كان ينوي أو يهم أن يعملها، وقد تكون خيرًا، فإن كانت كذلك أُجر عليها، ولكنها ليست كالأشياء التي عملها وباشرها، وكما قيل[2]:

نروحُ ونغدو لحاجاتنا *** وحاجةُ مَن عاش لا تنقضـي

فالآية تحثُّ على: تقديم العمل الصالح.

والمبادرة، وعدم التأجيل والتسويف، وكان بعض السلف يقول: «أنذرتكم سوف».

وإيثار الآخرة، فهي خيرٌ وأبقى، وألَّا ينشغل عنها بالعاجل.

وترشد إلى أن التقدم هو بالعلم والعمل، وليس بالأماني والظنون، فلا ينفع المرء أن يكون مولودًا في أرض مباركة، ولا أن يكون من قبيلة أو شعب أو عائلة، حتى لو كان من قريش، أو آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، أو من ذُرِّيَّته، وكل الناس أولاد أنبياء، وفي الحديث: «**مَن بطَّأَ به عملُه، لم يُسْرِعْ به نَسَبُه**»[3].

لا ينفع إلا العلم النافع، والعمل الصالح، سواءً كان من الأمر الأخروي، أو من الأمر الدنيوي.

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 175- 176)، و«تفسير الماوردي» (6/ 221)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 291- 292)، و«تفسير الرازي» (31/ 73)، و«فتح القدير» (5/ 379).

(2) ينظر: «الحيوان» (3/ 230)، و«الشعر والشعراء» (1/ 493)، و«الكامل» للمبرد (3/ 135)، و«المجالسة» (8/ 20) (3311)، و«أدب الدنيا والدين» (ص47) منسوبًا إلى الصَّلَتان العبدي.

(3) أخرجه مسلم (2699) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يقول سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إن الأرض لا تقدِّسُ أحدًا، وإنما يقدِّسُ الإنسانَ عملُه»[1].

وهذا يبيِّن أن العمل معنًى مُقَدَّس في الإسلام، و«مَن أَمْسَى كالًّا مِن عملِ يديه، أَمْسَى مغفورًا له»[2].

* ﴿وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ۝١٤﴾:

خطاب قوة وجزالة لجنس الإنسان، الذي هو صاحب النَّفْس، وتكريس لمعنى الإنسانية، وأنها محلُّ التكليف، ومناط التشريف، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، وقد جعل الأنبياء والرسل من بني آدم، وخاطب الإنسانَ مباشرة.

وأيُّ تعظيم أكبر من أن يُخاطِب اللهُ الإنسانَ مباشرة ويناديه؟

قرأ الرسولُ صلى الله عليه وسلم «سورة البيِّنة» على أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، وقال له: «**إنَّ اللهَ أمرني أن أقرأَ عليك: ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾**». قال: وسمَّاني لك؟ قال: «**نعم**». قال: فبكى[3].

عند ما ذكر ربُّ العزة اسمَ أُبَيٍّ رضي الله عنه، كان هذا شرفًا له، لم يخطر على البال، ولو بلغ أحدَنا أن أميرًا أو وزيرًا أو عالمًا ذكره في مجلسه بذِكْرٍ حسن، استطار من الفرح، فكيف إذا علم أن ربَّ العزة قد ذكره؟!

---

(1) أخرجه مالك (2/ 769)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (842)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (1/ 205)، واللَّالَكائي (1718)، وابن عساكر (1/ 150).

(2) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (2626).

(3) أخرجه البخاري (3809)، ومسلم (799) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وذِكْره سبحانه يحصل لَمن ذكره وتوكَّل عليه، كما في الحديث القدسي: «**إنْ ذَكَرَني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ هم خيرٌ منهم**»[1].

والقرآن ذِكْرٌ، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن﴾ [الزخرف: 44].

﴿٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى﴾: ما الذي جعلك تغترُّ بربِّك الكريم، وتنساه؟! أغرَّك الإمهال؟ أم غرَّك الغنى؟ أم غرَّك الغرور[2]؟

والمقام مقام تهديد؛ وسياق أول السورة يدلُّ عليه، وهنا تودُّدٌ وتلطُّفٌ؛ إذ جاء بلفظ الربوبية، ووصف ذاته بالكرم، ولم يقل: «بربِّك المنتقم، أو الجبَّار، أو ذي البطش الشديد، أو ذي العذاب الأليم»، وقد ورد عن الفُضَيل بن عياض رحمه الله أنه قال: «لو قال لي: ما غرَّك بي؟ قلتُ: غرَّني بك ستورُك المرخاةُ»[3]. أي: سترك الدائم عليَّ.

وقال آخر: لو سألنا: ما غرَّكم بي؟ لقلنا: غرَّنا كرمُك.

والعرب يعتبرون كرم الإنسان سببًا في جرأة أهله عليه، كما يُروَى أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه نادى أحدَ غلمانه، فتأخَّر عليه، وكان واقفًا في الباب، ثم رآه عليٌّ، فقال: «ما لك لم تجبني؟». قال: لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك[4].

ومن كلام العرب: مِن كَرَمِ الرجل سوءُ خلقِ غلمانه[1].

---

(1) أخرجه البخاري (7405)، ومسلم (2675) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 292)، و«تفسير الرازي» (31/ 74).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 146)، و«تفسير البغوي» (4/ 455)، و«زاد المسير» (4/ 411)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 482).

(4) ينظر: «الكشاف» (4/ 715)، و«تفسير الرازي» (31/ 75)، و«فيض القدير» (1/ 128).

والناس يعرفون الكريم، فيجرؤون عليه أكثر ممن يخافون بطشَه وعقابَه، والخوف ليس هو الأولى، ولا الأول، وإنما الرجاء والحب قبل الخوف، ومما يناسب هذا السياق قول قيس بن زُهير يَرْثِي الرَّبيعَ بنَ زياد العَبْسي[2]:

أظـنُّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قـومـي *** وقد يُسْتَجْهلُ الرجلُ الحليمُ

ومارستُ الرجالَ ومارسوني *** فمعـوَجٌّ عليَّ ومسـتقـيـمُ

وهل هذا السياق يفضي إلى أن يتجرَّأ العبد على ربِّه؟

كلا، فالعاقل يزيده هذا مهابة وخجلًا، كما قال: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 53]، وقال: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 70]، ومثله قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لو لم تذنبوا، لذهبَ اللهُ بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون، فيستغفرونَ اللهَ فيغفرُ لهم**»[3].

وبعض الناس قرأ هذا الحديث وقال: هذا إغراء بالذنب.

والحق أنه ليس إغراءً بالذنب، بل إشارة إلى ما جُبِل عليه الإنسان من الضعف والنقص والميل للشهوات، ولئلا يتحوَّل وقوعه في الخطأ إلى قنوط ويأس من رحمة الله، وفي الحديث: «**إنَّ اللهَ** عز وجل **يبسطُ يدَه بالليلِ؛ ليتوبَ مسيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ؛ ليتوبَ مسيءُ الليلِ**»[4].

---

(1) ينظر: «التمثيل والمحاضرة» (ص221)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 197)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «أمثال العرب» للضبي (ص97)، و«أنساب الأشراف» (13/ 135)، و«العقد الفريد» (6/ 23)، و«أمالي القالي» (1/ 261)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (ص164)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (8/ 370).

(3) أخرجه مسلم (2749) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) أخرجه مسلم (2759) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فهو عتابٌ يحمل العبد على أن يستحي من الله، فيكون الحياء وازعًا يردف وازع الخوف، والمعرفة بكرم الله ولطفه ورحمته، تدفع إلى الطاعة وتَرْكِ المعصية، وتفعل ما لا يفعله الخوف.

وكذلك يُحْمَل على معنى آخر، وهو الخوف من غضب الكريم، فإذا فرَّطت ولم تصل إلى رحمته، ولا فزت برضوانه، فهلاكك مُحَقَّق، ولا يهلك على الله إلا هالك.

* ﴿وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ مِن﴾:

هذا من معاني الربوبية ﴿ٱلْمُتَّقِينَ فِى﴾، ولكنه تفصيل بعد إجمال، فخلق المادة التي خَلَقَ منها الإنسان، خَلَقَ التراب الذي خَلَقَ منه آدم، فأصل الخَلْق هو الإيجاد من عدم، وهو لله تعالى خاصة.

والتسوية: خَلْقُ أجزاء الإنسان باستقامة وتناسُب، لا انحراف فيه، ولا قبح في أصل خِلْقته. وهذا عامٌّ في المخلوقات من إنس وحيوان... إلخ.

والعدل: تخصيص الإنسان بمزيد نعمة، وهي خَلْقُه في أحسن تقويم، في جمال واعتدال.

وفي قراءة سبعيَّة: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ بالتشديد[1]، والمعنى واحد، فإن العدل والتعديل في خلق الإنسان أظهر حيث قامته واستقامته ومشيه على قدميه وقيامه وقعوده وتميز صفته وشكله عن بقية الحيوان[2].

* ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ ﴿١٥﴾﴾:

﴿﴿٥٥﴾﴾ مصدرية أو صِلة، فالمقصود أن الله تعالى يركِّبك في أي صورة يشاء[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 178)، و«السبعة في القراءات» (ص674)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص220)، و«معجم القراءات» (10/ 336- 337).

(2) ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (6/ 382)، و«حجة القراءات» (ص752).

والآية تحتمل ثلاثة معانٍ[2]:

1- في أي صورة شاء الله تعالى ركَّبك من الصور الموجودة، فكل واحد من الناس يختلف عن الثاني، فلا تجد اثنين متفقين في كل شيء، حتى التوائم الذين يتشابهون، إذا أَطَلْتَ مُجالستهم أدركت الفروق بينهم، ولكل إنسان بصمة تختلف عن غيره، وكذلك حدقة العين، ونبرة الصوت، وفي الشكل والطول والملامح والشعر والأصابع والصفات الظاهرة والباطنة يبدو كل إنسان مختلفًا عن غيره.

وفي الحديث أن رجلًا قال: إنَّ امرأتي ولدت غلامًا أسودَ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**هل لك من إبل؟**». قال: نعم. قال صلى الله عليه وسلم: «**فما ألوانُها؟**». قال: حمرٌ. قال صلى الله عليه وسلم: «**هل فيها من أَوْرَقَ؟**». قال: إن فيها لوُرْقًا. قال صلى الله عليه وسلم: «**فأَنَّى أتاها ذلك؟**». قال: عسى أن يكون نَزَعَه عِرْقٌ. قال صلى الله عليه وسلم: «**وهذا عسى أن يكونَ نزَعَه عِرْقٌ**»[3].

ونَزَعَه عِرْقٌ أي: وراثة من جدِّه الرابع أو الخامس، ولم تظهر إلا في هذا المولود.

2- أن الله تعالى قادر على تركيب الإنسان في صورة أخرى غير الصور المعهودة، كصور الحيوانات التي يراها الإنسان فيستقبح شكلها أو هيئتها.

3- أو يكون المقصود شمولية الصورة، صورة الجسد، وصورة الروح والخلق، وهذا معنى جميل، ولا يتعارض مع المعنيين السابقين، قال بعض السلف: قد يكون الإنسان في صورة الحمار في بلادته، أو في صورة الخنزير في شَرَهِهِ أو ضعف غيرته، وقد يشبه طائرًا أو حيوانًا في صفة رديئة يتلبسها وينطبع بها.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 295)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 446)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 177)، و«تفسير الماوردي» (6/ 222)، و«زاد المسير» (4/ 411)، و«تفسير الرازي» (31/ 76)، و«تفسير القرطبي» (19/ 247)، و«فتح القدير» (5/ 479).

(3) أخرجه البخاري (7314)، ومسلم (1500) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالجمال أو القبح لا ينحصر في ملامح الشكل وحُسْن الوجه.

وربما رأيت إنسانًا لأول وهلة فيعجبُك حُسْنُ مظهرِه وجمالُ ملامحه، فإذا جالستَه وخالطتَه، نفرت منه، ولذا يجدر بالباحث عن شريك أن يعتني بجمال الروح والعقل والأخلاق، فهو الذي يبقى بعد ذبول الجسد، وهو الذي يُشْعِرُك أنك تعيش مع إنسان بمعنى الإنسانية، ولست أمام تمثال من الجمال الجسدي أو الحسِّي المحض، فالجمال مطلوب، لكن بمعناه الواسع، وهذا داخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ**»[1].

* ﴿ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ رَبِّكُمَا﴾:

نفي للكلام السابق، وقد يقول قائل: غرَّني كذا، وغرَّني كذا. فجاءت الآيات لتنفي هذا كله، وتقول: ما غرَّك إلا شيء واحد، وهو التكذيب بيوم الدين.

والدين: الجزاء والحساب[2]، **والمقصود به**: يوم القيامة، **والدينونة**: أن يُدان الإنسان ويُجازى بما عمل خيرًا أو شرًّا؛ ولهذا قال العلماء: التكذيب بيوم الدين جماع الذنوب.

وحين تتأمَّل القرآن تجد هذا واضحًا؛ قال تعالى: ﴿**وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ**﴾ [غافر: 27]، وقال تعالى: ﴿**ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢**﴾ [ص: 46].

---

(1) أخرجه مسلم (91) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 181)، و«تفسير السمعاني» (6/ 175)، و«تفسير الرازي» (31/ 77)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 344)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 200)، وما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾، وما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ ۝١١﴾.

فمدح الله الصالحين بالإيمان بيوم القيامة وذكره، وذمَّ الفجارَ بالتكذيب، وقال في المطففين: ﴿   ﴾ [المطففين: 4]، وهذا يدل على أهمية الإيمان بيوم الحساب في حسِّ المؤمن وعقيدته، وأنه لا ينبغي أن يكون صوريًّا شكليًّا، لا يحمل على طاعة، ولا يردع عن معصية.

وعند ما نتعلم العلوم في مدارسنا، وكُتُبِنا، وحلقات علمنا؛ علينا أن ننظر: هل ما درسناه يزيد اليقظة والإيمان في ضمائرنا؟ هل يحيي نفوسنا ويبعث فينا الخير؟ ويَئِد فينا عوامل الشرِّ؟ أم أنها مجرد معلومات تُضاف إلى مثلها؟!

وقوله: ﴿٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ خطاب للمكذِّبين، لكن هل الإنسان الذي خُوطب بـ﴿وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ هو الإنسان الكافر، أو أن الخطاب عام؟

الأقرب أن خطاب: ﴿وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ موجَّه لكلِّ إنسان، ثم خصَّ الله المكذِّبين بالدين بخطاب آخر.

* ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾:

﴿ٱلْبَيَانَ﴾ لفظ يدل على الاستعلاء، فهم فوقكم، ومكانتهم منكم مكانة السلطان والرَّقيب الذي له فوقية وعلو؛ لأنه مبعوث من الله عز وجل، ولم يقل: «معكم»، فهم مسؤولون عنكم، مُسَلَّطون على أعمالكم وأقوالكم بكتابتها وتدوينها.

وصف الله سبحانه هؤلاء الحَفَظَة بأربعة أوصاف:

1- **الحفظ**، كما قال تعالى: ﴿مِن مُّدَّكِرٍ ٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ [الطارق: 4]، ﴿فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ [الرعد: 11]، ﴿وَنَهَرٍ ٥٤ فِي﴾ [الأنعام: 61].

والحِفْظ شامل، ومن معانيه أن يرقب ما تقول وما تعمل، فيكتبه لك أو عليك، وأن يحفظك أنت، حتى إذا حلَّ القَدَر أسلمَك إلى قَدَرِك[1].

2- **الكرم**، فهؤلاء الملائكة كرام، وأرسلهم ربك الكريم، وهم معك وعليك، والتذكير بهذا الوصف يستدعي أن تستحيي منهم، وقد جاء في الحديث: «**إيَّاكم والتعرِّي؛ فإن معكم مَن لا يفارقُكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجلُ إلى أهلِه؛ فاستحيوهم وأكرموهم**»[2]. وفي سنده نظر[3].

والمَلَك مخلوق كريم يراقبك ويلاحظك، وهذا مدعاة للحياء، حتى لو كنتَ منفصلًا عن الناس منفردًا، فتخشى أن يراك المَلَك على ما لا يحسُن، ولو أن أحدًا وَجَدَهُ أبوه أو أخوه أو صديقه بحالة لا تسرُّ، لاستحى، فكيف إذا عرفتَ أن هذا المَلَك معك على الدوام، ولا يفارقك إلا بالموت؟!

نحن نصحب كرامًا من الملائكة وهذا يستدعي أن نتحلَّى بمكارم الأخلاق، ونقتبس من ملائكيتهم الطهر والصفاء.

3- **الكتابة**، أي: يسجِّلون كل شيء، وهذا من معاني الحفظ، ولو لم توثَّق أعمال الإنسان لأمكنه أن يجادل، ويجحد، لكن كل شيء مكتوب ومسطور: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: 13- 14]، ولا مانع أن يكون التوثيق بعدة صيغ، منها: كتابة المَلَك، ومنها: الحفظ الذي قد يعني التصوير المتقن لكل ما يحدث والاحتفاظ به، ولذا يرى الإنسان أعماله يوم القيامة عيانًا.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (13/ 14)، (31/ 78)، و«تفسير القرطبي» (19/ 248)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 398)، و«روح المعاني» (15/ 270)، و«أضواء البيان» (7/ 428).

(2) أخرجه الترمذي (2800) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «إرواء الغليل» (64)، و«السلسلة الضعيفة» (6006).

4- ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ فقد زوَّدهم الله بالمقدرة على أن يعلموا كل شيء مما من شأنه أن يُحفظ أو يحاسب عليه من قول أو فعل، بل وما يخطر في قلبك من المعاني التي يُثاب عليها أو يُعاقَب؛ لأنها مِن فِعْل القلب، بل هذا من أعظم الأفعال؛ وأن أفعال القلب أصل لأفعال الجوارح، فطاعات القلب أصل لطاعات الجوارح، مثل: الإيمان، والرجاء، والحب، والخوف[1].

ومعاصي القلب أصل لمعاصي الجوارح، مثل: الشك، والشبهة، والحسد، والكِبْر..

كيف تعلم الملائكة ما في القلوب؟

لا شك أن ربنا سبحانه أقدر هؤلاء الملائكة على المهمة التي أوكلها إليهم، فجعل لهم قدرة على معرفة كل ما يتعلَّق بعملهم، بما في ذلك همُّ العبد وخطرات قلبه، وقد جاء في «الصحيحين» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**إن اللهَ كتبَ الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك: فمَن همَّ بحسنةٍ فلم يعملْها، كتبَها اللهُ عنده حسنةً كاملةً، وإنْ همَّ بها فعملها، كتبَها اللهُ** عز وجل **عنده عشرَ حسناتٍ إلى سبعمئةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإنْ همَّ بسيئةٍ فلم يعملْها، كتبَها اللهُ عندَه حسنةً كاملةً، وإنْ همَّ بها فعملها، كتبَها اللهُ سيئةً واحدةً**»[2].

فلا يفلت منهم شيء: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴾ [القمر: 53].

* ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾:

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (13/ 15)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 196)، و«اللباب في علوم الكتاب» (8/ 196)، (11/ 267)، و«التحرير والتنوير» (30/ 179).

(2) أخرجه البخاري (6491)، ومسلم (131).

والأبرار جمع: بَرٍّ، وهو مَن يفعل البِرَّ[1]، قال الله تعالى: ﴿أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ...﴾ [البقرة: 177].

والنعيم الذي وعده الله للأبرار عام، شامل للدنيا والآخرة، كما قال ابن تيمية[2]، فهم في نعيم تامٍّ يوم القيامة، ويصلهم مِن ذلك وهم في البرزخ وفي قبورهم، ويصلهم وهم في الدنيا من السرور والبهجة وقرَّة العين والرضا والأنس بالله ما تسعد به نفوسهم.

* ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾:

وهم أهل الفجور ﴿﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ [المطففين: 11]، فهم في الآخرة في جحيم، ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ﴾ أي: يدخلونها[3].

وقيل: من الصَّلْي، وهو معروف؛ يقال: صَلَى الشاة، إذا شواها، فكمال العذاب بالنار كيًّا وشيًّا يكون في الآخرة، وفي قبورهم يُفتَح لهم باب من النار، فيصلهم من عذابها[4]، وفي الدنيا يصلهم من الشقاء والعذاب النفسي والضيق، وإن كان منهم مَن يكون في أهله مسرورًا بمظاهر الحياة، لكن في قلبه قلق وتوتر.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 206)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 258)، و«الكشاف» (4/ 667)، و«تفسير القرطبي» (19/ 125)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿٥٢﴾﴾.

(2) ينظر: «جامع الرسائل» (2/ 324).

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (2/ 243)، (3/ 171، 416)، و«تفسير السمعاني» (4/ 449)، (5/ 387)، (6/ 176)، و«تفسير البغوي» (5/ 220)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 78)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 203)، و«فتح القدير» (4/ 505)، و«روح المعاني» (12/ 205).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 182)، و«تفسير القرطبي» (19/ 249)، و«تفسير القاسمي» (9/ 426)، و«تفسير السعدي» (ص914)، والمصادر السابقة.

والمؤمن قد يجد آلامًا وأمراضًا نفسيَّةً، ابتلاءً من الله؛ من أجل أن يُثاب عليه إذا صبر، مثل ابتلاء الإنسان بأمراض البدن، ولكن هذا المصاب بالمرض لو كان كافرًا، فسيكون مرضه أضعاف ما هو عليه، فإذا تصوَّرناه مؤمنًا، وجدنا الإيمان خير دواء مسكِّن أو مزيل لهذا المرض الذي يعانيه.

وهي أمور نسبية، وقد يرتبك مَن يحاول أن يقرأ حالة كل إنسان على انفراد، أما القاعدة العامة فهي ظاهرة: أن الإيمان من أعظم أسباب السعادة وزوال الآلام واحتمال المصائب.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ لا يعني حصر صليهم بالنار في يوم الدين، بل ذلك هو كمال الصَّلْي، وينالهم شيء من الصَّلْي في قبورهم في البرزخ وفي الحياة الدنيا[1].

* ﴿تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ ۝٥٠﴾:

أي: لا يُرفَع عنهم العذاب، ولو لحظة واحدة، ولا يُخَفَّف عنهم[2]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [غافر: 49- 50]. بل يبلغ بهم الحال أن يسألوا الملائكة الموت: ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ...﴾ [الزخرف: 77][3].

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الطور»: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ...﴾ [الطور:16]، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿تَطْغَوْاْ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ۝٥٠﴾، و«سورة الليل»: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 182)، و«الكشاف» (4/ 717)، و«التحرير والتنوير» (30/ 183)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 239)، و«زاد المسير» (4/ 84)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 345).

ولو تأمَّلتُ التعبير بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ لوجدت أمثال هؤلاء في الدنيا يحضرون ويغيبون، يحضرون عند الطمع والشهوة والمتاع، ويغيبون عند الجد والموعظة والخير والمبادرة والإحسان، فكان من المناسب أن يسجل عليهم الحضور الدائم هناك!

وقد يجوز أن يكون بعض مَن نزلت فيهم السورة من مشركي مكة؛ كانوا لا يطيقون أن يحضروا مجالس المؤمنين، ولا أن يستمعوا إليهم، فكانت العقوبة أن لا يغيبوا عن نار جهنم يومًا ولا بعض يوم.

* ﴿لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رحمه الله: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[1].

والتكرار له معانٍ وأسرار:

1- أن يكون لتأكيد المعنى، ولَفْت ذهن السامع إلى يوم الدِّين وعظمته البالغة، كما قال عز وجل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾، ﴿مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ﴾[2].

وربما تخيَّل السامع ذلك اليوم العظيم، الذي تتفطَّر فيه السماء، وتُنْثَرُ الكواكب، وتنكدر النجوم، وتتفجر البحار، وتُبَعْثَر القبور، فتأتيه الآية لتقول: إن الأمر الذي تخيَّلته ليس بشيء بالقياس إلى حقيقة يوم الدين.

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾.

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»، وما سيأتي في «سورة القارعة».

ولو أن الإنسان ضاعف طاقته التخيُّلية والتصوُّرية آلاف المرات، ما استطاع أن يتخيَّل حقيقة ذلك اليوم؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في دنياكم إلا الأسماءُ»[1]: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ [البقرة: 25].

2- أن يكون التكرار إشارة إلى أهل الجنة، وأهل النار، فتكون إحدى الآيتين لأصحاب الجنة، وكأنه قال: ما أدراك ما أعدَّ الله تعالى للأبرار، ممن هم في نعيم من ألوان السرور، والمتعة، والنعمة التي لا تخطر على بالهم؟ وما أدراك ما أعدَّ الله تعالى للفجار من العذاب والنَّكال، والأغلال والوَبال؟ والمعنيان متقاربان[2].

* ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾:

نفى أن تملك أي نفس لأي نفس أي شيء على الإطلاق: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ فهو لله في الدنيا والآخرة، لكن في الدنيا قد يبدو أن الناس يعملون أو يتسبَّبون، أما في ذلك اليوم فقد تجلَّت الحقيقة للناس جميعًا، بل للثقلين ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]، فالأمر لله، ولا تملك نفس لنفس شيئًا إطلاقًا، لا خيرًا ولا شرًّا.

والآية لا تعارض الشفاعة؛ لأن الشفاعة إذن من صاحب الأمر[3]: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾.

---

(1) تقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 224)، و«في ظلال القرآن» (6/ 3852)، و«أسرار التكرار في القرآن» (ص247)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «مسند الطيالسي» (389)، و«مسند أحمد» (11200)، و«صحيح البخاري» (7510)، و«صحيح مسلم» (193).



سورة المطففين

*** تسمية السورة:**

عُرِفت في كتب الحديث بـ«**سورة** ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، و«السنن»، وغيرها[1].

وغالب كتب التفسير على تسميتها: «**سورة المطفِّفين**»[2] اختصارًا.

وذكر بعض المتأخرين من أسمائها: «**سورة التطفيف**»[3]، وهذا على سبيل التصرُّف واستخراج المصدر من أصل الفعل.

*** عدد آياتها:** ست وثلاثون آية بالاتفاق[4].

*** واختلف في نزولها:**

فقيل: مكية، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه[5].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 403)، و«صحيح البخاري» (6/ 167)، و«جامع الترمذي» (5/ 291)، و«تفسير ابن فورك» (3/ 171)، و«التحرير والتنوير» (30/ 187).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص711)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 327)، و«تفسير الطبري» (24/ 185)، و«المحرر الوجيز» (5/ 449)، و«زاد المسير» (4/ 413)، و«تفسير القرطبي» (19/ 250)، و«التحرير والتنوير» (30/ 187).

(3) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص267)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (2/ 694)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص392)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 201)، و«التحرير والتنوير» (30/ 217).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص267)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص320)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 555)، و«روح المعاني» (15/ 273).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 277)، و«تفسير القرطبي» (19/ 250)، و«الدر المنثور» (15/ 288)، و«التحرير والتنوير» (30/ 187).

وقيل: مدنية، وهو اختيار ابن عباس رضي الله عنهما[1].

وذكر الواحدي في «أسباب النزول» عن السُّدِّي أن سبب نزولها أنه كان رجل في المدينة عنده مكيالان، أحدهما كبير يكيل به لنفسه، والثاني صغير يكيل به للناس. وهذا ضعيف[2].

وقيل: فيها المكي والمدني[3].

وقيل: نزلت بين مكة والمدينة، ذكره جابر بن زيد وغيره[4]، وهو جيد من جهة أنه يجمع بين الأقوال، لأن الذين قالوا: إنها مكية. ربما قصدوا أنها من آخر أو آخر ما نزل بمكة، واعتبروا أن ما نزل بالطريق فهو تابع للمكي.

والذين قالوا: إنها مدنية. نظروا إلى أن ما نزل بالطريق إلى المدينة فهو مدني.

ففيه توفيق بين القولين، وإيماء إلى أن التطفيف خطيئة عامَّة، منتشرة بين التجار، سواءً بمكة أو المدينة، وكانت مكة مركزًا تجاريًّا للعرب، وكان عند الكثير من مشيخة مكة وكبرائها كبرياء وازدراء للناس، فيكيلون لهم بغير ما يكيلون به لأنفسهم.

ونَفَسُ السورة مكيٌّ، فالسياق والوعد والوعيد والوصف الذي فيها أقرب ما يكون إلى صفة الآيات المكية.

---

(1) ينظر: «سنن ابن ماجه» (2223)، و«تفسير الطبري» (24/ 277)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 346)، و«التحرير والتنوير» (30/ 187).

(2) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص298)، و«تفسير البغوي» (5/ 221)، و«الكشاف» (4/ 718)، و«المحرر الوجيز» (5/ 449)، و«زاد المسير» (4/ 413)، و«تفسير القرطبي» (19/ 250)، و«روح المعاني» (15/ 273).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (19/ 250)، و«التحرير والتنوير» (30/ 187)، وهو القول الآخر لابن عباس رضي الله عنهما.

(4) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 449)، و«زاد المسير» (4/ 413)، و«تفسير القرطبي» (19/ 250)، و«التحرير والتنوير» (30/ 187).

وبالمقابل فالمدينة من المراكز التجارية، وفيها اليهود المطفِّفون، فالقول بأنها نزلت بين مكة والمدينة وجيه.

* ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١﴾:

﴿وَيْلٌ﴾ قريبة من كلمة: ويح، التي يُعَبَّر بها عن التوجُّع أو الوعيد، وعادة الإنسان إذا أصابه شيء أن يقول: يا ويلي. فهو توعُّد لهم بالويل[1].

والذين قالوا: «﴿وَيْلٌ﴾: وادٍ في جهنم»[2]. حاولوا أن يفسِّروا سياق اللفظ، لكن هذا المعنى غير معروف في لغة العرب، وهي لفظة مُستخدَمة قبل الإسلام، ولم يُقْصَد بها وادٍ في جنهم، ولا كانت اسمًا علمًا يُطلق على مكان، وإنما يُطلق للوعيد، وهو إذا كان مُبْهَمًا أقوى في الوعيد.

والتطفيف يحتمل معنيين[3]:

1- أنه مأخوذ من الشيء الطَّفيف، أي: القليل اليسير التافه، فهم الذين بلغ مِن دناءتهم أن يغشوا الناس بالشيء اليسير، فإذا كالوا أو وزنوا أخذوا شيئًا يسيرًا وأضافوه إلى مالهم.

وهو تسفيه لهذا العمل وتنفير منه؛ لأنه يدلُّ على دناءة وحقارة، إلى حدٍّ أنه يسرق اللقمة من فم الفقير.

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الهمزة».

(2) وهذا لم يصح فيه شيء. ينظر: «مسند أحمد» (11712)، و«صحيح ابن حبان» (7467)، و«تفسير الطبري» (2/ 164، 168)، و«المستدرك» (2/ 534)، و«تفسير القرطبي» (20/ 181)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 312)، (8/ 266، 298)، و«فتح الباري» (1/ 207، 266)، (10/ 553)، و«الدر المنثور» (1/ 434، 435)، (3/ 551)، (15/ 178)، و«السلسلة الصحيحة» (2165)، وما سيأتي في «سورة الهمزة».

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 454)، و«التفسير البسيط» للواحدي (16/ 520)، و«لسان العرب» (9/ 222)، و«الكليات» للكَفَوي (ص884)، والمصادر السابقة والآتية.

2- أن الطفَّ هو حدُّ الصاع وطرفه، فيكون المطفِّف هو الذي قارب الوصول إلى حدِّ الصاع ولم يُوَفِّه.

والمعنيان متقاربان من حيث الاشتقاق اللُّغوي، وقد جاء السياق مفسَّرًا حيث وصفهم سبحانه بقوله: ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ فَبِأَيِّ﴾.

والمطفِّف مَن يستوفي لنفسه من الناس، فيأخذ حقه وافيًا، ويُخْسِر لغيره، فأما إذا زاد على ذلك بأن يكيل بمكيالين، فيبخس الناس حقوقهم آخذًا ومعطيًا، فهو في غاية الفجور والعدوان[1].

و«**الكيل بمكيالين**» أصبحت كلمة تجري مجرى المَثَل عند الحديث عن السياسات الدولية التي لا تقيم العدل، ولا تراعي المعايير الصحيحة في التعامل مع الأحداث، وتوظِّف قضايا أخلاقية كحقوق الإنسان لمصالح سياسية أو اقتصادية.

والآية الكريمة أصل في النهي عن الظلم، ودعوة إلى العدل والإنصاف، وحفز الإنسان على أن يكون في تعامله مع الآخرين على ما يحب أن يتعاملوا معه، وكما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**فمَن أحبَّ أن يُزَحْزَحَ عن النارِ ويدخلَ الجنةَ، فلتأتِه منيَّتُه وهو يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى الناسِ الذي يحبُّ أن يُؤْتَى إليه**»[2].

أي: أن يفعل الشيء الذي يريد أن يفعله الناس معه.

والتطفيف في الكيل والوزن مثال قائم مشهودٌ وقت نزول الآية الكريمة، والعدل نفسه يؤكِّد أن كل ما ماثله أخذ حكمه، وربما كان من صور التطفيف ما هو أعظم جرمًا وأشد إثمًا وأوسع ضررًا من بخس المكيال والميزان.

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص519)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 364).

(2) أخرجه مسلم (1844) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

كان سلمان الفارسي رضي الله عنه يقول: «الصلاةُ مكيالٌ، فمَن وفَّى وُفِّي له، ومَن طفَّف فقد علمتم ما أنزل الله تعالى في المطفِّفين»[1].

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أَسْوأُ الناسِ سرقةً: الذي يسرقُ مِن صلاتِه**»[2]. فالسرقة تكون من كل شيء.

والوعيد عامٌّ في كل ألوان التطفيف، حيث يكون الإنسان أنانيًّا في تعامله مع الناس، وفي حُكْمِه عليهم، وفي حفظ الحقوق، ولا بد أن يكون المؤمن يَقِظًا عادلًا، يكيل للناس بالمكيال الذي يكيل به لنفسه، بل الأَرْقى والأكمل أن يكيل الإنسان بمكيالين، لكن على نقيض ما يفعله المطفِّفون، فإذا كان الأمر يتعلَّق به كال بمكيال العفو والتسامح وحسن الظنِّ والتماس العذر، وإذا كان المكيال للناس، كان حريصًا على حِفْظ حقوقهم، وعلى الورع والتحرِّي، بحيث لا يصيب أحدًا بسوء.

وهذه هي الدرجة الأولى: وهي المستوى الأفضل والأكمل؛ أن يؤدِّي إليهم حقوقهم كاملة موفاة، ويتسامح معهم إذا قصَّروا في بعض حقه.

والدرجة الثانية: درجة العدل، بأن يكيل الإنسان للناس بالمكيال الذي يريد منهم أن يكيلوا له، فينصف معهم ولا يظلمهم، ولا يقبل منهم أن يظلموه.

والثالثة: درجة التطفيف، أن يكيل فيما يخصُّه بالمكيال الأوفى إذا كان الحق له، أما إذا كان الحق عليه، فإنه ينقص المكيال والميزان ويبخس الناس أشياءهم.

---

(1) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (1192)، وعبد الرزاق (3750)، وابن أبي شيبة (2996)، والبيهقي (2/ 291)، وفي «شعب الإيمان» (3150). وينظر: «السلسلة الضعيفة» (3809).

(2) أخرجه الطيالسي (2333)، وأحمد (11532، 22642)، والحاكم (1/ 229) من حديث أبي سعيد وأبي قتادة رضي الله عنهما، وينظر: «أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم» للألباني (3/ 644- 646).

والرابعة: أن يطفِّف في الحالين، فيأخذ فوق حقه إذا اكتال، ويبخس حق الآخر إذا كال أو وزن.

إن السورة تؤسِّس لمبدأ أخلاقي عظيم، وهو مبدأ العدل والقسط في المعاملة بين الناس.

وأين المسلمون من هذا المعنى؟! أين علماؤهم؟ دعاتهم؟ أزواجهم؟ شبابهم؟ حكامهم؟

أين الإنسان الذي يعطي للناس ويتسامح معهم؟!

أين الذي يأخذ حقًّا ويعطي حقًّا؟!

لقد انتشرت في الناس اليوم مبادئ الشحِّ والأنانية والهوى، فصار الإنسان يشدِّد في الحساب ويدقق في الميزان في الأمر الذي يخصُّه ويحاسب على النَّقِير والقِطمير، وإذا كان الأمر يخصُّ الآخرين، فإنه لا يقيم وزنًا لمشاعرهم وأحاسيسهم ولا لحقوقهم، **إن مبدأ العدل والإنصاف ينبغي أن يشمل الجانبين كليهما:**

الأول: الجانب المعنوي، في الأحكام والمواقف والأقوال، وقد جاء في الحديث: «**وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوهِهم**- أو قال: **على مناخرِهم- إِلَّا حصائدُ ألسنتِهم؟!**»[1].

حينما تحكم على شخص، أو جماعة، أو جامعة، أو مشروع، أو كتاب، أو موقع، أو نشاط، فهي شهادة ينبغي أن تحذر فيها من التطفيف، ووجود الحق والصواب في هذا العمل لا يمنعك من أن تقدِّم ما تَلْحَظه من مآخذ بإنصاف وعدل، كما أن الخطأ الكثير لا يبيح لك أن تتجاوز الصواب وتجحد ما فيه من الحق.

---

(1) أخرجه الطيالسي (561)، وأحمد (22016)، والترمذي (2616)، وابن ماجه (3973) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1122، 3284).

الثاني: الجانب الحقوقي في شتى شؤون الحياة، فكثير من الحقوق في المجتمعات الإسلامية مُهدَرة، ولا زال المسلمون محتاجين إلى تكريس ثقافة الحقوق وتحقيقها بشكل صحيح في الميادين كافَّة.

كيف يتعامل الأستاذ مع طلابه..

كيف يتعامل الزوج مع زوجته..

كيف يتعامل الجار مع جاره..

كيف يتعامل الناس في بيعهم وشرائهم وتعاملهم..

كيف يتعامل الحاكمون مع شعوبهم؟ وما طبيعة العلاقة، أهي علاقة سلطوية متعسِّفة، قائمة على الصراع والتآكل، أم علاقة ودية منصفة، قائمة على التعاقد الرشيد والتكامل؟

فإذا تأمَّلت هذه الجوانب وجدت تضييعًا واسعًا للحقوق، حتى أصبح التطفيف جزءًا من البناء التربوي والمألوف السلوكي، وهذه السورة العظيمة تُسهم إسهامًا مباشرًا ومؤثِّرًا في إعادة بناء الأخلاق الاجتماعية.

من هم المطففون؟

* ﴿مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ □□□ فَبِأَيِّ ﴾:

وهذا نموذج للتطفيف له أهميته، ويومئ إلى ما وراءه، حتى لقد ذكره الله تعالى في أكثر من سبعة مواضع في القرآن الكريم، وكان من الأنبياء مَن بُعِثَ للأمر بالقسط في المكيال والميزان مع التوحيد، وهو شُعيب عليه السلام: ﴿□□□□□□□ □ □□□﴾ [الشعراء: 181- 182]، والاقتصاد الدولي يجب أن يقوم على الانضباط والاعتدال في الكيل والوزن.

ومع تقدم العلم والحضارة والوسائل التقنية، فإن الكيل والوزن يظل شديد الحضور في حياة الناس، وهو رمز للتعاطي، بأي وسيلة من وسائل الإيفاء والاستيفاء للحقوق.

وهؤلاء المتوعَّدون إذا كان الحق لهم يأخذونه وافيًا غير منقوص، ولم يقل: «اكتالوا من الناس»، بل قال: ﴿ ۝١٥ فَبِأَيِّ ﴾؛ لأن ﴿ ۝١٥ ﴾ فيها معنى استعلاء هؤلاء المطفِّفين، وقد يكون مع التطفيف كبرياء وتسلط وفوقية، إضافة إلى البَخْس والأخذ من الناس، فكأن الاكتيال على حساب الناس وحقوقهم.

﴿تُكَذِّبَانِ ۝١٦ ▯ ▯ ▯﴾: والمعنى المتبادر والذي عليه جمهور المفسرين: أنهم إذا كالوا لهم، أو وزنوا لهم؛ يُخسِرون ويُنْقِصون.

وهذا جارٍ في لغة الحجاز وغيرها، يقولون: كال فلانًا، أي: كال له. وزن فلانًا، أي: وزن له، وهو معنى واضح، فمعنى ﴿ ۝١٦ ﴾: أعطوهم كيلًا، ومعنى ﴿▯﴾: أعطوهم وزنًا[1].

وقال بعض المفسرين: وإذا كالوا هم، أو وزنوا هم، فجعلوا «هم» ضميرًا لتوكيد الفاعل، فالمعنى: إذا كالوا أو وزنوا، فإنهم يُخْسِرون.

وهذا ضعيف، كما قال الطبري، وغيره؛ لأنه لو كانت كذلك لفَصَل بين الفعل وبين الضمير المؤكِّد بفاصل، وهو الألف التي تلحق واو الجماعة، وهذا لا يوجد في رسم القرآن، فدلَّ على أن الأول هو المعنى الصحيح، أي: أعطوهم بأن باعوا عليهم،

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (2/ 572)، و«صحيح البخاري» (3/ 67)، و«تفسير الطبري» (24/ 186)، و«تفسير الرازي» (31/ 83)، و«تفسير القرطبي» (19/ 252)، و«التحرير والتنوير» (30/ 191).

أو اشتروا منهم كيلًا أو وزنًا؛ فإنهم يرجعونهم بالصفقة الخاسرة، ولا يعطونهم حقَّهم، وهنا مقابَلة بين ﴿ءَالَآءِ﴾ وبين ﴿□﴾[1].

فهم لم يصلوا إلى الفضل، بحيث إن الواحد منهم إذا كال لغيره وفَّى، وإذا كال لنفسه احتاط فأنقص، ولم يصلوا إلى العدل، بحيث إن الإنسان أوفى لنفسه ولغيره، ولكنهم إذا اكتالوا مِن الناس يستوفون، وإذا كالوا أو وزنوا للناس فإنهم يخسرون.

* ﴿□□□□□□□ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

وهذا سؤال في معنى الاستنكار: أَلَا يظنون- ولو مجرَّد ظن- أنهم مبعوثون؟ فإن مجرَّد الظن كافٍ لأن يجعل الإنسان يعيد النظر فيما هو فيه، فكيف والأمر يقينٌ لا مِرية فيه، بدلالة العقل والشرع والفطرة!!

والسياق تنفير من فعل المطفِّفين؛ فإنه توعَّدهم بالويل، ثم سمَّاهم: «مطفِّفين»، ثم فصَّل فعلهم؛ فكان التفصيل عرضًا مخجلًا لأنانية هؤلاء الظلمة.

وكأنك عند ما تقرأ الآية، ترى إنسانًا يعتقد أنه مخلوق من طينة غير الطينة التي خُلِقَ منها الناس، ومنطق الحق يعاتبه ويقول: هل لك فضل على عباد الله، بحيث تتعامل معهم بغير ما تريد أن يتعاملوا به معك؟

وأشار إليهم بـ﴿□﴾ وهو اسم إشارة يوحي بالبعد، فلو كانوا قريبين لقال: «أَلَا يظنُّ هؤلاء...»، فهم بعيدون عن رحمة الله، بعيدون عن الفضل، بعيدون عن الذكر الطيب، بعيدون عن الإيمان بالآخرة وجزائها.

ويحتمل أن يكون الظن بمعنى اليقين، أي: أَلَا يوقنون.. وهو قول جمهور المفسرين[1]، كما في قوله: ﴿١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ □﴾ [البقرة: 45- 46].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 186- 187).

﴿□□﴾ وصفه بالعظيم؛ لطوله ﴿□□□□□□□□﴾ [المعارج: 4]، فهو عظيم بمدَّته، عظيم بالحوادث التي تجري فيه، عظيم بظهور القدرة الإلهية التامَّة والعدل المطلق، حيث يدرك المشركون حينذاك أنه لا حول لهم ولا قوة.

* ﴿□□□□□ ﴿١٤﴾﴾:

يقوم الناس من قبورهم، وتُنْفَخ الأرواح في الأجساد.

ومن معاني القيام لرب العالمين: وقوف الناس في عرصات القيامة؛ خوفًا، وحياءً، وخجلًا، وانتظارًا للحساب ثم المصير، وفي الحديث أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «﴿□□□□□﴾ **حتى يُغيَّب أحدُهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه**»[2]. أي: يتصبَّب منه العرقُ طيلة هذه المدة من شدة الكرب وطول الموقف.

إن نظام ذلك اليوم وسُنَنَه مختلفة عمَّا عليه الأمر في الدنيا، فنحن نرى الماء في الدنيا مادة سيالة، يسيل من المرتفع إلى المنخفض، لكن القوانين تتغيَّر يوم القيامة بإذن الله تعالى؛ حتى نظام الكواكب والنجوم والشمس والقمر، والأرض قد اختلف عما كان معهودًا في الدنيا[3].

والله سبحانه ذكر القيام، ولم يذكر الانتقام أو المطالبة بالقصاص، لأن غالب عمل المطفِّفين كان خفيًّا، لا يدركه الطرف المظلوم، ولا يفطن له، ولا يُطالِب به، فلهذا توعَّد تعالى المطفِّفين بأنه سيكون هو المُطالِب لهم، وهو الذي سيأخذ منهم

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 556)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 151)، و«تفسير السمعاني» (6/ 178)، و«تفسير البغوي» (5/ 222)، و«تفسير القرطبي» (19/ 254)، و«فتح القدير» (5/ 483)، وما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾، و«سورة القيامة»: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ﴾، وما سيأتي في «سورة الانشقاق»: ﴿﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ □﴾.

(2) أخرجه البخاري (4938)، ومسلم (2862) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(3) كما تقدم في «سورة الانفطار».

حقوق المظلومين، فالمطفِّف والظالم والمعتدِي على حقوق الناس سيكون خصمه الله تعالى يوم القيامة.

وفي الحديث القدسي: «**ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يومَ القيامةِ: رجلٌ أعطى بي ثم غَدَرَ، ورجلٌ باعَ حرًّا فأكلَ ثمنَه، ورجلٌ استأجرَ أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطِه أجرَه**»[1].

وإنما كان الله خصمهم؛ لعظم الذنب، ولأنه حق عظيم من حقوق العباد؛ فمَن لم يُعْطِ الأجيرَ أجرَه، أو باع حرًّا وأكل ثمنه، فقد قارف أسوأ أنواع التطفيف.

وفي السياق دليل على أن التطفيف إنما يصدر في الأصل من غير المؤمنين، ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 254]، وقد يصدر من المؤمن، وقد يقع الظلم والخطأ والبغي منه، ولا يخرج من دينه بهذا الفعل، بل ذلك دليل على ضعف إيمانه وتناسيه يوم الحساب، ففِعْلُه فِعْلُ الكافرين وإن كان لسانه لسان المؤمنين، وفي هذا مزيد تنفير.

إن لدى الكثير من الشعوب المتقدِّمة اليوم ثقافة تعلَّموا بموجبها كيف يؤدُّون الحقوق، وكيف يحفظونها، وكيف ينضبطون في المصالح العامة، فلا يعتدون على حقوق غيرهم، ولا يسمحون أن يعتدي أحدٌ على حقوقهم، وكيف يضعون الأشياء في مواضعها، ويستخدمونها استخدامًا رشيدًا؛ استشعارًا للروح الاجتماعية، وهذا إنما أخذوه بالتربية والتعويد والتوارث، دون أن ينتظروا عليه جزاءً أخرويًّا.

وفي العالم الإسلامي لا تتوافر التربية الاجتماعية أو الثقافة المحفِّزة على العدل والانضباط، ولم يكن إيمانهم بالله بالقوي الراسخ الذي يحملهم على الالتزام الاجتماعي والانضباط الحقوقي والأخلاقي، فضعفت أخلاقهم؛ لغياب الوازع الديني، وصاروا يقدِّمون صورة سيئة عن الدين.

---

(1) أخرجه البخاري (2270) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأكثر الناس يحكمون على الديانة من ممارسات أهلها، وأنت لو رأيتَ شخصًا ينتمي إلى ملَّة لا تعرفها يقوم بأعمال مرذولة لا يقبلها العقل، فإنك بعفويَّة ستقول: الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام! لأنك تظن أن ما فَعَلَه كان بمقتضى دينه، وقد لا يكون ذلك مباحًا في دينه، لكن دفعه إلى ذلك الفعل جهلُه أو غفلتُه، أو تربيتُه السيئة، فإذا تكرر هذا معك من شخص آخر فثالث ترسَّخ عندك أن الدين الذي ينتحلونه سبب في فساد فعلهم.

وكذلك الآخرون ربما يأخذون صورة سيئة عن الإسلام؛ بسبب مقارفة بعض المسلمين للرذائل وانتهاك القيم والفضائل، وفي ذلك صدٌّ عن سبيل الله وتشويه لجمال الإسلام لدى مَن لا يعرفونه.

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ ١٥﴾:

﴿وَمَآ﴾ كلمة إعراض وإضراب عن الموضوع السابق إلى موضوع آخر مرتبط بما قبله، و﴿وَٰحِدَةٞ﴾ جمع: فاجر، وهو الذي يتعدَّى الحدَّ، **وكتابهم** هو: الكتاب الذي تُكْتَب فيه أعمالهم وأقوالهم[1].

وقد بدأ بالفجار، خلافًا لعادة القرآن في تقديم أهل الإيمان؛ مراعاة لموضوع السورة وسياقها، حيث كانت بدايتها في وعيد المطففين، وهم الفجار.

وذكر المفسرون في ﴿بِٱلۡبَصَرِ﴾ أربعة أقوال[2]:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 193)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 298)، و«الكشاف» (4/ 721)، و«تفسير القرطبي» (19/ 257)، و«التحرير والتنوير» (30/ 182، 194- 195)، وما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿□□□□ ٩﴾.

(2) ينظر: «تفسير ابن وهب» (2/ 10)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 404)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 456)، و«تفسير الماوردي» (6/ 227)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 317)، و«تفسير الرازي» (31/ 86)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 352)، والمصادر السابقة والآتية.

1- **الأرض السابعة**، وهو قول الأكثرين، ونُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما- ولا أظنه يصحُّ عنه- وقتادة وكعب وغيرهما، ورُوي مرفوعًا، ولا يصح.

2- **في سِفال**، أي أنه في مكان سافل، أو في وضع سافل، وهذا معنى صحيح.

3- **في سِجِّين ضيق**، فهي صيغة مبالغة، كما تقول: فلان سِكِّير، أي: يكثر من شرب الخمر.

وجهنم سجن، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: 8]، أي: سجنًا يُحْصَرون فيها[1].

4- **في ضيق وشدة وكربة وسِفال**، ولا يلزم أن يكون ذلك في الأرض السابعة، كما قال بعض المفسرين، أو في صخرة عندها، أو عند الشيطان.

وتلك الأقوال وما شابهها ذُكِرَت في كتب التفسير، وليس لها أسانيد صحيحة، ولا أدلة واضحة، والأَوْلَى أن يُتْرَك النصُّ القرآني على إطلاقه وعمومه[2].

و﴿فَهَلْ﴾ كلمة عربية معروفة وليست شائعة الاستعمال[3].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ﴾ أسلوب قرآني لتعظيم الأمر، وتعظيم السؤال عنه.

وقال سُفيان بن عُيينة رحمه الله: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (14/ 507)، و«زاد المسير» (3/ 12)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 48)، و«روح المعاني» (8/ 22).

(2) ينظر: «زاد المسير» (4/ 415)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «الصحاح» (5/ 2133)، و«تاج العروس» (35/ 170) «س ج ن».

(4) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾.

* ﴿مُدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ رَبِّكُمَا﴾:

والراجح- ما ذهب إليه ابن كثير، وكثير من المفسرين- أن هذا ليس جوابًا لقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ ﴾؛ فسياق ذلك انتهى بالتشنيع والتهويل، ثم أنشأ يتكلم عن الكتاب؛ لأنه قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾، فكأنه قيل: وما هو كتاب الفجار؟ فقال: ﴿مُدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾[1]، وفيه إشارة إلى أنه قد كُتِبَ لهم فيه السجن والنار والعذاب.

و﴿﴿٥١﴾﴾ اسم مفعول من الرَّقْمِ، ومعناه: الكتابة، كما في «سورة الكهف»: ﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ رَبِّكُمَا﴾، **فالرَّقيم** هو: الكتاب، **وقيل**: كتاب فيه أسماؤهم وأخبارهم، وهنا قال: ﴿مُدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ أي: مكتوب.

قد يقال: هذا تحصيل حاصل، فمعلوم أن الكتاب مكتوب!

والجواب: أن في ذلك فوائد:

1- أنه كتاب مضبوط، لا يُزاد فيه ولا يُنْقَص منه.

2- أنه كتاب واضحٌ مجوَّد بَيِّنٌ في دلالاته وما فيه، ففيه البداية والنهاية والكثير والقليل، ولهذا يقول تعالى في «سورة الكهف»: ﴿﴿٣﴾ عَلَّمَهُ﴾، وهو هذا الكتاب المرقوم، ﴿ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ﴾.

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 452)، و«تفسير الرازي» (31/ 87)، و«تفسير القرطبي» (19/ 258)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 350)، و«التحرير والتنوير» (30/ 194).

فهذا ﴿مُّدَّكِرٖ ٥١﴾ وهؤلاء مطفِّفون يزيدون وينقصون، أما الكتاب فلا تطفيف فيه ولا زيادة ولا نقص، وكل شيء مضبوط فيه ومحفوظ.

3- أنه مميَّز بعلامة، وليس ببعيد أن يكون كتاب الكافر مميَّزًا بعلامة تخصُّه، وكتاب المؤمن مميَّزًا بعلامة تخصُّه، فكتاب الكافر مرقوم، وكتاب المؤمن مرقوم، لكن شتان بين رَقْم ورَقْم.

فالمرقوم: المختوم، الذي عليه الختم أو الخاتم[1].

4- ويحتمل أن يكون الكتاب مشتملًا على رقم يدل على صاحبه، كما تجري العادة في مثل التجمعات الواسعة أن يُعطى كل فرد بطاقة فيها رقم، ولعل كل كتاب لإنسان مسلم أو كافر يحوي رقمًا يدل على صاحبه؛ ولذا سُمِّي مرقومًا، والله أعلم.

إنه كتاب دقيق متقن مفصَّل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، مضبوط لا يتمكَّن أحد من الزيادة فيه ولا النقص منه، مميَّز مُعلَّم، بحيث يعرف كل أحد كتابه، فهذا يأخذ كتابه بيمينه، وذاك يأخذ كتابه بشماله.

* ﴿شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ □﴾:

وصفهم بالمكذِّبين بعدما قال عنهم: ﴿□□□□□□﴾؛ ليحدِّد معنى الظن، وأنه التصديق[2].

ثم بيَّن متعلَّق التكذيب، فقال: ﴿٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾؛ ليبرز شناعة ما عملوه.

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 557)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 153)، و«تفسير الماوردي» (6/ 228)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 322)، و«تفسير الرازي» (31/ 87)، و«تفسير القرطبي» (19/ 258)، و«روح المعاني» (15/ 278).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 720)، و«زاد المسير» (4/ 414)، و«تفسير القرطبي» (19/ 254)، و«روح المعاني» (15/ 277)، وما تقدم في قوله: ﴿□□□□□□﴾.

ووصفهم بالمكذِّبين دليل على أنهم دُعوا وبُلِّغوا وقامت عليهم الحجة وسمعوا آيات الله؛ لأن المكذِّب هو الذي سمع الخبر وأدلته، وقامت عليه الحجة، ومع ذلك هو يعرِض ويصرُّ على التكذيب.

وهو دليل على أن العقاب للكافرين يوم القيامة يلحق مَن بلغته الحجة وقامت عليه دلائل الرسالة والنبوة، فأصرَّ وعاند وكذَّب، أما مَن لم تبلغه الحجة، فلا يدخل في هذا، وأمرُه إلى الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف: 3].

وهذا المعنى يرد في القرآن كثيرًا، وسبق في «سورة النبأ»[1].

ودلائل الشريعة على هذا اليوم عظيمة، والذي يقرأ القرآن- خصوصًا المكِّي- يجد كثرة الحديث عن البعث، ولا يوجد عند الأنبياء السابقين والكتب السابقة مثلما يوجد في القرآن الكريم من تفصيل أخبار الآخرة والبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والصراط والميزان، فدلالة القرآن واضحة قوية، والإيمان بيوم الدين فيصل حاسم بين فئتين من البشر، فإن الإيمان بالآخرة يجعل الإنسان أكثر جدية واهتمامًا في التعاطي مع قضايا التدين والعبادة والأخلاق والحقوق.

والفطرة تغتبط بمثل هذا الإيمان، فهو يمنحها فسحة وانشراحًا ورضًا وانتظارًا لوعد الصدق؛ ولذا قال سبحانه: ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ﴾ [الأعراف: 172]، فلو تخيَّل المخلوق أن هذه الروح تفنى بالموت، وكأنها لم تمشِ على الأرض ولا عاشت، بل تحوَّلت إلى رماد ورميم ونهاية وعدم، فهو إحساس قاتل، يجعل الإنسان يموت قبل أوان الموت.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿□□□□□□﴾.

فهنا يكون في النفس تطلُّعٌ إلى أن يكون بعد الموت حياة أخرى، كما كان قبل الحياة موت آخر.

والإنسان يرى في هذه الدنيا أشياء عديدة لم يستقم فيها الميزان، فهذا مطفِّف هلك، وقد أخذ أموال الناس بالباطل، وهذا ظالم مات في عزٍّ ومَنْعة ومتعة لم يُنتقَم للمظلوم منه، وهذا محسن مات ولم يُكافأ على إحسانه، وهذا شهيد لقي حَتْفه في ضيق وشدة وكرب، ولم ير بصيصًا من الرَّوْح والفرج، فلا بدَّ مِن دار أخرى تُرَدُّ فيها الحقوق لأصحابها، ويُنْتَصَف من الظالم للمظلوم، وترجع الأمور فيها إلى نصابها.

فهذا يوم الدين، أي: يوم الدينونة، **والدِّين**: الجزاء[1]، كما تقول: أدينك بهذا، أي: أجازيك به، ومنه: «كما تدين تُدان»، أي: كما تعمل تُجازَى، فالدينونة معناها أن يردَّ الدين للإنسان بما أخذ، ويُوفَّى عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

* ﴿ﭐ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﭐﭐﭐﭐﭐﭐﭐﭐﭐ﴾:

لا يكذِّب بيوم الدين بعد قيام الحجة ودلالات الشريعة إنسانٌ سَوِيٌّ متجرِّد من الأهواء، **لا يُكَذِّب به إلا مَن كان مُتَّصفًا بثلاث صفات:**

1- **العدوان**، وهذا يرجع لتأكيد مسألة حقوق الناس، وقد بدأ تعالى بحقوق الناس قبل حقِّه، فقال: ﴿وَنَهَرٍ﴾، فهو يريد أن يمضي في عدوانه دون خوف من بعث أو حساب.

2- **الإثم**، والأثيم على وزن فعيل، وهو صيغة مبالغة، **والإثم**: الذنب والمعصية، وإذا أدمن عليه صاحبه وأصرَّ سُمِّي: أثيمًا.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 198)، و«تفسير القرطبي» (19/ 259)، و«التحرير والتنوير» (30/ 196)، وما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، و«سورة الانفطار»: ﴿ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ رَبِّكُمَا﴾.

وقدَّم «المعتدي» على «الأثيم»؛ لأن الإضرار بحقوق الناس معصية لله وأذى للناس في الوقت ذاته، فهو إثم مضاعَف، بخلاف الأثيم فذنبه على نفسه وليس على غيره.

والإضرار بحقوق الناس والعدوان عليهم سبب في فساد الدنيا، كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**يوشِكُ أن يأتي زمانٌ يُغربَلُ الناسُ فيه غربلةً، تبقى حُثالةٌ من الناس قد مَرِجَتْ**[1] **عهودُهم وأماناتُهم، واختلفوا فكانوا هكذا**». وشبَّك النبيُّ صلى الله عليه وسلم بين أصابعه[2].

أي: فلا تدري أين المحقُّ، وأين المبطل، وأين الصادق، وأين الكاذب، فهذا الحسد والبغي والعدوان، ولهذا كان من أعظم ما جاء الرسل بدفعه والنهي عنه البغيُ والعدوانُ.

وسواء كان البغي والعدوان بالعلم، كما وقع لبني إسرائيل، أو بالرياسة، أو بالمال، أو باسم ينتحله أو مذهب يترسمه؛ فكله مذموم محرَّم.

ولم يقل: «آثم»؛ ليبيِّن أن الإثم قد أصبح جزءًا من شخصيَّته، وطبعًا لا يستطيع الخلاص منه، ولذا قال في السورة ذاتها: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ ▯﴾، فهي حالة انطباع عاطفي وجسدي بالمعصية لا يسهل الفكاك منها.

---

(1) **الحُثالة**: سفلة الناس، **ومَرِجَت**: اختلفت وفسدت.

(2) أخرجه نُعيم بن حَمَّاد في «الفتن» (693)، وأحمد (6508، 7063)، وأبو داود (4342، 4343)، وابن ماجه (3957)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (1176)، والحاكم (2/ 159)، (4/ 435) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وأخرجه ابن حبان (5950) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وينظر: «صحيح البخاري» (480)، و«فتح الباري» (1/ 556)، و«السلسلة الصحيحة» (205).

3- **تكذيب القرآن**، كما قال تعالى: ﴿□□□□□□□□﴾، تُلي عليه القرآن؛ فأعرض وقال: ﴿□□﴾.

وهذا قاله النضر بن الحارث في مكة، حين كان يقرأ على قريش كتب رُستم واسْفَنْدِيار وأساطيرهم المدوَّنة، ويقول لهم: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟ لماذا يتبعه الناس ويتركونني[1]؟

والآية عامَّة لكل مَن تحقَّقت فيه هذه الصفات المرذولة؛ لأنه تعالى عمَّم الحكم على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مَن كان كذلك.

وهذا لا يخصُّ شخصًا بعينه، بل يشمل كُلَّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، من السابقين واللاحقين والعرب وغيرهم.

واليوم تجد مَن يقول: للقرآن الكريم أن يحدِّثنا عن قصة إبراهيم وإسماعيل، لكن هذا لا يعني أنها حقيقة، **ومَن يقول**: إن قصة أصحاب الكهف، وعصا موسى التي تلقف ما يأفكون أسطورة، ولا يلزم أن تكون حقيقة**!**

و﴿□﴾ جمع: أُسطورة- مثل: أُكْذُوبة وأُعْجُوبة وأُحْدُوثة- مأخوذ من السَّطْر، وهو الكتابة والتسطير، أي: الأشياء التي سطَّرها وكتبها الأولون.

والوزن الصرفي: «أفعولة» قليل الاستعمال، كما في الأمثلة السابقة، **وقيل**: ليس لها واحد من لفظها، مثل: ﴿١٠﴾[2].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (1/ 555)، و«سيرة ابن هشام» (1/ 300، 358)، و«تفسير الطبري» (17/ 399)، و«تثبيت دلائل النبوة» (1/ 53)، و«شعب الإيمان» (7/ 166- 167)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص345)، و«تفسير الرازي» (21/ 428)، و«البداية والنهاية» (4/ 217).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (1/ 296)، و«تفسير الطبري» (9/ 200)، و«تهذيب اللغة» (12/ 230)، و«لسان العرب» (4/ 363)، و«تاج العروس» (12/ 26) «س ط ر»، و«التحرير والتنوير» (7/ 182، وما سيأتي في «سورة الفيل»: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فَبِأَيِّ﴾.

والأساطير: خرافات يرفضها العقل، وقد تكون قصصًا وهمية أو أمثالًا تُضرب كقصص الحيوانات والطيور والجن.

أما الغيب، فهو الحق الذي أخبر الله به، مما لا تستطيع العقول إدراكه بذاتها، لكنه ليس مُحالًا، ولا تأنف العقول من الإيمان به، بل تستسلم له مِن غير أن تدركه، ولهذا قال ابن تيمية: «إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بمحارات العقول، لا بمحالات العقول»[1].

والأساطير تُذكر في سياق التكذيب، فتقول: هذه أسطورة، أي: كذبة، وإن كانت شائعة عند الناس، كما في كتاب «كليلة ودِمنة»، أو قصص الرومان واليونان والفراعنة والصينيين وغيرهم.

فإذا حكى الله تعالى لنا قصص الأنبياء، أو قصة أصحاب الكهف، أو أصحاب الأُخدود؛ فهي حقائق تاريخية في أعلى درجات الوثوق والمصداقية؛ لأنها تنزيل من الله العزيز العليم.

عقلية المؤمن ليست خرافية، بل هي إيمانية غيبية، وأعظم ما يميِّز المؤمن عن الملحِد هو الإيمان بالغيب، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ﴾ [البقرة: 2- 3]؛ لأنه إذا لم يؤمن بالغيب لم يؤمن بالله، ولا بالآخرة، ولا بالجنة، ولا بالنار، ولا بالوحي.

فالإيمان بالغيب ليس شيئًا ثانويًّا، بل هو أصل وركن في عقيدة المسلم، هو إيمان حقيقي يؤثِّر في تصوره ومنهجه وسلوكه، ولذلك كان المكذِّبون يطفِّفون؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، ولا يظنُّون أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين،

---

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (17/ 444)، و«الجواب الصحيح لَمن بدَّل دين المسيح» (4/ 309)، و«درء تعارض العقل والنقل» (7/ 327).

وبذا تجرؤوا على حقوق الناس، والمؤمن قد يتخلَّى عن بعض حقِّه في الدنيا، لا من باب أنه لا يريد هذا الحقَّ، أو لا يحبُّه؛ ولكن لأنه يدَّخره ليوم آخر هو عنده أكثر يقينًا من المشهود الذي يراه ويحسُّه.

إن عقلية المؤمن الغيبية لا يجوز أن تتحوَّل إلى عقلية أسطورية خرافية، تؤمن بكل ما يخالف الحسَّ، وتقيس قياسًا فاسدًا، فتقيس أوهام الناس وحكاياتهم وأقاويلهم على خبر الكتاب المنزَّل، وكثير من عوامِّ المسلمين وشعوبهم ضعف حسهم النقدي، وصاروا يتلقَّفون الغرائب ويؤمنون بها!

يُفترَض أن يكون مبدأ المؤمن رفض الروايات الموهومة، والأخبار المناقِضة للشرع والعقل، والمناقِضة للحسِّ، أما أن يكون مُستودَعًا للأوهام، فهذا انحراف كبير في المنهج.

لما أُخْبِرَ أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه بالإسراء والمعراج، وجاءته قريش يقولون له: هذا صاحبُك يزعمُ أنه قد أُسرِيَ به إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته! فقال أبو بكر رضي الله عنه: «أَوَ قال ذلك؟». قالوا: نعم. فقال: «فإنِّي أشهدُ إن كان قال ذلك لقد صدقَ». فقالوا: أتصدِّقه بأنه جاء الشامَ في ليلة واحدة، ورجعَ قبل أن يُصبحَ؟ قال: «نعم؛ إني أصدِّقه بأبعدَ من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء بكرةً وعشيًّا»[1].

فكان الخبر غريبًا على أبي بكر رضي الله عنه، ولهذا لم يعطِ إيمانًا مطلقًا؛ لأن الذين أخبروه به أخبروه على سبيل الإزراء، فقال: «إن كان قال ذلك لقد صدقَ»، فعلَّق الإيمان به على ثبوت الخبر وصِدْقِهِ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا ينبغي أن يقول المؤمن، فلا يتعجَّل في قبول الروايات والأخبار دون تحرٍّ.

(1) تقدم تخريجه في «سورة النجم»: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

وكثير من الدُّعاة والوُعَّاظ منذ قديم يدغدغون مشاعر المتلقِّين من البسطاء والسُّذَّج بقصص خرافية أو مبالغات وتوهمات وحكايات لا أصل لها، وربما ساق مصنِّف أو واعظ أو مجاهد في الميدان رواية غريبة منكرة، ونسبها إلى ثقة صالح، فلا يلزمنا قبولها، وإنما الذي يلزمنا قبول ما جاء في الكتاب والسنة.

فلو قال لنا قائلٌ خبرًا يتعلَّق بعذاب القبر، أو بكرامات حصلت لفلان أو علان، فلا يلزم الإيمان بخصوص هذه الروايات، ولكن نؤمن بأصل الاعتقادات الشرعية، ونتوقف في تفصيل المرويات، حتى نطمئن إلى صدقها وعدالة رواتها وسلامة عقولهم وحواسهم.

يسألنا شابٌّ عن مقطع في اليوتيوب، يظن أنه يسجِّل صراخ المُعَذَّبين في قبورهم، والله تعالى جعل أمر البرزخ وعذاب القبر ونعيمه من عالم الغيب، ولو أن الناس سمعوه وشاهدوه لكان من عالم الشهادة.

نعم، صحَّ أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سمع يومًا وَجْبَةً، فقال: «**تدرونَ ما هذا؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**هذا حَجَرٌ رُمِيَ به في النارِ منذُ سبعينَ خريفًا، فهو يَهْوِي في النار الآن، حتى انتهى إلى قَعْرِها**»[1]. فنقول: صَدَّقنا بذلك؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أخبرنا به.

وكذلك قال: «**إن هذه الأُمَّةَ تُبتلَى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوتُ اللهَ أن يُسمِعَكم من عذاب القبر الذي أسمعُ منه**»[2].

فبيَّن السبب في إخفاء هذه الأمور، ولم يَدْعُ اللهَ أن يراها الناس أو يسمعوها.

---

(1) أخرجه مسلم (2844) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. **والوَجْبَة**: السَّقْطة.

(2) أخرجه مسلم (2867) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

المهم أن هذه أخبار قالها النبي صلى الله عليه وسلم، أما بعد وفاته فإننا لا نستطيع أن نجزم أن فلانًا يُعَذَّب في قبره، ولا أن في هذا القبر نارًا أو نعيمًا، ولا أن ما يُسَجَّل في هذا الشريط أنه أصوات المُعَذَّبين، ولا أن ما يصوَّر في الفيديو هو مَلَكَ أو شيطان أو طائف من الجن، وما يدرينا أن تكون تلك الأصوات حِمَمًا أو براكين أو نيرانًا تتلهَّب وتغلي، أو أصواتًا مُقَلَّدة أو مشبَّهة.

وفي الولايات المتحدة رجل من أهل الكتاب وضع عنده متحفًا، ووضع فيه ما جاء في الكتب السماوية عن الآخرة، وصوَّرها تصويرًا حسِّيًّا مشهودًا، فصوَّر الجنة والنار وغيرها، وربما سجَّل أصواتًا تتعلَّق بذلك.

والله تعالى يقول: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: 98]، أي: لا تحسُّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم صوتًا[1].

ولا ينبغي ربط إيمان الناس بأشياء مُحتمَلة، بل يُرْبَط إيمانهم بالحقائق القرآنية والحقائق النبوية الناصعة التي مَن آمن بها فقد آمن، ومَن كفر بها فقد كفر، أما أخبار الناس فهي مما تحتمل الصدق والكذب، ولا ينبغي أن يُمْتَحَن المكلَّف بها، ولا أن تُعتبَر حجة أو دليلًا أو برهانًا، وإن كنا نقول: إذا اغترَّ أحد وسمع هذه الأشياء واستفاد وأناب وتاب، فهو كما لو تاب بسبب سماعه لحديث موضوع أو ضعيف، هو شيء يفرح به، ولا يعني قبول الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة أو الحكايات الباطلة.

مهمٌّ أن تكون العقلية الإسلامية عقلية ناضجة رزينة، لا تتسرَّع في قبول الظنون والاحتمالات، ولا تتسرَّع في نفيها، فالعلم أوسع مما تظن، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: 85]، ولا يزال العلم البشري يحبو في مجال الروحانيات

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (15/ 647)، و«التفسير البسيط» للواحدي (3/ 198)، و«تفسير القرطبي» (11/ 162)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 270)، و«اللباب في علوم الكتاب» (13/ 163).

والإيمانيات والمسائل النفسية، وهذا سر شرف المصادر الشرعية التي يتلقاها المسلم بالقبول، قائلًا مع أمثاله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ﴾ [آل عمران: 53].

* ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ ▯﴾:

إضراب وانتقال من موضوع إلى آخر، أو زجر، أو نفي، **والمعنى**: ليس الأمر كذلك، وليست الآيات من أساطير الأولين، بل من كلام رب العالمين.

ثم ذهب إلى تعليل ما وقعوا فيه فقال: ﴿۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ﴾ أي: أنهم كذَّبوا بسبب الرَّان الذي أصابهم[1].

والرَّان: غلاف يكون على قلب الإنسان، ويُسَمَّى: الرَّانُ، أو الرَّين[2]، **وأشد منه**: الطَّبْعُ، كما في قوله: ﴿▯ ▯ ▯ ▯﴾ [التوبة: 93]، **وأشد منهما**: القُفْل، كما في قوله: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: 24]، وهي آفات تصيب قلب الإنسان، تجعله محجوبًا عن تشرُّب الحقائق فلا يقبلها، ويعمى عنها ويماري في الحقِّ.

رحلتها الطويلة مع الهوى والانحراف جعلتها تكره الخير والصدق، والطهارة والعفاف، وتحب ضدَّ ذلك من الشر والفجور، والكذب والريبة، وهذا يحدث حين يعتاد امرؤٌ حياة الرذيلة والفسق، أو الانهماك في صفة مذمومة؛ ولذا قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [الزمر: 45].

---

(1) ينظر: «تفسير البيضاوي» (5/ 295)، و«فتح القدير» (5/ 485)، و«روح المعاني» (15/ 279)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (15/ 130)، و«التحرير والتنوير» (30/ 199).

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 323)، و«تفسير الرازي» (31/ 88)، و«تفسير القرطبي» (19/ 260)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 425).

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (13/ 192)، و«تاج العروس» (35/ 130) «ر ي ن».

تجد شابًّا إذا رأى فتاة محتشمة ازدراها، وامتعض لرؤيتها؛ لأنه يريد المتبرِّجة، اللَّعوب التي يسهل اصطيادها واستغلالها، وإذا وجد نفسه في بيئة محافظة جادة شَرِقَ بذلك، فهذا سببه الرَّانُ الذي يغطِّي على القلب.

ومنه ما يُسَمَّى بالإدمان، كمَن يتعاطى المخدرات، حتى تجري سمومها في دمه، فلو مُنِع عنها بالقوة صار يعاني ما يُسَمَّى بالأَعْراض الانسحابية.

ومثله إدمان الرذيلة أو المشاهدات الإباحية أو المكالمات والعلاقات المحرمة.

والرَّان شيء غير الغَين، كما في حديث: «**إنه ليُغانُ على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ في اليوم مئةَ مرة**»[1]. فكأن **الغَين** شيء خفيف يَعْرِض لقلوب الأخيار والصلحاء من الغفلة، فيدفعونه بالاستغفار، أما **الرَّان**، فغالبًا ما يصيب قلوب الكافرين أو أهل الفجور.

وفي ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بين اللام والراء إدغام عند بعضهم، وبعضهم يفصلونها بغير إدغام، فيقولون: «بلْ رَان»، وبعضهم يفصلون بينهما بسكتة لطيفة دون تنفُّس، وهذه قراءة حفص[2].

* ﴿بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾:

وفي عطف هذه الآية على السابقة مناسَبة جميلة؛ حيث ذكر الرَّان الذي حجب قلوبهم عن الحق والمعرفة والإيمان والعمل الصالح؛ فناسب أن يكون عقابهم في الآخرة حجابًا كالذي كان عندهم في الدنيا.

---

(1) أخرجه مسلم (2702) من حديث الأَغَر المزني رضي الله عنه.

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (5/ 299)، و«السبعة في القراءات» (ص675)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 385)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص467)، و«حجة القراءات» (ص754)، و«الكشاف» (4/ 721)، و«زاد المسير» (4/ 415)، و«روح المعاني» (15/ 279)، و«معجم القراءات» (10/ 346- 348).

والحجاب عن الله هو أنْ يُحْرَموا من رؤيته سبحانه، فلا يرونه كما يراه المؤمنون؛ فهو تجلَّى لأهل كرامته، واحتجب عن أهل معصيته.

واستدلَّ الشافعي بهذه الآية على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة.

وهو استدلال بمفهوم المخالفة؛ فإن الله لما عاقب المكذِّبين بحرمانهم من رؤيته، دلَّ على أن غيرهم من المؤمنين يرونه.

وقد تضافرت الأدلة عليه، وهو مذهب أهل السنة، كما في قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ﴾ [القيامة: 22- 23]، ورؤية الله من أعظم النعيم الذي يُنَعَّمون به في الجنة، فبعد أن تنعَّموا بذكره في الدنيا، تنعموا برؤيته في الآخرة[1].

وعن جَرِير رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلةَ البدر، فقال: «**أما إنكم سترونَ ربَّكم كما ترونَ هذا القمرَ، لا تُضامُّونَ في رؤيتِه**»[2].

والمقصود: تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي.

* وحجاب الكافرين عنه سبحانه يفعل في القلوب والأرواح مثلما تفعل النار بالأجساد من الحرقة والألم والإهانة، ولذا عقَّب بقوله: ﴿تَطْغَوْاْ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ۝٥٠﴾، وهذا عقاب أجسادهم.

والصَّلْي: الشَّي والكي والإحاطة من كل جانب[3]، **والجحيم**: أشد النار.

---

(1) ينظر: «شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (3/ 519)، و«الحجة في بيان المحجة» لِقوام السنة (2/ 524)، و«مجموع الفتاوى» (6/ 499)، و«حادي الأرواح» (ص292)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص191)، و«تفسير الشافعي» (3/ 1430).

(2) أخرجه البخاري (7434)، ومسلم (633).

(3) ينظر ما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

* ﴿تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ مُّدَّكِرٍ﴾:

عند ما يرون مصيرهم يوم القيامة، يقال: هذا الذي كنتم تقولون عنه: إنه ﴿مِن مَّارِجٍ﴾. فكان عقاب الفجار في الآخرة: الحجاب، ثم الصَّلْي بالنار، ثم التوبيخ والتبكيت.

ولما انتهى من ذكر حال الفجَّار المكذِّبين ومآلهم، انتقل إلى الكتاب الآخر، وهو كتاب الأبرار، وهذه طريقة جارية في القرآن، أنه يكرِّر ذكر الجنة والنار، والخير والشر، والإيمان والكفر[1].

* ﴿تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝٥٢﴾:

كتابهم الذي كُتبَت به أعمالهم، فهو صحيفة الأعمال[2].

والأبرار جمع: بَرٍّ، وهو صاحب البِرِّ، وهو اسم جنس لأعمال الخير والطاعة[3].

يقول الحسن البصري رحمه الله: «الأبرار هم الذين لا يُؤْذُون شيئًا حتى الذَّرَّ»[4].

والذَّرُّ: نوع من النمل، وفي الحديث الصحيح: «**نزلَ نبيٌّ من الأنبياءِ تحت شجرةٍ، فلَدَغَتْه نملةٌ، فأَمَرَ بجهازِه فأُخرِجَ من تحتِها، ثم أَمَرَ بها فأُحرِقَت، فأوحى اللهُ إليه: فهَّلا نملةً واحدةً**»[5]. يعني: أحرقت بيت النمل كله من أجل نملة واحدة قرصتك، لماذا لم تنتقم من النملة التي قرصتك فقط؟ إن كان ولا بد!

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

(2) كما تقدم في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾.

(3) «المفردات في غريب القرآن» (ص114)، و«بصائر ذوي التمييز» (2/ 211)، و«مفردات القرآن» للفراهي (ص264).

(4) أخرجه أحمد في «الزهد» (2287)، والطبري في «تفسيره» (24/ 206)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (3/ 846)، والدينوري في «المجالسة» (45).

(5) أخرجه البخاري (3319)، ومسلم (2241) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا السياق مناسب لموضوع التطفيف؛ فبعد وعيد المطفِّفين وهم أهل بغي وعدوان، جاء ذكر الأبرار أصحاب العدل والإنصاف.

وليس المقصود بالبِرِّ المظهر الذي يبدو به الإنسان وكأنه أصبح معدودًا في الأخيار، بل البِرُّ هو الإيمان في الأصل، وهو من المعاني القلبية التي تفيض على الجوارح ويظهر أثرها.

والدين ظاهر وباطن، وسلوك وعمل، والإيمان قول وعمل واعتقاد، والاعتقاد هو الأصل؛ ولهذا عرَّف النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان بـ«**أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه**»[1]. وهذا شيء في القلب، وكذلك الإيمان أصل تحقيقه في القلب.

ثم درجة الإسلام، وهي الظاهر الموافِق للباطن، وكل هذه الدرجات مشروعة.

و﴿ذَاتُ﴾: كلمة عربية تُطلَق على الذين يسكنون في الأعالي[2]، وبضدهم: السُّفليُّون الذين يسكنون في الأسافل.

وقد تنوَّعت عبارات السلف في تفسيرها، فقيل: سِدرة المنتهى، **وقيل**: السماء السابعة، **وقيل**: عند العرش[3].

والمقصود: المنازل السامية الرفيعة، كما أن كتاب الفجار في سِجِّين، الذي مِن أشهر معانيه: السُّفل، وهو دليل على أن الجنة في السماء وسقفها عرش الرحمن عز وجل[1].

---

(1) أخرجه البخاري (50)، ومسلم (9) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم (8) من حديث عمر رضي الله عنه.

(2) كما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 206)، و«تفسير البغوي» (5/ 225)، و«زاد المسير» (4/ 416)، و«تفسير القرطبي» (19/ 262)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 352).

* ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ﴿٥٣﴾﴾:

وهي إشادة به، وأنه بالغ مبلغ الارتفاع والسمو[2].

* ﴿مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ جَنَّتِ﴾: تفسير لـ﴿﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وليس تفسيرًا لـ﴿لِلۡأَنَامِ﴾، وإنما دخلت كلمة: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ﴾ بين الكتاب وبين وصفه؛ للتعظيم والتفخيم.

* ﴿ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ فِي﴾:

أي: يحضره، **وقيل:** يطَّلع عليه المقرَّبون[3]، وهم الملائكة والأنبياء والرسل والصِّدِّيقون والشهداء، وكلهم يشهدون كتب الأبرار، وهو من بركة ما رُقِمَ فيه من الأعمال الصالحة.

* ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مَلِيكٖ﴾:

أي: الذين هذا كتابهم، ولم يقل: «لفي النَّعيم»، بل جاء بها نكرة تشمل كل نعيم، فكل ما يُتَصوَّر أو يَخْطُر على البال من النَّعيم فهم فيه، وكأن النَّعيم وعاء، والأبرار قد وُضِعوا فيه، فهم يتنعَّمون بكل ما فيه.

ومنه: النَّعيم المعنوي، نعيم الأرواح والقلوب برضوان الله وسماع كلامه سبحانه، والنظر إلى وجهه الكريم، والرضوان، كما قال سبحانه: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ◻◻﴾ [التوبة: 72].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (5/ 299)، و«تفسير الطبري» (24/ 206- 210)، و«المحرر الوجيز» (5/ 452)، و«تفسير القرطبي» (19/ 262).

(2) وينظر ما تقدم في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ ﴿١٥﴾﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 211)، و«زاد المسير» (4/ 416)، و«تفسير القرطبي» (19/ 264)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 352).

وهناك النَّعيم الحِسِّي، من المآكل والمطاعم والمشارب والأصوات الجميلة، والمَلذَّات، والنكاح وألوان المتع التي نعرف، والتي لا نعرف.

* ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ جمع: أريكة، وهي السُّرر والمتكآت التي يقعدون عليها في الجنة[1]، ثم هم ينظرون، ولم يذكر الله تعالى إلى ماذا ينظرون؟

وعند ما يأتي الإطلاق في القرآن فإنه يدل على عموم المتعلِّق، فهم هنا ينظرون إلى النَّعيم والمُلْك الذي أُعطُوه، كما قال سبحانه: ﴿□□□□□□□﴾ [الإنسان: 20]، والإنسان يتلذَّذ بالنظر إلى ما يملك، وهو في ذاته متعة.

وينظرون إلى الأشياء الجميلة التي يلتذُّ المرء بالنظر إليها، فإن الإنسان حين ينظر إلى المناظر الجميلة يتمتَّع حتى لا يريد أن يغمض عينيه، وقد يكون هذا عنده ألذ من الطعام والشراب وألوان المَلذَّات، ولو لم تكن الأشياء ملكًا له.

وينظرون إلى وجه الله سبحانه، وهو أعظم نعيم.

وينظرون إذا شاؤوا إلى الكفار في النار، ليذَّكَّروا نعمة الله تعالى عليهم، كما في قصة الصافات، والمؤمن الذي كان له صديق في الدنيا يشكِّكه، فيحب أن ينظر إليه، فيريه الله إياه في النار، فيخاطبه وهو في النار: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ﴾ [الصافات: 56- 57].

فهذا هو نعيم الجنة، نعيم متنوِّع، تستمتع به كل جارحة، وكل حاسَّة من حواسِّ الإنسان.

* ﴿كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن خَلَقَ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (15/ 255)، (24/ 328)، و«معاني القرآن» للزجاج (3/ 284)، و«تفسير القرطبي» (15/ 44)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 156)، و«التحرير والتنوير» (30/ 204).

بلغ بهم النَّعيم أن صار علامةً تُرى في وجوههم.

فكما كان أثر الطاعة والإيمان في وجوههم في الدنيا ظاهرًا، فكذلك تظهر في وجوههم نضرة النعيم[1].

* ﴿مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ٱلشَّمۡسُ﴾:

وهذا من ألوان نعيمهم، حيث تُدار عليهم الخمر وهم في مجالسهم وسَمَرهم.

واختلفوا في «الرَّحيق» على أقوال[2]:

أنه الخمر الصافي، أو الخمر القديم المعتَّق- لأن الناس في الدنيا يعدُّونها أجود الخمر- أو الخمر الأبيض الجيِّد.

وهي خمر، لا تَذْهَب بالعقول والألباب كخمر الدنيا، وليس فيها كحول ولا سكر.

والمختوم يكون في أكواب وقوارير مغلقة خاصة بصاحبها، فهو الذي يقوم بفتحها وفضِّها، وهذا من كمال النعيم[3].

* ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ □□□□ ۝٦﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 464)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 336)، و«تفسير الرازي» (31/ 91).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 214- 215)، و«تفسير الماوردي» (6/ 230)، و«زاد المسير» (4/ 416)، و«تفسير القرطبي» (19/ 264)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 352)، و«الدر المنثور» (15/ 307)، و«فتح القدير» (5/ 490).

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 183)، و«تفسير الرازي» (31/ 92)، و«التحرير والتنوير» (1/ 254)، والمصادر السابقة.

والخَتْم نفسه مِسْك؛ ولذا قال: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾، وفي بعض القراءات: (**خَتَمُهُ مِسْكٌ**)[1]. فالختم الذي خُتِمَ به على القارورة أو الكأس من المسك، فما بالك بما في داخلها؟! ﴿□□□□﴾:

وكان أهل التطفيف في الدنيا يتنافسون بالدرهم والدينار، وبالتطفيف بشيء قليل من الطعام يأخذونه من أفواه الفقراء والمساكين، فـ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾.

أما المؤمنون فقد كانوا يتنافسون في النَّعيم العظيم الذي حُقَّ لهم أن يتنافسوا فيه، وهو ما يجب أن يكون فيه التنافس.

هذي المكارمُ لا قَعْبانِ من لبنٍ *** شِيبا[2] بماءٍ فعادا بعدُ أبوالَا[3]

وهي إشارة إلى مشروعية التنافس في الخير، كالتنافس في العلم، حتى قال بعض الفقهاء: لا إيثار في القُرَب، ففي مجال القربات والطاعات ينبغي أن يتنافس الناس.

ولا يعني هذا المنع من التنافس في خير الدنيا وطيبها ومتاعها المباح وفرصها التي سُخِّرت للإنسان، مثل التنافس في تجارة يُنْفِق الإنسان منها في سبيل الله، أو وظيفة ينفع وينتفع بها، أو منصب يبذل فيه طاقته ويجد فيه نفسه، كما يتنافس الناس في الانتخابات وغيرها، فهذا يرجع إلى نيَّة الإنسان.

ولو كان لدى المرء رغبةٌ في سمعة أو مكانة أو جاه مباح، فهذا مما لا يُلام عليه، وهو طبيعة وجِبِلَّة، لكن فَرْقٌ بين إنسان في نيَّته أن ينفع الناس، وآخر همُّه الرياء والسمعة والتفاخر.

---

(1) ينظر: «المقنع في رسم مصاحف الأمصار» (ص23)، و«زاد المسير» (4/ 417)، و«الإتقان» (4/ 181)، و«معجم القراءات» (10/ 350- 351).

(2) أي: خُلِطَا.

(3) ينظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (3/ 65) منسوبًا إلى أبي الصلت بن أبي ربيعة، شاعر جاهلي، وهو والد أمية بن أبي الصلت، قاله في قصيدة مادحًا فيها سيف بن ذي يزن.

وشر منهم ثالث قصده الإضرار بالخلق والظلم والانتقام.

وعادةً لا يمكن تحصيل الخير إلا بشيء من مراعاة حظِّ النفس، وعلى المؤمن أن يصحِّح نيَّته.

وفي الآية معنى لطيف: وهو أن مجرد دخولك ميدان المنافسة محمود؛ حيث يشملك بذلك وصف المتنافسين، وأنت على خير، ولو سُبقت فحَسْبُك أن تكون من المتنافسين، ولهذا لما خَيَّرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دُورَ الأنصار، قال له سعدُ بنُ عُبادةَ رضي الله عنه: يا رسولَ الله، خُيِّرَ دُورُ الأنصار، فجُعِلْنا آخِرًا! فقال صلى الله عليه وسلم: «**أو ليس بحَسْبِكم أن تكونوا من الخيار؟**»[1].

❁ ﴿□□□فِي﴾:

﴿□﴾ من المَزْج، **والمَزَاج:** الشيء المختلط الممزوج[2]، وتُستخدم في الأشياء المعنوية، فيقال: فلان مزاجه متعكِّر، وإذا خُلِط شراب بشراب قيل: هذا مزيج، أو مزاج، أي: ممزوج بعضه ببعض[3].

و﴿□﴾: عين في الجنة، وهي أفضل ماء الجنة، وهذه العين تصب على جنانهم من علو؛ مشتقة من السَّنام، وسَنام البَعير: أعلاه، فكأنها في الجنة سَنامٌ؛ لعلوها[4].

وقال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما في هذه الآية: «إنها تُمزَج لأصحاب اليمين مزجًا، ويشربها المقرَّبون صِرْفًا»[1].

---

(1) أخرجه البخاري (3791)، ومسلم (1392) من حديث أبي حُميد الساعدي رضي الله عنه.

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص766) «م ز ج».

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 465)، و«التحرير والتنوير» (30/ 307).

(4) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص713)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص520)، و«تفسير الطبري» (24/ 221)، و«تفسير الماوردي» (6/ 231)، و«زاد المسير» (4/ 417)، و«تفسير الرازي» (31/ 93)، و«تفسير القرطبي» (19/ 266)، و«التحرير والتنوير» (30/ 208).

فأصحاب اليمين يشربونها ممزوجة بغيرها، **أما المقرَّبون** فيشربونها صِرْفًا غير ممزوجة؛ لأن المقرَّبين أفضل من أصحاب اليمين[2].

* ﴿ ٱلۡوَزۡنَ ﴾:

أي: يشرب منها المقرَّبون، فالباء بمعنى «من»، وهو معروف في اللغة[3]، فالمقرَّبون يشربونها صِرْفًا، أما الأبرار وأصحاب اليمين فإنها تُمزَج لهم مزجًا.

* ختم تعالى هذه السورة بذكر ما كان عليه الأبرار والفجار في هذه الدار، فقال سبحانه: ﴿ ٩﴾:

ولم يقل: «المجرمين»، بل عرَّفهم بالاسم الموصول ﴿ ﴾، ثم بالفعل الماضي ﴿ ﴾، فبيَّن أن فعلهم- وهو الإجرام- أمر مضى، فالله تعالى يذكر هؤلاء المجرمين يوم القيامة بصفتهم التي كانوا عليها في الدنيا، ولذلك قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات مما يوبِّخ الله تعالى به المجرمين يوم القيامة.

وسواء كان ذلك توبيخًا لهم، أو تقييدًا لما عملوه في الدنيا، فالأمر يتعلق بذكر معنًى مهم وواقع، وهو أنهم أجرموا، ومن أعظم إجرامهم كفرهم بالله عز وجل.

---

(1) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (1522)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (34091)، و«الزهد» لهناد (65، 66)، و«تفسير الطبري» (24/ 221)، و«صفة الجنة» لأبي نعيم (306)، و«البعث والنشور» للبيهقي (327)، و«المختارة» (10/ 300) (320)، و«الدر المنثور» (15/ 310).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (31/ 93)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 613)، و«التفسير المنير» للزحيلي (30/ 130).

(3) ينظر: «المخصص» (4/ 240)، و«شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (3/ 22)، و«تاج العروس» (40/ 403).

وعند ما تجد في القرآن ذكر الإجرام والكفر، وبمقابل ذلك الإيمان، لا تجد أن شيئًا من ذلك مقرونًا باسم قبيلة أو بلد أو شخص، فالعبرة بفعل الإنسان، لا بما كان عليه الآباء والأجداد.

كُنِ ابنَ مَن شِئتَ واكتَسِبْ أَدَبًا *** يُغنيكَ مَحمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ

فلَيسَ يُغني الحَسيبَ نِسبَتُهُ *** بلا لِسانٍ لَه ولا أَدَبِ

إِنَّ الفَتى مَن يَقولُ: ها أَنا ذا *** لَيسَ الفَتى مَن يقول: كانَ أَبي[1]

ويُنسب إلى علي رضي الله عنه[2]:

لَعَمرُكَ ما الإِنسانُ إِلَّا بِدينِهِ *** فَلا تَترُكِ التقوى اتِّكالًا على النَّسَبْ

فقد رَفَعَ الإسلامُ سَلمانَ فارِسٍ *** وقد وَضَعَ الشِّركُ الشَّريفَ أبا لَهَب

﴿□□□□□﴾: إشارة إلى الأكابر من قريش، كأبي جهل وأبي لهب وعُتبة وشَيبة ابني رَبِيعة والنضر بن الحارث وغيرهم من صناديد الكفر الذين كانوا يضحكون من المؤمنين، ويسخرون منهم في نواديهم.

وهم لم يكونوا يفعلون ذلك في الجاهلية قبل الإسلام، والله أعلم، لكن لما بُعِث الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلموا معه صاروا يسخرون منهم، وهذا غاية التطفيف، والتغاضي عما لديهم من الصدق وحسن النية والإخلاص.

وقد ذكر الله تعالى مثل ذلك عن الأنبياء السابقين مع قومهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ﴾ [الأنعام: 10]، وقوله: ﴿﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ [الزخرف: 7].

---

(1) ينظر: «معجم الأدباء» (6/ 2716)، و«الوافي بالوفيات» (26/ 41)، و«بغية الوعاة» (2/ 300)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص16).

(2) ينظر: «مفيد العلوم» (ص378)، و«تاريخ دمشق» (67/ 137)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص12).

وهذه الآية درس في التربية والأدب، فأسلوب الضحك من الآخرين أسلوب ممجوج، لا يصدر من سويٍّ حسن الخلق؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: 11]، والمرء قد يضحك من إنسان من أجل لونه، أو شكله، أو خلقته، أو طريقة كلامه، وهو خير منه عند الله، وهو فعل الذين أجرموا، وهذا غاية التنفير للمؤمن من الوقوع فيه.

❁ ﴿□□□□فِيهَا﴾:

هذا الوصف الثاني للمجرمين، فالاستهزاء لم يقع مرة أو مرتين، بل صار خُلُقًا لصيقًا بهم.

والضمير في قوله: ﴿□ □﴾ محتَمل، فيجوز أن يكون المشركون جالسين فيمرُّ المؤمنون بهم، فيتغامزون عند رؤيتهم، أو العكس، وهو أن يكون المؤمنون قعودًا، فإذا مرَّ المشركون نظروا إليهم فغمزوهم، وسخروا منهم.

وإبهام الضمير يشمل الحالتين معًا[1].

والفعل: ﴿□﴾ مشترك يدلُّ على أنه ليس فِعْلَ فرد، وإنما هو فعل جماعة يتنافسون فيه ويتسابقون إليه.

ومِن معاني التغامز: اللمس بطرف اليد أو الرِّجل، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «فإذا سجدَ غَمَزَني فقبضْتُ رِجلي»[2]. فيمكن أن يغمز بعضهم بعضًا، وكأنه ينبهه على المشهد الذي لا ينبغي أن يفوت.

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 454)، و«تفسير الثعلبي» (5/ 566)، و«روح المعاني» (15/ 284)، و«التحرير والتنوير» (30/ 211).

(2) أخرجه البخاري (382)، ومسلم (512).

وقد يقلِّد حركة الشخص على سبيل التنقُّص والسخرية، وهذا نوع من السَّفَه الذي لا يمتُّ إلى القيم والأخلاق بصلة، ولا يُحِقُّ حقًّا، ولا يبطل باطلًا، وغاية ما يدلُّ عليه أن الذي تصدر منه هذه الحركات سيئ الخلق، فاسد المزاج، خفيف العقل معتلِّ الشخصية.

ذلك أنهم يعيشون في مجتمع واحد، وكأنهم قد خاضوا غمار البحر في سفينة تُقِلُّهم جميعًا، فمن العقل والمروءة أن يكون بينهم قَدْر من العلاقات المشتركة الإنسانية التي تضمن التعايش والتعاشر بالحسنى، لكنهم أطاحوا بكل هذه المعاني، وصاروا ﴿□□□□ ٩ □□□فِيهَا﴾.

ولهذا نهى الله تعالى عن الغمز واللَّمز والهمز، وتوعَّد فاعله، كما في قوله: ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ﴾ [الهمزة: 1].

* ﴿□□□□□□ ١١﴾:

وهذا الوصف الثالث للمجرمين.

والانقلاب: معناه الرجوع إلى معتاد يذهب إليه الإنسان[1].

ولم يقل: «إلى بيوتهم» وإنما قال: ﴿□ □﴾؛ لأن هؤلاء القوم يُشْرِكون أزواجهم وأطفالهم في السخرية، فهي ليست موقفًا عابرًا، بل أصبحت جزءًا من طبيعتهم وأخلاقهم، فيُشْرِكون أزواجهم وأهلهم معهم فيها وقت الراحة والأنس والجمام!

وتكرار الفعل في قوله: ﴿□□□□□□﴾، يعطي صورة من أجمل الصور البلاغية، وكأن السياق يُشعِر بأنهم لا ينقلبون إلى أهلهم إلا وينقلبون فَكِهين، فهم دائمًا يرجعون بهذه الصفة، ولا يُكرَّر الفعل إلا لمثل هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (10/ 364)، و«روح المعاني» (6/ 5)، و«التحرير والتنوير» (30/ 223).

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا﴾ [القصص: 63]، فالتكرار جاء لإنشاء معنًى جديد، وهو ذِكْر ارتباط الانقلاب بهذه الصفة.

والجمهور يقرؤونها: ﴿□﴾ مقصورة، وقرأها عاصم، وغيره: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بالمد[1]، والفرَّاء يذهب إلى التفريق بين الفعلين، **والأقرب** أن معناهما واحد[2].

ومن معاني ﴿□﴾: أنهم ينقلبون متنعِّمين إلى بيوتهم، حيث المآكل والمشارب، والمطاعم والخيرات، ويشعرون بالتنعُّم والفرحة والسعادة، فالله يسجِّل عليهم النعمة التي أنعم بها عليهم فلم يشكروها ولم يقدِّروها، بل ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28][3].

ومن معانيها: مَرِحين، فهم أهل مرح وسرور ونعيم، فإن الكفار قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، وقد قال الله تعالى عنهم: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: 82][4].

ومن معانيها: ساخرين متندِّرين، **وهذا أقوى المعاني**، أي أن جزءًا من فكاهتهم ونكتهم التي يتداولونها والطرائف التي يذكرونها، هو من المعركة التي يديرونها ضدَّ الحقِّ، فإذا رجع الواحد منهم إلى أهله بدأ يحدِّث أهل بيته وسُمَّاره بما رأى، وما عمل،

---

(1) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص676)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص221)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 354، 399)، و«معجم القراءات» (10/ 352).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 249)، و«إعراب القرآن» للنحاس (4/ 86)، (5/ 114)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 388)، و«حجة القراءات» (ص755)، وما تقدم في «سورة الطور»: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ﴾.

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 126)، و«تفسير الرازي» (31/ 94)، و«فتح القدير» (4/ 658).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 226)، والمصادر السابقة والآتية.

وما قال، وما سمع، على سبيل السخرية، ويُظهر أنه كان منتصرًا وفائزًا ومتفوِّقًا وخفيف الظل حاضر البديهة[1].

* ﴿□□□□□□ٱلۡعَصۡفِ﴾:

هذا هو الوصف الرابع للمجرمين.

فكلما رأوهم أطلقوا عليهم هذا الوصف افتراءً وتضليلًا، ويؤكِّدون الوصف بأدوات التوكيد: «إن»، واسم الإشارة، واللام في قوله: ﴿□□□﴾.

وماذا يريدون بالضَّلال[2]؟

يحتمل أن مقصودهم أنهم قوم ليس لهم علم ولا فهم ولا إدراك، وذلك لأنهم- في نظر المجرمين- يعملون أعمالًا لا معنى لها إلا النَّصَب والجوع والعطش، كالصلاة والصيام، ويتركون الربا مع أرباحه المضاعفة، فهذا في نظرهم ضلال.

أو يكون المقصود: الضلال في الدين، وهذا أعجب وأطرف، حين يصبح أبو جهل وأبو لهب وعتبة وشيبة والنضر حُكَّامًا في تمييز الهدى من الضلال، وقد كان فرعون من قبلهم يقول: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ﴾ [غافر: 29]، ويقول عن موسى: ﴿أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [غافر: 26]، ففرعون يتظاهر لقومه بأنه خائف من الفساد أن يظهر على يد موسى عليه السلام، ويزعم أنه يهديهم سبيل الرشاد والهدى!

والمؤمن يتألَّم مما يُقال فيه من السخرية واللَّمز، ومِن أشد الألم الذي يجده أن يجتهد في دعوة الناس للخير والهدى، ثم يُتَّهَم بأنه يريد الإفساد وإشاعة الفتنة.. إلخ.

---

(1) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (16/ 1498)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (4/ 449)، و«الكشاف» (4/ 724)، و«المحرر الوجيز» (5/ 454)، و«التحرير والتنوير» (30/ 213).

والالتزام بالحق له تَبِعة كبيرة، وأكثر مَن يحسُّ ذلك ويعاني تَبِعاته مَن نشأ في بيئة غير صالحة، حيث السخرية والهمز واللَّمز مِن كل ما يتميَّز به عنهم مِن سيما الصلاح وآثاره.

إن السخرية ممارسة قبيحة وحصار إعلامي وقح، يمارسه الملأ من قريش ضد دعوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ حتى يحولوا بين الناس وقبول الحق، وهذه سنة الله في كل دعوة تستهدف إصلاح أحوال الناس فتُبْتَلى بمَن يحاربونها.

وليس مَن يحاربها الكفار فحسب، بل يقع هذا في المسلمين، إذ تجد التنابز بالألقاب والتصنيف والسخرية والتشكيك ونشر الشائعات والأباطيل في مجتمعات المسلمين، كما تجده في المجتمعات الأخرى.

❊ ﴿□□□□ءَالآءِ﴾:

ولك أن تنظر إلى هذا النسف الهادئ لكل ما قالوه، فإن الله تعالى لم يَرُدَّ عليهم ردودًا طويلة مُفَصَّلة، واكتفى بهذا الرد المفحم، فهو لم يرسلهم على خصومهم حتى يحفظوهم أو يراقبوا أعمالهم.

ولم يقل: «وما أرسلوا لهم، أو إليهم»؛ لأن فعلهم فعل التسلُّط والعلوَّ وكأنهم عذاب مرسل، فالله تعالى يقول: لم نرسلهم على هؤلاء المؤمنين حافظين لأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم.

وهذا توبيخ للمشركين أنهم لم يُكلَّفوا بهذه المهمة، وتصبير للمؤمنين، وهو يومئ إلى أن الحكم والأمر والنهي والتصويب والتخطئة لله سبحانه، فما دام لم يرسلهم حافظين، فلا يهمَّنَّكم ما يقولون، ولا تلتفتوا إليهم.

وفيه تأديب عام لجميع الخلق؛ فإنه لم يُرْسَل أحدٌ حافظًا على أحد، حتى النبي صلى الله عليه وسلم قيل له: ﴿□□□مَلِيكٍ﴾ [الغاشية: 22]، وإنما الحافظون هم الملائكة

الذين يرسِلهم الله إلى الإنسان يحفظون أقواله ويسجِّلون عليه: ﴿وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي﴾ [الأنعام: 61][1].

وعلى الناس أن يلزموا حدودهم، فلا أحد حافظٌ على أحد، إلا بمُقْتضَى مسؤوليته إن كانت، كالأب على أولاده، أو المسؤول في حدود وظيفته.

والمراقبة على تصرفات الناس تنتهي إلى البحث عن الأخطاء والعيوب والزلَّات، وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلُ الذي يجلسُ فيسمعُ الحكمةَ، ثم لا يحدِّثُ عن صاحبِه إلا بشرِّ ما سمعَ، كمَثَلِ رجلٍ أتى راعيًا، فقال: يا راعي، أَجْزِرني شاةً**[2] **من غنمِك. قال: اذهب فخذْ بأُذُنِ خيرِها، فذهب فأخذَ بأُذنِ كلبِ الغنمِ**»[3].

ومثل هذا مَن يحضر موعظة، أو يقرأ كتابًا، أو يسمع برنامجًا، فيجد علمًا وخيرًا، لكنه لا يتذكَّر إلا الزَّلل، فهو كالذي أخذ الكلب، وترك الغنم، وقد كان يسعه أن يأخذ أثمن شاة[4]!

وفي الآية وجوب عناية المرء بنفسه، وأن أولى ما يبدأ به إصلاح عيبه ورعاية سلوكه.

ابدأ بِنَفسِكَ فَانْهَها عَن غَيِّها *** فَإِذا انتَهَتْ عَنهُ فَأَنتَ حَكيمُ[5]

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (9/ 289)، و«زاد المسير» (2/ 38)، وما سيأتي في «سورة الغاشية».

(2) أي: أعطني شاة تصلح للذبح.

(3) أخرجه الطيالسي (2686)، وأحمد (8639، 9260)، وابن ماجه (4172)، والبزار (9581)، وأبو يعلى (6388)، والرامهرمزي في «الأمثال» (57) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (1761).

(4) ينظر: «شكرًا أيها الأعداء» للمؤلِّف.

(5) ينظر: «البيان والتبيين» (1/ 173)، و«عيون الأخبار» (2/ 23)، و«المجالسة» للدينوري (5/ 312) (2185)، و«جامع بيان العلم وفضله» (1188) منسوبًا إلى أبي الأسود الدُّؤَلي وغيره.

ومن دروسها: أن كثيرًا من الناس يُحْسِنون ردَّ الفعل أكثر مما يُحْسِنون المبادرة، ويتفاعلون عند وقوع منكر أكثر مما يتفاعلون عند غياب معروف.

على المؤمن أن ينكر المنكَر، لكن لا ينبغي أن يكون نشاطه وحيويَّته واندفاعه مرهونًا بإثارة أو استفزاز، فإذا ذهب المثير خمد ولم يكن عنده فاعلية، لأن معنى ذلك أن يكون عدوك هو الذي يوجِّه طاقتك أو يُسَكِّنها، ويختار الموضوع والوقت والمكان الذي يستفز طاقتك فيه وإليه، وهو يفضي إلى أن يكون الناس سلبيِّين حتى توجد المثيرات أو المحفِّزات، وربما تفاعلوا معها بطريقة خاطئة تعويضًا عن سلبيتهم.

ومن دروس الآية: أن الله وصف الكفار بأنهم يضحكون ويتغامزون ويتفكَّهون، ولم يذكر عن المؤمنين أنهم قابلوا ذلك بمثله.

إن مقياس القوة ليس الصراخ والضجيج والصخب، وإنما الحجة والصبر، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**ليس الشديدُ بالصُّرَعةِ**[1]**، إنما الشديدُ الذي يملِكُ نفسَه عند الغضبِ**»[2].

فقدرتك على أن تملك نفسك عند الساخرين واللَّامزين هي القوة والكفاءة.

وفي المثل العربي: «أوسعتُهم سبًّا، وأَوْدَوا بالإبل». وذلك أن لصًّا أخذ الإبل، فتبعه الراعي يسبُّه، ويشتم آباءه، فلما أخبر الناس بخبره سألوه: ماذا فعلت؟ فذكر المثل[3]!

وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: 55]، ويقول أبو تمام[1]:

---

(1) **الصُّرَعة**: الذي يَصْرَع الناسَ كثيرًا، **والصُّرْعة**: الذي يَصْرَعه غيرُه كثيرًا.

(2) أخرجه البخاري (6114)، ومسلم (2609) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «الفاخر» للمفضَّل بن سلمة (ص176- 177)، و«جمهرة الأمثال» (1/ 116)، و«مجمع الأمثال» (2/ 363)، و«المستقصى في أمثال العرب» (1/ 431)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (3/ 17).

إذا جارَيتَ في خُلُقٍ دَنِيئًا ❊❊❊ فأنتَ ومَن تُجاريه سَواءُ

فإذا عاملت سفيهًا بالمِثْل، فكأنك نزلت إلى درجته، فأنت تحفظ بالإعراض مكانتَك عند الله وعند نفسك، فهو أرفع في درجاتك يوم القيامة.

وأنت بذلك تجعل المجال مفتوحًا للخير والهدى، ولهذا يقولون: كَسْب الأشخاص أفضل من كَسْب المواقف، ومقام الهداية أولى بالرعاية من مقام النكاية.

مقام الهداية هو تأليف قلوب الناس على الخير، وهو أحب إلى الله وأنفع لعباد الله من النكاية، والغلبة والإيقاع بالخصم.

❊ ﴿□□□□□□□﴾:

ما زال السياق في مشهد القيامة، و﴿□□﴾ في مقابل ﴿□□﴾، وصفهم بالإيمان الذي مضى منهم، وهم قد بلغوا اليوم النعيم المقيم، وهم يضحكون من الكفار، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا يضحكون منهم في الدنيا.

فالمؤمن بقيمه وأخلاقه لا يسخر من الناس، وإنما هو داعٍ وهادٍ، والسخرية ليست من أساليب الدعوة.

وضحك الذين آمنوا من الكفار؛ لأنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقًّا، وأن الكفار لم يجدوا ما منَّتهم به أنفسهم من الأماني الباطلة، ولم يجدوا لوعود الشيطان حقيقة، فحُقَّ للمؤمنين أن يضحكوا منهم كما ضحك منهم الكفار في الدنيا؛ زيادة في عذابهم، ﴿١٦ □ ٦﴾[2].

---

(1) ينظر: «ديوان أبي تمام» (ص485).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 228)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 157)، و«زاد المسير» (4/ 418)، و«تفسير القرطبي» (19/ 268)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 266)، و«التحرير والتنوير» (30/ 214).

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾:

و﴿٥١﴾ جمع: أَرِيكة، وهي: السُّرُر المحجَّلة[1]، وهي مقابل ما كان عليه الكفار من التفكّه والنَّعيم، فالمؤمنون اليوم هم الفَكِهون مع أزواجهم: ﴿أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ﴾ [يس: 56].

والمجالس والمتكآت المعدَّة لهم من أجمل ما يكون، مما لا يخطر على بال بشرٍ، فهم في هذا النعيم ينظرون.

وقد أطلق النظر هنا، فهم ينظرون إلى وجه الله الكريم، وينظرون إلى النَّعيم في الجنة والمُلْك، وينظر بعضهم إلى بعض لما فيه من المتعة والسرور والأنس: ﴿□□□□□ □□□□□□□□□□□﴾ [الزمر: 74].

والتعبير بالمضارع: ﴿إِلَّا﴾ يدل على الاستمرار، فنظر الذين آمنوا في الجنة دائم، إذ ليس يغشاهم موت ولا فوت ولا غفلة ولا نوم.

* **ومن معاني الآية:** أنهم ينظرون إلى ما جُوزي به الكفار، ولهذا ربما يكون تكرار الآية ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾؛ لقرنها بقوله سبحانه: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ ١٥﴾؛ أي: يشاهدون ذلك، وهم يعلمون يقينًا أنْ قد ثُوِّب الكفار، ولكن يراه عيانًا بعد ما آمنوا به في قلوبهم.

وهنا قال: ﴿بِٱلۡبَصَرِ﴾، والثواب غالبًا ما يُطلَق في القرآن الكريم على الثواب الحسن، وهو الجنة، وعلى النَّعيم والرضوان؛ وقد يكون إطلاقه هنا من باب المعنى اللُّغوي العام[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (15/ 255)، (24/ 328)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 156)، (8/ 352)، وما تقدم في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

أو يكون قوله: ﴿كَلَمۡحِ بِٱلۡبَصَرِ﴾ من باب السخرية؛ لأنه تقدم ذكر سخريتهم بالمؤمنين.

وقوله: ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ دليل على أن هذا الأمر كان منهم عادةً وخُلُقًا، جرى منهم مجرى السجيَّة النفسيَّة، وفيه إشارة إلى أهمية أن يتخلَّق الإنسان بالخُلُق الفاضل؛ حتى يكون سجيَّة له وطَبْعًا، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للأشجِّ؛ أشجِّ عبد القيس: «**إن فيك خَصلتين يحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ**»[2]. وقال في رواية: يا رسولَ الله، أنا أتخلَّق بهما، أم اللهُ جَبَلَني عليهما. قال: «**بل اللهُ جَبَلَك عليهما**». قال: الحمدُ لله الذي جَبَلَني على خَلَّتين يحبُّهما اللهُ ورسولُه[3].

فهي أخلاق جِبِلِّية، لكنها تحتاج إلى ترشيد وتحصيل وتثبيت، وقد تكون مفقودة، فيحتاج المرء إلى أن يتعلَّمها، ومن ذلك أن يتعلَّم الصبر إذا وجد مَن يستهزئ به أو يسبُّه، فلا يقابل السيئة بالسيئة، بل يعفو ويصفح، كما علَّم اللهُ المؤمنين وربَّاهم على مصانعة شياطين الإنس في ثلاث مواضع في كتابه، منها: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: 35]، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 329)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 301)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 110)، و«تفسير القرطبي» (19/ 268)، و«التحرير والتنوير» (30/ 216).

(2) أخرجه مسلم (17، 18) من حديث ابن عباس وأبي سعيد رضي الله عنهما، وأصله في «صحيح البخاري» (53).

(3) أخرجه أبو داود (5225) من حديث زارع العبدي رضي الله عنه.

سورة الانشقاق

*** تسمية السورة:**

الذي في غالب كتب التفسير، وعلوم القرآن، وكتب الحديث، كالبخاري والترمذي وغيرهما: «**سورة ﴿مِن مُّدَّكِرٖ ٥١﴾**»[1].

وفي «الصحيح» عن أبي رافع قال: صلَّيت مع أبي هريرة رضي الله عنه صلاةَ العَتَمَةِ، فقرأ: ﴿مِن مُّدَّكِرٖ ٥١﴾، فسجد فيها، فقلتُ له: ما هذه السجدةُ؟ فقال: «سجدتُ بها خلف أبي القاسم صلى الله عليه وسلم، فلا أزالُ أسجدُ بها حتى ألقاه»[2].

وشهرتها: «**سورة الانشقاق**»، كما في «سنن النسائي»، وبعض التفاسير[3]، وهو مصدر، كما سلف.

وتسمَّى: «**سورة ﴿ ﴾**»، كما في بعض الكتب اختصارًا[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص714)، و«معاني القراء» للفراء (3/ 249)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 407)، و«صحيح البخاري» (6/ 167)، و«جامع الترمذي» (5/ 293)، و«المصاحف» لابن أبي داود (ص268)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 111)، و«التحرير والتنوير» (30/ 217).

(2) أخرجه البخاري (1078)، ومسلم (578).

(3) ينظر: «سنن النسائي الكبرى» (10/ 328)، و«تفسير الطبري» (24/ 230)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 158)، و«الكشاف» (4/ 725)، و«المحرر الوجيز» (5/ 456)، و«تفسير القرطبي» (19/ 269)، و«روح المعاني» (15/ 286)، و«التحرير والتنوير» (30/ 217).

(4) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 201)، (2/ 555)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 508)، و«روح المعاني» (15/ 286)، و«التحرير والتنوير» (30/ 217).

وسمّاها بعضهم: «**سورة الكَدْح**»[1]؛ لقوله تعالى فيها: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ ﴿١٤﴾﴾.

* **عدد آياتها:** خمس وعشرون آية عند الجمهور، **وقيل**: ثلاث وعشرون آية، وجمعوا قوله: ﴿ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ مِن﴾، وقوله: ﴿ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿١٥﴾﴾ على أن أنهما آية واحدة، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا ﴾، وقوله: ﴿فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ على أنهما آية واحدة[2].

* **وهي مكية** باتفاق علماء التفسير[3].

* ﴿مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ﴿١١﴾﴾:

بدئت السورة بأداة الشرط: ﴿مِن﴾، وهي أداة ظرف للمستقبل، كما تقدم في «سورة التكوير»، و«سورة الانفطار».

وما ورد في السورة جاء في مواضع أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿﴾ [الرحمن: 37].

والانشقاق، والانفطار معناهما واحد[4].

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 186).

(2) ينظر: «البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص268)، و«روح المعاني» (15/ 286)، و«التحرير والتنوير» (30/ 217).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 303)، و«المحرر الوجيز» (5/ 456)، و«زاد المسير» (4/ 419)، و«تفسير القرطبي» (19/ 269)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 341)، و«روح المعاني» (15/ 286)، و«التحرير والتنوير» (30/ 217).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 174)، و«معاني القرآن» للزجاج (2/ 323)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 103)، و«التحرير والتنوير» (30/ 218).

وفي السورة طرف مما في السورتين قبلها: «التكوير»، و«الانفطار»، مع ربطه بإذن الله وإرادته، والسياق مشعر بانتقال هائل من حال إلى حال، مُؤْذِن بتغيُّر واختلاف، وفي نهاية السورة تعريج عليه وتوكيد له بقَسَم آخر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿٥٣﴾﴾، يعني: حالًا بعد حال[1]. فهذا نوع من التغير.

* ﴿شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلْعَصْفِ﴾:

﴿شَىْءٍ﴾ أي: استمعت، يُقال: أَذِنَ له، أي: استمع[2].

ولعله تعريض بالبشر الغافلين الذين لا يسمعون كلام الله وأمره بطوعهم واختيارهم!

وهو أبلغ من قوله: «سمعت»، أو: «استمعت»، وبين «سمع»، و«استمع» فرق، فـ«سمع»: لما يسمعه الإنسان، حتى لو كان بغير قصد، و«استمع»: إذا كان قصد الإنصات، و«أَذِنَ» أبلغ منهما، وفي الحديث: «**ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنَّى بالقرآن، يجهرُ به**»[3]. أي: استمع لنبيٍّ، قال الشاعر[4]:

صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكِرْتُ به *** وإن ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

أي: أَصْغَوْا.

---

(1) ينظر ما سيأتي في قوله تعالى: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿٥٣﴾﴾.

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 303)، و«تفسير الماوردي» (6/ 233)، و«تفسير السمعاني» (6/ 186)، و«زاد المسير» (4/ 419)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 59)، و«التحرير والتنوير» (30/ 218)، والمصادر الآتية.

(3) أخرجه البخاري (5023)، ومسلم (792) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) ينظر: «عيون الأخبار» (3/ 96)، و«أمالي القالي» (1/ 122)، و«الصداقة والصديق» (ص220) منسوبًا إلى قَعْنب بن أم صاحب.

وكأن معترضًا قال: السماء جماد، لا يعي ولا يحس، فكيف يستمع ويَصْغِي؟

فكان الجواب في قوله سبحانه: ﴿فِي﴾ يعني: وحُقَّ لها أن تأذن[1]؛ لأن الذي يخاطبها ويأمرها ربها الذي ركَّب طبيعتها وهو على تغييرها قدير.

وانشقاقها ليس اختياريًّا، بل هو أمر كوني مِن عند ربها، وكما وُجِدَت بأمر الله، وتكوَّنت بإذنه، وكانت صفتها وكينونتها بإرادته؛ فهكذا ما يطرأ عليها يوم القيامة، هو بأمره وإذنه وإرادته سبحانه.

* ﴿٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ فَبِأَيِّ﴾:

المدُّ- كما قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما-: أن الله تعالى يبسطها يوم القيامة بسط الأَدِيم[2]، وهو الجلد، وكأن الأرض تُبسَط بسطًا، وتتحول من شكلها الكروي، لتكون مسطَّحة ممتدَّة.

ويحتمل أن المقصود: أن ما في الأرض من مرتفعات ومنخفضات تكون على مستوى واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: 105- 107]، بحيث تكون مستوية تمامًا؛ لتستوعب الناس كلهم.

وللآية احتمال ثالث، وهو التوسعة والبسط، وهو معنًى لُغويٌّ صحيح وجيه؛ فإن الله احتجَّ عليهم بأنه ينقص الأرض من أطرافها، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: 41]، فلا يمنع أن يكون من الآيات العظيمة في ذلك

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص714)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 407)، و«تفسير الطبري» (24/ 230- 231)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 303)، و«المحرر الوجيز» (3/ 52)، و«تفسير القرطبي» (19/ 269)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 355- 356).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 384)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 471)، و«تفسير القرطبي» (19/ 270)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 356)، و«روح المعاني» (15/ 287).

الموقف أن تُمَدَّ الأرض وتتسع أكثر مما كانت عليه؛ حتى تتسع للخلائق الذين يُحشَرون عليها[1].

* ﴿مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ تُكَذِّبَانِ﴾:

ألقت ما كان في بطنها، كقوله سبحانه: ﴿وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي﴾ [الزلزلة: 2]، فأخرجت ما فيها من الموتى الذين كانوا في بطنها؛ ليكونوا على ظاهرها، أحياء بعدما نُفخت فيهم الأرواح[2].

ويُحتمَل أنها ألقت ما فيها من الكنوز والخزائن والمدفونات[3].

وهذا وإن كان معنًى صحيحًا، إلا أنه ليس مناسبًا لهذا الموقف؛ لأن الأرض قبل قيام الساعة تُخْرِج كنوزها وخيراتها[4]، فيكون المقصود هنا بإلقاء ما فيها: إخراج الناس، خصوصًا وأن مدار الكلام على الإنسان، فهو محطُّ التكليف والعناية، كما سوف يأتي هنا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [الانشقاق: 6].

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾: والتخلِّي من الخلوِّ، **وكأن المعنى**: «خَلَتْ»، لكن إضافة التاء مع التشديد توحي بالمبالغة في التخلص من كل ما في بطنها، وأنه لم يبقَ في جوفها شيء ألبتة[5].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 220).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص714)، و«تفسير الطبري» (24/ 223)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 303)، و«الكشاف» (4/ 726)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 460)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 409)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 158)، و«تفسير السمعاني» (6/ 187)، والمصادر السابقة.

(4) كما في «صحيح مسلم» (1013) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدها...**».

(5) ينظر ما سيأتي في «سورة الزلزلة»: ﴿وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي ٱلْعَصْفِ﴾.

وربما كان ذلك لأنه حتى الجمادات في ذلك الموقف يكون فيها شيء من الوَجَل، تريد أن تتخلَّى مِن كل شيء حتى لا يُسائِلها أحد ولا يطالِبُها بتبعة.

ولذلك يتمنَّى الكافر أن يكون جزءًا من هذه الأرض التي ألقت ما فيها وتخلَّت، ويتمنَّى أن يكون ترابًا[1].

* ﴿جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

تكرار في موضعه؛ لأنه ذكر السماء، فذكر استماعها لربها، ثم ذكر الأرض، وذكر استماعها لربها، وذلك في نهاية الأمر، كما حدث في بداية الخلق حين قال سبحانه: ﴿ ﴾ [فصلت: 11]. فهو تفصيل مناسب في موضعه، جاء في أعلى درجات البلاغة والتأثير.

فهذه السماء، وهذه الأرض، وهما محيطان بالإنسان قد أذنتا لربهما وجاءتا طائعتين وكأنهما من العقلاء، ولذلك عاملهما لغويًّا كذلك، فعبَّر بـ﴿ ﴾، وهو جمع الذكور السالم العاقل، فما بالك بالإنسان المزوَّد بآلة السمع، والمميَّز بالفهم والعقل، وهو يصد ويعرض ويتغافل!

* ولذا جاء الخطاب مباشرة: ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ ۝١٤﴾:

وهذا خطاب لفرد، ولذلك قال بعض المفسرين: إن المقصود به: رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال آخرون: المقصود أشخاص بأعيانهم من الكفار، كأبي جهل أو أُبي بن خلف، **والأقرب** أن المقصود جنس الإنسان أيًّا كان.

(1) كما في قوله تعالى في «سورة النبأ»: ﴿وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ﴾.

وليس فيه تخصيص أحد عن أحد، ولذا ذكر اختلاف مصيرهم بين نعيم وعذاب، مما يؤكِّد أن المقصود الجنس، أيًّا كان طريقه ومذهبه، من مؤمن وكافر وبر وفاجر[1].

وخطابه تعالى للفرد دليل على شرف الإنسانية وتميزها، وها قد تخلَّت الأرض، فلم يعد عليها حساب، ولم يوجَّه إليها سؤال ولا عتاب، بخلاف الإنسان الذي حمَّله ربُّه التكليف، وجعله أهلًا لذلك، فهو سيد الأرض.

فالحرية تقابلها مسؤولية: ﴿□□□□□□□﴾ [الإنسان: 3]، فمن شرف الإنسان أن يكون عاقلًا مسؤولًا محاسبًا، وإذا أخفق كان الوبال عليه عظيمًا؛ وأصبح بمنزلة أحطَّ مِن المخلوقات المُسَيَّرة التي ليس لها اختيار، كالأرض التي يطؤها والكون الذي سُخِّر له.

ومن الأهمية بمكان الحفاظ على هذه الإنسانية، ولذا جاء الإسلام بحفظ حقوق الناس، حتى قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في خطبته الشهيرة في حَجَّة الوداع: «**فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم بينكم حرامٌ، كحرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا**»[2].

فوظَّف المقدَّس الزماني والمكاني الذي يرعى الناس حرمته؛ للتأكيد على أهمية حفظ الحقوق الذاتية والمالية والمعنوية والضرورات التي بها قوام الحياة.

واليوم تبدو حقوق الإنسان وكأنها مُنْتَج غربي، حتى إنَّ من المسلمين مَن يسمع كلمة حقوق، أو كرامة، أو حرية، فيحسُّ أنها ألفاظ مجلوبة من أمم أخرى، متناسيًا ترسيخ الإسلام لهذه الحقوق العظيمة في النصوص القطعية.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 235)، و«المحرر الوجيز» (5/ 456)، و«تفسير الرازي» (31/ 97)، و«تفسير القرطبي» (19/ 271)، و«روح المعاني» (15/ 288).

(2) أخرجه البخاري (67)، ومسلم (1679) من حديث أبي بَكْرة رضي الله عنه.

إن مخاطبة الإنسان بإنسانيته دليل على أن دين الله لم ينزل للإطاحة بإنسانيته أو دوس كرامته أو جرِّ ناصيته، ولكن جاء ليحفظه بالتقوى والشريعة وطاعة الله ورسوله؛ ولذلك جاءت الشرائع والحدود والعقوبات الرادعة للمتجاوزين، كما قال سبحانه: ﴿﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ [المائدة: 45]، وقال عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي﴾ [المائدة: 32].

والذين يربطون الاستجابة لدين الله بإهدار كرامة المدعو أو إذلاله، يعانون مشكلة عويصة في فهمهم لدين الله، ويعجزون عن التمييز بين الدين المنزَّه العظيم، وبين أمزجتهم ومشاعرهم وعصبياتهم النفسية والجماعية التي لم يفلحوا في الخلاص منها.

وفي شأن المعصية يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إذا زَنَتِ أَمَةُ أحدِكم فتبيَّن زناها، فليجلدْها الحدَّ، ولا يثرِّبْ[1] عليها**»[2].

ليس من حقه أن يعيِّرها أو يشتمها أو يهينها استجابة لدافع نفسي مريض، ولكن عليه أن يقيم عليها حد الله دون مواربة.

وفي حديث شَدَّاد بن أَوس رضي الله عنه مرفوعًا: «**إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحَ، وليُحِدَّ أحدُكم شفرتَه، وَلْيُرِحْ ذبيحتَه**»[3].

---

(1) التثريب: التوبيخ واللَّوم على الذنب.

(2) أخرجه البخاري (2234)، ومسلم (1703) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه أحمد (17113)، ومسلم (1955).

والقتل هنا يراد به حين يكون مشروعًا للقصاص أو غيره، والذَّبح يكون لحيوان، ولا يجوز التمثيل بجثة القتيل، ولو كان قتله مشروعًا.

﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ﴾: **الكَدْح**: السعي والتعب[1]؛ فالإنسان ساعٍ إلى ربِّه، ساع في آخرته وإصلاحها والاستعداد لها، وساع في دنياه بنجاحاتها وفرصها، والكدح إلى الله يشمل الاثنين معًا، ويشمل المؤمن والكافر؛ ولذا قال بعده: ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾.. ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾. وقوله: ﴿مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ أي: ماض إلى الآخرة ولقاء الله، وكل يوم يدنيك منها، سواء كنت يقظًا مؤمنًا، أو غافلًا، أو منكرًا.

وفي حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا: «**كلُّ الناس يغدُو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو موبقُها**»[2]. فإعتاقها بالطاعة، وإيباقها بالمعصية.

ولو تأمَّلت قدرة الإنسان وإمكانيَّاته، لوجدتَها محدودة متواضعة، لكن الله جعل فيها أسرارًا وإعجازًا، ونوَّرها بالعقل الذي يفكِّر ويحفظ التجارب ويبني عليها حتى يحقِّق له تسخير الكون وبناء الحضارات: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□﴾ [النحل: 78].

لقد أصبح الإنسان اليوم يطير في الفضاء، ويغوص في الماء، ويقرِّب المسافات، ويوظِّف ألوان الخبرات والإمكانيَّات للتسهيل والترفيه، والسعادة والراحة، والعلاج والتواصل...

والتعب والعمل جزء من الفطرة وسنة الحياة، وبقَدْر ما تكون الحياة صعبة يتحقَّق معها النجاح والتوفيق، ولو ترك الإنسان العمل؛ لكان عليه من الهموم

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 235)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 303)، و«تفسير الماوردي» (6/ 235)، و«تفسير القرطبي» (19/ 271).

(2) أخرجه مسلم (223).

والغموم الشيء العظيم، وبقَدْر ما يشعُر بالتعب والمرارة في العمل يشعُر بالسعادة والرضا عن الإنجاز ولو كان يسيرًا.

ولذا قال تعالى لمريم عليها السلام: ﴿□□□□□□□□﴾ [مريم: 25]، هي نخلة ثابتة، ومريم امرأة ضعيفة القوى وفي حالة طَلْق، وحال نفسية أليمة، ومع ذلك يأمرها سبحانه أن تهزَّ بجذع النخلة، ويَعِدُها أنها إذا فعلت فسوف تساقط عليها النخلة رطبًا جنيًّا، فعلى الإنسان السعي، ومن الله تعالى التوفيق والنجاح.

كم يكون طعم الرُّطب لذيذًا حين يشعر الإنسان أنه أخذه بنفسه أو شارك في زراعته أو قطافه**!**

و﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ﴾ مصدر يُقْصَد به التوكيد.

وقوله: ﴿١﴾ يحتمل أمرين:

أن يكون مرجع الضمير إلى ﴿٥٥﴾ أي: إنك كادح إلى ربك فملاقٍ ربك، والخطاب عام للمؤمن والكافر، فكلهم ملاقو ربهم جل وعز، كما قال سبحانه: ﴿□□ □ □ □ □ □□ □ □ □ □﴾ [العنكبوت: 5]، واللقاء هنا معناه: البعث، وهذا أحد استخدامات لفظ اللقاء والملاقاة.

وثَمَّ معنى آخر، وهو رؤيته يوم القيامة، وهذا خاص بالمؤمنين.

وعليه فالمقصود هنا: فملاقيه، أي: اللقاء العام الذي يشترك فيه الناس جميعًا.

ويجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿١﴾ إلى الكَدْح، فالعمل الذي عملته وكدحت فيه سوف تجده في الدار الآخرة، والفاء تدل على التعقيب المباشر، فبمجرد

ما يلفظ الإنسان آخر نفس من أنفاسه ينتقل إلى مرحلة اللقاء، وينتقل من طَبَقٍ إلى طَبَقٍ، ومن حال إلى حال[1].

وفيه إشارة إلى أن الإنسان يلقى جزاء عمله الدنيوي ولا يبخس شيئًا، كما ورد في العديد من النصوص القرآنية والنبوية، أن الله لا يظلم الكافر شيئًا، وأنه يُجازى بثواب ما عمل في الدنيا، من العافية والرزق والسمعة الحسنة وغير ذلك من عاجل الجزاء[2].

* ﴿ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ مِن﴾:

أمَّا: للتقسيم، **والكتاب** هو: ما تُدَوَّن فيه أعمال الإنسان، لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة.

مع أن الذي يحاسب هو الله تعالى، لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، ومِن كمال عدله أن جعل لكل إنسان كتابًا يشهد بأعماله ويحصيها عليه[3].

واليمين: اليد اليمنى، وهم المؤمنون أصحاب اليمين أهل الجنة.

* ﴿ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿١٥﴾﴾:

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 304)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 561)، و«الكشاف» (4/ 726)، و«زاد المسير» (4/ 420)، و«تفسير الرازي» (31/ 98)، و«تفسير القرطبي» (19/ 271)، و«فتح القدير» (5/ 493)، و«روح المعاني» (15/ 288)، و«التحرير والتنوير» (30/ 222).

(2) كما في «صحيح مسلم» (2808) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**إن اللهَ لا يظلم مؤمنًا حسنةً، يُعطَى بها في الدنيا ويُجزَى بها في الآخرة، وأما الكافرُ فيُطْعَمُ بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنةٌ يُجْزَى بها**».

(3) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿□□□□ ﴿٩﴾﴾، و«سورة المطففين»: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.

وهو العَرْض، كما في «الصحيح» من حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لها: «**مَن حُوسِب يومَ القيامةِ عُذِّب**». فقالت له: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾؟ فقال: «**ليس ذاك الحسابُ، إنما ذاك العَرْضُ، مَن نُوقِش الحسابَ يومَ القيامةِ عُذِّب**»[1].

والعَرْض: أن تُعْرَض عليه ذنوبه، وفي الحديث: «**يدنو أحدُكم من ربِّه، حتى يضعَ كَنَفَه**[2] **عليه، فيقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم. ويقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم. فيقرِّره، ثم يقول: إني سترتُ عليك في الدنيا، فأنا أغفرُها لك اليومَ**»[3].

* ﴿۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ رَبِّكُمَا﴾:

الانقلاب: الرجوع[4]، قال الله: ﴿بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا﴾ [الفتح: 12]، وهذا يوحي بأن العَرْض يكون في زمن يسير، ليس فيه إبطاء ولا تأخير.

والمقصود بالأهل: أهله الذين معه في الجنة[5]، سواءً كانوا هم أهله في الدنيا، أو غيرهم، يرجع إليهم مسرورًا سرورًا لا انقطاع له ولا حِوَل عنه.

وهذا في مقابل الكَدْح في الدنيا الذي كان يصحبه- ولا بد- تعب وعناء وألم وكمد وضيق ونكد.

---

(1) أخرجه البخاري (6536)، ومسلم (2876).

(2) أي: سِتْره.

(3) أخرجه البخاري (6070)، ومسلم (2768) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (10/ 364)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص681).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 239)، و«تفسير البغوي» (5/ 229)، و«الكشاف» (4/ 726)، و«تفسير القرطبي» (19/ 272)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 357)، و«روح المعاني» (15/ 289).

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا ﴾:

وفي «سورة الحاقة»: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ ﴾ [الحاقة: 25]، ولا تَعارُض بين الآيتين، فالمقصود: أن تُشَدَّ يده إلى ظهره، ثم يُؤتَى كتابَه بيده الشمال وهي وراء ظهره، كما أن يده اليمين مغلولة إلى عنقه.

ويحتمل أن الكافر يأتيه كتابه من وراء ظهره، فيأخذه بشماله من خلفه[1].

* ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ ﴾:

أي: ينادي بالثُّبور، وجرت العادة أن الإنسان إذا نزلت به مصيبة يقول: يا ويلاه! واثبوراه! **والثُّبور**: الهلاك الأكيد الطويل[2].

* ﴿ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾:

أي: يدخل عذاب السَّعير، ومثل هذا قوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ [إبراهيم: 29]، ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ [الليل: 15]، ﴿﴾ [الحاقة: 31]، ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ [مريم: 70]، **فالصَّلْي** أبلغ في الوصف وأشد في النَّكال[3].

فالسَّعير تستوعبه مِن فوقه ومِن تحته، وعن يمينه وعن شماله، ومن أمامه ومن ورائه، فهو يقاسي حرَّها وعذابها.

* ﴿تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا ﴾:

---

(1) وتقدم في «سورة الحاقة» مزيد بيان.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (17/ 411)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص171)، و«الكشاف» (4/ 726)، و«تفسير القرطبي» (10/ 338)، و«روح المعاني» (15/ 289).

(3) ينظر ما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾، و«سورة المطففين»: ﴿تَطۡغَوۡاْ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ ٥٠﴾.

فقد كان مسرورًا في الدنيا بالسخرية بالمؤمنين والاستهزاء بهم، والسياق له صلة بسخرية المشركين بالمؤمنين بمكة، وكانوا إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهِين مسرورين.

وقد يكون مسرورًا بالدنيا وزينتها، وفي هذا دلالة على أن الله يمنح الكفار من لذَّات الحياة الدنيا برحمته وفضله، كما جاء في الحديث: «**إنَّ اللهَ** عز وجل **يُعطي الدنيا مَن يحبُّ ومَن لا يحبُّ، ولا يعطي الدينَ إلا لَمَن أحبَّ**»[1].

وحين دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، أجابه ربُّنا سبحانه فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 126]، فحتى الكافر يرزقه الله مِن فضله، وهو يكفر به، ويعبد غيره؛ ولذلك تجد عند الكافرين شيئًا من السعادة العاجلة والاستمتاع بالأموال والأحوال والأولاد والطبيعة، لكن تظل الروح في عطش وقلق وكآبة، لا يكتمل معها سرور ولا يطول معها حُبور.

* ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ﴾:

﴿فِيهَا﴾: أيقن، أو شك[1]، **والحَوْر**: الرجوع[2]. حار يعني: رجع، وفي الحديث: «**ومَن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدوُّ الله. وليس كذلك؛ إلا حارَ عليه**»[3]. يعني: رجع عليه، فهذا من معاني الحَوْر.

---

(1) أخرجه أحمد (3672)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (209)، والبزار (2026)، والحاكم (1/ 33)، (2/ 447)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (4/ 166)، (5/ 35)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (5136) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

وأخرجه موقوفًا: ابن أبي شيبة (34545، 34578)، وأبو نعيم (4/ 165)، واللَّالَكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (1697). **ورجَّحه** العقيلي، والدارقطني، وغيرهما. ينظر: «التاريخ الكبير» (4/ 313)، و«ضعفاء العقيلي» (3/ 228)، و«علل الدارقطني» (5/ 269)، و«السلسلة الصحيحة» (2714).

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سافر يستعيذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر[4]، يعني: النقص بعد الكمال، والضلال بعد الهدى، والكفر بعد الإيمان[5].

والمعنى يحتمل:

1- أنه لن يُبعَث بعد الموت.

2- على فرض البعث بعد الموت، فسوف يكون على خير ولن يُعَذَّب، كما قال الله عن صاحب الجنة: ﴿﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: 36]، فيظن أنه لن يتغير وضعه حتى ولو بُعث.

3- ظن أنه في ازدياد دائم ونمو متواصل، ولن يعتريه نقص، مع أن النقص سنة الله لَمَن وصل إلى التمام، كما قيل[6]:

إذا تمَّ شيءٌ بدا نقصُهُ *** ترقَّب زوالًا إذا قيل: تمْ!

وإذا بدأ النقص فهو كالمُسْرِع النازل من قمة جبل سرعان ما يجد نفسه في قرارة الوادي.

4- التغيير، تقول: هذا الكلام فيه تحوير. يعني: فيه تغيير، وحَوَّر الشيء: غيَّره أو بدَّله.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة المطففين»: ﴿□□□□□□﴾.

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص714)، و«تفسير الطبري» (24/ 242)، و«معاني القرآن» للزجاج (1/ 418)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 360)، و«تفسير الرازي» (31/ 100)، و«فتح القدير» (5/ 497)، و«روح المعاني» (15/ 289).

(3) أخرجه البخاري (6045)، ومسلم (61) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(4) أخرجه مسلم (1343) من حديث عبد الله بن سَرْجِس رضي الله عنه.

(5) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (9/ 111).

(6) ينظر: «عيون الأخبار» (2/ 358)، و«الزهد» لابن أبي الدنيا (ص90)، و«الصناعتين: الكتابة والشعر» (ص39)، و«يتيمة الدهر» (4/ 259).

أي: ظن أنه لن يتغير عما هو عليه، وهذا يقع للأفراد من جهة نفوسهم، فالإنسان إذا كان ممتَّعًا موسَّعًا له في الرزق والعافية والصحة والشباب، لا يكاد يتخيَّل نفسه على غير تلك الحال، ويظن أنه باقٍ عليها، وإن كان يعرف نظريًّا أن الأيام والليالي تمرُّ عليه وتؤثِّر فيه، فالغني لا يتصوَّر نفسه قد افتقر، والمُعَافى لا يتصوَّر نفسه قد مرض والشاب لا يتصوَّر نفسه قد هَرِمَ وشاخ، وهذا من أسباب الركون والغفلة.

وكذلك الأمم والجماعات، يغلب على الناس الشعور ببقاء ما هم عليه، ويستبعدون حين يسمعون مَن يحذِّرهم من عواقب الأمور، وكأنهم استثناء لا تجري عليهم السنن، ولا تحق عليهم الآيات! كما قال الله سبحانه: ﴿وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [إبراهيم: 44].

* ﴿﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ □﴾:

ومَن كان بعبده بصيرًا، فلا شك أنه بصير بما في قلبه من الكفر والتكذيب والظنون.

* ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾: هذا وإن كان نفيًا، إلا أنه نوع من القَسَم، فالله يقسم ﴿تُكَذِّبَانِ﴾[1].

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الواقعة»: ﴿ □ □ □ □ □﴾، و«سورة القيامة»: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾، و«سورة التكوير»: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، وما سيأتي في «سورة البلد»: ﴿صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿١١﴾﴾.

وفي الشَّفق أقوال، أشهرها: أنها الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت أذان العشاء، نحو ساعة.

وهذا قول جماعة من الصحابة، كابن عمر وابن عباس وابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهم، وهو المعروف عند أهل اللغة، كالخليل بن أحمد والجوهري وغيرهما[1].

وفيه أقاويل أخرى ذكرها المفسرون، كابن الجوزي، وغيره[2].

* ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن مُّدَّكِرٍ﴾:

يقسم بالليل، وبما جمعه الليل. والعطف دليل على أن قوله: «لا أقسم» هو قسم، بمثابة قوله: أقسم.

والوَسَق: الجمع، ومنه «الوَسْق» وهو إناء كبير يسع ستين صاعًا، كما هو معروف عند أهل اللغة والفقه[3].

والمقصود ما يحتويه الليل من أحوال، من نوم وعبادة وطاعة ومعصية، وما يسكن فيه من حيوان وطير وهوام، وإنس وجن وحيتان، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله: ﴿فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا

---

(1) ينظر: «العين» (5/ 45)، و«مصنف عبد الرزاق» (2111)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (1/ 333)، و«مسائل عبد الله بن أحمد» (186، 187)، و«الأوسط» (2/ 339- 342)، و«الصحاح» (4/ 187)، و«سنن الدارقطني» (1/ 269)، و«سنن البيهقي» (1/ 373)، و«فقه العبادة» (2/ 71- 77).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 237)، و«تفسير السمعاني» (6/ 191)، و«زاد المسير» (4/ 321)، و«تفسير القرطبي» (19/ 274)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 359)، و«فتح القدير» (5/ 494).

(3) ينظر: «معجم مقاييس اللغة» (6/ 109)، و«الصحاح» (4/ 1566)، و«النهاية» (5/ 185)، و«تاج العروس» (26/ 471) «و س ق».

لِلْأَنَامِ
﴿١٠﴾ [الرعد: 10].

ويدخل فيما وَسَق: النجوم والكواكب والقمر، فهي وإن كانت موجودة في الليل والنهار، إلا أنها لا تُرى إلا بالليل، فهي به أنسب وألصق؛ ولهذا أقسم الله تعالى بالليل، وأقسم بما جمعه هذا الليل[1].

* ﴿كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: اكتمل نوره وصار بدرًا[2]، والقمر مظهر من مظاهر الجمال، والعرب في أشعارهم يشبِّهون الوجه الجميل بالقمر؛ لبياضه واستدارته.

وفي القَسَم إشارة للإبداع الرباني في الخلق، فالجمال والزينة مقصد من مقاصد الخلق، والنجوم زينة، والحُسن نعمة: ﴿فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ﴾ [غافر: 64].

وكذلك الانتظام والترتيب والاتساق وبلوغ الشيء كماله درجةً درجةً، ومثله التنويع والتبادل والتناوب ما بين الليل والنهار والشمس والقمر والذكر والأنثى.

* ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿٥٣﴾﴾:

هذا جواب القسم، قال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن البصري: لتركبن حالًا بعد حال[3].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص715)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 408)، و«تفسير الطبري» (24/ 245، 248)، و«تفسير الرازي» (31/ 101)، و«تفسير القرطبي» (19/ 276).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 458)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 569)، و«تفسير أبي السعود» (9/ 133)، و«روح المعاني» (15/ 290)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص715)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 410)، و«صحيح البخاري» (4940)، و«تفسير الطبري» (24/ 250- 256)، و«تفسير القرطبي» (19/ 278)، و«التحرير والتنوير» (30/ 229).

والقراءة المشهورة بضم الباء: ﴿مِن﴾، لخطاب الجماعة، وفي قراءة بفتحها: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾[1]، أي: لتركبن أيها الإنسان، **والمقصود** الجنس، فهو ينتقل من حال إلى حال، من الطفولة إلى الشباب.. إلى الكهولة.. إلى الشيخوخة.. إلى الهرم، وتتداوله النقائض من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل، والقوة والضعف والاندفاع والفتور[2].

وانتقال الإنسان من حال إلى حال هو من الحَوْر، وفيه رَدٌّ على مَن ظن أن لن يحور، وما الانتقال من الدنيا إلى الآخرة إلا ركوب طبق عن طبق، فالحور أصل في خلقة الإنسان وكينونته، في الفرد والأسرة، والجماعة والمجتمع، والدولة والأمة، فلا تستقر الأمور، بل هي في تغير مستمر، وهذا التغيُّر فطري وضروري يؤكِّد أن الإنسان مربوب مخلوق على صفة خاصة، فلا استقرار ولا استمرار.

والكَدْح المذكور يستدعي التغير والانتقال فيما يظن أنه أفضل وأكمل، وكدح المؤمن يشمل الشكر والطاعة والعبادة، وهي بحسب الحال التي هو عليها، فطاعة الصغير ليست كالكبير، وطاعة الغني ليست كالفقير، والصحيح ليس كالمريض، والقوي ليس كالضعيف، والعزيز ليس كالذليل.. وتغيرات الحياة تتطلَّب الكَدْح واليقظة المستمرة.

والمعتاد في اللغة أن يقال: «لتركبن طبقًا بعد طبق»، لكن قوله: ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أقوى وأبلغ في الدلالة؛ لأنها تدل على عمق التبدل والانتقال، كأنه ينتقل من طبق إلى

---

(1) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص677)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص221)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 399)، و«معجم القراءات» (10/ 361- 363).

(2) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص367)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 391)، و«حجة القراءات» (ص756).

طبق آخر، فيدل على التبدُّل وركوب حالة كأنها الدابة التي توصل المرء إلى مراده ونهايته.

ومن معاني «الطَّبق» في اللغة: الشدة، حتى إن العرب يسمون المصيبة أو الداهية: بنت طَبَق، ومن أسماء الحيات عندهم: أم طَبَقٍ، وبنت طَبَق، وهذا اسم حية مخيفة، فاستعاروه للنوازل والمصائب التي تلمُّ بالإنسان[1].

إن طبيعة الحياة الانتقال والتغير، انتقال تفرضه المرحلة العمرية، أو انتقال لما هو أفضل؛ من الجهل إلى العلم، ومن المعصية إلى الطاعة، أو انتقال متصل بطبيعة الحياة والمجتمع ومستواه الاقتصادي والثقافي، انتقال اختياري طوعي، أو انتقال قَسْري اضطراري.

وقد رأيتُ الناس يتشاءمون بما يقع من التغيرات، وينظرون إلى الجانب المظلم منها، وينظرون للماضي دائمًا على أنه خير من الحاضر، ويظنون القادم أسوأ؛ بسبب الإفراط في الخوف، والخير للإنسان أَلَّا يفرط في التشاؤم، والتوازن مطلوب، والوسط هو جادة المنهج الحق.

وفي الآية إشارة إلى أنه ليس كل ما يقع من التغيير هو بإرادة الإنسان، بل ثَمَّ تغييرات جارية متصلة بالشَّفق والليل، والقمر، فالزمن يفعل فعله في الأجساد والعقول والنفوس والأحوال.

وقد حاول الأطباء البحث عن دواء يؤخِّر الشيخوخة، فلم يعودوا بطائل، ولو أمكن هذا فأَنَّى لهم أن يؤخِّروا الموت: ﴿□□□□□□□□□﴾ [الجمعة: 8].

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص516)، و«لسان العرب» (10/ 213)، و«تاج العروس» (26/ 53) «ط ب ق».

ولذلك كان كثير من الحكماء يقول: إذا رأيتَ تحولات تقع عليك، فاعلم أن التدبير بيد غيرك.

والزمن وعاء للتحولات الإرادية المبنية على الرؤية والتخطيط والفعل والمبادرة، ولا يصح معها حرق المراحل، ولا استعجال النتائج.

* ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ جَنَّٰتٍ﴾:

سؤال استنكاري، أَبَعْدَ كل هذه الآيات والدلائل على ألوهية الله وقدرته على البعث والنشور لا يؤمنون!؟

* ﴿□□□□□□ فِي﴾:

والمقصود بالسجود: الطاعة والامتثال[1]؛ ولهذا قال بعض المفسرين: إن هذه الآية ليست من عزائم السجود؛ لأن المقصود فيها ليس فعل السجود، وإنما ما يترتب على سماع القرآن من الإيمان، والخضوع لله سبحانه، والتوجه بالعبادة له وحده؛ فالعتب لتركهم الإيمان والاستجابة لله.

وقد ورد في «الصحيحين» أن أبا هريرة رضي الله عنه صلَّى بالناس فقرأها وسجد، وأخبرَ أنه سجدَ بها خلف النبي صلى الله عليه وسلم[2]؛ ولذلك عَدَّها الشافعي وأحمد وغيرهما من مواضع السجود في القرآن، وعددها أربعة عشر موضعًا[3].

* ﴿□□□□مَلِيكٍ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 257)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 562)، و«الكشاف» (4/ 728)، و«زاد المسير» (4/ 422)، و«تفسير القاسمي» (9/ 442)، و«التحرير والتنوير» (30/ 232).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (766، 1074)، و«صحيح مسلم» (578).

(3) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (2/ 347 - 353).

﴿□﴾ للإضراب وبيان السبب[1]، و﴿□﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، فهم كلما ورد إلى قلوبهم وارد من دواعي الإيمان جحدوه وقاوموه، بدل أن يؤمنوا ويسجدوا[2].

وهل الآية عامَّة في الكفار كلهم، أم هي لبعضهم؟

الأرجح أنها لبعضهم؛ لأن الله تعالى ذكر إسلام بعضهم، والواقع يشهد لهذا، فكم من أمة أو طائفة دُعيت إلى الإسلام فأسلمت، وصَدَقَت في إسلامها.

فهؤلاء الذين أسلموا، وكانوا بالأمس كفارًا، كان سبب كفرهم في الغالب الجهل وليس الكِبْر والمعاندة، فلم يأتهم بشير ولا نذير، ولم تقم عليهم حجة، ولم يسمعوا الحق بصفائه من غير تشويه، ومجموع أخبار القرآن عن المعرضين تدل على أن من الناس مَن يكفر جحودًا وهو يعلم الحق، وهؤلاء ممن أخبر الله عنهم في هذه الآية.

وبعض الناس يقع له شك أو تردد، ثم يزول بالبحث والتحرِّي والنظر، وهذه أحوال مختلفة، وعليه فالسياق في حق فئة من الكفار، خصوصًا صناديد قريش المعاندين.

* ﴿□□□□ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

﴿□﴾: من الوعاء، كما تضع الشيء في وعاء[1]. فالله أعلم بما يوعون، أي: بما تحويه قلوبهم من التكذيب إن كانوا مكذِّبين، أو من الجحد إن كانوا جاحدين، أو من

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة القيامة»: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿□□□□□□﴾.

(2) ينظر: «تفسير القاسمي» (9/ 442)، و«روح المعاني» (15/ 292)، و«تفسير المراغي» (30/ 96)، و«التفسير القرآني للقرآن» (16/ 1509)، و«إعراب القرآن وبيانه» (10/ 427).

الحقد على النبي صلى الله عليه وسلم، أو الكيد والمؤامرة؛ لأنهم لم يقتصروا على الكفر فحسب، بل زادوا الحرب وصد الناس عن الإيمان، والاستهزاء بالمؤمنين[2].

* ﴿□□□ خَلَقَ﴾:

ولفظ البشارة سيق مساق الاستهزاء والسخرية؛ لأنهم كانوا يبطنون في قلوبهم شيئًا، ويظهرون بألسنتهم شيئًا آخر، فجاءت الآية تقول: ﴿□﴾، والبشارة في الظاهر تُستخدَم في الخير، وفي الحقيقة في نقيضه في حقهم، فعوملوا بجنس فعلهم[3].

والمقصود: يوم القيامة، وهو في مقابل السرور الذي كانوا فيه في الدنيا[4].

* ﴿□□□□□□□□□ ٱلشَّمۡسُ﴾:

هذا استثناء، وهو عند جمهور المفسرين متصل غير منقطع، **يعني**: بشِّر الكافرين بعذاب أليم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهذا يعني أنهم بدَّلوا الكفر بالإيمان، وبدَّلوا الأعمال السيئة التي كانوا يعملونها بالعمل الصالح.

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 8169)، و«زاد المسير» (4/ 422)، و«تفسير الرازي» (31/ 104)، و«تفسير القرطبي» (19/ 282)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 242)، و«التحرير والتنوير» (30/ 234).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للأخفش (2/ 574)، و«معاني القرآن» لابن قتيبة (ص521).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 258)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 374)، و«تفسير البغوي» (5/ 231)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 361)، و«فتح القدير» (5/ 496)، و«روح المعاني» (15/ 292).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (1/ 239)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص180).

(4) كما تقدم في قوله تعالى: ﴿تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا □﴾.

وينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 562)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 374)، و«تفسير السمعاني» (6/ 193)، و«تفسير الراغب الأصفهاني» (1/ 122)، و«تفسير القرطبي» (19/ 282)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 466)، و«فتح القدير» (5/ 496).

ولا يمنع هذا أن يكون المقصود كل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء سبق هذا الإيمان كفر أو لم يسبقه؛ لأنه إذا جاز أن يكون هذا الوعد لقوم كفروا وكذَّبوا وعاندوا، ثم آمنوا وعملوا الصالحات، فوسعتهم رحمة ربنا سبحانه، ووعدهم بالأجر والفضل، فلأن يكون ذلك لـمَن لم يسبق منه كفر ولا عناد من باب أولى[1].

وفيها تأكيد ما بين الإيمان والعمل الصالح من اتصال وثيق، ولفظ الإيمان يعمُّ العمل الصالح؛ وذُكر هنا على سبيل التوكيد، وأن الإيمان ليس مجرد عمل القلب، بل هو وما يفضي إليه من الأعمال الصالحة.

وأجرهم ليس فيه مَنٌّ ولا أذى، وشأن الناس أنهم يمنُّون إذا أعطوا، فبيَّن سبحانه أن الأجر الذي يُعطَون ليس فيه مَنٌّ ولا أذى لهم ولا إهدار لإنسانيتهم.

وللآية معنى آخر، وهو أن الأجر دائم مستمر بلا انقطاع، جزاء كدحهم في العبادة والطاعة الذي استغرق عمرهم كله؛ ولذلك ورد أن الإنسان لو ترك العمل الصالح لعذر مثل مرض أو سفر أو هَرَم، فإنه يُكتَب له ما كان يعمله وهو صحيح مقيم[2].

وتحتمل الآية معنًى ثالثًا، وهو: الزيادة وعدم النقصان، أي: غير منقوص، فإنه لا ينقص مع الوقت، بل هو مستمر، وفي زيادة، فكل يوم لهم من ربهم سبحانه هدايا وإفضالات عظيمة.

والآية الكريمة تشمل أجر الدنيا وأجر الآخرة[3].

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 562)، و«الكشاف» (4/ 728)، و«تفسير الرازي» (31/ 105)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 299)، و«تفسير النسفي» (3/ 621)، و«فتح القدير» (5/ 496)، و«تفسير القاسمي» (9/ 442)، و«التحرير والتنوير» (30/ 234).

(2) كما في «صحيح البخاري» (2996) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 302)، و«تفسير القرطبي» (19/ 282).



سورة البروج

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة البُروج**». وهو المثبت في المصاحف، وغالب كتب التفسير[1].

وورد تسميتها بـ«**سورة** ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾»، كما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ﴾، و﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا﴾، ونحوهما من السور[2].

*** عدد آياتها:** اثنان وعشرون آية، وليس في ذلك خلاف فيما أعلم[3].

*** وهي مكية** باتفاق أهل التفسير، ذكره جمع[4]، وواضح من سياق السورة وموضوعاتها أنها مكية.

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (6/ 168)، و«جامع الترمذي» (5/ 293)، و«تفسير الطبري» (24/ 260)، و«تفسير السمعاني» (6/ 194)، و«المحرر الوجيز» (5/ 460)، و«زاد المسير» (4/ 423)، و«تفسير الرازي» (31/ 106)، و«تفسير القرطبي» (19/ 283).

(2) أخرجه الطيالسي (811)، وأحمد (20982، 21018، 21048)، وأبو داود (805)، والترمذي (307)، والنسائي (2/ 166)، وفي «الكبرى» (1053)، وابن حبان (1827).

ووردت روايات بدون الواو فيهما: «السماء ذات البروج»، «السماء والطارق». وينظر: «سنن البيهقي» (2/ 391)، و«التحرير والتنوير» (30/ 236).

(3) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص269)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 555).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 260)، و«زاد المسير» (4/ 423)، و«تفسير القرطبي» (19/ 283)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 362)، و«الدر المنثور» (15/ 327)، و«روح المعاني» (10/ 383)، و«التحرير والتنوير» (30/ 236، 257).

وهي من السور القليلة المخصَّصة من أولها إلى آخرها لمعالجة قصة واحدة، وهي في هذا تشبه «سورة يوسف»، المخصَّصة لسرد القصة، واستنطاق عبرها، ولفت الأنظار إلى دروسها.

وقد اختلف العلماء والمؤرِّخون في قصة الأخدود، **والأقرب** أنها وقعت في أطراف اليمن، في منطقة نجران، وعندهم وادٍ يسمى بالأُخدود، وقد يكون هذا الاسم مُستحدَثًا، لكن غالب الروايات التاريخية تؤكِّد أن نجران هي مسرح القصة.

وكان وقوعها بعد الـ(500) من الميلاد، في عام (522) أو (523)، فهي قبل حادثة أصحاب الفيل، وقبل ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم بعشرات السنين.

وهذا يجعل من المحتمَل أن يكون بعض القصة وصل إلى العرب، وتداولوه وعرفوه، فيكون حديث القرآن عن هذه القصة هو لاستخراج العبر، ولتصحيح الروايات المغلوطة، وإن كنا لا نعرف في شعر العرب- الذي هو ديوان حياتهم وسِجل ثقافتهم- نصوصًا تؤكِّد معرفتهم بهذه القصة، فالله أعلم.

وقد ورد في «صحيح مسلم» قصة الغلام والساحر والرَّاهب، وأن هذا الغلام- الذي يقال: إن اسمه: عبد الله- تردَّد بين الساحر والراهب؛ لينظر أيهما أصدق وأحب إلى الله، فجعل الله له آية في الدابة التي حبست الناسَ، فدعا الله، فقال: «اللهمَّ إن كان أمرُ الرَّاهب أحبَّ إليك من أمر الساحر، فاقتُلْ هذه الدابةَ؛ حتى يمضيَ الناسُ». وأخذ حجرًا، فرماها فقتلها، وخرج الناسُ وانطلقوا يمشون في طريقهم، ثم عالج وزيرَ المَلِك فشُفِي وكان أعمى، ثم علم به الملك وقرَّره على الشرك بالله، فأصرَّ الغلام على الإيمان، فقتله بقوله: «بسم الله رب الغلام».. بعد أحداث مذكورة في الحديث؛ فآمن الناسُ كلهم، وقالوا: آمنا برب الغلام. فخدَّ المَلِك لهم أخاديد، وحفر

لهم في الأرض، وعرضهم على النار، فمَن ارتدَّ منهم تركه، ومَن أصرَّ منهم على التوحيد أحرقه[1].

وليس في السياق النبوي نصٌّ على أن هذه هي قصة أصحاب الأُخدود، إلَّا أن السياق متقارب، وعلى ما هو ظاهر من السياق، فإن الملك الذي عذَّبهم كان مشركًا، والوثنية كانت موجودة في منطقة اليمن.

وهناك احتمال آخر، **وهو الأرجح عند المؤرِّخين**، أن الملك الذي عَذَّبهم هو: يوسف ذو نُوَاس، وكان يهوديًّا، واليهود أيضًا كان لهم وجود في اليمن، وكانت لهم فيها هيمنة اقتصادية، فكأن النصارى بنجران صار لهم شوكة وقوة ونفوذ، وكان بينهم وبين اليهود اختلاف، فاستنجد اليهود بهذا الملك، فأتى وأنجدهم وعرض المؤمنين على النار وأحرقهم.

وكان من جرَّاء ذلك أن تداعت الأمم النصرانية لنجدة إخوانهم، ولقتال هذا الملك الظالم، وجاءت جيوش الحبشة وغيرها، وهزمت الملك، حتى قيل: إنه في آخر أمره ألقى بنفسه في البحر فغرق[2].

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٱلۡعَصۡفِ﴾:

أقسم تعالى بالسماء المعروفة، وبـ﴿إِلَّا﴾، وهي جمع: بُرْجٍ، وهو مأخوذ من التبرُّج، وهو الظهور، كما يقال: تبرَّجت المرأة؛ إذا أظهرت مفاتنها، والبُرْج يُطلَق على

---

(1) ينظر: «صحيح مسلم» (3005).

(2) ينظر: «نسب مَعَد» (2/ 547)، و«سيرة ابن هشام» (1/ 31)، و«أخبار مكة» للأزرقي (1/ 137)، و«تاريخ الطبري» (2/ 119)، و«تاريخ دمشق» (71/ 353)، و«تفسير القرطبي» (19/ 290، 292)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 271).

القصر، كما قال تعالى: ﴿ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ □ □ □□﴾ [النساء: 78]، فالبرج الْمُشَيَّد هو القصر[1].

والبُرْج يُطلق على النجم، قال سبحانه: ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ [الفرقان: 61][2].

وتطلق ﴿إِلَّا﴾ على منازل الشمس والقمر التي يلحظها الفلكيُّون[3]، وإلَّا فهي ليست في الواقع منازل، لكنهم من خلال مراقبتهم لحركة الشمس في اليوم، وحركة القمر في الشهر، يلاحظون الجِرْم الفلكي ينتقل من منزل إلى آخر فيما يرى الإنسان، حتى إنهم يقولون: إن القمر يمكث في كل برج يومين وثلث يوم تقريبًا، فيظهر في ثمانية وعشرين يومًا، ويبقى يومين يستتر فيها فلا يُرى، وهي التي تُسمَّى: ليالي السِّرار[4].

فهذه البُروج مجموعة ثابتة من الأبعاد لا تتفاوت فيما بينها، ينزل فيها القمر أو تنزل فيها الشمس، يتخيَّلها الناس، ويسمُّونها بُروجًا، وهي اثنا عشر بُرْجًا، أطلقوا عليها أسماء بحسب شكلها، كالأسد، والحُوت، والدَّلْو، والسَّرطان، والسُّنبلة، والحَمَل، والثَّور، والعقرب، والجَدْي.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (7/ 234- 237)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (3/ 1008)، و«المحرر الوجيز» (5/ 460)، و«تفسير الرازي» (24/ 479)، و«الدر المنثور» (4/ 540).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (14/ 30- 31)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (8/ 2716)، و«تفسير الماوردي» (4/ 153)، و«تفسير القرطبي» (13/ 65)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 261).

(4) ينظر: «غريب الحديث» لأبي عُبيد (2/ 79)، و«مختار الصحاح» (ص146)، و«تاج العروس» (12/ 16) «س ر ر».

وأجمع المفسِّرون على أن **اليوم الموعود** هو يوم القيامة[1]، وورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا: «**اليومُ الموعودُ: يومُ القيامة**»[2].

* ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ فَبِأَيِّ ﴾:

واختلفت أقوال أهل التفسير إلى أكثر من أربعة وعشرين قولًا في تفسير «الشاهد»، و«المشهود»، **ولعل المقصود**: كل شاهد وكل مشهود[3]، فكل ما ورد في القرآن والسنة أو صحَّ في العقل أو الحس أنه شاهد أو مشهود، فقد أقسم الله به هنا.

وأعظم شاهد هو: الله سبحانه؛ كما قال: ﴿   ﴾ [النساء: 79]. وهو خير الشاهدين.

ثم النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء: 41].

وكذلك الأنبياء؛ لأنهم يشهدون على أممهم؛ قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ [النحل: 89].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 262)، و«تفسير السمعاني» (6/ 194)، و«زاد المسير» (4/ 423)، و«تفسير القرطبي» (19/ 283)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 364).

(2) أخرجه أحمد (7972)، والترمذي (3339)، والبزار (9591)، والطبري (24/ 262)، والطبراني في «الأوسط» (1087)، وابن عدي (2/ 219)، والحاكم (2/ 519)، والبيهقي (3/ 170)، وفي «شعب الإيمان» (3482)، وابن عساكر في «فضل يوم عرفة» (5) مرفوعًا.

وأخرجه موقوفًا: أحمد (7972، 7973)، والبزار (9591)، والطبري (24/ 262)، والحاكم (2/ 519)، والبيهقي (3/ 170)، وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (1688)، و«علل الدارقطني» (11/ 120)، و«زاد المعاد» (1/ 398- 399)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 364)، و«السلسلة الصحيحة» (1502).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 263- 270)، و«تفسير السمعاني» (6/ 194- 195)، و«تفسير البغوي» (5/ 232- 233)، و«زاد المسير» (4/ 423- 425)، و«تفسير القرطبي» (19/ 283)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 364)، و«التحرير والتنوير» (30/ 238)، و«تفسير السعدي» (ص918).

ويقول عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: 117].

ويدخل فيه: الملائكة الحَفَظَة، والشهود من الناس، حتى الأرض تدخل في الشاهد؛ لأنها تشهد على الإنسان بما عمل عليها: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ [الزلزلة: 4- 5].

ويدخل في ذلك: أعضاء الإنسان؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: 24].

فكل ما صحَّ أنه شاهد، فهو داخل في هذا القَسَم العام.

والمشهود: كل مُبْصَر- بفتح الصاد- تصحُّ الشهادة عليه، من أعمال الناس وأقوالهم، من الخير ومن الشر[1].

ففي هذا القسم معنى عظيم مناسب للقصة؛ فالله تعالى أقسم بالسماء ذات البروج، في مقابلة الأُخدود الذي حفروه في الأرض، ووضعوا فيه النيران، وأحرقوا فيه المؤمنين، فكأنه تعالى أقسم بالسماء؛ إشارة إلى مَن هو فوق السماء عز وجل، ينتقم ويعاقب الظالمين، وينتصر للمؤمنين ولو بعد حين.

وأشار في اليوم الموعود إلى وقت الحساب والجزاء، وإيصال الحق إلى أصحابه، ونزول العقوبة بالظالمين.

وأشار بالشاهد والمشهود إلى ضبط الحوادث وحفظها، وأنه لا يضيع منها شيء، فكل شيء محفوظ: ﴿□□□□□□﴾ [يس: 12]، أي: في كتاب بَيِّن مقروء[2].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 270)، و«التحرير والتنوير» (30/ 238)، و«تفسير السعدي» (ص918).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (19/ 412)، و«تفسير الماتريدي» (8/ 508)، و«تفسير الرازي» (26/ 258)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 568)، و«فتح القدير» (4/ 415).

* أقسم تعالى بهذه المعاني الثلاثة على معنى، وهو على الراجح ما ذكره بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ تُكَذِّبَانِ﴾، **والقتل** في لغة القرآن يأتي بمعنى اللَّعن[1]، فالمعنى أن الله أقسم بأنه قد لعنهم.

والمقصود بـ﴿مِن مُّدَّكِرٍ﴾: الظَّلَمَة الذين قَتَلوا المؤمنين[2].

ويجوز أن يكون المقصود: المؤمنين الذين أُحْرِقوا، فيكون معنى القتل: الموت بالإحراق بالنار الذي حصل لهم على أيدي الظالمين.

ولكن هذا معنى ضعيف، والأول أقوى؛ أنه إشعار أن عقوبة الله ولعنته حلَّت على أولئك القتلة الفجرة المارقين الذين كانوا يتلذَّذون بمشاهدة المؤمنين من الرجال والنساء، والصبيان والنار تشويهم.

وهي حادثة بشعة؛ لأن التعذيب بالنار من أبشع ألوان التعذيب، ولهذا توعَّد الله به الكافرين يوم القيامة، وأنت لو رأيتَ صور بعض الناس الذين أصابتهم النار وأحرقت وجوههم أو أجسادهم، لرأيتَ مشهدًا يقشعر منه البدن، حتى لا يكاد يطيق الإنسان رؤية الجسد المتهتك المحترِق، وصاحبه يصيح من الألم؛ لأن الجلد هو موضع الإحساس، فإذا تسلَّطت عليه النار تألَّم.

فهذا الحدث مشهد رَهيب، وحادث مروِّع؛ لكن السياق يضعه في وضعه الطبيعي، حين يربطه بالزمان وبالمكان، يربطه بالسماء ذات البُروج، وكأنه يقول: ارفع رأسك، وانظر إلى ما عن يمينك وشمالك، وأمامك ووراءك، وما فوقك من آيات الخلق والإبداع، فلا يكن نظرك مقصورًا على حادثة معيَّنة، أو مصيبة أو نازلة، بحيث

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (11/ 415)، (24/ 270)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 366)، و«تاج العروس» (30/ 234) «ق ت ل»، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 270- 273)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 366)، و«الدر المنثور» (15/ 334).

تقيدك أو تعيقك حتى تشلَّ تفكيرك وتسيطر على مشاعرك، فهنا امتداد مكاني يخفِّف من التحديق في الواقعة الخاصة وكأنها كل ما هنالك!

وثَمَّ امتداد آخر زماني في قوله: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾، فهذا الحادث الذي وقع لن يستغرق أكثر من ساعات أو أيام، وهي بالنسبة لعمر الدنيا ومضة عابرة، والدنيا نفسها قصيرة بالنسبة للآخرة: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي﴾ [التوبة: 38].

وهذا من شأنه أن يجعل نظر الإنسان إلى المصيبة نظرًا متوازنًا، فبقدر ما يتألم منها، فإنه يتصوَّرها ضمن سياق مكاني وزماني واسع، فلا تعجزه هذه الحادثة أن يفهم مقاصدها وأسرارها، فلا يجعلها حجر الزاوية في شعوره وتفكيره ونظره وفهمه ومنهجيته.

وفي قوله: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾: نسبهم إلى الأُخدود؛ لأنهم الذين حفروه؛ ليحرقوا فيه المؤمنين، **والأُخدود** معروف، وهو: الشَّقُّ في الأرض[1].

* ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

و﴿مُّدَّكِرٖ﴾ ليس هو النار، وإنما هو المكان المحفور الذي وُضِعَت فيه النار، لكن كأن هذه الأخاديد مُلِئت نيرانًا، حتى جعل النار بدلًا من الأُخدود، ويسمَّى هذا: بدل الاشتمال؛ وفي ذلك إشارة إلى كثرة الوقود الذي وُضِع في الأُخدود[2].

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص96)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص275)، و«إعراب القرآن» لِقِوام السُّنَّة (ص509)، و«لسان العرب» (3/ 161)، و«تاج العروس» (8/ 52) «خ د د».

(2) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 8176)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 388)، و«تفسير البغوي» (5/ 236)، و«زاد المسير» (4/ 426)، و«تفسير الرازي» (31/ 111)، و«تفسير القرطبي» (19/ 287)، و«فتح القدير» (5/ 500).

* ﴿ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ ١٤﴾:

والمقصود: ﴿مِن مُّدَّكِرٍ﴾، وهم ذو نُواس وأعوانه الذين أوقدوا النار، فقعدوا حولها كأنما هم في حالة استعراض، يتفرَّجون ويتمتعون كما يتمتع الآكل بمظهر اللحم يُشوى على النار، **وفي هذا عدة معانٍ:**

1- الإشارة إلى أنهم هم الذين تولَّوا كِبْرَ العمل بأنفسهم وبطوعهم واختيارهم، وليس هذا مجرد حادث عارض- كما يقال- أو أنه تصرُّف من بعض الدوائر أو الأشخاص الثانويين، كما جرت العادة أن الطغاة يتنصَّلون من تبعات أعمالهم بنسبتها إلى مَن دونهم! بل قاموا به عن عمد وسبق إصرار.

2- والإشارة إلى الجحود والقسوة والغلظة التي في قلوبهم، إلى درجة أنهم يرون هذا المشهد الأليم من صراخ الصغار وتألُّم الكبار من شدة الإحراق، فلا تلين قلوبهم ولا ترقُّ، وهذا غاية في الوقاحة والقسوة والغلظة.

* ﴿مُّسْتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ مِن﴾:

فهم شهود على أنفسهم، شهدوا فعل أنفسهم وشهدوا نتيجته، وتأتي ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بمعنى: حضور، فهذا يتناسب مع قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ فَبِأَىِّ﴾، فهم شهود على أنفسهم في الدنيا، وهم شهود على أنفسهم يوم القيامة[1].

وفي الآية إلماحٌ إلى سبب التعذيب، وهو أن المُعَذَّبين قوم مؤمنون، فلم يقع من هؤلاء المؤمنين ظلم ولا عدوان، إنما جريرتهم الوحيدة هي الإيمان بالله، ولذا وصفهم بالمؤمنين.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 279)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 174)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 389)، و«زاد المسير» (4/ 426)، و«تفسير الرازي» (31/ 111)، و«تفسير القرطبي» (19/ 294)، و«فتح القدير» (5/ 500)، و«التحرير والتنوير» (30/ 239).

إن المؤمن قد يعذَّب في الآخرة لذنب ارتكبه، وقد يعذَّب في الدنيا أو يعاقب على تجاوزِ حدٍّ من حدود الله، أو عدوان على أحد من عباد الله، أو إفساد في الأرض، وهذا العذاب ليس لإيمانه، بل لما يقتضي الإيمانُ الحقُّ تركَه والنأيَ عنه.

وعلينا أن نفرِّق بين استهداف المؤمن لأنه مؤمن فحسب، وبين استهدافه بحقٍّ، وبين استهداف بسبب آخر قد لا يكون حقًّا، ولكنه ليس بسبب الإيمان، كما يقع عادة في الخصومات بين الناس على الدنيا والمال والعقار والمناصب.

وعلى العبد أن يعرف متى يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

* وجاءت الآية التالية؛ لتؤكِّد هذا المعنى في قوله: ﴿٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ٥٥ ٱلرَّحْمَٰنُ ١٥﴾:

أي: ما غضبوا عليهم ولا آخذوهم بشيء من أمر الدنيا إلا لإيمانهم، وفعل: ﴿ فِي ﴾، أو: (نَقِمُواْ)، له وجهان في اللغة، والأشهر هو الفتح[1].

وتعليل القتل بالإيمان يوحي بأن الذين قاموا بالقتل من المشركين، أو من اليهود، واليهود يؤمنون بالله العزيز الحميد في الجملة، وديانتهم ديانة توحيدية، ولكن هؤلاء الحكام الظلمة سخَّروا الديانة لخدمة أغراضهم، ومن أجل أن يدين لهم قومهم، وحقيقتهم أبعد ما تكون عنها، كما شهد الله عليهم هنا أنهم قتلوا القوم؛ لمجرد أنهم آمنوا بالله.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (2/ 186)، و«إعراب القرآن» للنحاس (5/ 120)، و«الكشاف» (4/ 732)، و«المحرر الوجيز» (5/ 462)، و«تفسير القرطبي» (19/ 294)، و«معجم القراءات» (10/ 369).

والعزيز والحميد: اسمان من أسماء الله؛ فـ«**العزيز**» اسمه، والعزة صفته، فهو عزيز غالب، قادر على أن ينتقم من هؤلاء المعتدين، فالاسم مناسب للانتقام من المجرمين.

و«**الحميد**» من معانيه: المحمود، الذي يُحْمَد على الخير وعلى كل حال.

ومن معانيه: أن يحمد عباده على الخير، فيكون قريبًا من «الشكور»[1].

فهو سوف يكافئ المؤمنين على ثباتهم على دينهم، وقد عُذِّبوا بعذاب الحريق في الأُخدود.

* ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ رَبِّكُمَا﴾:

وهؤلاء الذين قتلوا المؤمنين هم ملوك أو فيهم ملوك كذي نُواس، فالله تعالى أعظم منهم مُلْكًا وقوة، فله ملك السماوات والأرض، وما ذو نُواس ومَن فوقه إِلَّا ذرة في بحر ملكه وخلقه، وهذا مُتَضَمِّن للتذكير بأن الله قادر عليهم.

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ فهو تعالى شاهد، يرى ويعلم ويسمع، وإجرام المجرمين ليس بغائب عن شهادته وعلمه، وسوف ينتقم منهم.

* ﴿۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝﴾:

الفَتْنُ في اللغة هو: الإحراق، ومنه: فَتَنْتُ الذهب، أي: وضعته على النار؛ حتى يتميَّز طيبه من رديئه، وصافيه من مغشوشه[2].

---

(1) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص33، 55)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص125، 237)، و«مع الله» (ص83، 161، 227).

(2) ينظر: «لسان العرب» (13/ 317)، و«تاج العروس» (35/ 489) «ف ت ن»، وما سيأتي في «سورة الذاريات»: ﴿جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾.

وهو هنا بمعنى: أحرقوا المؤمنين، وابتلوهم بالنار والعذاب[1].

وفي ذكر المؤمنات هنا إشارة إلى صبرهن وقوة إيمانهن، والتشنيع على أولئك المجرمين الذين امتد إجرامهم ليشمل النساء مع الرجال، وقد جاء في الحديث المتقدم، أن امرأةً كان معها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: يا أُمَّهْ، اصبري؛ فإنك على الحقِّ[2].

والعدوان على الناس جريمة، فإذا كان العدوان على النساء وبالإحراق، فهو أبشع وأشنع.

وفي قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ﴾ إشارة إلى أنهم لو تابوا لتاب الله عليهم، لكنهم لم يتوبوا، وهذا من سعة فضل الله سبحانه وتعالى، فهم قوم أحرقوا المؤمنين والمؤمنات وكفروا بالله، ثم يعرض الله تعالى عليهم التوبة، فلو تابوا بعد ما فعلوا الذي فعلوا، لتاب الله عليهم، كما قال الحسن البصري[3].

وفي هذا فتح لباب التوبة لكل مذنب مهما عظم ذنبه، حتى لزعماء قريش الكفار الذين كان القرآن ينزل عليهم وهم مكذِّبون، وتتعجب أن بعض المؤمنين قد يقع في ذنب ثم يحيط به اليأس حتى يقول: لا يغفر الله لي. وهذا قنوط من رحمة الله، ويأس من رَوْح الله، وقد حذَّر الله منه فقال: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87]، وقال تعالى: ﴿مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر: 56].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص718- 719)، و«تفسير الطبري» (24/ 270، 280)، و«المحرر الوجيز» (5/ 462)، و«تفسير الرازي» (31/ 113)، و«الدر المنثور» (15/ 335).

(2) أخرجه مسلم (3005).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص718).

المؤمن العارف بربه، يمدحه باسمه: الرحمن الرحيم، فيتعلم معنى رحمة الله، ولا ييأس من رَوْح الله، ويكرِّر الندم والتوبة، ويتقرَّب إلى ربه كلما أذنب.

ويُؤخذ من سياق الآية أن القاتل له توبة، وقد نُقِلَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لا يرى لقاتل العمد توبة[1].

وهذا مرجوح؛ فإن المشرك إذا تاب تاب الله عليه، والساحر إذا تاب تاب الله عليه، فكذلك القاتل إذا تاب تاب الله عليه، وما نُقِلَ عن ابن عباس رضي الله عنهما ربما كان في حادثة عين، فقد رُوي أنه جاءه رجل يسأله: هل لقاتل المؤمن توبة؟ فقال له: «لا؛ إِلَّا النار». فربما غلب على ظن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا الرجل قد همَّ بأن يقتل رجلًا ثم يتوب بعد ذلك، فقال له: «لا»؛ حتى يزجره ويردعه عن الفعل[2].

أو مراده أن حقوق العباد لا تُمحى بمجرد التوبة.

أما لو أن إنسانًا قتل وتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه، على الصحيح؛ لقصة الرجل الذي قتل مئة نفس، ثم تاب فمات وهو في طريقه إلى بلد يريد أن يقيم مع

---

(1) أخرجه ابن الجعد (824)، والبخاري (3855)، ومسلم (3023).

وينظر: «صحيح البخاري» (4590)، و«تفسير الطبري» (7/ 342، 345)، (17/ 508)، و«الدر المنثور» (4/ 594– 597، 600)، و«السلسلة الصحيحة» (2799).

(2) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (27753)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص439)، و«تفسير القرطبي» (5/ 333)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (2/ 389)، و«التلخيص الحبير» (4/ 343)، و«الدر المنثور» (4/ 605)، و«التحرير والتنوير» (5/ 165).

ورُوي عنه أنه قال: «ليس لقاتل مؤمن توبة، إِلَّا أن يستغفر الله». ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (617)، و«الناسخ والمنسوخ» لأبي عُبيد (493)، و«تفسير الطبري» (7/ 347)، و«السنة» للخلال (1238)، والمصادر السابقة.

الصالحين فيه، فتنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقبضته ملائكة الرحمة[1].

وهذه التوبة تنفعه في الآخرة، أما أحكام الدنيا فالأصل أن يؤاخذ على جرمه.

﴿ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾: قال بعض المفسرين: إن عذاب الحريق هو النار التي أحرقوا بها المؤمنين، ارتفعت وامتدت حتى أتت على الظالمين.

وهذا ليس ببعيد ولا غريب، ولكنه لا يثبت بالأسانيد الصحيحة، فيبقى الاحتمال الآخر - وهو الأقوى -: أن المعنى مضاعفة العذاب لهم في الدار الآخرة[2].

والمعذَّبون تتفاوت عقوباتهم في الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: 88]، فزادهم الله تعالى عذابًا فوق العذاب؛ لأنهم أضافوا إلى الكفر الصدَّ عن سبيل الله، فالكافر الذي لا يدعو إلى كفره أقلُّ عذابًا من الكافر الداعي، وهكذا أصحاب الأُخدود؛ لم يكتفوا بالكفر والصدِّ عن سبيل الله، بل قاموا بإحراق المؤمنين، فناسب أن يضاعف لهم العذاب.

وكأن المعنى: أنهم يشتركون مع عموم الكافرين في جهنم، ولكن يُخَصُّون بمزيد من العذاب من نوع الإحراق الشديد جزاءً وفاقًا.

* ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ▯﴾:

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (3470)، و«صحيح مسلم» (2766) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 199)، و«تفسير البغوي» (5/ 236)، و«تفسير الرازي» (31/ 111)، و«تفسير القرطبي» (19/ 289)، و«فتح القدير» (5/ 384).

بعد ما توعَّد الله الكافرين بالعذاب الأليم، ناسب أن يعطف على ذلك وعده الصادق للمؤمنين.

وأول مَن يدخل في ذلك: المؤمنون الذين أُحْرِقوا في الأُخدود؛ لأنهم صبروا وصابروا؛ ابتغاء وجه ربهم، وفُتِنوا في دينهم غاية الفتنة، حتى عُرضوا على النار وأَبَوْا إلا أن يموتوا على الإيمان، فقد ذهب ألم الإحراق بالنار، وبقي لهم الأجر والثواب والجِنان، مقابل النار التي أُحرِقوا بها في الدنيا.

والفوز الكبير: وصف لم يَرِد في القرآن إلا في هذا الموضع.

ونلحظ أنه قال: ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، ولم يقل: «تلك» مع أنه سبق ذكر الجنات، إشارةً إلى وجود ما هو أعظم؛ فإن الله تعالى وعدهم الآن بالجنات، وفيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن النَّعيم المعنوي في الجنة أعظم من النَّعيم الحسي، فرضوان الله الذي يُحِلُّه على المؤمنين، وسماعهم كلامه سبحانه، وتمتعهم برؤية وجهه الكريم؛ أعظم من ألوان النَّعيم الأخرى؛ وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: «**أسألُك لذَّةَ النظر إلى وجهِك، والشوقَ إلى لقائك**»[1].

والفوز هو: حصول المطلوب وزوال المرهوب.

والذي يعلمه الناس أن المَلِك الظالم أحرق المؤمنين، ففي بادي الرأي أن الحادثة انتهت بهزيمتهم؛ فقد تُسُلِّط عليهم وأُوذوا، واعتُدِيَ عليهم حتى قَضَوْا نحبَهم.

والحق أن هذه النهاية لم تكن هزيمة، فأرواحهم صعدت إلى الجنة والرضوان، بخلاف أولئك الذين أحرقوهم؛ فإن لهم عذاب جهنم، ولهم عذاب الحريق.

وفي القصة دروس مستفادة، منها:

---

(1) أخرجه أحمد (18325)، والنسائي (3/ 54- 55)، وابن خزيمة في «التوحيد» (1/ 29- 30)، وابن حبان (1971)، والطبراني في «الدعاء» (625)، والحاكم (1/ 524) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما، وتقدم في أول «سورة الفاتحة».

1- التنفير من العدوان على الناس، واضطهادهم في دينهم، وأن ذلك يستوجب أقسى العقوبات في الآخرة، ويستنزل سخط الرب تبارك وتعالى.

ودين الإسلام الذي بُعث به محمد صلى الله عليه وسلم، جاءت شريعته بقوله سبحانه:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256]، وبقوله: ﴿وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾ [يونس: 99]، وبقوله: ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ [العلق: 9- 10].

ولهذا لا يُعلم في التاريخ الإسلامي أن المسلمين أكرهوا الشعوب على الدخول في الإسلام، مع أنهم فتحوا بلدانًا كثيرة وكان لهم الغلبة والقوة والسلطان، فعاش النصارى واليهود، والوثنيون في عموم البلاد على دياناتهم، تُؤخَذ منهم الجزية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، ولا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام، فهذه شهادة عظيمة[1].

فجاء الإسلام لحماية حرية الفرد في اعتقاده، وعدم السماح باضطهاد الناس أو تعذيبهم.

2- أن السورة نزلت بمكة، والمسلمون فيها مضطهدون، فمنهم مَن عُذِّب حتى قُتِلَ؛ كما فُعل بسُمَيَّة أُمِّ عمار بن ياسر رضي الله عنهم، وبلغ من تعذيبهم أنهم كانوا يقولون للمسلم والجُعَلُ[2] يمر من عنده: هذا الجُعَلُ إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم؛ لما يتَّقي منهم من الأذى والتعذيب[3].

(1) ينظر: «المدونة» (1/ 529)، و«الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (3/ 110).

(2) دابة تشبه الخنفساء.

(3) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص192- 193)، و«أنساب الأشراف» (1/ 84)، و«أسد الغابة» (4/ 122)، و«تاريخ الإسلام» (1/ 219)، و«رسائل الغرباء» للمؤلِّف (ص102- 103).

وبلالٌ رضي الله عنه كان يُضرَب في حرِّ الرَّمْضاء، ويقول: «أَحَدٌ أَحَدٌ»[1].

وقد تجاوز الطغاة من قريش القيم العربية التي كانوا يفتخرون بها من الكرم والعدل، وحفظ الجوار والإعراض عن الأذية، فتسلَّطوا حتى على النساء، مثلما نجد في قصة سُمَيَّة رضي الله عنها، حيث ضربها أبو جهل في موضع العِفَّة منها بحربةٍ فقتلها[2].

ويُفهم من هذا الفعل الأَرْعَن اللَّئيم إلى جوار الاعتداء على حرية التديُّن، احتقارًا للأنوثة، وكأن لسان حاله يقول: ما احتملنا الخروج عن ديننا من الرجال الذين صفتهم كيت وكيت، فكيف نحتمله منك ومن أمثالك من النساء. ولا زال أهل الجاهلية إلى اليوم يعيِّرون المرأة بأنوثتها، كفرًا بالخالق، وإعراضًا عن فهم حكمته في الخلق.

فجاءت السورة سُلوانًا للمؤمنين، وتهديدًا للكافرين، وضرب الله فيها مثلًا من الأمم السابقة، كما في القصة التي رواها البخاري عن خبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسِّد بُرْدةً له في ظلِّ الكعبة، فقلنا: أَلَا تستنصرُ لنا؟! أَلَا تدعو لنا؟! فقال: «**قد كان مَن قبلَكم، يُؤخذُ الرجلُ، فيُحفرُ له في الأرض، فيُجعلُ فيها، فيجاءُ بالمِنشار، فيُوضعُ على رأسه، فيُجعلُ نصفين، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّهُ ذلك عن دينِه، والله**

---

(1) أخرجه أحمد (3832)، وفي «فضائل الصحابة» (191)، وابن ماجه (150)، وابن حبان (7083)، والحاكم (3/ 284)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (2/ 281- 282) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «طبقات ابن سعد» (3/ 213)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 347- 348).

(2) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (1/ 192)، و«سيرة ابن هشام» (1/ 320)، و«أنساب الأشراف» (1/ 197)، و«الاستيعاب» (4/ 1864- 1865)، و«أسد الغابة» (7/ 152)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 409).

ليَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرَموت، لا يخافُ إلَّا اللهَ، والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلونَ»[1].

فهذا نوع من التسلية بضرب المثل، وقد اقتضت سنته سبحانه أن يوجد في البشر مِن ذوي النفوذ والسلطان مَن يفتنون الناس في دينهم، ويهينون كرامتهم؛ إرغامًا لهم على اتِّباعهم والاستسلام لأهدافهم، وكسرًا لإرادتهم في مواجهة الشرِّ والاحتلال والاضطهاد والاستغلال، والشواهد من جرائم المحتلِّين والغاصبين في سائر بلاد الله كثيرة.

ولا يخلو زمان من طُغاة ومجرمين ومتجبِّرين، ليس عندهم عدل ولا ميزان؛ ليمتحن الله إيمان الناس وصبرهم وتوكُّلهم عليه، ويقينهم بوعده سبحانه، وهذا الدرس هو ما تشير إليه هذه السورة.

ومثل ذلك: قول الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [يونس: 46]، يعني: أن الأمر محتمل أن يُرى ما وُعد صلى الله عليه وسلم، أو أن يتأخر ذلك عن حياته، ويحدث فيما بعد[2].

وإذا تجاوزنا التسلُّط العام الذي تمارسه جهة ذات قوة ونفوذ، فلا يخلو المؤمن أن يجد مَن يؤذيه، حتى من ذويه، وقد ورد في بعض الآثار: «لو كان المؤمنُ على قَصَبة في البحر، لقيَّضَ اللهُ له مَن يؤذيه»[3]، وكما قيل:

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3612، 6943).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (12/ 188)، و«تفسير الماتريدي» (6/ 48)، و«تفسير الرازي» (17/ 261)، و«تفسير القرطبي» (8/ 348)، و«فتح القدير» (2/ 510- 511).

(3) أخرجه ابن أبي شيبة (35242) من قول سلمة بن كُهيل.

وأخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (443) من قول طَلْق بن حَبيب.

ورُوي نحوه مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «السلسلة الضعيفة» (4360).

ولستَ بناجٍ من مَقَالة طاعنٍ *** ولو كنتَ في غارٍ على جبلٍ وَعْرِ
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالمًا *** ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نَسْرِ [1]

وقال ابن الوَرْدي[2]:

ليسَ يخلو المرءُ من ضدٍّ وإنْ *** حاولَ العُزْلةَ في رأسِ جَبَلْ

وحتى لو كان لا يتعرَّض لأحد، ولا يتعدَّى حدوده، ويتنازل عن بعض حقوقه، فربما تسلَّط عليه جار أو زميل أو رئيس أو مرؤوس أو قريب أو زوج؛ فهذه سنة الله في الحياة، وفي مثل هذه الأحوال من التسلُّط الفردي أو الجماعي تأتي دروس الصبر والعزاء في القرآن الكريم.

3- وهذه الدروس في الصبر والتسلية، لا ينبغي أن تُفْهَم على غير وجهها، فيفهم منها التشوُّف والتطلُّع إلى افتعال الصراع مع الآخرين بغير سبب ولا مُوجِب.

ولقد تأملت طرائق المؤمنين فيما يعرض لهم من تحديات وصعوبات، فوجدتها تدور حول ثلاث طرائق:

الأولى: هي أسلوب الاعتزال والترك.

وهذا أظهر ما يكون في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [الكهف: 16]، وذلك أنهم هربوا من أهليهم وبيوتهم وأُسَرهم، فهداهم الله إلى الكهف، حيث لم يكن لهم قوة ولا قدرة ولا طاقة في مواجهة عدوهم، ولذلك كان الاعتزال هو المناسب لهم؛ ليحفظوا دينهم، فحفظهم الله، وأَثْنى عليهم، فقال: ﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥ فَبِأَيِّ﴾ [الكهف: 13][3].

(1) تقدم تخريجه في «سورة عبس»: ﴿۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾.

(2) ينظر: «الكشكول» (1/ 234)، و«نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن» (ص156).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (15/ 181)، و«تفسير القرطبي» (10/ 362)، و«الدر المنثور» (9/ 506).

وقد يكون الاعتزال في بعض الأحيان هو المناسب للمؤمن فردًا أو جماعة.

والاعتزال إما أن يكون اعتزالًا كليًّا؛ وذلك إذا كان لا يجد إلَّا شرًّا، أو كان يخشى على نفسه، ولما سأل رجلٌ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن أفضل الناس قال: «**رجلٌ يجاهدُ في سبيل الله بماله ونفسه**». قال: ثم مَن؟ قال: «**مؤمنٌ في شِعْبٍ من الشعابِ يعبدُ اللهَ ربَّه، ويَدَعُ الناسَ من شرِّه**»[1].

فهذا إنسان يخاف على دينه أو يخشى إن داخل الناس وخالطهم أنه ربما غيَّر بطريقة منفِّرة، فأفسد من حيث أراد الإصلاح؛ ولهذا قال: «**يعبدُ اللهَ ربَّه، ويَدَعُ الناسَ من شرِّه**»؛ فهذه طريقة، ولكنها ليست الطريقة الفاضلة.

وقد يكون الاعتزال جزئيًّا؛ باعتزال أماكن السوء، مع مخالطة الناس ومداخلتهم ومعاشرتهم، حتى لو عاش بين أظهر قوم مشركين أو منافقين، فلا بد له من مخالطتهم، فإنه لا يستغني عنهم في أمور دنياه؛ لكنه يقتصر من المخالطة على القدر الضروري، ويبتعد عن الأماكن التي فيها سبب لفتنته عن دينه، أو إثارة شهوته، أو حمله على المواقف السيئة.

الطريقة الثانية: المواجهة والمصادمة.

والمصادمات تُحدِث الحماس، وتستثير المشاعر والأحاسيس، ويجري فيها التحشيد والتجييش، حيث ينقسم الناس إلى فريقين: كل فريق يتكاتف على وجهته، وربما ترتفع وتيرة التعاطف، لكن العبرة بالنتائج؛ لأن النفس البشرية تستعجل في مثل هذه المواقف، وتندفع بسبب الغَيرة مع حداثة السن، أو ضعف التجربة، ومِن ثَمَّ تخسر أكثر مما تربح، بل قد تكون الخسارة فيها صرفة لا ربح فيها، وقد يتحول الدافع

---

(1) أخرجه البخاري (6494)، ومسلم (1888) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

إلى أن يصير دافعًا غير شرعيٍّ، بل هو الانتقام أو الإصرار أو إلحاق الأذى، وإن كان يدري أن المصلحة تجافيه.

فالخوارج مثلًا لما أحدثوا المصادمة داخل المجتمع الإسلامي، كان دافعهم الغَيرة، والشعور بأن ثَمَّ شيئًا مختلًّا يجب تصحيحه، وإعادته إلى الأمر الأول، لكن الواقع يشهد بأن الذي قام به هؤلاء لم يُصْلِح النقص الذي زعموه، بل زاد الطين بِلَّة، وشغل المسلمين عن حركة الفتوح والإصلاح والتغيير، وأسهم في مزيد من التسلُّط والاستبداد السياسي؛ لأن الحكومة عند ما تنشغل بمقاومة تمرُّد داخلي، تجد ذلك عذرًا في تأجيل الإصلاحات وبخس الحقوق.

ومعظم الحركات التي تقوم على المصادمة والمواجهة العسكرية تؤول إلى الخسارة والهزيمة، والحركات التي نجحت في هذا الجانب محدودة، وقد أشار ابن خلدون في «مقدمته» إلى كثيرين يذهبون مأزورين غير مأجورين؛ لضعف فقههم، وقلة بصيرتهم وخبرتهم، وقد يكون عند بعضهم تدين وعاطفة، لكن ليس عندهم فهم وإدراك ورؤية[1].

وبعض المجموعات أصبحت تأنس بالصراع والمقاومة، وهذا يتجاوب مع شيء في النفس، حتى إننا الآن لو قلنا: إن خطأً وقع؛ لسارع الناس إلى المواجهة والإنكار والمتابعة والتواصي بذلك.

ولو طُلِب منهم فعل خيري إصلاحي ابتدائي، وليس رد فعلٍ، كالقيام بدعوة، أو تنمية، أو إعلام، فلن يكون الحماس بنفس القدر، **فهذا مأخذ تربوي يجب أن يُتَفَطَّن له.**

هل معنى ذلك أن نبطل الصراع؟

---

(1) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص200).

لا أحد يستطيع أن يبطل الصراع؛ لأنه سنة ربانية، وحتى لو أبطلته أنت، فلن يبطله خصومك، ونصوص الكتاب والسنة في أخبار الأنبياء مع أممهم، وحوادث التاريخ، ومعاينات الواقع المشهود تثبت وجود الصراع وأنه قدر لا مفر منه.

ولكن ثَمَّ فرق بين إلغاء الصراع أو استبعاده من الحياة بالكلية، وبين أن تتولَّد فكرة تأجيج الصراع أو استعجاله، وفي الحديث: «**يا أيها الناسُ، لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ**». وافتعال الصراع في غير محله وفي غير أوانه ودون استفراغ الوسائل الأخرى، غالبًا يحدُث ممن لا صبر له، ولذلك سرعان ما يفر من الصراع إذا جد الجد، ولذلك قال: «**فإذا لقيتموهم فاصبروا**»[1]. أي: فإذا أصبحت المعركة مفروضة على المسلمين، فعليهم حينئذٍ أن يصبروا وألَّا يفرُّوا، كما قال الشاعر:

فما كلُّ صبَّار على الصَّبرِ يَصْبِرُ

فالأمر يتطلَّب فقهًا وحكمةً؛ ولذلك ينبغي أن نعلم بأن التضحية مطلوبة، لكن قبلها الحكمة والفهم والفقه، وقبل أن تستخدم يدك، عليك أن تستخدم عقلك.

الطريقة الثالثة: المدافعة، كما سمَّاها الله تعالى، حيث قال: ﴿٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [البقرة: 251، الحج: 40].

وتكون المدافعة من خلال دفع قَدَر الشر بالخير، وقَدَر المعصية بالطاعة، وقَدَر الشهوة بالتقوى، وقَدَر الشبهة بالعقل، وقَدَر التفرُّق بالوِحدة، وقَدَر الضلال بالهدى، وبَذْل الممكن والمستطاع في ذلك في مصالح الدين والدنيا.

وقد كان الأنبياء عليهم السلام يتطلَّعون إلى هذا المعنى، فموسى عليه السلام كان يقول لفرعون وقومه: ﴿ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ [الدخان: 21]، وفي الآية

---

(1) أخرجه البخاري (2965، 2966، 7237)، ومسلم» (1742) من حديث عبد الله بن أبي أَوْفَى رضي الله عنهما. وينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾.

الأخرى: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾ [طه: 47]، أي: خلِّ بيني وبينهم، واتركني وشأني أدعو قومي من بني إسرائيل.

وشعيب عليه السلام كان يقول: ﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ □□□□□□□□□□□﴾ [الأعراف: 87].

ومحمد صلى الله عليه وسلم كان يقول لقريش: «**يا وَيْحَ قريشٍ! لقد أَكَلَتْهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوْا بيني وبين سائرِ الناسِ؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني اللهُ عليهم، دخلوا في الإسلامِ وهم وافرون، وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوةٌ، فماذا تظنُّ قريشٌ! والله إني لا أزالُ أجاهدُهم على الذي بعثني اللهُ له حتى يظهرَه اللهُ له، أو تنفردَ هذه السالفةُ**»[1]. ولكنهم أَبَوْا.

وفي «المسند»، و«السنن» عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**المؤمن الذي يخالِطُ الناسَ، ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالِطُهم، ولا يصبرُ على أذاهم**»[2].

مخالطة الناس والصبر على أذاهم منهج نبوي، وطريقة سلفية، وما كان من الأنبياء السابقين، كقول موسى وشعيب عليه السلام فليس منسوخًا في شرعنا، ولكنه باقٍ يُعمل به في نطاقه وفي ظرفه وحالته.

وهذه الطريقة هي أَمَرُّ وأشد الطرق على النفس وأطول تضحية، مع أنه قد يظهر بادئ الرأي أن الثانية أشد وأكثر تضحية.

---

(1) أخرجه أحمد (18910)، والبخاري (2732) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(2) أخرجه الطيالسي (1988)، وأحمد (5022)، والبخاري في «الأدب المفرد» (388)، والترمذي (2507)، وابن ماجه (4032). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (939).

الطريقة الثانية أكثر إزهاقًا للأرواح، وقد يظن بأنها حل سريع، لكن الطريقة الثالثة أشق وأضمن، وربما خرج الإنسان من حال ليجد نفسه فيما هو أسوأ منها.

وهذه نوازع النفس الإيمانية الغيورة، ولكن ليس بالضرورة أنْ تُؤتي أُكُلَها وتعطي ثمارها، ما لم تكن موزونة بعقل ورأي، وإدراك ومعرفة؛ بأن يعرف الإنسان أين يضع نفسه، وأين يضحِّي بها، ومتى يُقْدِم، ومتى يُحْجِم.

فالطريقة الثالثة أصعب وأشق على النفس؛ لأنها تتطلَّب صبرًا طويلًا وجميلًا، وطول نفس، كما أمر الله نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم، ولأن الإنسان يلقى الابتلاء حتى من بعض الأخيار، الذين لا يدركون هذه المعاني، ويكونون في عجلة من أمرهم، ويعيِّرون مَن لا يقرُّهم على خطئهم بالنكوص والتراجع والجُبن، أو بالتواطؤ مع الخصوم، أو بالضلال والجهالة، وربما يكون هدفًا سهلًا لهم، خاصةً مع ضعف التقوى وقلة العقل عند شباب مندفع في مقتبل عمره، وهو في حالة يأس من الحياة وتشبُّع بأفكار ومفاهيم يرى العالم من خلالها، ويراها مقدَّسة لا يفكر بتغييرها والمساس بها!

يحتاج الأمر إلى هَدْي النبي صلى الله عليه وسلم وحكمته وبصيرته، والتأسِّي به في الصبر والمصابرة، حيث ينزل الدعاة إلى الميدان، ويخالطون المجتمع، ويصبرون على الأذى، ويُصْلِحون بقدر المستطاع، دون حرق للمراحل، ولا إطلاق للنزعات الفردية.

وضمن ما كتب الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تعليقه على هذه السورة في كتابه: «معالم في الطريق»، أو «في ظلال القرآن»؛ أجده اتَّكأ على هذا المعنى اتكاءً كبيرًا، حتى إنه قال: «هذا هو الطريق»[1].

---

(1) ينظر: «معالم في الطريق» (ص173- 186)، و«في ظلال القرآن» (6/ 3874).

فصار بعض الشباب يستعجل المحنة ويتطلَّع إليها، وصار هذا يحمله على العزلة وترك مخالطة الناس، والتربُّص والانتظار، وعدم القدرة على مراجعة التجارب وتصحيحها مهما كانت نتائجها.. على اعتبار أن البلاء سُنة إلهية.

وحين يسمع شاب عن الابتلاء، لا يقع في نفسه إلَّا تسلُّط الحاكم والسجون والمعتقلات وتعليق بعضهم على أعواد المشانق، أما الابتلاء من داخل النفس بضياع البوصلة وتخبُّط الطريق، أو من الأتباع بالتعصُّب والتحالف على غير الحق، وازدراء المخالفين، وتطلب شهوات الحياة بالمخالفة والتصدر، أو الخطأ في الاجتهاد حتى مع خلوص النية؛ فهذا ما يعزب عن الكثيرين التفكير فيه ضمن مفهوم «الابتلاء»!

* ﴿(١١) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ ﴾:

البطش في الأصل هو: الأخذ؛ ولذلك يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربِّه: «**فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها**»[1]. يعني: يأخذ بها، ويعطي، وقال سبحانه: ﴿﴾ [الأعراف: 195].

وقد يُطلَق على الأخذ بقوة وشدة[2]، كما تقول: بطش فلان ببني فلان. أي: ضربهم أو قتلهم، كما في قوله تعالى: ﴿﴾ [الشعراء:130][3].

وقد تتبَّعت المواضع التي فيها لفظ «البطش» في القرآن الكريم، فوجدتها تتعلق بالأخذ في الحياة الدنيا، **إلا في مواضع ثلاثةٍ فيها اختلاف:**

---

(1) أخرجه البخاري (6502) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 199)، و«المحرر الوجيز» (4/ 338)، و«تفسير الرازي» (27/ 658)، و«روح المعاني» (10/ 267).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (17/ 613)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (9/ 2795)، و«تفسير القرطبي» (13/ 124)، و«الدر المنثور» (11/ 282).

1- هذا الموضع، فإنه محتمِل لأن يكون بطش الله بهم في الدنيا بالعقوبات كالزلازل، أو العذاب الذي ينزل من السماء، أو الغرق، ويُحتمَل بطش الآخرة بالنَّكال والنار[1].

2- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: 16]، **فالأقرب** أن البطشة الكبرى في الدنيا، وأنها غزوة بدر أو غيرها مما توعَّد الله به الكافرين في الدنيا من العذاب، **وقيل**: المقصود عذاب الآخرة[2].

3- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: 36]، وهو قد أنذرهم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة[3].

وقال: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو﴾؛ لأن السورة مكية، والسياق إيماء لما يفعله كفار قريش وزعماؤهم، ممن يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، ويؤذون النبيَّ صلى الله عليه وسلم بشتى صور الاضطهاد والإيذاء، فكان التذكير بأن البطش بطش ربك أنسب وأولى؛ لما يحمله من الرحمة والرعاية والتدبير، فهو الذي يحميك وينصرك.

فالآية جمعت معنيين: معنى الرحمة في لفظ: ﴿ذُو﴾ المأخوذة من نسبة الرب إليه، و﴿وَٱلْحَبُّ﴾ المتضمن العذاب والغلظة على الأعداء.

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 732)، و«المحرر الوجيز» (5/ 70)، و«زاد المسير» (4/ 427)، و«التحرير والتنوير» (30/ 248).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 15)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 101)، و«الكشاف» (4/ 274)، و«زاد المسير» (4/ 90)، و«تفسير القرطبي» (16/ 134)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 247)، و«التحرير والتنوير» (25/ 287).

(3) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (21/ 116)، و«المحرر الوجيز» (5/ 219)، و«تفسير الرازي» (29/ 315)، و«تفسير القرطبي» (17/ 144).

وفي الآية ربط بين قصة أصحاب الأُخدود، وبين ما يفعله طغاة قريش بالمؤمنين من الأذى والتعذيب.

وفيها الوعد للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن ينصرهم الله ويحفظهم، وفيها وعيد للمشركين بالانتقام.

فهي من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنها يوم نزلت كان المؤمنون قلة، وكان للمشركين سلطة في مكة وجزيرة العرب، فما هي إلا سُنيَّات حتى تبدَّل الحال، وفتح الله تعالى على المسلمين؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ**﴾ [القصص: 85]، ودانت مكة وجزيرة العرب للإسلام.

والآية الكريمة تُوحي بأن على المؤمن مواكبة الظروف والمتغيرات، وأن الله جعل من سننه في الحياة أن يتناوب فيها القوة والضعف، والشدة واللِّين، والغنى والفقر، والتمكين والاستضعاف، والقلة والكثرة، والقبول والرد، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**عُرِضت عليَّ الأممُ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْطُ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحدٌ**»[1].

ولكل حال عبودية، على أن تعايش المؤمن مع الظروف لا يعني الاستسلام، بل التدرُّج، ومراعاة المصالح والمفاسد، والصبر.

ليس ثَمَّ ضمانة للمؤمن أن يحصل على التمكين والقوة، ولا أن يدوم له ذلك لو حصل، فلا يجوز أن يكون عمله مرهونًا بظرف خاص؛ لأن هذا شأن غير المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿**بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢**﴾ [الحج: 11].

---

(1) أخرجه البخاري (5705، 5752)، ومسلم (220) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كان الشيخ البشير الإبراهيمي يقول لقادة الاستعمار: سوف ندعو إلى الله في المساجد، فإن حرمتمونا فسندعو في المدارس، فإن حرمتمونا فسندعو في الأسواق، فإن حرمتمونا فسندعو في البيوت، وإن سجنتمونا، فسندعو في السجون.

هذه الروح العالية لا يمكن أن توجد إلَّا إذا تربَّى المسلم على منهج رباني نبوي، أما مَن تشبَّعت نفسه بالتطلُّع لأن يكون لشخصه أو لجماعته غَلَبَةٌ وتمكين، فقد يرى القيام بالدعوة في الظروف الصعبة مضيعةَ وقت.

الدعوة منهج الأنبياء عليهم السلام، وبعض الأنبياء لم يُبْعَثوا أصلًا إلَّا بها، وبعض الأنبياء بُعِثوا بها وبالقوة، كما في قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۞٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن﴾، ثم قال تعالى: ﴿مُّدَّكِرٖ ۞٥١﴾، وحتى الحديد ليس بشرٍّ محض أو قسوة، بل ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ [الحديد: 25].

* ﴿۞١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا ۞﴾:

والبدء والإعادة جاءت في القرآن تعبيرًا عن الخَلْق، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: 27]، أي: يحيي ويميت، ثم يحيي مرة أخرى، فهو يبدأ الخلق أول مرة، ثم يميتهم، ثم يحييهم ويعيد إليهم الحياة[1].

وفي الآية معنى آخر ذكره ابن عطية وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو أنه يُبدئ ويُعيد كل شيء مما هو قابل لهذا وذاك[2].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص379)، و«تفسير الطبري» (12/ 115- 116)، (24/ 282)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (6/ 1926، 1951)، و«تفسير القرطبي» (19/ 296)، و«الدر المنثور» (7/ 630)، (11/ 596)، (15/ 343).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 168)، و«المحرر الوجيز» (5/ 462)، و «البحر المحيط في التفسير» (10/ 445- 446)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 572)، و«روح المعاني» (15/ 301).

وهذا المعنى أجود وأليق بالسياق؛ لتعلقه بمداولة الأيام بين الناس، كما قال سبحانه: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ □□﴾ [آل عمران: 140]، فإذا كانت هذه القصة شهدت معاناة المؤمنين فالله تعالى يبدئ ويعيد.

فتشمل أنه يحيي الموتى، ويثيبهم بما عملوا، وتشمل أن يعيد شأن المؤمنين فينصرهم، وهو إن لم ينصرهم في أشخاصهم، فإنه ينصر مبدأهم ودينهم الذي ضحُّوا من أجله، ولهذا نقول: إن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم تعتبر انتصارًا لكل الأنبياء ولكل المضطهدين؛ لأنه جاء بتجديد الدين وبالشريعة الخاتمة وبالعقيدة الصافية الواضحة، فهي تجديد لملة إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من أنبياء الله ورسله عليهم السلام.

ومن معاني ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾: أن الحياة لا تعرف الاستقرار، وإنما هي دُول تنتقل، فالمُستضعَفون يمكّن الله لهم في الأرض، كما قال: ﴿□□□□□□□□□□□□□□وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن﴾ [القصص: 5- 6][1].

والعبرة أَلَّا يغترَّ الإنسان بتمكين أو غنى، أو سلطان أو مكانة في الدنيا؛ لأن الدنيا متقلِّبة، ولا يركن إلى يأس أو قنوط أو عجز؛ لأن الفُرص تأتي للجادِّين الصادقين الذين يُحسنون كيف يستثمرونها وينتفعون بها.

ومما يؤكِّد شمول معنى الإبداء والإعادة لكل ذلك: أنه تعالى لم يذكر متعلّق الفعل هنا، كما ذكره في آية الخلق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: 27]؛ ليُفهم منه العموم، أي: يُبدئ كلَّ شيء، ويعيد كلَّ شيء، مما هو صالح للبدء والإعادة.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (6/ 82- 84)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (3/ 772- 773)، و«الدر المنثور» (4/ 39- 40).

وعليه، فالآية تؤكِّد على الأمل والطمع فيما عند الله، وسنة الله في تقليب الأيام ومداولتها بين الناس[1].

* ﴿﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾:

مأخوذ من الغَفْر، وهو: السِّتر والتغطية، ويُطلَق على معنى محو الذنوب وعدم المؤاخذة بها، فإذا قيل: غفر الله له، **فالمعنى**: سامحه عن الذنب الذي وقع فيه، وهو صيغة مبالغة، أي: كثير المغفرة[2].

فهو يغفر للعبد إذا تاب وأناب كل الذنوب بدون استثناء، حتى القتل والشرك، فلو تابوا لغفر لهم.

فهذا اسم عظيم، على المؤمن أن يستحضره، حتى لا يغلبه اليأس والقنوط من رحمة الله، فالله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مُسيءُ الليل[3]، فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا عيب أن يستره.

وما من أحد إِلَّا وله ذنوب معلَنة أو خفيَّة، كثيرة أو قليلة، معلومة أو مجهولة، وهو تعالى لا تخفى عليه خافية، فسدِّد نقصك بكثرة الاستغفار على الذنوب التي فعلتَ أو الطاعات التي قصَّرتَ؛ ولهذا كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفرَ ثلاثًا[4].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (1/ 470)، و«معاني القرآن» للنحاس (1/ 482)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 720)، و«تهذيب اللغة» (8/ 112)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص609)، و«مشارق الأنوار» (2/ 138)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (1/ 356)، و«بصائر ذوي التمييز» (4/ 136).

(3) كما في «صحيح مسلم» (2759) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(4) كما في «صحيح مسلم» (591) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وإذا كانت الآية التي قبلها- وهي آية البطش- تتوجَّه للمشركين بالتهديد والوعيد، فهذه الآية تتوجَّه للمؤمنين بالوعد الطيب.

ومن مغفرته سبحانه أن يغفر للمؤمنين خطاياهم وتقصيرهم، وما كانوا عليه قبل الإيمان[1].

وذكر مع المغفرة صفة أخرى، وهي الوُد، و﴿ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾ صيغة مبالغة معناها: كثير الحُبِّ للمؤمنين، **فالوُدُّ**: المحبة الصافية الخالصة، وبعض الناس يمكن أن يسامحك ظاهرًا، لكن لا يصفِّي قلبه مما يجد عليك من تقصيرك في حقِّه أو خطئك عليه، خصوصًا إذا كان الخطأ كبيرًا.

فالله يمحو الذنب ويسمح ويصفح ويعفو، وأيضًا: يودُّك ويحبك، وترجع مكانتك عنده مثلما كانت أو أفضل، وهذا فضل عظيم.

ومما تدعو إليه الفطرة: محبة الناس لربهم؛ إذ كيف لا يحبونه وهو خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومولاهم، وكل نعمة في الناس فمن الله، فالسمع والبصر والفؤاد والنفس، والأكل والشرب، والمال والأهل والولد، والدنيا والصحة والعافية، والجمال من الله، فكيف لا تحب الذي أنعم عليك وأعطاك وهداك!

والعجيب أن يحبك ربك سبحانه، وأنت خَلْقٌ من خلقه ضعيف، مُعَرَّض للأخطاء والذنوب والمعاصي والغفلة، وهو مع ذلك يحب عباده المؤمنين، ويحب التَّوابين ويحب المتطهِّرين، ويحب المحسنين[1].

---

(1) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡ﴾، يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل أن تُحَوَّل القبلة. وينظر ما سيأتي في «سورة العصر»: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيۡءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾.

فتخيَّل إن كان الله يحبك، باسمك وشخصك، وهو الإله العظيم الذي لا يستطيع البشر أن يقدروا قدره، فلا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا تحيط به العقول.

والله تعالى يُعبَد بالحب والخوف والرجاء، لكن أهمُّ ما يُعْبَد به الحب، والخوف ينتهي في الجنة؛ قال تعالى: ﴿مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ [الأعراف: 49]، وكذلك الرجاء؛ لأن كل شيء موجود، ويبقى الحب؛ فهو مما تُعُبِّدوا به في الدنيا، ويتنعَّموا به في الآخرة، وهو بمثابة الرأس للطائر، والخوف والرجاء بمثابة الجناحين، وفي قطع الرأس موت للطائر بخلاف الجناحين، وإذا انقطع الحب انقطعت معه العبودية والإيمان، فالمؤمن الموفَّق يعبد الله تعالى بالحب والخوف والرجاء، ومقام الحب عنده أعظم[2].

إنه درس للدعاة؛ أن يرفقوا بالعصاة ويفتحوا لهم أبواب التوبة، ويرغِّبوهم فيها، ويحصِّنوهم من القنوط، فإنه لا يزيدهم إِلَّا عنادًا وإصرارًا على خطئهم.

وينبغي أن يكون الداعية أبعد الناس عن الانتقام والتشفِّي والنكاية بالمخالف والعاصي، وأن يتسامى عن نوازع الانتصار للنفس، ولا شك أن الرفق والترغيب والحكمة والموعظة الحسنة أدعى للتجرُّد عن النوازع الشخصية النفسية المذمومة.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 283)، و«تفسير السمرقندي» (12/ 8186)، و«التوحيد» لابن مندة (2/ 196)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 748)، و«فتح القدير» (5/ 501)، و«التحرير والتنوير» (12/ 148)، (30/ 249).

وينظر أيضًا: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص52)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص152)، و«مع الله» (ص203).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾، و«سورة الإنسان» ﴿أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ﴾.

* ﴿صَلْصَٰلٖ كَٱلْفَخَّارِ ١٤﴾:

والعرش يُطلَق في أصل اللغة على كرسيِّ الملك، وجاء في القرآن في حق ربنا سبحانه في سبعة مواضع مقرونًا بالاستواء، وهو مخلوق غيبـي، لا يُعْلَمُ كيفيته ولا كيفية استوائه عليه إِلَّا هو سبحانه؛ ولهذا لما سأل رجلٌ الإمامَ مالكًا: كيف استوى؟ قال: «الاستواء غير مجهول». أي: معنى الاستواء في اللغة معروف، وهو العلو مثلًا، ثم قال: «والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1].

وصدق رحمه الله؛ فقد أغلق هذا الباب، وهو باب تقحُّم العقل البشري في الغيبيَّات وما يترتب على ذلك من ضياع الجهود في معارك وصراعات حول أمور لا تنفع ولا تزيد معرفة الله، ولا المحبة له، ولا الزُلفى إليه، ولا تفيد في النجاح والفوز الدنيوي وتحقيق التقدم والتنمية، وإنما تستنزف الجهود والعقول فيما لا طائل تحته.

والآثار الواردة في صفة العرش غالبها لا يصحُّ، وإنما يكفينا ما ورد في القرآن.

وربما تخيَّل المؤمن شيئًا، وكل ما تخيَّله أو خطر بباله، فالله ليس كذلك؛ ولن يصل خياله ووهمه إلى الحقيقة؛ لأنه لا يحيط الخلق بعلمه، ولا يدركون حقيقته ولا حقيقة أسمائه وصفاته.

وإذا كان الله تعالى يقول عن الجنة: «**أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ**»[2]. فالخيال لا يدرك النَّعيم، وهو مما يتلذَّذ به الناس، فكيف بربنا تبارك وتعالى!

---

(1) ينظر: «الرد على الجهمية» (104)، و«طبقات المحدثين بأصبهان» (2/ 214)، و«معجم ابن المقرئ» (1003)، و«شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (664)، و«حلية الأولياء» (6/ 326)، و«الأسماء والصفات» (867)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص116)، و«ترتيب المدارك» (2/ 39)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (1/ 155)، و«سير أعلام النبلاء» (8/ 100)، و«مع الأئمة» (ص111- 112).

(2) أخرجه البخاري (3244)، ومسلم (2824) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والذين يستنكرون هذه المعاني إنما استنكروها؛ لأنهم تخيَّلوها وقارنوها وشبَّهوها بالمحسوسات والمألوفات، فترتَّب على ذلك أنهم نزَّهوا الله تعالى عن أن يُشَبَّه بخلقه، ولذلك كان السلف يقولون: «أَمِرُّوها كما جاءت». **والمعنى**: اقرؤوها وآمنوا بها، دون أن تدخلوا في إشكالات وتخيُّلات تولِّد من الشكوك أكثر مما تصنع من الإيمان.

والآية متضمِّنة القوة والحُكم والملك المطلق، وفي هذا السياق تعريض بالذين يَدَّعون شيئًا من السلطان والمُلك كذي نُواس، فلن ينفعهم ملكهم ولا سلطانهم؛ لأنه عارض ومؤقَّت، والملك الحقيقي والسلطان التامُّ إنما هو لله سبحانه.

و﴿﴿١٤﴾﴾ فيه قراءتان، فعلى القراءة بالخفض تكون صفةً للعرش، وهي قراءة الكوفيين، وأكثر القراء يقرؤونها بالرفع[1]، وعليه تكون صفةً لله تعالى؛ لأنه هو ذو العرش، أي: مالك العرش وخالقه، وهو الذي له المجد والكمال، والعظمة والسؤدد[2].

* ﴿ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ ﴿٥٠﴾﴾:

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 284)، و«السبعة في القراءات» (ص678)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص221)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 399)، و«معجم القراءات» (10/ 269- 270).

(2) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص367)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 393)، و«حجة القراءات» (ص757)، و«تفسير القرطبي» (19/ 297)، و«فتح القدير» (5/ 502).

صيغة مبالغة تدل على كثرة مفعولاته؛ أي: كثرة الأشياء التي يفعلها سبحانه وتعالى، وفي ذلك تشابه مع قوله: ﴿تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: 29][1].

من شأنه أن يعزَّ أقوامًا ويذلَّ آخرين، ويرفع ويخفض، ويقبض ويبسط، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويهدي ويضل، أي: فلا تستغرقك اللحظة الحاضرة، واعلم أن الله تعالى كل يوم هو في شأن[2].

وفي الآية أسرار لطيفة، فهي أثبتت لله الإرادة، وهي أسبق من الفعل؛ لأنه إذا أراد شيئًا فَعَلَه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، وأثبتت له الفعل، وهو الخلق.

فلله تعالى إرادة وله قدرة، وبذلك يتحقَّق الفعل، ولا يكون هذا إلا للخالق، أما المخلوق فإرادته لا تستدعي الفعل وتحقيق المراد مباشرة، وليس كل ما أراده المخلوق قدر عليه، إِلَّا أن يشاء الله، وكثيرًا ما توجد العوائق والموانع التي تحول دون تحقيق ما يريد العبد.

في حين أن لربنا كمال الإرادة وكمال القدرة، والإرادة الواردة في هذه الآية هي إرادة التكوين، وهي إرادة الخلق والفعل.

---

(1) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 462)، و«تفسير الرازي» (31/ 115)، و«تفسير القرطبي» (19/ 297)، (22/ 212)، و«فتح القدير» (3/ 150)، و«التحرير والتنوير» (14/ 28- 29)، (30/ 238)، وما تقدم في «سورة الرحمن».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (14/ 119)، (22/ 212- 213)، و«المحرر الوجيز» (3/ 373)، و«تفسير القرطبي» (17/ 166)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 495)، و«فتح القدير» (3/ 174)، و«التحرير والتنوير» (1/ 135)، و«تفسير السعدي» (ص722).

أما الإرادة في مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] فهي الإرادة الشرعية، بمعنى: محبة الله لذلك الأمر، لكن لا يلزم أن يتحقق مدلوله، فالله تعالى أراد من الخلق أن يؤمنوا، ولهذا بعث إليهم الرسل وأنزل الكتب، لكن ليس كل الخلق حقَّقوا الإرادة، والمحبة الإلهية.

وهو تعالى لا معقِّب لحكمه؛ ولا ممانع، ولا يحتاج إلى مُعين، بخلاف الخلق.

فهذه السياقات في وصف الله مناسبة لقصة أصحاب الأُخدود، ومناسبة لحال المؤمنين بمكة، وهي متناسبة فيما بينها[1].

* ﴿نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴿٥٢﴾﴾:

كأن هذا السياق تفصيل للبطش الشديد، فذكر فرعون وثمود مثال لبطش الله تعالى بأعدائه.

وهو مثال البدء والإعادة، فهم قوم جرى عليهم الرفع والخفض.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ هذه الآية، ثم قال: «**نعم قد جاءني**»[2]. ومثل ذلك: ﴿﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ [الغاشية: 1]، ﴿□ □ □ □ □﴾ [النازعات: 15]، وهي واردة في صيغة سؤال، لكنها في الواقع توكيد، **والمعنى**: قد أتاك[3].

(1) ينظر: «الموسوعة القرآنية- خصائص السور» (11/ 171).

(2) أخرجه ابن أبي حاتم- كما في «تفسير ابن كثير» (8/ 372)- عن عمرو بن ميمون مرسلًا.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 285)، و«تفسير الماوردي» (3/ 395)، (6/ 257)، و«تفسير البغوي» (5/ 244)، و«زاد المسير» (4/ 434)، و«تفسير القرطبي» (19/ 297)، و«روح المعاني» (15/ 303)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾، و«سورة النازعات»، وما سيأتي في «سورة الغاشية».

والمقصود بالحديث: الخبر، وسمَّاهم جنودًا باعتبار المجموع، وإِلَّا فإن فرعون لم يكن إِلَّا فردًا له حكم وسلطان على قومه وجنده.

ومن المعاني في توصيفهم بالجنود: أنه تعالى يشير إلى أن ظهورهم وعلوهم لم يكن بحق؛ ولا لأنهم أصحاب علم وحضارة، وإنما بسبب القوة العسكرية البحتة، والجند والحرس والجيوش المدجَّجة، كما هو شأن الطغاة الخائفين من انتفاضة الناس عليهم.

ويتكرَّر المشهد نفسه عند ما ننظر إلى ممارسات الحكومات الفاسدة الباغية، ونرى الفضائح التي تتكرر في العراق وأفغانستان، والسجون الخفيَّة والممارسات المنحرفة، والاغتصابات التي تظهر في وسائل الإعلام العالمي، وتدل على الاستخفاف بحقوق الإنسان.

وأما ما يتعلق بالقوانين والنظم والدساتير، فكأنها حِكْرٌ على الأقوياء وحدهم، فالكلام عن حقوق الإنسان يوظف للاستغلال السياسي، أو الضغط على دولة من الدول، وإذا تحسَّنت العلاقات السياسية معها سكت الحديث!

أما قضية الضمير والعدل والنموذج الأخلاقي والمعاني الإنسانية التي جاءت بها الديانات السماوية كلها، واتفق عليها الأنبياء؛ فهي من المعاني التي يتبجَّح كثيرون بها، وهم أبعد ما يكونون عنها.

وفرعون يشبه ذا نُواس الذي جاء السياق في ذكره، **وثمود**: اسم جَدِّ القبيلة، ويُطلَق على القبيلة كلها[1].

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص176)، و«لسان العرب» (3/ 105)، و«الكليات» للكَفَوي (ص330) «ث م د».

وذكرهم يناسب أهل مكة؛ لأنهم كانوا يسكنون الحِجْر، وهو إلى الشمال من مكة في ديار العرب، وأخبارهم كانت معروفة، ويوجد في جنوب الجزيرة العربية في عُمان مكان يقولون إنه موطئ الناقة.

وهذا مُستغرَب، بل مُستنكر، إذ كيف ذهبت الناقة إلى جنوب الجزيرة العربية، في حين أن ثمود كانت في أقصى الشمال!

* ﴿□□□□□□□□□□جَنَّتِ﴾:

تقدم في «سورة الانشقاق»: ﴿□□□□مَلِيكٍ﴾، والتعبير بالتكذيب أقوى؛ وكأن التكذيبَ وعاءٌ محيطٌ بهم، من فوقَهم ومن تحت أرجلهم، فهم يكذِّبون بكل شيء، ولا يصدِّقون بشيء، ولهذا عقَّب بقوله: ﴿□□□□﴾، فالتكذيب محيط بهم، والله تعالى محيط بهم وبتكذيبهم، فلا يفوتونه[1].

فيا أيها الظالم الجبَّار، عش ما شئتَ، واهرب إلى ما شئتَ، فأينما ذهبتَ فربك لك بالمرصاد، محيط بك في المكان الذي لا بد لك من عبوره وسلوكه، فلا مهرب منه ولا مفر.

و﴿□﴾ للإضراب، وتستخدم للانتقال من معنى إلى معنى[2].

* ﴿□□□□ فِي﴾:

﴿□﴾ هنا للإضراب الذي هو بمعنى الرفض للمعنى الأول وإثبات نقيضه؛ أي: رفض تكذيبهم وإثبات الحق، وكأنه يقول: كيف يكذِّب به المجرمون، وهو قرآن مجيد محفوظ صادق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[1].

---

(1) ينظر: «روح البيان» (10/ 382)، و«التحرير والتنوير» (30/ 252).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾، و«سورة القيامة»: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو﴾، و«سورة الإنشقاق»: ﴿□□□□مَلِيكٍ﴾.

فتكذيبهم ناشئ عن سوء ظنهم بالقرآن الكريم، وسوء ظنهم بالنبي المختار صلى الله عليه وسلم، وسوء ظنهم بمَن أرسله ومَن أنزل عليه هذا الكتاب.

وفيه تبشيع للفعل، فهم لا يكذِّبون بأساطير أو أحاديث محتملة، بل يكذِّبون ربهم الخلَّاق الفعَّال لما يريد، الغفور الودود، وهذا الذي يكذِّبونه ﴿□□﴾.

والقرآن كلام الله الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم، وهو ما بين دفتي المصحف، المبدوء بـ«الفاتحة»، المختوم بـ«الناس».

ولفظة «القرآن» مأخوذة من: قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، فهو اسم للمقروء[2]، الذي يكون مكتوبًا في ورقة ونحوها ويُقْرَأ، أو يكون محفوظًا فيُقْرَأ.

وهي مثل «قربان» لما يُتَقَرَّب به، ومثل «شكران» لما يُشْكَر به؛ ثم أصبح عَلَمًا على كتاب الله تعالى، وسُمِّي قرآنًا؛ لكثرة ما يُقرَأ ويُتلى.

وهنا ذكره مُنكَّرًا، والتنكير يأتي للتعظيم، كما هنا، ولهذا وصفه بقوله: ﴿□﴾؛ لأنه من إله مجيد، أي: كامل عظيم كريم.

* ﴿□□□مَلِيكٍ﴾:

وقد جرت عادة العرب أن يُطلَق اللوح على المصنوع من الخشب، لكن اللوح المذكور هنا غير مصنوع من خشب؛ لأن الله سبحانه قال في الآية الأخرى: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن﴾ [الواقعة: 78- 79]، فعُلِمَ أن اللوح كتاب، فيه مقادير الخلائق كلها، وفيه ما أنزل الله سبحانه، وفيه الأحكام والشرائع وكل شيء.

---

(1) ينظر: «تفسير القاسمي» (9/ 447)، و«التحرير والتنوير» (30/ 252)، وما تقدم في الآية قبلها.

(2) ينظر: «النهاية» (4/ 30)، و«تاج العروس» (1/ 371).

وورد وصف اللَّوح المحفوظ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه من ياقوتة ودُرَّة، ولا يصحُّ[1]، ويكفينا الوقوف عند ما ذكر الله من أنه من المخلوقات ذات المجد والقدسية والعظمة، **ومعنى كونه محفوظًا:**

1- أنه محفوظ من الزيادة والنقص، كما في قوله: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: 42].

2- أنه محفوظ من أن يطَّلع عليه أحد، إِلَّا مَن شاء الله، من الملائكة أو المقرَّبين، ولهذا قال: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن ﴾ [الواقعة: 78- 79]، وأحد الأوجه في تفسيرها أنهم الملائكة[2]، كما في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [عبس: 15- 16].

ويُطلق عليه: الذكر، وهو من الألفاظ المشتركة بينه وبين القرآن، وبين ذكر الله وتسبيحه.

فاللوح المحفوظ هو الكتاب المكنون، وهو محفوظ لا يطَّلع عليه أحد، إِلَّا بإذن الله، ولا يُزاد عليه، ولا يُنْقَص منه، إِلَّا بإذن الله، كما قال سبحانه: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: 39]، فكأن أم الكتاب هي اللوح المحفوظ[3].

---

(1) أخرجه البغوي في «تفسيره» (8/ 389)، وسنده ضعيف جدًّا.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 363)، و«تفسير البغوي» (5/ 211)، و«زاد المسير» (4/ 228)، و«تفسير القرطبي» (17/ 225).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 309)، و«تفسير الطبري» (24/ 287)، و«تفسير القرطبي» (19/ 298)، وما تقدم في «سورة الواقعة».

و﴿□﴾ صفة للوح، وهذا قول الجمهور، وهو مقتضى قراءة الخفض، وفي قراءة: ﴿□ □ مَّحۡفُوظُۢ﴾ برفع «محفوظ»، وتكون صفة للقرآن، فكأنه قال: بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح[1]. والله أعلم.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 286)، و«السبعة في القراءات» (ص678)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص368)، و«المحرر الوجيز» (5/ 463)، و«زاد المسير» (4/ 427)، و«تفسير القرطبي» (19/ 299)، و«معجم القراءات» (10/ 373).

فهرس المحتويات

❍ ❍ ❍